

ملوك الطوائف ونظارات في تاريخ الإسلام

ملوك الطوائف ونظارات في تاريخ الإسلام

تأليف

رينهارت دوزي

ترجمة

كامل كيلاني



Histoire des Musulmans
d'Espagne
Reinhart Dozy

ملوك الطوائف ونظرات
في تاريخ الإسلام
رينهارت دوزي

الطبعة الأولى م ٢٠١٢
رقم إيداع ١٦١٠٧
٢٠١١ / ١٦١٠٧
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهورة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه
٤٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: +٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ +٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ فاكس:
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

دوزي، رينهارت.
ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام / تأليف رينهارت دوزي؛ ترجمة كيلاني.
تمدك: ٤ ٠٥ ٥١٧١ ٩٧٨ ٩٧٧
١- الأندلس - تاريخ - ملوك الطوائف
٢- التاريخ الإسلامي
أ- كيلاني، كامل (مترجم)
٩٥٣، ٠٧١٢

تصميم الغلاف: سيلفيا فوزي.
جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع
الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاصة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2012 Hindawi
Foundation for Education and Culture.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧	تصدير
٩	الجزء الأول: ملوك الطوائف
١١	الفصل الأول
٢٣	الفصل الثاني
٣٥	الفصل الثالث
٤١	الفصل الرابع
٤٩	الفصل الخامس
٥٧	الفصل السادس
٦٧	الفصل السابع
٨١	الفصل الثامن
٨٩	الفصل التاسع
٩٩	الفصل العاشر
١١١	الفصل الحادي عشر
١٢٣	الفصل الثاني عشر
١٣٥	ملوك الطوائف وعواصمهم
١٤٣	الهوماش
٢٢٣	الجزء الثاني: نظرات في تاريخ الإسلام
٢٢٥	ديانة العرب في الجاهلية

٢٣٧

٢٥٣

٢٦٥

بعد وفاة النبي
قواعد الإسلام
الهؤامش

تصدير

بِقَلْمِ كَامِلِ كِيلَانِي

هذه فصول مترجمة من كتاب العلامة المستشرق «دوзи» وقد آثرنا نقلها إلى العربية لبيان وجهة تفكير عالم أوروبي كبير، وهي — وإن خالفت آراءنا أحياناً في بعض مناحيها — جديرة أن تقرأ بعناية فائقة، فليس كل ما لا نرضاه من الآراء خليقاً بالطرح والإهمال.

وإذا كان العلامة فخر الدين الرازي يقول في مقدمته لشرح «الإشارات» لابن سينا: «إن التقرير غير الرد، والتفسير غير النقد.»

فما أجدنا أن نقول بدورنا: «والترجمة أيضًا غير النقد.»
لهذا اقتصرت على نقل آراء ذلك المستشرق بلا مناقشة أو تعليق إلا ما يقتضيه المقام من توضيح لما أعتقد أن أكثر القراء في حاجة إليه.

على أنني لم أكُن أنشر الفصل الأول من هذا الكتاب في «ديوان ابن زيدون» حتى نال من استحسان القراء أكثر مما كنت أقدر له.

وقد وعدت بإظهار هذا القسم كاملاً بعد أن أُنجز شرح «ديوان ابن زيدون» ثم منعوني عوادي الزمن ومشاغله عن إنجاز هذا الوعد، ثم تغلبت العزيمة على التردد

والتسويف. ورأيت أن أفي ببعض ما وعدت به القراء، فأنجزت ترجمة هذا الكتاب وكلّي أمل في أن الحقه بالكتاب الثاني الذي وعدت به القراء وهو: «ابن زيدون: أدبه وعصره». فإذا انتهيت منه شرعت في إظهار «ديوان ابن حمديس». وأنا أستمد من الله العون على إنجاز هذا الوعد، وأستلهمه الرشد والسداد.

الجزء الأول

ملوك الطوائف

الفصل الأول

(١) بعد إلغاء الخلافة

منذ سنين عدة تقلص ظل السلطة العامة عن الولايات الإسلامية في بلاد الأندلس وأصبح أمر كل منها بيدها، ولم يكن تفكك السلطة مما يرغب فيه أهل تلك الولايات عامة أو يتافق ومصالحهم وأمالهم.

وقد جزعوا لهذا التفكك وذهب بهم التفكير إلى أبعد مداه أسفًا على الماضي وجزعًا من المستقبل.^١

ولم يكن ليستفيد من هذا الانحلال والتفكك في تلك البلاد إلا ملوك الإفرنج وحدهم، وقد كان من نتائجه أن اقتسم قواد البربر جنوب الجزيرة فيما بينهم، وحكم الصقالبة الشرق، وأصبح ما بقي بعد ذلك من بلاد الأندلس نهباً مقسماً بين ذوي المطامع من المغريين المتواترين على تلك البلاد، وبين آخرين من بقایا الأسر العربية من ساحت لهم الفرصة وساعدتهم على الثبات أمام ضربات عبد الرحمن الثالث^٢ والمنصور التي كانت مصوبة إلى الأستقراطية.

وقد انتهى ذلك كله بأن تكون من المدينتين الكبيرتين قرطبة وإشبيلية حكومتان شوريتان.

(٢) قرطبة

أما قرطبة فقد اجتمع كبار أهلها بعد إلغاء الخلافة — وعمدوا إلى ابن جهور^٣ فأسندوا إليه السلطة التنفيذية، وقد كان مشهوراً عندهم جميعاً بجدارته وكفايته لتقليد هذا المنصب والاضطلاع بالحكم، ولكنهم لم يكادوا يعرضون عليه قرارهم حتى رفض — بادئ ذي

بدء — ذلك المركز السامي، ثم قبله بعد أن ألح عليه في ذلك جمهرة منتخبيه، ولكنه اشترط عليهم أن يكون إلى جانبه في الحكم زميلان له في مجلس الشورى، هما محمود بن عباس وعبد العزيز بن حسن وكانا من أعضاء أسرته. فأجابه أصحابه إلى ما طلب، ولكن على شرط ألا يكون لهذين الزمليين إلا صوت استشاري فقط.

وقد حكم السفير الأول ابن جهور تلك الحكومة الشورية الجديدة متوكلاً في أحکامه العدل والسداد، وكان مخلصاً رشيداً، وإليه يرجع الفضل في استباب الأمن ورفع المظالم، فلم يكدد يتولى الحكم حتى أمن أهل قرطبة وأصبحوا لا يشكون شيئاً من الإعنة والمظالم التي كانت تترى عليهم من قساوة البربر الجائزين.

وكان أول ما عُنِي به أن صرفهم عن الخدمة واحتفظ ببني يَقْرُنْ وحدهم لأنه رأى أن من المستحيل عليه أن يعتمد على سواهم لما عرفه من ولائهم وطاعتهم له.

وقد استبدل بالآخرين الذين سرحهم من البربر حرساً وطنياً، وكان يظهر بمظاهر من يريد استقرار نظام الحكم الجمهوري، فإذاً طلب إليه تنفيذ أمر بعينه قال لهم: «ليس من شأنني أن أقرر أمراً هو من اختصاص مجلس الشورى، وما أنا إلا منفذ لأمره وقراراته».

وكان كلما وردت عليه قصة أو كتاب رسمي موجه إلى شخصه أبى أن يتسلمه، وأمر بتوجيهه إلى مستشاريه.

ولم يكن ليصدر قراراً قبل عرضه على مجلس الشورى. أضف إلى هذا أنه لم يكن يتظاهر البتة بمظاهر الحكم، فظل باقياً في مسكنه المتواضع الذي اعتاد سكانه دائمًا، وأثر الإقامة فيه على أن ينتقل إلى قصر الخلافة.

وكانت العقيدة في نزاهته ثابتة قوية لا تحوم حولها الشكوك والريب وقد رفض — مع هذا — أن يكون بيت المال في داره وتحت إمرته، فعهد بحراسته إلى أكبر الناس مقاماً وأكثراهم احتراماً في المدينة.

وكان — على حبه المال — يؤثر المصلحة العامة التي قضت عليه ألا يرتكب عملاً غير شريف. والحق أن ابن جهور كان مقتضداً بل حريصاً حرصاً يكاد يصل به إلى درجة البخل، فقد أثرى حتى أصبح أغنى رجل في قرطبة ولكنه مع ذلك لم يأذ جهداً من جهوده المحمودة في توفير اليسر والرخاء على الناس كافة.

وكان يبذل كل ما في وسعه في تحسين العلاقات الودية وتوثيقها بينه وبين المالك المجاورة، وقد كُتِبَ له النجاح في ذلك وحالفة التوفيق فلم يمض وقت طويل حتى استتب

الأمن وانتشرت التجارة والصناعة وهبطت أسعار المواد الغذائية، وأمنت السبل، فأمّا قرطبة طوائف كثيرة من السكان أعادوا بناء الأحياء التي دمرها البربر أو أحرقوها حينما أوقعوا النهب والسلب في المدينة.

(٣) إشبيلية

على أنه مع تلك الأعمال التي قام بها، فإن قرطبة عاصمة الخلافة القديمة لم تسترد مكانتها السياسية، ومنذ ذلك الحين أخذت إشبيلية — التي سمعنا بتاريخها عناية خاصة — تحرز الشأن الأول في المركز السياسي.

كانت إشبيلية — منذ أمد بعيد لا تزال — مرتبطة الحظ بقرطبة، متاثرة بما يجري منحوادث فيها، متأسية بالعاصمة، خاضعة لملوك الدولة الأموية — على التعاقب — ثم لدولة بني حمود، ومن جراء ذلك كان للثورة التي وقعت في قرطبة أثراها السيئ في إشبيلية، فقد ثار القرطبيون على قاسم بن حمود وطردوه، فعول هذا الأمير على الالتجاء إلى إشبيلية حيث يقيم بها ولداه، ومعهما حامية من البربر تحت قيادة محمد بن زيري من قبيلة بني إيفورين.

وأرسل إلى الإشبيليين يأمرهم بإخلاء مئة مسكن لجنوده القادمين معه، وقد ترك هذا الأمر أثراً سيئاً في نفوس أهل إشبيلية. هذا إلى ما عُرفَ عن جنود قاسم الذين هم أفقر أبناء جنسهم من أنهم من شرار اللصوص.

وقد أظهرت قرطبة للإشبيليين أنه من الممكن أن يتحرروا من هذا النير الذي يضجون بالشكوى منه. فعولوا على أن يذدوا حذو قرطبة، إلا أن خوفهم من حامية البربر المقيمة بين ظهارنيهم حال بينهم وبين تحقيق أمانיהם. وبعد جهد نجح قاضي المدينة أبو القاسم بن عباد في استمالة قائد الحامية وضمه إلى جانبه بعد أن صرخ له بأنه من الهين السهل أن يصبح ملكاً على إشبيلية، فأعلن حينئذ مناد ابن زيري استعداده لمساعدته، وسارع القاضي فعقد بينه وبين قائد بربور قرمونة محالفة تقلدوا السلاح — على أثرها — ضد ولدي قاسم وحاصرروا قصره.

ووصل قاسم^٦ إلى إشبيلية التي كانت مغلقة، وحاول أن يجتذب سكان المدينة إليه بالوعود الخلابة، ولكنه أخفق في هذه المحاولة، ولما أوجس في نفسه خيفة على ولديه اللذين كانوا معرضين للهلاك داخل المدينة، قطع على نفسه عهداً أن يجلي — هو ومن معه من الجند — عن أراضي إشبيلية إذا ما أسلموا إليه ولديه وأموالهما وممتلكاتهما، فضمن

له الإشبيليون تنفيذ هذا الشرط، وعلى أثر ذلك انسحب قاسم وعاد أدراجه، وثم سُنحت للقاضي أول فرصة ليرضي حامية البربر.

ولما حصلت المدينة على حريتها اجتمع كبارها ليختاروا حاكماً يولونه عليهم، إلا أن الخواطر حينئذ لم تكن هادئة، والنفوس لم تكن مطمئنة، خشية أن تتم خص الحوادث عن ثورة، أو أن يعيده بنو حمود الكرة عليهم، وحينئذ لا يتوانون لحظة في معاقبة المجرمين الثائرين، ولهذا لم تبد من أحد منهم أية رغبة في أن يأخذ على عاتقه عباءة المسؤولية عما وقع.

(٤) بنو عباد

واتفق عامتهم على أن يلقوا عباءة المسؤولية على عاتق القاضي وحده الذي حسدوه ثروته واستشعروا سروراً خفيّاً في أعماق نفوسهم بدنو الساعة التي تصادر فيها هذه الثروة الطائلة.

فعرضوا على القاضي أن يتولى حكم المملكة، وكان — مع ما يجيشه بصدره من مطامع وأعمال — حكيمًا حارماً، فرفض في إباء أن يتولى الحكم في وقت غير مناسب. ولم يكن القاضي متصل النسب بالسلالات العربية، إلا أنه امتاز بحياته أكبر ثروة، فقد كان يملك ثلث أرض إشبيلية وكانت له فوق ذلك منزلة سامية من الاعتبار نظراً لموهبه العلمية، وكان يعوزه أن يضمن إلى هذه المؤهلات أن تندمج أسرته ضمن السلالات العربية القديمة.

وقد تم له ذلك — فيما بعد — تدريجياً، وكان يدرك أنه في حاجة ماسة إلى وجود عدد من الجنд تحت إمرته، وليس لها العدد وجود، ولم يشك في أن الأرستقراطية العظيمة المحبدة في إشبيلية لا بد أن تثور على صعلوك مثله غير معروف النسب، يسمو إلى تسنم نروة الخلافة، ولم يكن ثمة شيء غير هذا في الواقع، وقد وقع هذا حقيقة عندما أُوشك بنو عباد أن يؤسسوا الخلافة لأنفسهم.

وتحمة زعم آل عباد أنهم من سلالة ملوك لخم الذين كانوا يحكمون الحيرة قديماً قبل ظهور محمد ﷺ وكان الشعراة الذين يريدون إشاع بطونهم يتحينون الفرص للإشارة بهذا النسب العريق المزعم، على أنه لم يوجد ما يبرر هذا الزعم، لأن بني عباد والمتزلفين إليهم ومن يتملقونهم لم يستطعوا أن يقيموا الدليل على ذلك، وكل ما يربط هذه الأسرة بملوك الحيرة أنها تنتسب إلى قبيلة لخم اليمنية التي ينتسب إليها ملوك الحيرة. ولكن

فرع أسرة آل عباد الذي تسلسل منه آباءهم لم يقطن — على ما يظهر — الحيرة بتاتاً، بل كانوا يقيمون أخيراً قرب العريش الواقعة على حدود مصر وسوريا في ناحية حمص. وعلى الرغم من أن آل عباد بذلوا ما في استطاعتهم كي يصلوا نسبهم بملوك الحيرة فإنهم لم يستطعوا أن يصعدوا به إلى أبعد من نعيم والد عطاف، وكان عطاف هذا على رأس كتيبة من جنود حمص، وقد رحل إلى إسبانيا مع بلج حيث أعطيت لجنود حمص أراض على مقرية من إشبيلية، وأقام على ضفاف الوادي الكبير، وقد انحدر عن أصل هذه الأسرة فروع فيما يقرب من سبعة أجيال آخرت ببطء من ظلمة الماضي أناساً صالحين عاملين مقتديين، وإسماعيل والد القاضي هو عنوان مجدها، وهو الذي خط بيديه — في الصحيفة الذهبية لنبلاء إشبيلية — اسم عباد.⁷

ولا غرو فقد كان إسماعيل من حملة الأقلام والسيوف، وكان رجل فقه ودين كما كان رجل حرب وطعن، فقد تولى قيادة فرقة في حرس هشام الثاني، ثم صار — فيما بعد — إماماً لمجلس قرطبة الكبير، ثم قاضياً لإشبيلية، واشتهر بالفقه والذكاء والورع وإرشاد العامة، وإسداء النصح للكافة، وكانت شهرته في النزاهة تربو على شهرته في غير ذلك من الأمور، فهو — على الرغم من انتشار الفساد والرشوة — كان يتورع عن أن يقبل هبة من سلطان أو وزير، وكان كريماً إلى أبعد غايات الكرم، وقد لقي القرطبيون منه كرم الضيافة، وحسن العشرة، فجعلته كل هذه المزايا والصفات جديراً أن يحرز أكبر ألقاب النبل والسؤدد في الغرب.

وقبيل العهد الذي نحن بصدده توفي إلى رحمة الله في غضون سنة ١٠١٩ م. وربما كان ابنه أبو القاسم محمد يماثله علمًا وأدبًا، وإن كان لا يدانيه خلقاً وفضلاً، فقد كان أناهياً ذا أثره وطعم وصلف وتكبر وإنكار للجميل، وقد حدث على أثر وفاة أبيه أن طمع في أن يخلفه في منصب القضاء، ولكن القوم آثروا عليه غيره، فتقدم بالرجاء إلى قاسم بن حمود فنال — بفضل قاسم — منصب القضاء الذي كان يؤمله. وقد يرى المتابع للحوادث فيما بعد كيف كان نكرانه لهذا الجميل.

(٥) قاضي إشبيلية

وفي مفتاح هذا العهد — الذي نحن بصدده — أشار نبلاء إشبيلية وأصحاب الرأي فيها على أبي القاسم قاضي إشبيلية أن يتبوأ عرش المملكة،⁸ ولما أدرك الغاية التي يرمون إليها أظهر لهم أنه لا يستطيع أن يقبل هذا الشرف الذي يولونه إياه إلا بشرط أن يشرك معه في

الحكم أفراداً يعينهم هو بنفسه على أن يكونوا وزراءه وأعوانه في الاضطلاع بأعباء الحكم، بحجة أن هؤلاء الأشخاص الذين يشركهم معه في الرأي ستتألف منهم هيئة شورية تقوم على تدبير المملكة بحيث لا يصدر إلا عن رأيهم، ولا يتخذ أي قرار بدون مشاورتهم، فقبل الإشبيليون ما اشترطه القاضي من أن يكون حكمه على قواعد الشورى، فلا يحكم بمفرده، وطلبوه إليه إنفاذ ما اعترضه من تعيين أولئك الزملاء والأعوان، فعيّن بعض كرام الأسر العريقة مثل ابن حجاج وأخرين كانت تسمى إليهم الأنذار وترمّقهم العيون من نصرائه الذين أنجبهم العصر، وأطّلعتهم كواكب في سماء مصر، كأبي بكر الزيدي العالم النحوي الشهير مؤدب هشام الثاني، وبعد أن تم له ما أراد من ذلك انتصر فمه إلى تكوين جيش للمملكة، ورفع أعطيات وأرزاق الجندي، فانضوى تحت لوائه كثير من العرب والبربر، ثم اشتري عدداً كبيراً من المالكين ودرّبهم على القتال، وجرد منهم حملة على الشمال، وهي في الكثير الغالب كانت موجهة إلى أمراء آخرين، وقد حاصر قصرين في شمال «فيزي» أنشأ متقابلين على صخور يفصلهما سور، وأطلق عليهما اسم «الأخوين» وهو ما معروفة الآن باسمهما العربي وهو اسم «الأخوين» وقد حرفه القوم فهو يقولون «الأقوين»، وكان يقطنهما إسبانيون مسيحيون كان أسلافهم قد عقدوا معاهدة مع موسى بن نصیر، والظاهر أن هذين القصرين لم يكونا في العصر الذي تحدث عنه في حيازة ملك ليون ولا في حيازة أمير مسلم، ولذلك استولى القاضي عليهم وأرغم الذين كانوا يدافعون عنهم — وهم زهاء ثلاثة مئة فارس — على الانضواء تحت لوائه، وبذلك زادت نواة جيشه فبلغت خمس مئة فارس، وثمة اجتمع لديه من الجندي ما يكفي للإغارة على المالك المتاخمة له، إلا أن حالته هذه لم تكن لتمكنه من صد هجمات قوية ضد إشبيلية.

وهذا ما وقع له سنة ١٠٢٧: ففي هذه السنة جاء الخليفة الحموي يحيى بن علي وأمير ببر قرمونة محمد بن عبد الله وحاصر إشبيلية، ولما كان في منتهى الضعف بحيث لا يستطيع المقاومة طويلاً أخذ الإشبيليون يفاوضون يحيى وأعلنوا أنهم مستعدون للاعتراف بسيادته عليهم، على شرط لا يدخل البربر مدينتهم، فقبل يحيى هذا الشرط ولكنه شرط عليهم — ضماناً لوفائهم وإخلاصهم — أن يرسل بعض أعيان وبنبلاء إشبيلية أولادهم ليكونوا عنده رهائن يضمن بها ولاء الإشبيليين، فلم يستطع أحد منهم أن يقدم ابنه خشية من البربر الذين يقضون على حياته لأقل شبهة، والقاضي وحده هو الذي لم يتردد في إجابة الطلب إذ أرسل إلى يحيى بنجله عباد. وكان الخليفة يعلم ما للقاضي من الجاه والنفوذ فاكتفى بقبول ابنه رهينة لديه، وبفضل هذا العمل المجيد الدال على

الإخلاص للبلاد ازدادت مكانة القاضي عند الإشبيليين عامة، وأصبح — منذ ذلك الحين — لا يخشى شيئاً لا من جانب الشعب، ولا من جانب الخليفة الذي اعترف بسيادته شكلاً، وخيل إليه أن الفرصة السانحة قد أمكنته من الانفراد بالحكم.

ولما كان قد أبعد من مجلس الحكم مثل ابن حجاج وغيره، ولم يبق معه سوى زميلين رأى أن يصرفهم عن خدمته ونفى «زبدي» وعين رجلاً من خواص إشبيلية اسمه «حبيب» رئيساً للوزارة، ولم يكن «حبيب» هذا من رجال المبادئ إلا أنه كان مع هذا ذكياً مخلصاً بكل معانٍ كلمة الإخلاص لولاه، منصرفًا إلى مصلحته.

وعلى أثر ذلك أراد القاضي أن يزيد في رقعة المملكة بالاستيلاء على باجة، وقد حلت أخيراً بهذه المدينة المصائب في غضون القرن التاسع عشر من جراء الحرب التي نشببت بين العرب والخائنين. إذ نهبت وخرب البربر جزءاً منها، وعاثوا فيها سلباً، وأحرقوا ما صادفوه في طريقهم، وكان في نية القاضي أن يعيد تشييد ما خرب منها، ولكن لما اتصل بعبد الله بن الأفطس أمير بطليوس عزم القاضي، جرد جيوشة تحت إمرة ابنه محمد «الذى خلفه فيما بعد باسم المظفر» وتم استيلاء هذه الجيوش على باجة في الوقت الذي جاء فيه إسماعيل بن القاضي بجيش إشبيلية، وجيش حليف أبيه أمير قرمونة، فبدأ حصارها في الحال، وأمر فرسانه بالسلب والنهب في القرى الواقعة بين إيفرن والبحر، وعلى الرغم من المدد الذي جاء به ابن طيفور فإن محمدًا كان سيء الحظ كثيراً إذ بعد أن فقد نخبة فرسانه المحاربين وقع أسيراً بين يدي أعدائه وأُرسل إلى قرمونة.

زادت هذه الانتصارات في حماسة القاضي وحليفه الأمير، فلم يكتفيا بالإغارة على بطليوس وحدها بل أغروا على قربطة أيضاً، فاضطررت حكومتها أن تستخدم للدفاع كثيراً من ببر ولاية سيدونا.

وبعد فترة من الزمن أُبرم القاضي وحليفه صلحاً أو سمه — إن شئت — هدنة معبني الأفطس، وحينئذ أطلق محمد من الأسر برضى القاضي في (مارس ١٠٣٠) ولما أبلغه أمير قرمونة نبأ إطلاق سراحه عرض عليه أن يعرج في طريقه على إشبيلية ويبلغ القاضي شكره، ولكن محمدًا لفطر اشمئازه من القاضي قال لأمير البربر: «إنني أوثر أن أظل سجينك على أن أقوم بما أشرت به علي، فإذا كنت مديناً لغيرك بإطلاق سراحي، وكان علي أنأشكر قاضي إشبيلية وفاءً لهذا الحق، فإني أفضل أن أبقى حيث أنا في سجنني.»

فاحترم الأمير شعوره وأرسله إلى بطليوس مشياً بما يليق ب الرجل عظيم مثله من واجب الإجلال والتكريم.

وبعد بضع سنين؛ أي في سنة ١٠٣٤، انتقم عبد الله بطريقة قد تعتبر غير شريفة، وثار لنفسه من تلك الشدائـد التي نالـته، وذلك بأن أباح للقاضـي أن تمر بأرضـه جنـوده بقيادة ابنـه إسمـاعيل وهي ذاهـبة في طـريقـها للإـغـارـة عـلـى مـلـكـة ليـونـ، وـلـما كان إـسمـاعـيلـ وجـنـودـهـ في مـضـيقـ لا يـبـعـدـ كـثـيرـاـ عـنـ حدـودـ ليـونـ باـغـتـهـ جـيـشـ بـنـيـ الأـقـطـسـ فـقـتـلـ منـ جـنـودـ إـشـبـيلـيـةـ عـدـدـاـ كـبـيرـاـ، وـقـتـلـ فـرـسـانـ ليـونـ فـلـولـ الـجـيـشـ عـنـدـ لـيـاـذـهـ بـالـفـرـارـ، وـأـفـلـتـ إـسمـاعـيلـ إـشـبـيلـيـةـ عـدـدـاـ كـبـيرـاـ، وـقـتـلـ فـرـسـانـ ليـونـ فـلـولـ الـجـيـشـ عـنـدـ لـيـاـذـهـ بـالـفـرـارـ، وـأـفـلـتـ إـسمـاعـيلـ منـ هـذـهـ المـذـبـحةـ وـمـعـهـ نـفـرـ يـسـيرـ مـنـ رـجـالـهـ، وـفـيـمـاـ كـانـ مـوـلـيـاـ وجـهـ شـطـرـ مـدـيـنـةـ لـشـبـونـةـ الـوـاقـعـةـ عـلـىـ حـدـودـ مـلـكـةـ أـبـيـهــ مـنـ الـجـهـةـ الـشـمـالـيـةـ الـغـرـبـيـةــ تـحـمـلـ هـوـ وـمـنـ مـعـهـ أـشـدـ آـلـمـ الـحـرـمـانـ مـنـ حـاجـاتـ الـمـعـيـشـةـ الـضـرـورـيـةــ.

ومـنـ هـذـهـ الـأـوـنـةـ صـارـ الـقـاضـيـ الـخـصـمـ الـأـلـدـ لـأـمـيرـ بـطـلـيـوســ، وـلـيـسـ لـدـيـنـاـ مـعـلـومـاتـ تـفـصـيـلـيـةـ عـنـ الـمـارـكـ الـتـيـ دـارـتـ بـعـدـ ذـلـكـ بـيـنـ أـمـيرـ بـطـلـيـوســ وـخـصـمـهــ.

وـمـمـاـ لـرـيـبـ فـيـهـ أـنـ هـذـهـ الـحـرـوـبـ لـمـ يـكـنـ لـهـ نـتـائـجـ ذاتـ خـطـرـ عـظـيمـ لـإـسـبـانـيـاـ الـمـسـلـمـةـ، وـلـمـ تـرـكـ فـيـهـ أـثـرـاـ يـضـارـعـ مـاـ تـرـكـهـ فـيـهـ حـادـثـ آـخـرـ سـنـتـاـوـلـهـ فـيـمـاـ يـلـيــ.

قلـنـاـ إـنـ الـقـاضـيـ اـعـتـرـفـ بـسـيـادـةـ الـخـلـيـفـةـ الـحـمـودـيـ يـحـيـيـ بـنـ عـلـيــ وـلـكـنـ هـذـاـ الـاعـتـرـافـ كـانـ تـعـهـدـاـ غـيرـ مـجـدـ، وـقـدـ بـقـيـ كـذـكـ مـدـةـ طـوـيـلـةـ، فـقـدـ قـامـ الـقـاضـيـ بـحـكـمـ إـشـبـيلـيـةـ بـلـ سـلـطـانـ عـلـيـهـ وـلـاـ رـقـابـةـ، وـكـانـ يـحـيـيـ مـنـ الـضـعـفـ بـحـيـثـ لـاـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـلـزـمـهـ بـالـحـافـظـةـ عـلـىـ حـقـوقـهـ، وـقـدـ تـبـدـلـتـ هـذـهـ الـحـالـ تـدـرـيـجـاـ إـذـ وـفـقـ يـحـيـيـ لـأـنـ يـضـمـ حـوـلـهـ جـمـيعـ أـمـرـاءـ الـبـرـ تـقـرـيـبـاـ، فـأـصـبـحـ الـآنـ بـحـقـ زـعـيمـ عـامـةـ الـحـزـبـ الـأـفـرـيـقـيـ بـعـدـ أـنـ كـانـتـ هـذـهـ الـزـعـامـةـ اـسـمـيـةـ فـيـمـاـ مـضـىـ، وـلـمـ كـانـ مـعـسـكـرـهـ الـعـامـ فـيـ قـرـمـونـةـ الـتـيـ طـرـدـ مـنـهـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ اللهـ أـصـبـحـ جـيـوشـهـ تـهـدـ قـرـطـبـةـ وـإـشـبـيلـيـةـ فـيـ آـنـ وـاـحـدـ، وـقـدـ أـوـحـيـ هـذـاـ الـخـطـرـ الـخـيـفـ الـمـحـدـقـ إـلـىـ الـقـاضـيـ بـفـكـرـةـ وـطـنـيـةـ لـهـ خـطـرـهـاـ وـقـيـمـتـهـاـ لـوـ لـمـ يـشـبـهـ الـحـرـصـ وـالـطـمـعـ وـالـأـنـانـيـةـ وـالـجـشـعــ.

فـقـدـ رـأـىـ مـنـ الـضـرـوريـ أـنـ يـجـمـعـ الـعـرـبـ وـالـصـقـالـبـ تـحـتـ رـاـيـةـ حـاـكـمـ وـاـحـدـ حـتـىـ لـاـ يـغـزوـ الـبـلـادـ الـبـرـبـرـ الـذـيـ اـتـخـذـوـ الـأـمـلـاـكـ الـتـيـ سـبـقـ لـهـمـ غـزوـهــ.

وـهـذـهـ هـيـ الـوـسـيـلـةـ الـتـيـ تـجـعـلـ الـبـلـادـ بـمـنـجـاـةـ مـنـ الـتـعـرـضـ مـلـلـ مـاـ حلـ بـهـاـ مـنـ الـمـصـائبـ مـنـ قـبـلـ، وـكـانـ الـقـاضـيـ يـشـعـرـ مـنـ أـعـماـقـ نـفـسـهـ بـهـذـهـ الـضـرـورـةـ، فـقـوـيـتـ عـنـدـ الـرـغـبـةـ فـيـ أـنـ يـتـأـلـفـ حـزـبـ قـوـيـ كـبـيرـ يـنـدـمـجـ فـيـ جـمـيعـ الـعـنـاـصـرـ الـمـعـادـيـةـ لـلـحـزـبـ الـأـفـرـيـقـيـ، وـهـوـ فـيـ الـوقـتـ ذـاتـهـ يـتـمـنـيـ أـنـ يـكـونـ رـئـيـسـهـ، وـلـمـ تـكـنـ الـعـقـبـاتـ الـتـيـ يـجـبـ عـلـيـهـ أـنـ يـذـلـلـهـ لـتـلـيـلـ تـلـكـ الـغـاـيـةـ بـخـافـيـةـ عـلـيـهــ.

فقد كان يدرك أن ملوك الصقالبة وأمراء العرب وشيوخ قرطبة يجرحون في كرامتهم متى رأوه يحاول أن يبسط سلطانه عليهم، على أن شيئاً من ذلك لم يثبط همته ولم يجعل الأساس يتسرّب إلى نفسه.

على أن المصادرات ستدفعه، فهو سيتمكن إلى حد ما أن يصل إلى الغاية التي يرمي إليها، ويدرك المشروع الذي كان يعمل على تحقيقه. وسنرى — فيما بعد — على أي نحو يتم له ذلك.

(٦) هشام الثاني

أسلفنا أن الخليفة التعمس هشام الثاني فر من القصر في عهد سليمان الثاني. وقلنا إن أكثر الظواهر تدلنا على أنه مات في آسيا مجھولاً لا يعرفه أحد.

ومع هذا فقد بقي الشعب غير مصدق أنه مات لشدة تعلقه بالدولة الأموية التي درت عليه أخلف اليسر والرخاء، وكسته حل الشرف والمجد، وكان عامة أفراد الشعب يتلقون الإشاعات التي كانت ترد إليهم من الخارج من بقائه على قيد الحياة باهتمام وشغف، وهناك أفراد كانوا يزعمون أنهم وافقون على تفاصيل حياته بآسيا، وقد أشاع بعض أولئك الزاعمين أنه رحل أولاً إلى مكة ومعه خريطة مملوقة بالنقود والنفائس، فسلبه الزنوج الذين كانوا يرافقونه كل ما معه، وزعموا أنه استمر يومين لا يتنوّق طعاماً ولا شراباً، إلى أن رأه صانع فخار فرق له ورثي لحاله، فعرض عليه أن يعجن له الصلصال على أن يعطيه في اليوم درهماً ورغيفاً، فرجا صانع الفخار أن يعطيه الأجر سلفاً، إذ قد مضى عليه يومنان لم يذق فيهما طعاماً، وبعد لأي ما استطاع هشام — على عجزه عن العمل — أن يكسب قوت يومه.

إلا أنه أُنف هذه الحال فهرب، وسار مع قافلة ذاهبة إلى فلسطين، ووصل إلى بيت المقدس وهو في أشد حالات الإملأق، وإنه ليتنقل في بعض طرق المدينة، إذ وقف على دكان حصري، وأخذ ينظر إلى عمله بانتباه شديد، فسألته الحصري: «هل تعرف هذه الصناعة؟» فأجابه محزوناً: «كلا، وأنا آسف لأنه لا سبيل إلى أن أعيش وأكسب ما أسد به الرمق».

فقال الحصري: «إذن فابق معي لحاجتي إليك في إحضار الخيزران، ولك أجرك». فقبل مسروراً، وبقي عند الحصري حتى حذق هذه الصناعة.

وما زال على هذه الحال بضع سنين، وقد أذاعوا بعد ذلك أنه عاد إلى إسبانيا في سنة ١٠٣٥، ونزل مالقة ثم تحول عنها إلى المرية فوصل إليها سنة ١٠٣٥، فاضطر الأمير زهير إلى إبعاده خارج حدود مملكته، فرحل إلى قلعة رباح حيث ألقى بها عصا التسيار. هذه الرواية التي صادفت رواجاً وقبولاً من الشعب لا تستحق - على ما يظهر - أن تناول شيئاً من الثقة، والذي وقع حقيقة هو أنه في العهد الذي كان فيه يحيى يهدد إشبيلية وقرطبة كان في قلعة رباح رجل حصري اسمه خلف يشبه الخليفة هشام الثاني تمام الشبه، ولكن لم يقم دليلاً على أنه هو بعينه، وقد نفى الأمويون شيعة هشام ومعهم ابن حيان وابن حزم المؤرخان ما دار حول هشام «المزعوم» من الروايات والأرجيف وعدوه ضرباً من الحيلة السياسية والخداع والقحة، وإن كان من مصلحتهم أن يهتدوا إلى مكان هشام إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ولم يتردد خلف حين طرق سمعه كثيراً أنه شبيه هشام في أن يدعى أنه هو نفسه الخليفة هشام الثاني، وقد جازت هذه الحيلة على أهالي قلعة رباح لأن خلفاً لم يكن معروفاً فيهم، والأغرب من هذا أنهم دخلوا في طاعته، وثاروا على أميرهم إسماعيل بن دحمان ذي النون أمير طليطلة، فجاء هذا وحاصرهم ولم تطل مدة مقاومتهم، وأخرج هشاماً المزعوم من المدينة فهذا ثأر الأهالي، وعادوا إلى السكينة والخصوص.

(٧) دهاء القاضي

ولم ينته دور خلف عند هذا الحد، بل رجع عوداً على بدء حين علم قاضي إشبيلية بخبره، وعلم الفائدة التي يجنيها من وراء ذلك الرجل إذا هو أحضره إلى إشبيلية، وكان الذي يهمه إنما هو استغلال الموقف بقطع النظر عن شخصية الرجل، كما كان يسره كثيراً أن يرتضى الناس أنه هشام ليستطيع أن يكون باسمه حزباً ضد البربر، ويكون وهو رئيس الوزراء روح هذا الحزب وزعيمه. ولهذا بادر إلى دعوة الخليفة المزعوم إلى إشبيلية ووعده بتعضيده إذا نجح في إثبات شخصيته، ولا حضر الحصري إلى إشبيلية قدمه القاضي إلى نساء هشام بالقصر، فصرحن جميعهن تقريرياً بأنه هو بعينه الخليفة السابق، وعول القاضي على قولهن، وبعث إلى شيخ إشبيلية وأمراء العرب والصقالبة يعلنهم بأن هشاماً الثاني عنده، ويدعوهم إلى حمل السلاح معه دفاعاً عن حقوقه، ومؤازرة لقضية الخلافة. وقد كلل الله هذا المسعى بالنجاح، واعترف بسيادة «هشام» محمد بن عبد الله أمير قرمنة المخلوع الذي لجأ إلى إشبيلية وعبد العزيز أمير بلنسية ومجاحد أمير دانية وأمير طرطوشة.

وعلم عامة الشعب في قرطبة علماً مقرنوناً بالسرور أنه لا يزال على قيد الحياة، إلا أن كثيرون من جهور كان أقلهم تصديقاً للخبر حرصاً على الحكم، فلم ينخدع، ولم تجد هذه الحيلة إلى نفسه مساغاً، ولكنه لم يجد سبيلاً إلى مقاومة إرادة الشعب، ومخالفته ميوله، ورأى ضرورة اتحاد العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد، لأنه كان يخشى في ذلك الحين أن يهاجم البربر قرطبة، فلهذه الأسباب لم ينافق أغراض مواطنيه، وسمحت نفسه بأن تتجدد البيعة لهشام الثاني من جديد.

وكان من نتيجة هذه الحوادث أنه بينما كان الحزب العربي الصقلي يتسلح ضد يحيى، كان هذا محاصراً إشبيلية، مجدًا في تخريب ما يتصل بها من العمارة، موطنًا النفس على الانتقام الهائل من القاضي الخائن، ولكن الملتقطين حوله — من بربير قرمونة الذين أكرههم على الانضواء تحت رايته — كان هواهم مع هشام الثاني، خليفتهم السابق وكانت الخبرة بينهم وبينه سائرة.

وفي أكتوبر (سنة ١٠٣٥) ذهب فريق منهم خفية إلى إشبيلية، وأبلغوا القاضي ومحمد بن عبد الله، أن من السهل مbagتة يحيى لأنه لا يكاد يفتق من السكر، ولم يدع القاضي وحليفة هذه الفرصة تمر دون أن يستفیدا منها، وهنا وجّه القاضي ابنه إسماعيل ومعه محمد بن عبد الله على رأس الجيش الإشبيلي، وعندما أرخى الليل سدوله كمن إسماعيل مع أكثر الجندي في كمين، وأرسل كوكبة لمناوشة قرمونة ليغري يحيى بالخروج إلى ظاهرها، وقد نجح في خطته هذه، إذ كان يحيى — حين بلغه مجيء ابن عباد على رأس جيش — ثملاً، فنهض وكان متكتئاً على سريره وصاح قائلاً: «يا لها من فرصة سعيدة، هذا ابن عباد مقبلًا لزيارة، والآن أيها الجندي، خذوا أسلحتكم وامتطوا جيادكم قبل ضياع الوقت».

وخرج في ثلاثة آلاف فارس، وكان النبيذ قد لعب برأسه، فلم يتمهل ريشما يعيي جنده وينظم خططه، يضاف إلى ذلك أن ظلام الليل الحالك كان يحجب عنه كل شيء. وفوجئ الإشبيليون منه بهذا الهجوم المbagت، فقابلوا بجلد وعنف، وأخذوا يتقهرون بنظام نحو المكان الذي كمن فيه إسماعيل.

ومن هذه اللحظة سعى يحيى إلى حتفه بنفسه، فإن إسماعيل انقض عليه بكل قوات الجن، واضطرب إلى التقهر، وقتل يحيى نفسه في المعركة، وكانت يأتي القتل على أكثر رجاله لو لم يحل محمد بن عبد الله دون ذلك، وقال له: «إن أغلب هؤلاء المساكين من بربير قرمونة الذين أكرههم هذا الطاغية على الدخول في خدمته مع كراهتهم واحتقارهم إياها».

فأبقي عليهم وأمر جنده بترك تعقبهم وخف محمد بن عبد الله إلى قرمونة على ظهر جواهه ليسترد ملكه، وأراد زنوج يحيى الذين استولوا على أبواب المدينة أن يحولوا بينه وبين الدخول لولا أن ساعده الأهالي على دخولها من ثغرة، وسار إلى قصر الإمارة، وسلم نساء الأمير يحيى إلى بنيه، واستولى على ما في القصر من كنوز ونفائس في (نوفمبر سنة ١٤٣٥م).

وقد أحدث نبأ وفاة يحيى سروراً عظيماً في إشبيلية وقرطبة، وعندما وصل الخبر إلى مسامع القاضي خر ساجداً شكرًا لله، وهذا حذوه جميع من كانوا حوله والآن أصبح القاضي لا يخشى شيئاً من جانب بني حمود.

وقد نودي بإدريس - أحد أشقاء يحيى - خليفة في مالقة، وقد كان يعوزه الوقت الكافي الذي يستطيع فيه أن يكسب بقية نفوذه وما يقدمه من وعود، قلوب زعماء البربر، ليجعلهم في صفة، ولهذا لم يعد في استطاعته أن يخضع الجزيرة بعد أن نادى الزنوج فيها بابن عمه محمد خليفة.

ولما رأى القاضي أن الظروف خدمته، همَّ بأن يقيم هو وهشام الثاني المزعوم بقصر الخلافة في قرطبة، إلا أن يقظة ابن جهور، وتصميمه على عدم التخلي عن الحكم، وقفوا حجر عثرة في طريقه، فقد نجح في إقناع أهل قرطبة أن الخليفة المزعوم لم يكن سوى رجل ماكر مخادع وأن اسم هشام قد ألغى من الإمامة، وعرف أن القاضي عند مجئه بهشام إلى قرطبة سيلقى أبوابها مغلقة في وجهه، وثمة لا يستطيع التغلب على مدينة منيعة حصينة مثلها، فيضطر أن يعود من حيث أتى.

وعول - في بداية الأمر - على أن تعسرك جيوشه عند الأمير الصقليبي، وهو الأمير الوحيد الذي أبى الاعتراف بهشام الثاني، ذلك الأمير هو زهير أمير المرية، ومنذ أراد الخليفة قاسم أن يهون على الأمير، وأقطعه عدة أملاك، بدأ زهير يناصر الحمويين. ولما نودي بإدريس خليفة بادر بالاعتراف به.

ولما صار الآن مهدداً من القاضي عقد محالفته مع حُيوس الغرناطي ثم زحف جيش إشبيلية، وذهب لمقابلته بجندوه وجندو حليفه إذ اضطربه إلى التقهقر.

ومن الحق أن القاضي قد بالغ في الاعتداد بقوته، ولم يحسب حساب أعدائه، وكان عليه أن يخشى مجيء الوقت الذي تغزو فيه جيوش المرية وغرناطة - بدورها - إشبيلية. وكثيراً ما خدمته المصادرات الحسنة التي شاءت أن يخلصه أحد أعدائه من عدوه الآخر.

الفصل الثاني

في العصر – الذي نحن بصدد التحدث عنه – ظهر رجلان طبقت شهرتهما الآفاق، وكلاهما كان يحمل لصاحبه حقاً قاتلاً، وكانا هما اللذان بيديهما تسيير دفة الأمور في غرناطة والمرية. هذان الرجلان هما: المغربي ابن عباس، واليهودي صمويل.

فالربان صمويل هاليفي، وكان يدعى عبادة بن نغذلة، ولد في قرطبة ودرس التلمود على الربان هانوخ، الرئيس الروحي للجالية اليهودية، ثم انصرف بجد ونجاح إلى دراسة الأدب العربي وتثقف بأكثر العلوم التي كانت معروفة إلى ذلك العهد، ثم كان – بعد انقطاعه عن الدرس – بداعاً صغيراً، وقضى في هذه التجارة مدة طويلة، أولاً في قرطبة، وثانياً في مالقة التي أقام بها بعد الفترة التي استولى فيها ببر سليمان على العاصمة، ثم ساعده الحظ وانتشرت به بعض الفرص السعيدة من هذا المركز الوضيع.

ذلك أن حانوته كان قريباً من قصر أبي القاسم بن العريف وزير جيوش ملك غرناطة، وكان على رجال القصر في الغالب أن يراسلوا مولاهم فيما يعرض لهم من الشؤون، ولكنهم جهلاً بفن الكتابة لجئوا إلى صمويل هذا ليحرر لهم ما تمس إليه الحاجة من تلك الرسائل التي أثارت إعجاب الوزير إذ ألفاها مكتوبة بأبلغ وأجمل أسلوب عربي، مما حمل الوزير عند عودته إلى مالقة أن يسأل عن المنشئ لتلك الرسائل، ولما علم أنه اليهودي استقدمه إليه، ومخاطبه بقوله: «ليس خليقاً بك أن تبقى صاحب حانوت، وما أدركك أن تكون كوكباً يسطع لألأوه في بلاط الملك، فإذا توفرت على ذلك رغبتك، فإنني متذذك لي ناموساً خاصاً».

فتقرب منه هذه الملة شاكراً، وصحبه الوزير معه عند عودته إلى غرناطة، وازداد إعجابه به عندما أخذ بيادله الحديث في شؤون الدولة، إذ وقف منه على رجل نادر الذكاء بين الرجال، بعيد النظر، سديد الرأي، حتى قال بعض المؤرخين اليهود: «إن النصائح

التي كان يسديها صمويل كانت بمثابة أقوال صادرة عن إنسان ملهم يستوحى كلام الله ويسقّرها.»

ولهذا كان الوزير يأخذ بها، ويخصه بجميل الثناء، ولما أحس الوزير بدنو الأجل في مرضه الذي مات فيه، جاء الملك يعوده، وقد داخله حزن عميق على وزيره، وخدمه الأمين الذي سيفقده ولا يجد من يخلفه، فانتهز هذه الفرصة وقال للملك: «لم تكن النصائح والآراء الرشيدة التي كنت أبديها لك أليها الملك في العهد الأخير صادرة مني بل كانت وحيًا أتلقاه من صمويل ذلك اليهودي الذي آثرت أن يكون ناموسي الخاص، فأقصر نظرك عليه واتخذه أباً لك وزيراً، أخذ الله بيده، وشد به أزرك». وقد عمل حيوس الملك بهذه النصيحة، وأحلَّ صمويل بالقصر محل وزيره الراحل، وصار هذا اليهودي ناموس الملك ومستشاره.

وربما لا يحدثك التاريخ عن رجل يهودي حكم في دولة إسلامية حكمًا مباشرًا وصريحًا باسم وزير مستشار إلا في هذه المملكة الإسلامية.

على أن بعض اليهود قد تمتع — على الأرجح — بشيء من الاعتبار والحظوة لدى بعض ملوك المسلمين الذين كانوا يستعملونهم غالباً على وزارة المالية، ولكن التسامح لم يبلغ بالإسلام إلى حد أن يقولي يهودي منصب رئيس الوزراء، وإذا جاز هذا الأمر في جهات أخرى فلم يكن ليجوز في غرناطة تلك المدينة التي كثُر عدد اليهود المقيمين بها حتى أطلقوا عليها اسم مدينة اليهود،^٢ ولما كانت في أيديهم معظم الثروة فقد كانوا يتدخلون غالباً في شئون الدولة.

وصفوة القول أن اليهود وجدوا هنا أرضًا أخرى غير الأرض الموعودة من الصحراء وصخرة حرب.

ويصبح أن يفسر سمو صمويل إلى هذا المنصب بأسلوب آخر، فإنه لم يكن من السهل على ملك غرناطة، أن يعثر على من يقلده منصب الوزير الأول، إذ من المحقق أنه لم يكن في استطاعته أن يسند هذا المنصب الخطير لا إلى رجل من البربر، ولا إلى آخر من العرب. وقد كانوا يؤثرون — في ذلك الحين — أن يكون الوزير أديباً قد بلغ في الأدب الغاية وملك ناصية البيان، كي يستطيع أن يحرر الرسائل التي ترسل إلى الملوك بالنشر المبدع، والأسلوب الرائع الممتع، وقد كان ملك غرناطة يرحب في أن تتوافر هذه المواهب عنده، ومثله في ذلك مثل صعلوك يعمل على أن يكون من العظاماء، ولما كان نصف بربيري بذلك كل ما في وسعه حتى لا يظهر بهذا المظهر، وكان يتمنى — من أعماق نفسه — أن يكون

ذا علم وأدب، وكان يزعم — حتى لا ينسب إلى ضعة النسب — أن السلالة التي انحدر منها — وهي صنهاجة — لم تكن من عنصر البربر بل كانت من عنصر العرب.^٣ فلكل هذه الاعتبارات كان لا بد له من وزير مضططع بفنون الأدب لا نظير له عند جيرانه، ولكن أتى له أن يظفر بذلك؟

إن البربر الذين عنده كانوا لا يحسنون إلا عملاً واحداً هو القتال والاستيلاء على المدن ونهب ما فيها من الأموال والذخائر وصرفها وتخربيها، ويعجزون بعد ذلك عن النطق الفصيح، أو كتابة سطر صحيح بلغة القرآن، والعرب الذين كانوا يخضعون لسلطانه كانوا لا يحملون هذا النير على عاتقهم إلا وهم يرجفون غضباً ويضطربون حمية وحجاً، ويرون خيانته عملاً شريفاً، فهو لا يستطيع أن يأمن جانبهم، وقد ساعته الظروف فرأى يهودياً مثل صمويل شهد له علماء العرب أنفسهم بالاستبحار في العلوم وفقه أسرار لغة العرب، ومما يشهد له بالمهارة والصدق أنه مع حرصه على التمسك بدينه، كان لا ينحرف وهو يكتب لأساطين المسلمين عن أن يستعمل في رسائله ومكتباته الصريح والنصوص والعبارات الدينية المألوفة عند كتاب المسلمين، فلا بد أن يكون هذا الرجل قد أحرز من البلاغة العربية كنزاً شيئاً كان ينفق منه كلما أراد الكتابة، ولهذا لم يشعر الملك — وقد رفعه إلى منصة رئاسة الوزارة — بخجل، والعرب أنفسهم في اليهود فقد أذعنوا اضطراراً ووافقو عليه، وعلى الرغم من عدم تسامحهم وارتيافهم في اليهود فقد أذعنوا اضطراراً واعترفوا بعقرورية صمويل ونبوغه ومزاياه، وفي الحق أنه كان متحللاً بمختلف العلوم، زاخر العباب فيها، فهو الرياضي المنطقى الفلکي الذي يجيد — فوق ذلك — سبع لغات، أضف إلى هذا أنه — بوجه عام — كان كثيراً ما يكرم الشعراء ورجال الأدب، والكثير منهن خصهم بنواله، لم يقتصروا في إطرائه ومدحه والثناء عليه، وقد دخل في غمار من مدحه الشاعر منفائيل.

ووجه إليه بالكلمة التالية التي لا يذكرها المسلمون، إلا مقرونة بفزع واستنكار عظيمين:

«أيها العلم الفرد الذي جمعت في شخصك من المزايا والسبل الحميدة ما لم يظفر سائر الناس إلا بجزء يسير منه، أنت يا من أطلقت الجود من محبسه بعد أن كان سجينًا، إنك لأسمى الناس قدرًا وأرفعهم منزلة في الشرق والغرب، فإنك كالذهب قيمة وسائر الناس كالنحاس ... إلخ.»

وأما الذي كرهه العرب من آثار ذكائه الحقيقي فهي الخدمات العديدة التي أداها للأدب العربي، فقد نشر باللغة العربية مقدمة للتلמוד، وقعت في اثنين وعشرين جزءاً جعلها خاصة بالغرامatic، ومن أهم كتب الغرامatic وأوفرها مادة «كتاب الثروة» صنفه قاضٍ من أقضى القضاة، وأكثرهم ثقافة ودراءة، كان على دين صمويل الذي ازدهر بالمعارف والبحوث في القرن الثاني عشر، وقد وضع هذا الكتاب في المرتبة الأولى من الكتب التي بحثت في الغرامatic، كان هذا المؤلف شاعراً أيضاً، وقد نسج على منوال المزامير، وابن سيراخ، لما كانت أشعاره مفعمة بالكتابات وأمثال العرب والحكم المختلسة من أقوال الحكماء وال فلاسفة، والمعانى الشعرية التي اخترعها الشعراء الجيدين، فقد أصبح من العسير – إلا على الخاصة – تفهم معانيه. على أن أكبر علماء اليهود كان يتذرع عليه فهم غواصيه ما لم يستعن بالمتون والشروح والتعليقات.

ولما كان التعمق والبحث في آداب اللغة العربية أكثر شيوعاً منها في اللغة العربية التي هي صورة منها، ونموذج لها، كان الغموض لا يعد نقراً وعيّاً، بل يعد من الدراية والكافية العلمية.

وكان صمويل يسهر على مصالح اليهود، ويعنى عنایة أبوية بالشبيبة اليهودية، يتقدّم رقيق الحال منهم، ويمدهم بما يسد حاجاتهم – عن كرم وسخاء – وكان في خدمته كتاب ينسخون المنشا والتلמוד، فكان يوزع نسخها جوائز على التلاميذ الذين لا يملكون شراءها، ولم تكن مكارمه وخيراته وإحساناته لتقتصر على أتباع دينه في إسبانيا فحسب، بل كانت تتعادهم إلى أمثالهم في إفريقيا وصقلية وبيت المقدس وبغداد، وقد أصبح اليهود في كل صقع وبلد يعتمدون على معونته وكرمه.

لهذا عمد اليهود في غرناطة إلى أن يرهنوا على إخلاصهم وحبهم وولائهم واعترافهم له بالجميل عليهم وعلى أبناء دينهم، فمنحوه لقب «ناغد» أي زعيم أو أمير يهود غرناطة. ولما كان زعيم أمة ورئيس دولة فقد ضم إلى رجاحة العقل وتقدّم الذكاء يقطنة وتبصرّاً وحزمّاً، وصفات خلقية ثابتة جعلته في مصافّ كبار الزعماء والرؤساء، فكان يتكلّم قليلاً ويفكر طويلاً، وهذه في العادة من أعظم صفات الرجل السياسي المحنك.

وكان يهتم بالفرص فلا يدعها تمر دون أن يستفيد منها عن حنكة وخبرة ودرية، وكان علىّاً بأخلاق الناس وميلهم، خبيراً بالوسائل التي يتغلب بها على رذائلهم وشرورهم، وكان – فوق هذا – جميل الهدام حسن الهيئة مشرق الطلعة، ففي مجالس الحمراء البدية كان يبدو أنيقاً رشيقاً حتى ليخيل للناظر إليه أنه نشأ منذ نعومة أظفاره

في أحضان الأنقة الفاخرة، ولم يكن أحد ليجيد الكلام بلباقة وحذق مثله، ولا ليفنن في التظير في الحديث ويتمكن محدثه ويتملك بقوة بيانه مشاعر محدثه مثله، ويندر فيمن أسرعت بهم عجلة الحظ فرفعتهم فجأة من الحضيض إلى ذروة المجد لا يكونوا على نمط أولئك الذين كانوا فقراء، فأصبحوا أغنياء، فإن كثيراً منهم يغلب عليه طبعه الأول فينحيط إلى درجة صعلوك وقح مفتون، وصمويل لم يكن على نمط أولئك، بل كان كمن نشأ في السيادة والمجد منذ ولادته.

ولما كان ذا عطف محجاً للجميع، فقد أضاف إلى سجاياه الكريمة خلقاً نبيلاً، متصلأً في نفسه، هو التخلي عن صفة الادعاء الكاذب، فهو – بدلاً من أن يخجل من عمله الذي كان يزاوله من قبل فيعمل على إخفائه – كان يعلن لحدثه ومن يعييه عليه، وكان يعلن ذلك في صراحة وبساطة تقنع محدثه أنه يعتري إلى عمل شريف.

وأما ابن عباس وزير زهير أمير المرية فقد كان رجلاً فائق الشهرة عظيم الخطر، وقد قالوا عنه إنه اختص بأربعة أشياء لا يدارنه فيها غيره:

- (١) الأسلوب الإنساني
- (٢) الثروة
- (٣) البخل
- (٤) الكبر

فكان ثروته – على الحقيقة – لا تقع تحت حصر، وقد قدروها بما يربو على خمس مئة ألف دوكاً^٤

وكان قصره – لفخامته – كقصر ملك مؤثثاً بأفخر الأثاث والرياش غاصاً بالخول والعيدي، فيه نحو خمس مئة قيئنة جميعهن ذوات جمال رائع نادر، ومما هو خليق بالإعجاب في قصره هذا مكتبه الفاخرة التي كانت تحوي عدا الكراسات المنفصلة زهاء أربع مئة ألف مجلد، وقد تمت السعادة لهذا الرجل فلم يعد ينقصها شيء، فقد كان بهي الطلعة جميلاً شاباً، قد أوقفت سنه على الثلاثين، ينحدر نسبه من أسرة عريقة، يرجع أصلها إلى بعض قبائل العرب التي نصرت النبي ﷺ

وقد كان لكثره الثراء يسبح في بحر من الذهب، ولما كان عليماً بفنون الأدب قديراً على التعبير عن آرائه في عذوبة ولطف ورقة، ذاعت شهرته الأدبية وتردد ذكره في المحافل

والأندية، وتوافر الناس على محبته وتقديره. ولكن مما يؤسف له أن شيئاً من الخوف والارتباك قد ملأ فؤاده، وتملك عليه مشاعره، وأصبح ينتابه من الوساوس والشكوك والاضطرابات المفزعية ما لا حد له، ومن جراء ذلك كثُر أعداؤه، وقل أولياؤه، وكان أهل قرطبة من أشد الناس نفقة عليه — لكبريائه وغطرسته — فقد حدث مرة أن زار مدinetهم مع زهير، فواجه بكل احترام وزراعة أكبر رجل من عظماء قرطبة المتأذين بأصل أروماتهم وبمواهبهم الخلقية والعلمية، وكان مما جبه به ذلك العظيم قوله: «إني لا أرى في مدinetكم هذه سوى صعلوك سائل، أو مأفون جاهم».

وفي الواقع كانت أوهام هذا الرجل ودعواه الجوفاء قد وصلت إلى حد السفه والجنون، وقد جاء في شعره من الغلو والإغراق في القول ما معناه: «لئن كانوا قد أصبحوا كلهم عبيدي، فإن نفسي لن يقنعوا بذلك ولن تسكن إليه».

ومن أبياته التي كان يرددتها في كل مجلس وعند كل مناسبة، وبخاصة إذا كان يلعب الشطرنج ما مضمونه: «قد أمن الشقاء جانبي، وهو من نوع البتة أن يحوم حولي، أو ينزل بساحتي».

وهذه القحة التي كان يواجه بها القضاء، ويجبه بها القدر، كانت مبعث إثارة النفوس والخواطر ضده، مما حمل شاعراً جريئاً على أن يجهز بما يعبر به عن الرأي العام، فأحال الشطر الثاني إلى ضد معناه، وذلك حيث يقول: «ولكن القدر الذي لا ينام سيوظف راقد الشقاء».

ولما كان ابن عباس عربياً قحّاً، أصبح يكره البربر ويحتقر اليهود. وربما كانت تقضي عليه ميوله بأن لا ينضم ملكه إلى الحزب العربي الصقليبي، ذلك الانضمام الذي تكون نتبيحة الالزمة، إيداع زهير غيابة السجن بيد قاضي إشبيلية زعيم هذا الحزب. وقد كان امتعاضه من زهير شديداً لمحالفته ملگاً من ملوك البربر، اتخاذ له وزيراً يهودياً كان شديد الكراهة له، وهو يعلم ذلك، وقد تمالاً مع ابن بقية^٦ وزير الحمويين بمالة وعمل على خلع إسماعيل بأن اختلق لإدراك هذا الغرض عدة وشایات ودسائس لم تفلح، ثم عمد بعد ذلك إلى أن يوقع ملكه مع ملك غرناطة بأن يجعله يقدم مساعدته لحمد أمير قرمونة وعدو حبوس، وقد نجح في محاولته هذه.

وبعد فترة من الزمن واف الأجل المحتوم حبوس في يوليو سنة ٦١٠٣٨ وقد أعقب ولدين باديس^٧ وهو بكره، وبليقين، وهو أصغر منه. وأراد البربر وجماعة اليهود أن يتباوا صغيرهما العرش، وأخرون من اليهود بينهم إسماعيل، ومعهم العرب، كانوا يمليون إلى

جانب باديس. وكان لا بد — لهذا الخلاف — من أن تنشب حرب أهلية، لو لم يبادر بلقين إلى التنازل عن العرش لباديس والدخول في طاعته، فهذا حذوه أنصاره مكرهين.^٨ وأول عمل عمله الأمير الجديد أنه بذل كل ما في وسعه لتوطيد أركان المحالفه بينه وبين أمير المريه، وقد صرخ هذا الأخير بأن كل شيء تتم تسويته عند المقابلة. وخرج في حرس تام العدد والعدة، ومنظر يستوقف الأ بصار، واجتاز حدود مملكة باديس — على غير علم منه — إلى أن صار فجأة على أبواب غرنطة، فأثار هذا العمل — الحالي من اللياقة — في نفس باديس. ومع هذا فقد قابله بكل حفاوة، وأولم له ولن معه وليمة فاخرة، وغمر أتباعه بالعطايا والهدايا، وعلى الرغم من هذه الحفاوة البالغة، فإن المفاوضات التي دارت بينهما، على عقد تحالف وطيد، لم تسفر عن نتيجة، إذ لم يستطع الأميران ولا وزيراهما (كان إسماعيل لا يزال وزيراً في مكانه) أن يتفقا على شيء، وكان في مقابلة ما فعله باديس من الحفاوة بضيوفه، أن أميرهم زهيراً،^٩ بتأثير وزيره ابن عباس حين اجتمع بباديس، تظاهر أمامه بعظمة تركت في نفسه أثراً سلبياً، وجعلته يبيّن التناية على الإيقاع بأمير المريه، وتأدبيه أدبًا يكون كفاء لقوته وجفائه، وصمم على الإيقاع بوزيره أيضاً لما بدا منه من عناد وفظاظة حين عول أخوه بلقين، وأحد قواده، أن يبذل آخر محاولة للتوفيق بينهما.

وتفصيل الخبر أن بلقين ذهب حين أقبل الليل إلى حيث مجلس ابن عباس وخاطبه بقوله: «اتق الله — أيها الوزير — واحش عقابه، فأنت الذي يحول دون اتفاق أميره، وقد رأيناه أطوع لك من بنانك، لا يصدر إلا عن رأيك، ولا يعمل إلا بمشورتك، ولعلك تدرك أكثر مما ندرك مبلغ ما وصلنا إليه من السعادة، ومواتاة الحظ، في الوقت الذي كنا نعمل فيه متفقين، حتى لقد حسنا جميع أعدائنا. وإن فواجتنا جميعاً أن نعود إلى ما كنا عليه من الاتفاق والمحالفه. والشرط الذي لم يتم عليه الاتفاق بيننا، هو مبلغ المعونة التي تمدون بها محمدًا أمير قرمونة. فلنندع هذا الأمير وما يخبوه له القدر من حظ — وذلك ما يريده أميرك — ثم لنتفق بعد هذا على تسوية جميع الشروط، فإن كل شيء — بعد نقطة الخلاف هذه — ميسور وسهل.»

فرد عليه ابن عباس بلهجة قاسية، تشف عن نفوذ وسلطان قاهر من جهة، وعن امتهان لحدثه وزرارية عليه من جهة أخرى. ولما حاول أخو أمير البربر وسفيره أن يعالجه من ناحية العاطفة، قام إليه معانقاً باكيًا، فلم يؤثر فيه بمعانقته ودموعه، بل قال له: «وَفَرْ علىك هذه المظاهر الكاذبة، والعبارات الفارغة، فإنها لا تترك أي أثر في نفسي، وإن ما

قلته لك آنفًا، هو ما أعيده على مسامعك اليوم، فإذا لم تعمل أنت وأصحابك على تنفيذ ما نريد، فسأعمل بعد على ما يدعوك إلى الحسرة والندم».
فأخرج بلقين هذا الرد وأجابه بقوله: «هل هذا هو جوابك الذي أحمله إلى المجلس؟»
فقال ابن عباس: «هو هذا بدون شك. ولك أن تبالغ في قولي ما شئت، وتزيد في لهجته شدة ما استطعت».

فبكى بلقين حمية وغضباً لما لاحقه من الإهانة والازدراء، وعاد إلى باديس، وجلسه منعقد، فأفضى إليه بكل ما دار بينه وبين ابن عباس من حديث، وأصابه من عنق. فامتنع باديس صنهاجة امتعاضاً شديداً وقال: «إن وقاحة هذا الرجل لا تحتمل. فقوموا جميعاً، قومة رجل واحد للدفاع عن كرامة المملكة، وإلا فإنكم – وما تملكون – تصيرون ملكاً لغيركم».

وقد شاطره الغرناطيون هذا الغضب، وظهر بلقين، أشد من أخيه باديس حماسة وغضباً، وطلب إليه – في عنف – أن يتخذ أهل المرية في الحال، ما يلزم من التدابير نحو هذا الطاغية وملكه، فقطع على نفسه عهداً بذلك.
وكان لا بد لزهير في العودة، من اجتياز قنطرة لا مهيد له عنها.

فأمر باديس بقطع هذه القنطرة، وأرسل جنوده فاحتلوا تلك المضايق والأوعار، ولم يكن حنقه على زهير شديداً ك أخيه، ولم يبيس من عود صديق والده القديم إلى ما كان عليه من عواطف سامية، وميل شريفة، ولهذا عول على أن ينبهه في الخفاء إلى الخطر المحقق به، فعمد إلى حرسٍ من البربر من جند المرية، وبيعثه إلى زهير رسولاً، فوافاه ليلاً وأسرَّ إليه بما يلي: «أخبرك يا مولاي – وأنا صادق فيما أقول – أنك ملاقٍ غداً من المخاوف والمصاعب، إذا أنت اجتررت القنطرة في طريق عودتك، ما تتعرض معه لأشد أنواع الخطر والهلاك. فأنصحك أن تخف للرحيل – منذ الليلة – قبل أن يتسع الوقت لجند غرناطة فيحتلواها ويضيقوا عليك الخناق. وإذا نجوت سريعاً، وحدث أنهم تتبعوك، كان في استطاعتك أن تدبر معهم معركة في براح من الأرض بعيداً عن تلك المضايق، أو تلحق بإحدى قلاعك ف تكون في مأمن من غاياتهم».

ويظهر أن هذه النصيحة صادفت من نفس زهير قبولاً، ووَقَعَت منه موقع الإعجاب، إلا «ابن عباس» الذي كان حاضراً وقت أن أفضى الرجل إلى زهير بهذا الحديث، فقال له: «لا عليك أيها الأمير، فإن الخوف هو الذي جسم في خيال هذا الرجل أن يحدثك هكذا».

فصاح الحَرَسِيُّ: «أَيُّ خَوْفٌ هَذَا؟ الْمُلْتَلِي تَقُولُ هَذَا الْكَلَامُ، وَأَنَا الَّذِي اشْتَرَكَ فِي عَشْرِينَ مَعْرِكَةً فِي حِينَ أَنَّكَ لَمْ تَشْهُدْ فِي حِيَاتِكَ مَعْرِكَةً وَاحِدَةً؟ وَسَتَرِي — عَنْ مَعَايِنَةِ الْحَادِثِ غَدَّاً — أَنِّي لَمْ أَغْشِ الْأَمْيَرَ حِينَ نَصَحْتَهُ». وَغَادَرُهُمَا مَغْضَبًا.

وَقَدْ زَعَمَ أَعْدَاءُ ابْنِ عَبَّاسٍ (وَقَدْ قَلَّا سَابِقًا إِنْهُمْ كَثِيرٌ) أَنَّهُ رَفَضَ نَصِيحةَ جَنْدِي الْبَرْبَرِ لَا لِأَنَّهُ اسْتَهَانَ بِهَا، بَلْ لِأَنَّهُ كَانَ يَرْمِي إِلَى هَلَكَ زَهِيرَ طَمْعًا فِي الْإِسْتِئْنَارِ بِحَكْمِ الْمَرِيَّةِ عَلَى أَمْلِ أَنْ يُقْتَلَ زَهِيرٌ فِي الْمَعْرِكَةِ وَيُرَكَّنُ هُوَ إِلَى الْفَرَارِ، فَيُنَادِي بِهِ مَلِكًا عَلَيْهَا، وَرَبِّمَا كَانَ لِهَاذَا الْزَّعْمُ ظُلُّ مِنَ الْحَقِيقَةِ، وَسَنَرِي عَلَى الْأَقْلَى أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سَيَفْخُرُ أَمَامَ بَادِيسَ بِأَنَّهُ اسْتَدْرَجَ زَهِيرًا حَتَّى وَقَعَ فِي الشَّرِكِ.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي (١٥ آغْسْطِسَ سَنَةِ ١٠٣٨) أَلْفَى زَهِيرَ نَفْسَهُ وَرَاءَ تِلْكَ الْمَجَازَاتِ وَالْمَضَائقِ مَحْصُورًا، وَقَدْ أَحَاطَ بِهِ جَنُودُ غَرْنَاتَةَ، فَذَعَرَ جَنُودُهُ ذَعِيرًا شَدِيدًا، وَعَمِّمُوهُمُ الْحَزَنَ وَالْكَمْدَ. أَمَّا هُوَ فَكَانَ حَاضِرُ الْذَّهَنِ حِيثُ رَتَبَ الْمَشَاهَةَ مِنَ الزَّنْجَوْجِ، وَكَانُوا خَمْسَ مَائَةً رَاجِلًا، وَالْمَشَاهَةَ مِنَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ وَأَمْرِ الْقَائِدِ هَذِيَّلًا، بَأَنْ يَتَقدِّمَ عَلَى رَأْسِ الْفَرَسَانِ الصَّقَالِبَةِ وَيَنْقُضَ عَلَى الْعَدُوِّ فَصَدِعَ هَذَا بِالْأَمْرِ، وَلَمْ تَكُنْ تَبْدَأُ الْمَعْرِكَةَ وَيَلْتَحِمُ الْفَرِيقَانُ، حَتَّى سَقَطَ هَذِيلٌ عَنْ جَوَادِهِ وَلَمْ يَعْرِفْ سَبِبَ سُقُوطِهِ، أَمْنٌ طَعْنَةٌ رَمَحٌ أَمْ مِنْ كَبَوَةٍ فَرَسَهُ؟

وَسَرَعَانَ مَا لَذَ الْفَرَسَانُ بِالْفَرَارِ بِغَيْرِ الْإِنْتَظَامِ، وَفِي نَفْسِ هَذَا الْوَقْتِ الْمَشْتَوْمِ، خَانَ الزَّنْجَوْجِ زَهِيرًا — وَكَانَتْ لَهُ فِيهِمْ ثَقَةٌ عَظِيمَةٌ — وَانْتَصَمُوا إِلَى أَعْدَائِهِ، بَعْدَ أَنْ اسْتَولُوا عَلَى مَا لَدِيهِ مِنْ عَدَّةٍ وَسَلَاحٍ وَلَمْ يَبْقِ مَعَهُ — وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ — سَوْيَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ وَهُمْ أَخْلَاطٌ مِنْ أَرْدَأَ الْجَنْدِ غَيْرِ مَدْرَبِينَ عَلَى الْقَتَالِ. فَأَسْرَعَ هُؤُلَاءِ أَيْضًا بِالْهَرْبِ، وَتَبَعَهُمْ زَهِيرٌ طَوْعًا أَوْ كُرْهًا.

وَلَا كَانَ الْجَسْرُ مَقْطُوْعًا، وَأَطْرَافُ الشَّعَابِ وَالْمَضَائقِ مَحْتَلَةٌ بِجَنْدِ غَرْنَاتَةَ، لَمْ يَسْعِ الْفَارِينَ إِلَّا أَنْ يَعْتَصِمُوا بِرَءُوسِ الْجَبَالِ. فَأَعْمَلُ الْغَرْنَاطِيُّونَ — فِي أَغْلِبِهِمْ — السَّيُوفَ، وَمِنْ لَمْ يَنْلِهِ السَّيْفَ مِنْهُمْ، تَرَدَّى فِي مَهَأِوِّ عَمِيقَةٍ، وَطَاحَ هَذَا الْعَدَدُ، وَبَقَى زَهِيرُ وَحْدَهُ. وَأَخْذَ أَرْبَابَ الْوَظَائِفِ — مِنْ غَيْرِ الْجَنْدِ — أَسْرَى، عَمَّلَ بِأَوْامِرِ بَادِيسَ، الَّذِي أَوْصَى رَجَالَهُ بِالْإِبْقَاءِ عَلَيْهِمْ، وَفِي عَدَادِهِمْ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَدْ صَرَحَ أَنَّ أَخْوَفَ مَا يَخْافُهُ — وَقَدْ وَقَعَ فِي قَبْضَتِهِمْ أَسِيرًا — مَكْتَبَتِهِ الْحَاوِيَّةُ لِأَنْفُسِ الْكِتَبِ وَأَكْثَرُهَا عَدَدًا، وَصَاحَ قَائِلًا: «رُحْمَكَ رَبِّي وَعُونَكَ، إِلَى أَيِّ مَصِيرٍ تَصِيرُ كَتَبِي؟»

وجعل يتسلل بالجند الذين يسوقونه إلى باديس ويقول لهم: «انهبوا إلى ملکكم، وسلوه أن يعني العناية كلها بكتبي وأن لا يحرق منها شيئاً، فإن من بينها كتاباً لا تقوم بوزنها ذهباً».

ولما مَثَّلَ بين يدي باديس، أراد أن يخدعه بقوله: «ألم تر أنني قد خدمت مصلحتك حين أوقعت — في حبائك — هؤلاء الكلاب؟ وأشار بيده إلى الأسرى من الصقالبة. وأريد في مقابلة ذلك أن تسعى بدورك في صالحني، وذلك بأن تأمر باستبقاء كتبى، والمحافظة عليها، فإنه لا شيء أعز علىّ منها».

وفيمما هو يخاطبه كان أسرى المرية يرمقونه بأنظار يتطاير منها الشرر حنقاً وغيطاً، وحمل الغيط أحد رؤساء الجنود، وهو ابن شبيب على أن يقول لباديس: «أستحلفك — يا مولاي — بمن جعل النصر حليفك، ألا تدع هذا الخائن الذي أضاع مملكتنا، يُقتل من يدك، فإنه هو وحده الذي جنى علينا كل ما وقع. وإذا أتيح لي أن أشهد مصرعه، وما يحل به من العذاب الأليم، فسأكون أول من يقدم نفسه عن اختيار لضرب رأسه بعده».

فافتر ثغر باديس عن ابتسامة لطيفة عند سماعه لهذه الكلمات، وأمر بإطلاق سراحه. وكان ابن شبيب هذا هو الوحيد الذي نجا بحياته من أسرى الجيش، لأن عامة الأسرى الباقيين تسلّمهم الجلاد على التعاقب لضرب أعناقهم، كما أنه أطلق سراح الأسرى الملوكين من أرباب الوظائف، وأبقى ابن عباس وحده على تلك الحال من الأسر والاعتقال.

والآن عرف هذا الوزير المتكبر مبلغ ما حل به من الشقاء الذي تَقَحَّمَهُ بإقدامه الجنوني، وتحققـت نبوءة شاعر المرية، وأيقظ القدر الذي لا ينام راقد الشقاء. وأودع ابن عباس سجنه في قصر الحمراء، وكبل بسلاسل وأغلال لا يقل وزنها عن أربعين رطلاً، وعرف أن باديس مغيط محنق قد اشتد غضبه عليه، وأن إسماعيل لا يرضى بغير موته، ومع هذا، فقد كان بعض الأمل يجيش بصدره، إذ عرض على باديس إطلاق سراحه مقابل ثلاثة ألف دوكا، فأجاب بأنه سينظر في طلبه بعين الاعتبار. ومضى شهراً دون أن يبيت في أمره. وفي غضون هذه المدة وفـد على قصر باديس كثيرون، مطالبـهم متعارضة في شأن الأسرى. فرسول قرطبة كان يطلب إطلاق الأسرى، وبخاصة ابن عباس وتلاه رسول آخر هو الأحوص بن صمادح صهر عبد العزيز حاكم بلنسية ورسوله، وطلب بإلـحاح قتل جميع الأسرى، وفي مقدمـتهم ابن عباس.

ومنشأ ذلك أنه — على أثر وقوع هذه الحوادث — كان عبد العزيز قد بادر بالاستيلاء على المريمة بدعوى أن من حقه أن تؤول إليه، لأن زهيرًا كان من الأمراء التابعين لأسرته، وهو يخشى أن يطلق سراح ابن عباس والذين معه فینماز عه في هذا الحق. ولم يدر باديس إلى أي الجانبين يميل، فإن الطمع في ثروة ابن عباس، وحب الانتقام منه، كانا يتنازعان فؤاده.

وفي مساء ذات ليلة، بينما باديس وأخوه يتذهان على صهوة جواديهما خارج المدينة، إذ طلب باديس من أخيه أن يصرح له برأيه فيما عرضه ابن عباس عليه من الفدية، فقال له: «إنك عندما تقبل دنانيره، وتفك أسره، يثير عليك حرباً تكلف ضعف ما تأخذ من الفداء، وعندك أنه يجب أن تودي بحياته وشيئًا».

ولما عاد من المتنزه بادر باديس إلى استدعاء أسيره وأخذ يعدد عليه أخطاءه، وما بدر منه من ألفاظ جافة مقدعة، وابن عباس مستسلم مصيخ بسمعه لما يوجهه إليه من جارح القول.

ولما فرغ الملك من كلامه، قال ابن عباس: «أتوسل إليك يا مولاي، بكل عزيز عليك أن ترحمني وتنقذني من آلامي».

قال له باديس: «سأريحك من آلامك اليوم».

ولمح باديس على أسارير أسيره الحزين الممتنع اللون، بصيحاً وشعاعاً من الرجاء، فصمت لحظة يسيرة، ثم استأنف كلامه، وكثّر عن أنيابه بابتسامة فيها كل معاني الانتقام والوحشية، وقال له: «إنك لا محالة ذاuber الأن إلى حيث تزيد آلامك».

وتراطن مع أخيه بلغة البربر التي لا يفهمها ابن عباس. ومن كلام باديس الأخير وابتسامته الرهيبة، وشكله المروع الغاضب، لم يبق عند ابن عباس شك في أن ساعته الأخيرة قد دنت، فجثا على ركبتيه وقال: «استخلفك بالله أن تبقي على حياتي وتشقق على زوجاتي، وترحم أولادي الصغار، ولك أن أقدم ثلاثين ألف دوكاً بل سنتين ألفاً».

وكان باديس مصغياً لكلامه، لا ينبع ببنت شفة، ثم عمد إلى رمح قصير وطعنه به في صدره، وهذا حذوه أخوه بلقين وتبعه علي بن القروي، وانهالوا عليه بالطعنات، ولم تنقطع استصراخاته وتسلاته، إلا بعد أن برد في مصرعه عند الطعنة السابعة عشرة.^{١٠}

وسرعان ما ذاع الخبر في غرناطة بمقتل ابن عباس، ذلك الغني المتكبر المتعجرف، وقد كان سرور الإفرقيين عظيماً. وكان أعظم الناس سروراً إسماعيل الذي لم يبق أمامه إلا

عدو واحد خطير، وخصم لدود، هو ابن بقية. وكان «إسماعيل» هاتف خفي يعتاده في الحلم، قد ألقى في روعه أن هذا العدو سيلقي حتفه ويلحق بابن عباس عاجلاً. واليهود في هذا كالعرب، يتوهمنون أن سرّاً من الأسرار يلهمهم وهم في نومهم بنبوءات عن المستقبل. وعاده الحلم ذات ليلة، فسمع في نومه هاتفاً يردد ثلاثة أبيات بالعبرية هذا معناها: «لقد هلك ابن عباس وشيعته والملتفون حوله، وهذا الوزير الآخر الذي كان يظاهره ويتأمر معه يوشك أن يقتل مثله، ويوطأ كالجلبان ويداس، فماذا كانت عاقبة ثرثثهما وحمقهما واعتدادهما بقوتهما؟ لقد دارت الدائرة على أحدهما، وعما قليل يلحقه الآخر، فلله الحمد والشكر».

وبعد بضع سنين تحققت نبوءة إسماعيل — وسنضطر إلى ذكر مقتل هذا الوزير فيما بعد — وصح الآن أن الشعور بالخوف، أو الحب، يجعل في الشخص سرّاً غريباً يدرك به بعض الأمور الغيبية.

الفصل الثالث

في الوقت الذي باقت فيه باديس زهيرًا وجنى عليه، كان قد أدى — مرغماً، وبدون قصد منه — خدمة جليلة للحليفين اللذين اعترفا بهشام المزعوم ك الخليفة. وقد ذكرنا أن عبد العزيز^١ أمير بلنسية، استولى على إمارة المرية، ولم يكن في استطاعته في الواقع أن يمد حليفه — قاضي إشبيلية — لاضطراه للدفاع عن مملكته ضد إغارة مجاهد^٢ الذي كان يرى — بعين الحسد — اتساع مملكة جاره وما كان القاضي ليخشى وقوع حرب بينه وبين المرية فاطمأن من هذه الناحية.

وبدأ يفكر في مهاجمة البربر مبتدئاً بـ محمد^٣ أمير قرمونة لنزاع قام بينهما، وكان في الوقت نفسه يتآمر سرّاً مع فريق من الغرناطيين، ويبادلهم الرسائل، ويعمل على إشعال نار الثورة بها.

وبدأ كثير من أهل غرناطة يظهرون نفوراً واستياء من باديس. ويرجع هذا إلى ما قطعه على نفسه من عهود ووعد به من أمانى معسولة، فيبدء توليه الحكم، وعلى أثر ذلك صار يبدو قاسياً غليظ القلب شيئاً فشيئاً، ويظهر بمظهر الخائن اللثيم السفاك، وعكف على الشراب، فعم الاستياء منه، وأخذ الناس يلومون ويتألمون، ويشكو بعضهم إلى بعض، ثم أخذوا يتocomون خفية ويتناجون، ثم صرّح الشر فعادوا يتآمرون.

وكان زعيم هذه المؤامرة وروحها رجل أفافقى يقال له أبو الفتوح. ومن حديث هذا الرجل أنه ولد بعيداً عن إسبانيا من أسرة عربية كانت في جرجان.

وقد تلقى الأدب والفلسفة والفالك على أشهر أعلامها ببغداد، فكان عالماً مستبhrاً، وأديباً شاعراً، وفوق ذلك كان فارساً كمياً، وشجاعاً باسلاً، يمتهي الجواد الأصيل، وينتفضي السيف الصقيل.

هبط أبو الفتوح أرض إسبانيا سنة ١٠١٥ ليجني ثروة على الراجح. وبعد مدة اتصل بجناب مجاهد دانية، وكان هذا الأمير عالماً لغوياً وجرت بينهما مباحثات في الأدب، واشتغلماً بشرح «المجمل» في النحو، ثم قاتل في صف أمير سردينيا.

وكتيراً ما كان يعالج المسائل الفلسفية العويسية ويحاول استكناه المستقبل بواسطة علم النجوم وسير الكواكب. ثم رحل إلى سرقسطة مقر المنذر، فرحب به هذا الأمير أولاً، ثم اتخذه صديقاً، وعهد إليه بتأديب ابنه. ولكن يؤخذ مما رواه المؤرخ العربي الذي ننقل عنه هنا، أن العهد قد تغير، وتغير معه الأشخاص، إذ أبلغه المنذر يوماً، أنه في غنى عنه، وأن عليه أن ييرح سرقسطة.

فرحل أبو الفتوح إلى حيث تطيب له الإقامة في غرناطة، وجلس للتدريس، فكان يلقي محاضرات عن الشعر القديم، وبخاصة ديوان الحماسة، وكان إلى جانب هذا العمل العلمي، يقوم بعمل آخر، هو التنبؤ بالمستقبل، وقد خلق أعداء كثريين لباديس حين تنبأ على أحكام النجوم، بأن ياسر ابن عمه يطمع في الملك، وأن باديس سي فقد عرشه، ويتبعه ابن عمه مكانه ثلاثة عاماً.

وكانت نتيجة هذه النبوة أن وفق إلى تدبير مؤامرة اكتشفها باديس قبل حلول الموعد المحدد لتنفيذها، وتمكن أبو الفتوح وياسر، وأركان المؤامرة، من الفرار إلى خارج المملكة، حذراً من انتقام باديس، ولجئوا إلى قاضي إشبيلية، الذي كان لا ريب - شريكهم في هذه المؤامرة، ومحال أن نعرف إلى أي حد كان نصبيه فيها.

وفي هذه الفترة هاجم القاضي بجيشه الذي جرت العادة بأن يقوده ابنه إسماعيل، خصمه محمدأًمير قرمونة، فانتصر انتصاراً باهراً واضطررت مدینتا «إشبونة» و«أستيجة» إلى التسلیم، وحوضرت قرمونة نفسها.

ولما اشتد الضيق بمحمدأمير قرمونة، طلب المدد والعون من إدريس أمير مالقة، ومن باديس كذلك، فلبياً طلبه. ولما كان إدريس مريضاً، أرسل جنوده - بقيادة وزيره ابن بقية - وقاد باديس جيشه بنفسه وتلاحق الجيشان، وانضمما إلى بعضهما.

وكان إسماعيل واثقاً كل الثقة من بسالة جنده، ووفرة عددهم، فوطن نفسه على منازلة خصمه. ولكن باديس، وابن بقية، حين حسباً أن خصمهم يفوقهما، أو يدانيهما

عددًا، أبباً أن يشتبكأ معه في القتال، وأثراً أن ينسحبا، ويترکا أمير قرمونة برهة، فعاد أولهما أدرجاه إلى مالقة.

ووصل الآخر بجنوده إلى غرناطة، واقتفي إسماعيل في الحال أثر الغرناطيين. وكان من حسن حظ باديس، أنه بعد أن فارقه ابن بقية بنحو ساعة، أرسل إليه رسولًا على جناح السرعة يستنجد به وإلا سحق جيشه في لمحات بجنود إشبيلية، فطار إليه باديس ووقف الجيشان على مقرية من «أستيجة»، على تمام الأهة والاستعداد لقاء عدوهما، بثبات ورباطة جأش.

وقد وهم الإشبيليون، إذ حسبوا أنهم إنما يتعقبون جيشاً منهزمًا، فإذا بهم أمام جيش كامل العدة والعدد، فأفقدتهم تلك المفاجأة قوتهم المعنوية.

ووقع في صفوفهم الاضطراب عند الصدمة الأولى، وعيثًا حاول إسماعيل تعبئة الجيش للقتال، وبرز أمام الصفوف فكان أول الذاهبين ضحية المعركة، فلم يسع الإشبيليين إلا الفرار طلباً للنجاة.

وملك باديس ناصية الحال بعد هذا الانتصار البسيط المفاجئ، وبينما هو في معسكره قرب «أستيجة» عرته دهشة إذ وجد أبو الفتوح قد انحني أمامه متراميًا على أقدامه. وكان الذي حدا هذا الرجل إلى تلك المحاولة الخطرة، أنه حين عجل بمعادرة غرناطة — خوفاً على نفسه من باديس — ترك للقضاء أمر زوجه وولده الصغير وبنتيه، وكان قد وصل إلى علمه أن باديس أرسل إلى «قوادم» الزنجي، فألقى القبض على زوجه وأولاده بوساطة خواصه المقربين إليه، وأودعهم السجن. وكان معروفاً بأنه شديد الشغف بزوجه الغادة الأندلسية الفتية، كثير الحنون على ابنه الصغير وبنتيه، بحيث لا تطيب له الحياة دونهم.

وقد خشي أن ينتقم باديس منهم في شخصه، فجاء يلتمس الصفح عن زلته، وهو يعلم ما ركب في طبع عدوه من حب الانتقام، وما جبل عليه من الظلم والجبروت. جاء على أمل أن يرق له، ويعطفه عليه ما عطفه على عمه والد الزعيم الفار الذي كان رأس شركائه في المؤامرة.

وحين جثا أبو الفتوح أمام باديس قال له أبو الفتوح: «مولاي، حنانيك ورحمة بعبدك الجاني أمامك، وأنا أحقر لك ما تقطع معه أني بريء مما عزى إلي.» فكاد باديس يتميز غيظاً وحنقاً، وصرخ في وجهه وعيناه يتطاير منهما الشر: «كيف استطعت يا هذا — مع شناعة جرمك — أن تمثل أمامي؟ لقد بذرت بذور الشقاق

بين أفراد أسرتي، ثم جئتني الآن تزعم أنك بريء مما جنته يدك! أتحسب أنه من السهل عليك أن تخدعني؟»

فقال له: «مولاي، أُقسم عليك إلا ما رحمتني. ولا تنس أنك غمرتني بإحسانك وشملتني بحسن رعايتك، وهذه البلاد التي أنا ربّب نعمتها من العسر الشاق على أن أفارقها. وفي الوقت الذي أبعد فيه عنها أكون تعسًا شقيًا. ولا أكذب مولاي الحديث فإني ما فررت حين فررت مع ابن عمك، إلا لما تأكّد بيننا من صلات يعرفها مولاي، وأخشى أن يحل بي العقاب كشريك له في الجرم، وهذا أنا ما بين يدي مولاي أُعترف بالفارأ وأكفر أن الذي الجاني إليه محض الصدقة، وأؤكد أنني بريء، وأطمع في عفو مولاي وصفحة، وأنتظر أن يعاملني كملك عظيم ومولي كريم لا تحمل نفسه الكبيرة حقًا على صغير مثلّي، فارحم لهفتي، ورد إلى أسرتي، وعاملني بما أنت أهله.»

فقال له: «سأعاملك — إن شاء الله — كما تحب، وبما أنت خلائق به، فارجع إلى أهلك بغرناطة، وسانظر في شأنك عند عودتي إليها.»

واطمأن أبو الفتوح إلى هذا الكلام الذي لم يدرك مراميه لأول وهلة، وسار إلى غرناطة يحرسه فارسان. ولما كان بظاهر المدينة أرسل «قوادم» الزنجي — تنفيذًا لأمر مولاه — بعض غلمانه، فألقوا القبض عليه، وحلقوا رأسه ولحيته وأرکبوه جملًا، وأردفوه زنجيًّا جلًّا استمر يصفعه على التابع، والجمل يطوف به أحياي المدينة ويجوس به خلال ديارها حتى أفضوا به إلى السجن حيث أودعوه في غرفة من غرفه ضيقة لبث فيها هو وجندي من البربر أسر في معركة «أستيجة» وكان أحد شركائه في المؤامرة.

وعاد باديس بعد أيام إلى غرناطة ولم يكن قد بت في أمر أبي الفتوح بشيء، ولم يستطع أن يصنع به كما صنع بابن عباس لأن أخيه بلقين حال دون ذلك، ولم يعرف السبب الذي جعله يهتم بشأن هذا الفيلسوف إلى هذا الحد، إذ عمد إلى إظهار براءته، ودافع عنه بكل قوة حتى خيف أن يفضي ذلك إلى الاستياء. ولهذا تردد باديس في الفصل في أمر أبي الفتوح إلى أن حدث أن سكر مرة بلقين كما يقع ذلك كثيرًا مع أخيه باديس فأمر أخيه بلقين — وهو في غفوة الشراب — بإحضار أبي الفتوح وزميله المراقب له في السجن، وحين وقع عليه نظره أشبعه سبًا شنيعًا وإيلاماً وتقربيعًا، وقال له: «وهل صدقتك كواذب الطوالع أيها المنجم الخائن الكاذب، وما هي الفائدة التي عادت عليك الآن؟

ألم تَعْدَ أَمِيرِكَ ذَلِكَ السَّافِلَ الْمَغْرُورُ الَّذِي خَدَعْتَهُ، وَمِنْتِهِ الْأَمَانِيِّ الْكَوَافِدُ الْمَعْسُولَةُ
أَنِّي سَأَكُونُ تَحْتَ سُلْطَانِهِ؟ وَأَنَّهُ سَيَظْلِلُ فِي الْحُكْمِ ثَلَاثِينَ عَامًا، فَلِمَذَا لَمْ تَرْ نَحْسَ طَالِعَكَ
هِنْ بَدَا لَكَ سَعْدَ طَالِعَ أَمِيرِكَ، حَتَّى كَانَ يَتَسْنِي لَكَ أَنْ تَتَفَادَى مَا حَلَّ بِكَ مِنْ هَذِهِ
الْمَصَابِ الْأَلِيمَةِ؟ إِنْ حَيَاكَ الْآنِ أَيْهَا الْأَفَاكَ الْأَثِيمَ رَهْنٌ يَمْبَنِي.»

فَلَمْ يَنْبَسْ أَبُو الْفَتوحَ بِكَلْمَةٍ لَأَنَّهُ مَا غَامَرَ بِحَيَاَتِهِ إِلَّا طَمْعًا فِي لِقَاءِ زَوْجَتِهِ الْمُعْبُودَةِ، وَطَفْلَهِ
وَبَنْتِهِ الْمُحِبُّيَّتِينَ، وَلَأَنَّ عَاطِفَتِهِ الْمُلْتَهِبَةِ نَحْوَ أَهْلِهِ هِيَ الَّتِي أَكْرَهَتْهُ عَلَى الْمَغَامِرَةِ بِحَيَاَتِهِ
وَالْأَسْتِشْفَاعِ وَالْتَّوْسِلِ إِلَى بَادِيسِ وَاخْتَرَاعِ الْحِيلِ وَالْأَكَانِيْبِ. أَمَّا الْآنَ وَقَدْ صَارَ عَلَى يَقِينِ
مِنْ أَنَّ ذَلِكَ الْطَّاغِيَّةِ الْجَبَارِ لَا مَحَالَةُ قَاتِلِهِ، فَقَدْ اسْتَعَادَ إِلَيْهِ حَوَاسِهِ، وَتَلَقَّى زَئِرُ بَادِيسِ
وَزَمْجَرَتْهُ بِهَدْوَهُ وَرِبَاطَةِ جَأْشِ.

وَاسْتَعَادَ إِلَى نَفْسِهِ عَزْتَهَا وَكَرَامَتَهَا، وَظَهَرَ طَبْعُهُ الْمُتَنَّ، وَخَلَقَهُ الرَّصِينُ بِالْمَظَهَرِ
الْحَقِيقِيِّ، فَأَطْرَقَ مَلِيًّا، وَشَاعَتْ عَلَى شَفَتِهِ ابْتِسَامَةً مَطْمَئِنَةً سَاحِرَةً، وَصَمَتْ صَمْتُ مِنْ
يُشَعِّرُ بِكَرَامَةِ نَفْسِهِ وَعَزْتِهِ. وَقَدْ زَادَ هَذَا الْمَوْقِفُ الشَّرِيفُ الْهَادِئُ مِنْ اسْتِعَارَ نَارِ الغَضْبِ
عِنْدَ بَادِيسِ فَأَرْغَى وَأَزْبَى، وَكَادَ يَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ، فَأَسْرَعَ إِلَى سَيْفِهِ فَاسْتَلَهُ مِنْ غَمْدَهُ،
وَأَغْمَدَهُ فِي صَدْرِ ضَحِيَّتِهِ، فَتَلَقَّى الْضَّرْبَةَ دُونَ أَنْ يَبْدِي حَرَاكًا أَوْ يَظْهُرَ أَنْيَنًا مَا جَعَلَ
بَادِيسِ يَصِحُّ صِيَحَةَ الْمُتَعَجِّبِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، وَهُوَ يَلْفَظُ النَّفْسَ الْأَخِيرَ، وَيَسْتَقْبِلُ الْمَوْتَ
بَصَمَتْ عَمِيقًا، وَرِبَاطَةِ جَأْشِ، وَنَادَى الْجَلَادَ أَنْ اقْطَعْ رَأْسَهِ، وَارْفَعْهُ عَلَى رَمْحِ عَبْرَةِ لَغِيرِهِ،
وَادْفَنْ جَثَتِهِ إِلَى جَانِبِ ابْنِ عَبَّاسِ كَيْ يَرْقُدَ عَدُوَّيِّي كَلَاهِمَا فِي مَرْقَدِهِمَا الْأَخِيرِ جَنِبًا لِجَنْبِ
إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةِ.

وَالْتَّفَتَ إِلَى الْجَنْدِيِّ الْأَسِيرِ بَعْدَ أَنْ فَرَغَ مِنْ ضَحِيَّتِهِ الْأُولَى، وَقَالَ لَهُ: «وَالآنِ جَاءَ
دُورُكَ فَاقْتَرَبَ أَيْهَا الْجَنْدِيِّ.» فَجَزَعَ الْبَرْبَرِيُّ، وَاضْطَرَبَ اضْطَرَابًا شَدِيدًا، وَجَعَلَ يَصِحُّ
وَيَسْتَشْفَعُ، وَيَسْتَغْيِثُ، وَجَثَا عَلَى رَكْبَتِهِ يَسْتَغْفِرُ بَادِيسَ بِكُلِّ مَا فِي اسْتِطَاعَتِهِ لِيَبْقَيَ عَلَى
حَيَاَتِهِ، وَلَكِنَّ بَادِيسَ قَالَ لَهُ: «هَلْ ذَهَبَ مِنْكَ الْحَيَاءُ أَيْهَا الشَّقِيقِ؟ أَلَمْ تَرِ إِلَى ذَلِكَ الْمَنْجَمِ
الْحَكِيمِ، كَيْفَ تَلَقَّى الْمَوْتَ — بِكُلِّ ثَبَاتٍ — فَمَاتَ كَرِيمًا عَزِيزًا، لَمْ تَبْدُرْ مِنْهُ كَلْمَةٌ تَشَفَّ
عَنْ جَنْبِهِ، فَكَيْفَ وَأَنْتَ جَنْدِيٌّ قَدِيمٌ مَعْدُودٌ فِي عَدَادِ الْجَنْدِ الْبَوَاسِلِ تَصْلِي إِلَى هَذِهِ الْحَدِّ مِنْ
الْجَنْبِ؟ إِنَّكَ إِذْنَ لَا تَسْتَحِقُ رَحْمَةً وَلَا هُوَادَةً.»
وَضَرَبَ عَنْقَهِ فِي (٢٠ أَكْتُوبَرَ سَنَةِ ١٩٣٩).

ثم وريت جثة أبي الفتوح التراب كما أمر باديس إلى جانب ابن عباس وحزن لمقتله جماعة العلماء والأدباء النابهين في غرناطة وصاروا كلما مرروا بقبر هذين الرجلين العظيمين يتهمسون: «الله قبر يضم رجلين حكيمين أبباً أن يقيما على الضيم والذل، فماتا كريمين رحمة الله واسعة. والبقاء لله وحده».»

الفصل الرابع

أخذ طاغية صنهاجة وجبار غرناطة يُقوى نفوذه شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح زعيم حزبه السياسي على رأس البربر¹ ولم يكن يعترف للخلافة الحمويدية بمقالة إلا بمجرد السيادة الاسمية، وقد بلغ الحمويون الغاية في الضعف حتى جعلوا لوزرائهم السلطان عليهم، وكان بعضهم يعمد إلى إهلاك بعض، إما بتجريد السلاح أو دس السم. وهم عوضاً عن أن يوجهوا نظرهم إلى أتباعهم من أمراء البربر الأقوياء فيشدوا بهم أزرهم كانوا يرکنون إلى الدعوة، ويرون السعادة كل السعادة في أن يظفروا بالحكم في مالقة، وطنجة، وسبتة، وإن فقدوا النفوذ في البلاد التي تخطب باسمهم على المنابر.

وكان ثمة خلاف كبير بين بلاطي غرناطة ومقالقة، ففي غرناطة كان البربر وعلى رأسهم باديس وزيره إسماعيل يعملون لصالحهم وهم على وفاق تام في الخطط ووجهات النظر، وفي مالقة كان الأمر على النقيض من ذلك، لوجود الصقالبة الذين تتنافر مصالحهم مع مصالح البربر، هذا إلى ما وقع للصقالبة أنفسهم من التحاسد والتطاحن، واستعانته بعضهم على بعض بأعدائهم من النصارى، وهذه العوامل بعينها هي التي كانت سبباً في سقوط الدولة الأموية.

وقد حدث أن الخليفة الحموي إدريس الأول كان مريضاً في الوقت الذي جرد فيه جيشه على جند إشبيلية، وقد أسلم الروح بعد أن وصل إليه الخبر بمقتل إسماعيل في معركة «أستيجة» بيومين، فاختلف الوزير البربri مع الوزير الصقلبي على تعين الخليفة، فال الأول يريد أن يتبوأ عرش الخلافة يحيى بن إدريس البكر، لتكون السلطة في

يده ول يقوم هو بالأمر، والوزير الصقلبي يعارضه في ذلك ولا يقره عليه. ولما كان هذا وزير الممتلكات الإفريقي قام بالبيعة لحسن بن يحيى ابن عم يحيى وأعد العدة ليجوز البحر به إلى مالقة. وقد أذعن لخطبة الوزير الصقلبي وزير البربر لتردده وقلة ثباته، وكان من جراء التردد والتواني فيأخذ الحبيطة أن أهمل التدبير اللازم للدفاع في الوقت المناسب، فرأى بغتة الأسطول الإفريقي وقد ألقى مراسيه في مياه مالقة، فعجل بالفرار مع الخليفة الذي كان يريد أخذ البيعة له.

ولما استقر حسن بعاصمة ملكه أرسل وزيره إلى وزير البربر يمنحه العفو، ويرغبه في العودة، فوثق بكلامه، وعاد ليلقى حتفه، وقد تحقق النبوءة التي كان إسماعيل اليهودي رأها في منامه، وبعد ذلك قتل المدبر لدولة حسن أيضاً وهو «نجاء» الذي ارتكب الجريمة كما ذهب إلى ذلك بعض المؤرخين، كما أن حسناً كان جديراً بأن يقتص منه، فقد قتل مسماً بيد زوجه شقيقة يحيى المسكين، ومن ذلك الحين أراد «نجاء» أن يزيد في نفوذه، فرأى أنه ليكون كملك مستأثر بالحكم يجب أن تكون السلطة في يده وحده، وأن تكون سيادة الخليفة اسمية، فعمد إلى قتل ابن حسن، وهو في ريعان الشباب، وزج بشقيق إدريس في غياب السجن، وبعد أن تم له ما أراد من ذلك عرض نفسه على البربر ك الخليفة، وأغرىهم بالوعود البراقة ليجذبهم إلى جانبه، ولكن البربر كانوا ينظرون على ألم مضى، وغيظ كامن في الصدور، من جراء جرأته البالغة، وطمعه في منصب الخلافة طمعاً يمس بالدين، فإنه كان يظهر للسلالة الهاشمية احتراماً مزيفاً يوقع في الريبة والشك. وعلى أثر ذلك فكر البربر في الانتقاض عليه والاقتراض منه، وأخذوا يتربصون به الدوائر ويتحينون له الفرص، ولكي يخفوا ما انطعوا عليه من البغضة وإضمار الشر، تظاهروا بإيجابته إلى غرضه، وصارحوه بأنهم طوع أمره، وأقسموا له الخليفة الحموي الذي كان يحكمها، وجرد عليها جيشه والتحم الفريقيان، ولكن حدث في المارك الأولى التي دارت رحاحها مع العدو أن لاحظ الوزير الصقلبي أن البربر يقاتلون بتراب، وأنه ليس في الإمكان التعويل عليهم، فرأى من الحكمة أن يصدر أمره للجنود بالارتداد، واعتزم أن ينفي عند عودته إلى العاصمة البربر الذين تحوم حولهم الشكوك والريب، وأن يجذب إليه العنصر الصقلبي بقوة المال، وأن يلف حوله من الصقالبة أكبر عدد ممكن، ولكن أعداء الألداء من البربر عرفوا خطته، وتبينوا ما يرمي إليه، وانتهزوا

فرصة مروره بالجيش وسط مضيق محصور، فانقضوا عليه وقتلوه في غرة (٥ فبراير ١٤٤٣).

وعلى أثر مقتل ذلك الغاصب لم يستطع البربر أن يخفوا صيحات الفرح والسرور التي كانت تتتصعد من أعماق صدورهم. ووقع الاضطراب الشديد بين الجنود، فأركن الصقالبة إلى الفرار مخافة أن يصييهم مثل ما أصاب زعيمهم المقتول، وأسرع فارسان من القتلة إلى مالقة ينهيان الأرض على جواديهما، ولا بلغا المدينة أخذنا يصيحان بأعلى صوتهم: «بشكراكم، بشراككم؛ لقد قتل المتشبّث الغاصب».

ثم أدركوا صاحب شرطة «نجاء» فأردياه قتيلاً، وعمداً إلى إدريس شقيق حسن فأخرجاه من السجن، وأقاماه خليفة، ومن ذلك الحين طويت صحيفة من تاريخ الصقالبة في مالقة، على أن السكينة التي استتببت فيها، والطمأنينة التي لابستها زمناً لم تدم طويلاً. لم يكن إدريس الثاني في الحقيقة قوي الدهاء كبير العقل، ولكنه كان وديع النفس، كريم الخلق، طيب القلب، خيراً تقىً، يصرف جميع أوقاته في عمل البر و فعل الخير، ولو أن الأمر كان بيده وحده لما بقي في بلاده رجل واحد يئن من الفقر ويشكو الحاجة، وقد مكن المنفيين والبعدين — مهما كانت جنسياتهم وأحزابهم — من العودة إلى أوطانهم، ورد إليهم ما أخذ من أملاكهم، وما كان يصيغ بسمعه إلى الوشايات والسعایات. وكان جواداً سمحاً ينفق على الفقراء والمعوزين كل يوم خمس مئة دوكاً، وكان — لرقة طبعة وسذاجة قلبه — يعطى على عامة الشعب، ويميل إلى التحدث إليهم، ولا يحجب جواريه عنهم، مما تنبو عنه تقاليد الملك ورسوم الخلافة.

ولما كان «الحمدوديون» من سلالة الرسول ﷺ فقد كان عامة الشعب يرفعونهم إلى درجة التقديس، ويرونهم في أعينهم كأنصار الله. ولكي يزيدوا من عقيدة الشعب رسوحاً، ويكسروا محبتهم، ويشعروا قلوبهم المهابة والاحترام لهم، كانوا يظهرون أمامهم في الأوقات القليلة النادرة، وقد حاطوا أنفسهم بالأسرار.

وكان إدريس — على ميله إلى البساطة والتحرر من التقاليد المرعية — يضطر إلى أن يأخذ بالقواعد التي سنها سلفه من الخلفاء، ومن ذلك أنه كان يختفي عن عيون محدثيه فلا يكلمه إنسان إلا من وراء حجاب. ولكونه مثال البساطة المجسمة كان ينسى هذا التقاليد، ويغفل هذه السنة التي درج عليه سلفه، فقد حدث يوماً أن شاعراً من «إشبونة»

كان ينشد قصيده يمتحن فيه كرمه، ويشيد بطيب عنصره، وشرف أرومته، وكرم محتده، وقد جاء فيه بلهجة أهل الجهات الغربية من جزيرة الأندلس قوله:

فانتشت عنها عيون الناظرين	وكان الشمس لما أشرقت
بن حمودٍ أمير المؤمنين ^٣	وجه إدريس بن يحيى بن علي
لأبيكم كان وفد المسلمين	يا بني أحمد يا خير الورى
في الدجى فوقهم الروح الأمين	نزل الوحي عليه فاحتلى
وجميع الناس من ماء مهين	خلقوا من ماء عدل وتقى
إنه من نور رب العالمين	انظرونا نقتبس من نوركم

وكان الخليفة يستمع إلى مادحه من وراء ستار، وكانت رسوم الخلافة لا تسمح بقبول رجاء هذا الشاعر، إلا أن الخليفة فعل ما لم تجر به العادة، وقال لحاجبه: «ارفع الستار».

فكان هذا الشاعر أسعد حظاً من عشيقه «جيوبيت» التي ذهبت ضحية ميلها إلى رؤيتها، حيث رأى ما ينبعث عن ذلك المحيى من النور الذي – وإن لم يكن سناه يذهب بالأبصار ويبيه الأنظار – فهو على الأقل يطبع في ذهن من يجتليه وينظر إليه أجمل صورة من صور السماحة والإحسان وطيب القلب، وربما كان هذا أحمد أثراً في نفسه مما لو عاين من صورته الحسية مشرقاً من مشارق الأنوار، وشاهد تلك الصفات التي ذكرها في شعره. ومن المحقق أن الخليفة أجازه بجائزة سنية وانصرف شاكراً مسروراً.

ومما يؤسف له نظراً لمركز الخلافة وأمن الدولة أن إدريس كان يضم إلى سماحة النفس وطيب القلب، وصفاً آخر هو التناهي في الضعف والمواتة والاستسلام، ففي استطاعته أن يوافق ويسلم بكل ما يراد ويطلب منه كائناً ما كان، فلو أن أميراً من الأمراء الذين يستظلون بحكمه – كباديس أو غيره – طلب إليه أن ينزل له عن قصر الخلافة أو يهبه أي أمر آخر لفعل، وقد حدث أن باديس بعثه إليه ملحاً أن يرسل وزيره ويمكنه من التتكيل به لضغينة في نفسه، فصرح إدريس لوزيره الذي يحقد عليه باديس أنه كاتبه في شأنه وطلب أن يسلمه إليه وأنه لا بد فاعل حيث لا يستطيع أن يرفض طلبه، فأذعن الوزير لحكمه ولم يشفع له عند إدريس أنه الخادم الأمين القديم لأسرته، وقال: «لك يا مولاي أن تفعل ما يريده هذا الطاغية، وعلى أن أستسلم لما يأتي به القضاء، وما

يُخْبُئُ لِي الْقَدْرُ، وَسَتْرٌ أَنِي مَلَقَ حَتْفِي غَدًا وَسَأَقْبَلُهُ بِاسْتِسْلَامٍ وَرِبَاطَةٍ جَأْشٍ وَقَدْ ثَابَتَهُ.»

وَقَضَى الْأَمْرُ، وَوَصَلَ وَزِيرُ إِدْرِيسٍ إِلَى غَرَنَاطَةَ حَضُورَةَ مُمْلَكَةِ بَادِيَسْ فَأَمْرَ بِهِ فِي الْحَالِ فَضَرَبَتْ عَنْقَهُ، وَكَانَ هَذَا الْضَعْفُ الظَّاهِرُ مِنْ إِدْرِيسٍ مَا أَحْفَظَ عَلَيْهِ الْبَرِّ وَأَوْغَرَ صُدُورَهُمْ، كَمَا أَغْضَبَهُمْ مِنْ قَبْلِ لِيْنَهُ الْمُفْرَطُ، وَعَطْفُهُ الَّذِي كَانَ يَبْدِيَهُ لِلشَّعَبِ بِنَزَعَاتِهِ الْاِشْتِرَاكِيَّةِ. بِهَذَا تَرَجَّتِ الْحَالَةُ وَانْطَوَتْ قُلُوبُ الْبَرِّ عَلَى بَغْضِ هَذَا الْخَلِيفَةِ الْمُضَعِّفِ الْمُسْتَسْلِمِ وَكَرَاهَتِهِ، وَلَا كَانَ أُولَئِكَ الزَّنْجُ يَطْغِيُهُمُ الْضَعْفُ وَيَغْرِيُهُمُ الْلَّيْنِ، وَلَا يَرْدِعُهُمْ إِلَّا إِعْمَالُ السَّيْفِ فِي رَقَابِهِمْ، وَإِنْضَاجُ جَلُودِهِمْ بِالسَّيْاطِ، وَتَعْلِيقُ الْمَشَانِقِ لِإِزْهَاقِ أَرْوَاحِهِمْ مُجْرِمِيهِمْ، لَمْ يَزْدَهِمْ ذَلِكَ إِلَّا اسْتَخْفَافًا بِالْخَلِيفَةِ وَازْدَرَاءَ بِهِ وَجْرَأَةَ عَلَيْهِ، ذَلِكَ الْخَلِيفَةُ الَّذِي لَمْ يَصُدِّرْ قَطُّ حَكْمًا عَلَى أَحَدٍ بِالْقَتْلِ فِي زَمْنِهِ، فَلَا جَرْمٌ إِذَا كَانَ الْإِسْتِيَاءُ عَامًا شَامِلًا، وَلَا غَرَابَةَ فِي أَنْ يَحْدُثَ رَئِيسُ حَصْنٍ «إِيرِش» ثُورَةً فِي دَاخِلِهِ، وَيُطْلَقُ صَاحِبُ شَرْطَتِهِ سَرَاحُ ابْنِي عَمِ إِدْرِيسٍ وَيَنْدَيِ بِمُحَمَّدِ الْبَكْرِ مِنْهُمَا خَلِيفَةً، وَلَا فِي أَنْ يَثُورَ الزَّنْجُ الَّذِينَ يُؤْلِفُونَ حَرْسَ قَصْرِ الْخَلَافَةِ بِمَالِقَةِ، وَيَهْبِيُو بِمُحَمَّدٍ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمْ، عَلَى أَنَّ السَّوَادَ الْأَعْظَمَ مِنْ أَهْلِ مَالَقَةِ لَمْ يَتَخَلَّوْهُمْ عَنْ خَلِيفَتِهِمْ فِي سَاعَةِ الْخَطَرِ الْمَحْدُقِ وَالْبَلَاءِ الدَّاهِمِ، إِذَا كَانَتْ قُلُوبُهُمْ تَفِيَضُ حَبًّا وَعَطْفًا عَلَى خَلِيفَتِهِمُ الْخَيْرُ الْمُحَسَّنُ، فَسَارَعُوا إِلَى نَجْدَتِهِ، وَطَلَبُوا أَنْ تَخْرُجَ لَهُمُ السَّلَاحُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَمْ يَبْقَ مِنَ الزَّنْجِ الْثَّائِرِيْنَ أَحَدٌ فِي الْقَصْرِ، وَقَدْ أَبْيَ إِدْرِيسٍ أَنْ يَمْكُنْهُمْ مِنَ السَّلَاحِ حَقَّنًا لِلَّدَمَاءِ وَإِطْفَاءَ لِلنَّائِرَةِ وَشَكْرَ لَهُمْ هَذِهِ الْعَاطِفَةِ، وَخَاطَبُهُمْ بِقَوْلِهِ: «عُودُوا إِلَى دُورِكُمْ فَإِنِّي لَا أُرْغِبُ فِي أَنْ يَسْفَكَ دَمُ مِنْ أَجْلِي.»

وَبِهَذَا لَمْ تَقْمِ أَيْةٌ عَقْبَةٌ فِي سَبِيلِ إِقَامَةِ مُحَمَّدٍ خَلِيفَةً مَكَانِ إِدْرِيسٍ الَّذِي حَلَّ مَحْلَهُ فِي حَصْنٍ «إِيرِش»، وَبِهَذَا تَبَادَلَ كُلُّ مِنْهُمَا مَكَانَ الْآخِرِ (١٠٤٦-١٠٤٧).

وَلَمْ يَكُنْ الْخَلِيفَةُ الْجَدِيدُ عَلَى شَاكِلَةِ سَلْفِهِ، بَلْ نَزَعَ لِأَمْهِ، وَهِيَ حَسَنَةُ بَاسْلَةِ، يَطِيبُ لَهَا الْعِيشُ فِي الْخَلَاءِ حِيثُ تَشَاهِدُ عَنْ كَثْبِ الْاسْتِعْدَادِ لِلْقَتَالِ، وَإِدَارَةِ الْمَعَارِكِ الْدَّمْوِيَّةِ، وَضُرُبِ الْحَصَارِ عَلَى الْحَصُونَ الْمُنْتَيَعَةِ، وَحِيثُ تَنْتَشِرُ عَلَى الْجَنْدِ مِنْ دَرَرِ كَلَامِهَا، وَصَرَرَ نَقْوَدُهَا مَا يَلْهِبُهُمْ حَمَاسَةً وَشَجَاعَةً وَنَجْدَةً، وَقَدْ بَلَغَ مُحَمَّدٌ فِي الْبَسَالَةِ وَالْإِقْدَامِ شَأْوًا بَعِيدًا، وَكَانَ مَعَ هَذَا قَاسِيًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ سَفَاكًا لِلَّدَمَاءِ، وَإِذَا كَانَتِ الْقُوَّةُ قَدْ أَعْوَزَتِ إِدْرِيسَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا (عَلَى رَأْيِ مَحْدُثِي الثُّورَةِ) كَانَ لَهُ مِنَ الْبَأْسِ وَالْقُوَّةِ أَوْفَرُ نَصِيبٍ، وَقَدْ كَانَ مَثْلُهُ فِي ذَلِكَ مُثْلُ الصَّفَدَعَةِ الَّتِي طَلَبَتْ مِنْ «جِيُوبِيَّتِر» أَنْ يَقِيمَهَا مُمْلَكَةً عَلَى مُمْلَكَةِ

الضفادع، وعالم الضفادع هذا كما أسماه «لافونتين» هو جماعة البربر والعرب، أولئك الذين لم يلبثوا إلا قليلاً حتى حنقوا على الخليفة الرهيب، وحملوا له الإحن في صدروهم، وندموا على سلفه الوادع المسالم الذي كان وجوده كلاً وجود. وسرعان ما دبرت مؤامرة، وشرع مدبروها يتفاوضون مع رئيس حصن «إيرش» الذي سارع إلى الانضمام إليهم بسهولة فأخرجوا إدريس الثاني من السجن، ونادوا به خليفة.

وفي هذه الآونة لم يحتم إدريس عن إثارة حرب أهلية؛ لأن ما عاناه في سجنه ذهب بما كان في نفسه من نزعات شريفة، واتفق أن محمدًا — وقد ألهبته أمه حمية وحماسة — قاتل خصومه ببسالة وشدة حتى ظفر بهم وأجأهم إلى وضع السلاح، ومع هذا لم يسلموا إدريس لخصمه، بل أرسلوه لإفريقيا، وتولى الأمر هناك اثنان من البربر، وهما: صاحب شرطة سبطة،^٤ وصاحب شرطة طنجة فقابلاه بحفاوة وإكرام بالغين، وأخذنا له في البيعة وخطبا باسمه على المنابر، على أن ذينك الرجلين استثثرا دونه بالسلطة الحقيقة، وكانا لحرصهما على الاستئثار بالسلطة والتفوز يراقبانه عن كثب، ويحولان دون ظهوره للجمهور، واقترباه من الشعب، وقد تمكّن بعض مضمري العداوة لهما من أمراء البربر أن يقولوا للخليفة: إن هذين الملوكين اعتقلاك في القصر وحال دون أن تتولى الحكم بنفسك، فخولنا السلطة ونحن نخلصك منهما، ولكن إدريس — لوداعته — رفض اقتراحهم، وأفضى بما دار بينه وبينهم من الحديث إلى وزيريه، فصدر أمرهما في الحال بابعاد أولئك الأمراء.

وخشى الرجال القائمان بإفريقية أن يصفي إدريس لما يدس إليه مرة ثانية من الوشايات والدسائس فأوعزا إليه أن يرحل إلى الأندلس فجاز البحر إليها، واستقر عند صاحب رندة^٦ على أنهما لم يزالا يعترفان به ك الخليفة و يقران الخطبة باسمه على المنابر. وفي هذه الأثناء طلب المتذمرون في مالقة من باديس أن ينضم لمساعدتهم، فقام وأعلن الحرب باديس ذي بدء على محمد ثم أبرم معه صلحاً، ثم بايعوا أمير الجزيرة الخضراء، واسمه محمد أيضاً، ونادوا به خليفة، وكان الخلفاء بالأندلس إلى هذا العهد أربعة، وهم: الخليفة المزعوم المشبه بهشام في إشبيلية، ومحمد في مالقة، ومحمد صاحب الجزيرة، ثم إدريس الثاني المستقر في رندة.

ولم يكن لاثنين منها في الحقيقة شيء من النفوذ والسلطان، أما الآخرين فكانا أميرين صغيرين لا خطر لهما، ولا يستحقان أن يحملوا لقب الخلافة ولا أن يتسمى كل واحد منها بأمير المؤمنين.

أما أمير الجزيرة فقد فشل في هذه المحاولة، وانفض من حوله الداعون له باسم الخلافة، فعجل بالعودة إلى بلاده، ومات بعد أيام قلائل أسوى وخجلاً (١٠٤٨-١٠٤٩). وبعد أربع أو خمس سنوات توفي محمد الخليفة القائم بمالقة، وتطلع إدريس الثالث أحد أبناء أخيه إلى منصب الخلافة، ولكنه لم ينجح هذه المرة، وأقيم إدريس الثاني خليفة، وشاءت الأقدار أن تساله فبقي في هدوء وطمأنينة إلى أن قضى نحبه سنة (١٠٥٥).

وأراد حموي آخر أن يخلفه في الحكم فناوأه باديس وقضى على آماله. ولما كان باديس صاحب غرناطة هو الرئيس الحقيقي للبربر، فقد كره أن يرى أمامه خليفة تستظل بلاده بحكمه، ومن ذلك الحين عقد النية على أن يقضي على الحمويين، وأن يدمج مالقة^٦ وأعمالها ضمن ولاياته، وقد أمضى عزيمته هذه، وأنفذ مشروعه دون أن يصادف عوائق كبيرة.

إلا أن العرب لم يكونوا ليذعنوا لسلطانه إلا على كره منهم لذلك، ولما كان قد كسب إلى جانبه أمثال الوزير أبي عبد الله الجنامي لم يحفل بالباقيين، أما البربر فكانوا مقتنيين بضعف أمرائهم، وبأن الضرورة تقضي عليهم بأن ينضموا إلى إخوانهم من بربر غرناطة، ليتقىوا بهم، ويستطيعوا أن يواجهوا الحزب العربي الذي يزداد كل يوم قوة وتوسعاً في الجانب الغربي الجنوبي، لهذا كله ناصروا باديس وأيدوا خططه ومشروعاته ولم يعارضوها، وأصبح باديس بفضل عون البربر والتفاهم حوله ملكاً على غرناطة ومالقة وما يتبعهما من أعمال^٧، وتمكن من نفي الحمويين والقضاء عليهم، وهم وإن كانوا قد لعبوا دوراً آخر في إفريقيا إلا أن دورهم الذي مثلوه في الأندلس كان قد انتهى.

الفصل الخامس

لكيلا نقطع تسلسل الحوادث في هذه العجلة اليسيرة عن تاريخ مالقة اضطررنا لأن نلم بالحوادث إلما مة يسيرة، ولما كنا سنلقي نظرة على التقدم الذي أحدثه الحزب العربي في غضون هذه المدة، فمن واجبنا أن نعود إلى بعض حوادث السنين الماضية.

لما توفي أبو القاسم محمد قاضي إشبيلية في أواخر يناير سنة ١٠٤٢ خلفه ابنه عباد، وكان في السادسة والعشرين من عمره، ولقب حينئذ بالحاجب أبي الوزير الأول لهشام الثاني، و Ashton بعد ذلك في التاريخ باسم المعتصم، ولو أن هذا الاسم لم يطلق عليه إلا بعد فترة من الزمن، فإننا سنطلقه عليه الآن تفاديًا مما عساه أن يقع في اللبس عند تغييره.

إن هذا الزعيم الجديد للحزب العربي في الجنوب الغربي من الجزيرة، قد حقق بشخصيته القوية الفتية لهيئة من الهيئات الحزبية القوية ما لم تتحققه الشيوخة اللدنة الضعيفة، فقد كان في كل الشؤون المنافس الجدير لخصمه باديس زعيم الشعبة البربرية المعارضة.

كان هذا الزعيم الجديد كمنافسه كثير الشكوك حقوًّا غادرًا لئنما ظلّومًا جبارًا قاسيًا سفاًّا للدماء، وكان مدمنًا للخمر مثله، إلا أنه قد بزه في الخبث والدعارة، وكان ثأر الطبيعة جامح الشهوة، يواصل اللذات ولا ينقطع عن الشهوات، حتى إنه لم يجتمع في قصر ملك من الملوك ما اجتمع في قصره من الحظبيات والسراري. يقال إنه دخل قصره — على التتابع — ثمان مئة من الشواب والصبايا الحسان.

وبالرغم من التوافق بين هذين الملكين في كثير من النزعات الشريرة والشهوية، فإن أخلاقهما وميولهما وعاداتهما لم تكن متوافقة في نواحٍ كثيرة.

فأمير البربر كان من البربر أو أقرب إلى خشونة البربر منه إلى شيء آخر، ساخراً من آداب اللياقة، بعيداً عن الحصافة والثقافة، لا يعني بأساليب الحضارة، ولا يترك لها عادات البداوة، ولم يكن الشعراء لتطأ أقدامهم أبهاء الحمراء ليمتدحوا بالشعر العربي ملكاً لا يعرف غير رطانة البربر.

أما المعتمد فقد كان على النقيض من ذلك، قد أخذ بطرف مناسب من الثقافة والتعليم الحسن، ولم يكن — في الحقيقة — قد توسع في العلوم حتى يكون جديراً في زعمه أن يوضع في مصاف العلماء ويستحق لقب عالم، ولكنه أوتي من الموهاب، ودقة الشعور، ولطف الإحساس، وسلامة الذوق، وحدة الذكاء، وقوة الذاكرة، ما جعله يعلم ما لا يعلمه رجل عادي.

وشعره الذي نظمه قصائد ومقاطعات له قيمته إذا أريد الوقوف على كنه أخلاقه، بغض النظر عن قيمته اللغوية والأدبية، على أن هذا الشعر قد أكسبه بين مواطنين مكانة شاعر مجيد¹ وكان محباً للأدب شغوفاً بالفنون أريحاً جواً يغمر الشعراء بالعطاء الكبير، على المديح القليل، له ولع شديد بتشييد القصور الفخمة، وكانت أساليبه في الظلم مقرونة بشيء من المهارة، ينهج في ذلك منهج خليفة بغداد الذي انتحل لنفسه لقبه، واختلط في أحکامه خطته، بينما كان باديس لا يعرف من أمر هذا الخليفة شيئاً بل ربما كان يجهل العصر الذي كان فيه.

وكلا المكين كان مولعاً بشرب الخمر كما عرفت إلا أن باديس — لخشونته وجفاء طبعه — كانت تمثل في مجلس شرابه الوحشية والجفاء، وكان لبربريته الجافنة لا يمنعه الخجل أن يسف في شرابه إسفافاً معيناً.

أما المعتمد وهو ذلك الرجل المثقف المهدب، والإنسان الرقيق الحاشية، والملك العظيم الشأن، فما كان يقدم على هذا الأمر إلا بشيء من الرقة والدعة واللطف، وكان لما يمتاز به من الذوق ولطف الإحساس وقوة التمييز، لا يخلو مجلس شرابه من شروط اللياقة، وجمال الذوق، وحسن التنسيق، وكان يتعاطى الخمر بطريقة غير معتدلة، وكان هو وندماؤه ينشئون في امتداح هذه النقيصة الخمريات البدعية التي تكون آية في لطف الشعور، وجمال الذوق ودقة التعبير، وقد ساعدته قوته الجسمانية على مواصلة أعمال الدولة والقيام بأعباء الملك مع إدمانه الشراب، وانكبابه على الشهوات واللذات، وقد كان من آيات نشاطه للعمل، وانصرافه لمهام الدولة، أن يكف عن شهواته في الأوقات التي يتطلبها العمل، فيعني بمهام دولته كملك، ويبيذل في ذلك جهد الطاقة ليوفر من أوقات العمل وقتاً للهو والراحة واستجمام القوى يعود فيه إلى شرابه، ويلهوا فيه بذاته.

ومن الغريب أن هذا القاسي الجبار — مع ما كان يلقيه في قلوب حرميه وجواريه الحسان من الفزع والرعب بنظراته المفزعـة المروعة — كان ينظم فيمن يقع في حبالـتهـن من أولئـك الغـيدـ الحـسانـ أـشـعـارـاـ تـجـمـعـ إـلـىـ الرـقـةـ وـالـسـلـاسـةـ الـلـذـةـ وـالـمـتـعـةـ.

فـبـيـنـ بـادـيـسـ إـذـنـ وـبـيـنـ الـمـعـتـضـدـ مـنـ الـبـوـنـ الشـاسـعـ فـيـ الـفـسـادـ ماـ يـفـصـلـ بـيـنـ الـفـاسـدـ الـمـتـبـبـرـ الـخـشـنـ،ـ وـالـفـاسـدـ الـمـتـحـضـرـ الـظـلـيفـ،ـ وـلـكـنـ مـاـ يـجـبـ الـاعـتـرـافـ بـهـ هـنـاـ أـنـ الـبـبـرـيـ كـانـ أـقـلـ مـنـ زـمـيلـهـ فـسـادـاـ وـخـبـثـ نـفـسـ،ـ فـقـدـ كـانـ بـادـيـسـ فـيـ جـرـائـمـهـ وـشـنـاعـاتـهـ عـلـىـ جـانـبـ مـنـ النـزـاهـةـ وـالـصـرـاحـةـ،ـ بـيـنـ عـيـنـهـ الـمـتـفـرـسـةـ الـبـاحـثـةـ تـتـحـسـسـ الـأـفـكـارـ الـخـفـيـةـ فـيـ نـفـسـ غـيـرـهـ وـتـتـبـحـثـهـ لـتـكـشـفـ عـنـ مـكـنـونـاتـهـ،ـ دـوـنـ أـنـ يـظـهـرـ ذـلـكـ فـيـ مـعـارـفـ وـجـهـ،ـ أـوـ نـبـرـاتـ صـوـتـهـ.

ولـمـ يـمـتـ مـلـكـ غـرـنـاطـةـ فـيـ فـرـاـشـهـ بـلـ طـاـحـ فـيـ سـاحـةـ الـقـتـالـ،ـ أـمـاـ مـلـكـ إـشـبـيـلـيـةـ فـقـدـ كـانـ — عـلـىـ خـوـضـهـ غـمـارـ كـثـيرـ مـنـ الـمـعـارـكـ وـالـحـرـوـبـ — دـوـنـهـ شـجـاعـةـ وـبـسـالـةـ،ـ لـأـنـهـ لـمـ يـتـوـلـ بـنـفـسـهـ قـيـادـةـ الـجـيـشـ فـيـ هـذـهـ الـحـرـوـبـ سـوـىـ مـرـتـيـنـ فـيـ حـيـاتـهـ،ـ وـكـانـ مـنـ دـأـبـهـ أـنـ يـضـعـ الـخـطـطـ الـحـرـبـيـةـ لـلـمـعـارـكـ،ـ وـيـدـعـ تـنـفـيـذـهـ لـقـوـادـهـ،ـ وـهـوـ مـنـزـوـ فـيـ خـبـائـهـ بـعـيـدـاـ عـنـ خـطـوـطـ الـقـتـالـ،ـ كـمـاـ روـىـ ذـلـكـ بـعـضـ مـؤـرـخـيـ الـعـرـبـ.

وـكـانـ حـيـلـ بـادـيـسـ فـيـ الـنـكـاـيـةـ بـأـعـدـائـهـ جـافـةـ سـقـيـمـةـ،ـ²ـ مـاـ يـجـعـلـ إـحـبـاطـهـ بـسـرـعـةـ مـيـسـوـرـاـ وـسـهـلـاـ،ـ أـمـاـ حـيـلـ الـمـعـتـضـدـ فـكـانـ دـقـيـقـةـ لـيـنـةـ يـمـسـ الـمـخـدـوـعـ مـنـهـ فـيـ لـيـنـهـاـ مـاـ يـمـسـ مـنـ ظـهـرـ الـحـيـةـ الـرـقـطـاءـ تـحـتـ أـنـيـابـهـ السـمـ نـاقـعـ،ـ وـلـهـذـاـ كـانـ يـنـدـرـ فـشـلـهـاـ،ـ وـيـصـعـبـ إـحـبـاطـهـاـ،ـ وـجـانـبـ الـدـهـاءـ وـسـعـةـ الـحـيـلـةـ مـنـ الـجـوـانـبـ الـقـوـيـةـ فـيـ الـمـعـتـضـدـ،ـ وـيـرـوـونـ فـيـ هـذـاـ الـصـدـ حـكـاـيـةـ يـجـدـرـ بـنـاـ إـيـرـادـهـ،ـ وـذـلـكـ أـنـهـ حـدـثـ فـيـ الـمـوـقـعـةـ الـتـيـ أـوـقـعـهـ الـمـعـتـضـدـ ضـدـ بـرـبـ قـرـمـونـةـ أـنـهـ كـانـ يـتـبـادـلـ مـعـ رـجـلـ مـنـ عـرـبـ هـذـهـ الـمـدـيـنـةـ رـسـائـلـ سـرـيـةـ يـقـفـهـ فـيـهـاـ عـلـىـ حـرـكـاتـ وـخـطـطـ الـبـبـرـ،ـ وـلـكـيـلاـ تـضـبـطـ هـذـهـ الرـسـائـلـ،ـ وـلـاـ يـرـتـابـ فـيـهـاـ أـحـدـ،ـ كـانـ مـضـطـرـاـ لـأـنـ يـتـخـذـ كـثـيـرـاـ مـنـ الـحـيـطـةـ وـالـحـذـرـ.

وـلـكـيـ يـصـلـ إـلـىـ غـرـضـهـ مـنـ تـبـادـلـ الرـسـائـلـ مـعـ جـاسـوـسـهـ،ـ كـانـ قـدـ اـتـفـقـ مـعـهـ عـلـىـ خـطـةـ مـعـيـنةـ،ـ وـبـيـنـاءـ عـلـىـ تـلـكـ خـطـةـ أـشـخـصـ إـلـىـ قـصـرـهـ رـجـلـاـ سـاـنـدـجـاـ طـيـبـ الـقـلـبـ مـنـ بـدـوـ إـشـبـيـلـيـةـ وـلـاـ مـثـلـ بـيـنـ يـدـيـهـ قـالـ لـهـ:ـ «ـاـخـلـعـ رـدـاءـكـ هـذـاـ الـخـلـقـ،ـ وـالـبـسـ هـذـهـ الـجـبـةـ الـثـمـيـنـةـ الـجـمـيـلـةـ الـتـيـ أـتـرـكـهـاـ لـكـ هـدـيـةـ إـذـاـ قـمـتـ بـتـنـفـيـذـ مـاـ آـمـرـكـ بـهـ،ـ»ـ فـارـتـدـيـ الرـجـلـ الـجـبـةـ وـهـوـ يـفـيـضـ بـشـرـاـ وـسـرـورـاـ،ـ وـلـمـ يـدـرـ أـنـ فـيـ بـطـانـةـ جـيـبـهـاـ قـدـ خـيـطـتـ رـسـالـةـ مـنـ الـمـعـتـضـدـ إـلـىـ عـيـنـهـ بـقـرـمـونـةـ،ـ وـأـظـهـرـ الرـجـلـ اـسـتـعـدـاـهـ لـأـنـ يـؤـدـيـ بـدـقـةـ وـأـمـانـةـ كـلـ الـأـوـامـرـ الـتـيـ يـكـلـفـهـ بـعـلـمـهـاـ،ـ

فاستحسن المعتصد منه ذلك وقال: «أصح بسمعتك إذن لما آمرك به: عليك أن ترحل من الآن إلى قرمونة، فإذا حلت بسيطها و كنت بظاهرها، فلا تدخلها إلا بعد أن تجمع من الحطب حزمة تدخل بها المدينة وتعرضها في السوق مع باعة الحطب، ولكن عليك ألا تبيعها إلا ممن ينقدك في ثمنها خمسة دراهم». ومع جهل الرجل سر هذه الأوامر الغربية بادر إلى الطاعة، وغادر إشبيلية، ولما كان على مقربة من قرمونة أخذ يحتطب، ولم يكن ذلك من عادته، وقد يجمع المحظى المتعدد مقداراً كبيراً يستطيع جمعه، إلا أن هناك فرقاً بين حزمة صغيرة وأخرى كبيرة.

دخل الرجل المدينة يحمل مما جمعه من فروع الأشجار تلك الحزمة الصغيرة لبيعها في السوق، فوقف على حزمه تلك أحد المارة وسأله: «كم ثمن هذه الحزمة؟» فأجابه البدوي: «ثمنها خمسة دراهم كاملة غير منقوصة، فإن شئت دفعت الثمن وأخذتها، وإن شئت تركتها» فأغرب الرجل في الضحك وقال له: «عجبًا، لعلك لا تشک في أن حزملك هذه من خشب الآبنوس».

وجاء آخر، فقال: «لا، بل هي من العود الهندي الذكي الرائحة». وهكذا أخذ كل من وقف على سلطته الحقيقة وعرف ما يطلبها ثمناً لها يمزح معه هازئاً به ساخراً منه.

وبقي على حاله تلك في السوق إلى أن مال ميزان النهار، وأذنت الشمس بالغيب، فدنا منه حينئذ عين المعتصد يتظاهر بشراء حزمة الحطب، واتفق معه على أن ينقده ثمنها إذا قبل أن يتبعه بها إلى منزله، يحملها على كاهله، فتبعد الرجل إلى منزله حتى وضعها هناك، ولما أخذ الدرهم الخمسة، قام يتأنب للعودة، فقال له صاحب الدار: «لقد أمسيت فإلى أين تذهب الساعة؟»

فأجابه: «إني رجل غريب، ولست من أهل المدينة، ولا بد لي من العودة إلى إشبيلية». فقال له: «وهل ترى ذلك ممكناً الليلة، وهل تأمن عادية اللصوص في الطريق؟ انزل هنا على الرحب والاسعة، وسأقدم لك طعام العشاء. ويمكنك أن تبكر بالسفر غدوة إلى حيث تريده». فقبل منه الرجل ما افترجه عليه، وقابل تلك الحفافة البالغة بالشكر والثناء، وأنساه كرم الضيافة، وطيب الأكل ما لقيه بالنهار من سفه وسخرية، وبعد أن تناول طعام العشاء، وفرغ من تلك الأكلة الشهية، أخذ يسمر مع مضيقه إلى هزيع من الليل، حيث دار بينهما هذا الحوار.

– الآن أيها الضيف الكريم، خبرني من أي البلد قدمت وما موطنك؟

– قدمت من بسيط إشبيلية حيث المزارع، وحيث موطنى الذى أقيم فيه هناك.
 – إنني أرى أنك – أيها الأخ – شجاع مقدام جريء لأنك استطعت أن تخاطر
 بنفسك وتصل إلى هنا، وأنا أعلم مبلغ ما وصل إليه البربر من القسوة والوحشية، هم
 بلا شك يسرعون إلى قتلك، ويرون ذلك أمراً سهلاً ولا بد أن يكون هناك من الأسباب
 القوية ما حملك على المجيء هنا، والتعرض لأخطار الطريق.

– ليس هناك من الأسباب القوية ما حفزني على المجيء، ولست أظن أن أحداً من
 الناس بالغاً من القسوة ما بلغ يتعرض لرجل أعزل مثلـي في الطريق أو يصيـبه بأذى.
 وما زالا يتحـدثـان إلى أن أثـقلـ الكـرىـ جـفـنـ الضـيـفـ، فأـخـذـهـ المـضـيـفـ إلىـ حـيـثـ المـكـانـ
 الـذـيـ أـعـدـهـ لـنـوـمـهـ، وـهـ الـفـلـاحـ أـنـ يـنـامـ دـوـنـ أـنـ يـخـلـ جـبـتـهـ، فـقـالـ لـهـ الـقـرـمـونـيـ: «ـيـحـسـنـ أـنـ
 تـخـلـ جـبـتـكـ كـيـ تـنـامـ مـطـمـئـنـاـ، وـتـسـتـيقـظـ مـسـتـرـيـحـاـ، لـأـنـ هـذـهـ الـلـيـلـةـ دـافـئـةـ حـسـنـةـ الـطـقـسـ
 كـمـ تـرـىـ».

فـعـلـ الـفـلـاحـ بـإـشـارـتـهـ، وـسـرـعـانـ مـاـ اـسـتـغـرـقـ فـيـ نـوـمـ عـمـيقـ، وـلـأـيـقـنـ أـنـ لـاـ يـشـعـرـ
 بـحـرـكـتـهـ تـنـاـوـلـ جـبـتـهـ وـحـلـ بـطـانـتـهـ، وـفـيـهـ رـسـالـةـ الـمـعـتـضـدـ فـأـخـذـهـ وـقـرـأـهـ، وـكـتـبـ جـوـابـ
 الـرـسـالـةـ سـرـيـعـاـ، وـوـضـعـهـ فـيـ نـفـسـ الـمـكـانـ وـخـاطـهـ كـمـ كـانـ.

وـاسـتـيقـظـ الـفـلـاحـ فـيـ صـبـيـحةـ تـلـكـ الـلـيـلـةـ مـبـكـراـ، وـبـعـدـ أـنـ وـدـعـ مـضـيـفـهـ وـشـكـرـ لـهـ كـرـمـهـ
 وـحـسـنـ ضـيـافـتـهـ عـادـ أـدـرـاجـهـ رـاحـلـاـ إـلـىـ إـشـبـيلـيـةـ، وـلـأـلـقـىـ بـهـ عـصـاـ التـسـيـارـ اـسـتـأـذـنـ عـلـىـ
 الـمـعـتـضـدـ وـمـثـلـ بـيـنـ يـدـيـهـ، وـقـصـ عـلـيـهـ نـبـأـ رـحـلـتـهـ فـغـمـرـهـ بـلـطـفـهـ، وـجـمـيلـ رـعـاـيـتـهـ، وـقـالـ:
 «ـإـنـيـ مـنـ عـمـلـكـ هـذـاـ لـسـرـورـ، وـأـرـىـ أـنـكـ تـسـتـحـقـ عـلـيـهـ جـائـزـةـ سـنـيـةـ»ـ. وـأـمـرـ أـنـ يـلـقـيـ ماـ
 عـلـيـهـ مـنـ وـعـثـاءـ السـفـرـ، وـأـنـ يـخـلـ جـبـتـهـ هـذـهـ، وـيـكـسـيـ عـوـضـهـ حـلـةـ كـامـلـةـ، فـأـحـسـ مـنـ
 أـعـماـقـ نـفـسـهـ بـسـرـورـ وـارـتـيـاحـ، وـأـخـذـ الثـيـابـ الـجـدـيـدـةـ وـتـرـكـ جـبـتـهـ الـتـيـ هـيـ مـحـورـ الـرـوـاـيـةـ،
 وـخـرـجـ مـنـ الـقـصـرـ مـزـهـوـاـ يـرـوـيـ مـاـ وـقـعـ لـهـ مـعـ الـمـلـكـ لـأـهـلـهـ وـجـيـرـانـهـ وـمـعـارـفـهـ، وـيـذـكـرـ لـهـ
 مـاـ اـخـتـصـهـ بـهـ الـمـلـكـ مـنـ عـطـفـ وـصـلـةـ مـاـ أـجـازـهـ بـهـ مـنـ كـسـوـةـ مـلـكـيـةـ مـنـ كـسـيـ التـشـرـيفـ
 الـتـيـ لـاـ تـمـنـحـ إـلـاـ لـرـجـالـ الـدـوـلـةـ وـذـوـيـ الشـأـنـ وـأـرـيـابـ الـمـنـاـصـبـ، وـلـمـ يـقـفـ عـلـىـ سـبـبـ هـذـاـ
 الـعـطـفـ الـمـلـكـيـ، وـلـمـ يـدـرـ أـنـهـ اـسـتـخـدـمـ مـنـ حـيـثـ لـاـ يـشـعـرـ جـاـسـوـسـاـ وـبـرـيـدـاـ مـنـ بـرـ الـحـرـبـ
 يـحـلـ إـلـىـ بـلـادـ الـأـعـدـاءـ رـسـالـةـ فـيـهـ أـنـبـاءـ خـطـيـرـةـ كـانـتـ تـوـدـيـ بـحـيـاتـهـ لـوـ أـنـ الـبـرـبـرـ عـثـرـواـ
 عـلـيـهـاـ، وـلـكـنـهـ لـمـ تـحـمـ حـولـهـ أـيـةـ رـيـةـ.

كـانـ الـمـعـتـضـدـ عـظـيمـ الـدـهـاءـ وـاسـعـ الـحـيـلـةـ، فـيـ كـلـ مـاـ يـدـخـلـ فـيـ بـابـ الـحـيـلـ وـالـخـدـعـ
 الـسـيـاسـيـةـ، وـفـيـ مـتـنـاـوـلـ يـدـهـ الـأـشـرـاكـ وـالـفـخـاخـ الـتـيـ يـنـصـبـهـ لـاـقـتـنـاـصـ مـنـ يـرـيدـ الـإـيقـاعـ بـهـ،

والويل من يثير كامن غضبه، ولو أن إنساناً أحفظه ومضى سريعاً ليختفي في الجانب الشرقي من المعور لأدركه انتقام هذا الملك، ويقال إنه استصفى أموال رجل مكفوف البصر، وأخذ معظمها، ونفد ما بقي منها في يد الرجل فخرج إلى مكة حاجاً يتكلف الناس، وهناك في الحرم أخذ يدعى على ذلك الملك الظالم ويسبه ويلعنه حيث أفضى به ظلمه إلى ذل المسألة وذل الاغتراب. فاتصل بالمعتضد خبره وأنه يدعى عليه ويشهر به، فاستدعى رجلاً إشبيلياً من رعيته كان قد أزمع الرحلة إلى مكة لأداء فريضة الحج، وأحضر عليه فيها دنانير مسمومة، وقال له: «إذا وصلت إلى مكة ورأيت الإشبيلي الضرير، فصله بهذه العطية وأقرئه مني السلام وأحذر أن تفتحها». فصعد الرجل بالأمر، و لما وصل إلى مكة تفقد الضرير حتى عرفه، وأعطاه العلبة، وقال: «هذه هدية المعتضد إليك». فسمع وسوسه ما بداخلها من الدنانير فطار له، وقال: «يا عجبًا! كيف يفقرني المعتضد بإشبيلية أمس، ويغيني بالحجاز اليوم؟»

فأجابه الرجل: «لعله تذكر ما تحيفك به من الظلم، فضميره الآن يخزه ويؤنبه، وعلى كل حال فإنما أنا رسول ومبلغ وقد قمت بما عهد به إلى خير قيام، ومن حluck وحسن حظك أن تقبل هذه الهدية الثمينة التي لم تكن تحلم بها، والتي فيها غناك وسعادتك.».

فاقتتنع الضرير وبالغ في شكره، وحمله شكره وولاءه للملك إذا هو عاد إلى إشبيلية، ثم أخذ العلبة ووضعها بين ذراعيه وخاصرته، وخف مسرعاً إلى كوخه يهربون بقدر ما تسمح به حالة مكفوف ضرير، ودخل كوخه ذلك الحقير وهو بين مصدق ومكذب، وأحكם إرتجاب الباب، وفتح العلبة وأفرغ منها كومة ذهب من دنانير، ولا تسل عن ذلك الأعمى وقد طفح قلبه بشراً وسروراً، حين وجد الفرصة السعيدة تواثيه بالثروة والغنى فجأة، بعد أن عاكسه الدهر، وعاني من الفقر والأمررين، أخذ يقلب بين يديه تلك الدنانير البراقة، ولو أن عينيه لم تكونا مغلتين بحكم العمى لشعر بتمام اللذة، على أن حاستي اللمس والسمع قد عوضتا عليه ما فاته من تلك المتعة واللذة، فقد كان يقبض تلك الدنانير بأصابعه ويملاً بها راحتيه، ويتحسسها بأنامله، ويتسمع رنينها بأذنه، ويلهوا بعدها المرة بعد المرة، وقد غمرته اللذة، وعمه السرور، وذهبت به الأماني والأحلام كل مذهب، إلى أن فعل السم به فعله، وسرى في جسمه سريان الحمى في المحموم، ولم يرخ الليل سدوله على هذا المسكين الذي أوقعه القضاء في حالة المعتضد حتى أمسى بفعل السم جثة هامدة.

إذن فباديس والمعتضد كلاهما قاسٍ شديد البأس، وإن كانت قسوتهما ترى بألوان مختلفة، فباديس في ثورة غضبه يقتل بيده ضحاياه، والمعتضد في أحوال نادرة يتعدى على وظيفة جلاده، وتحت تأثير غضبه وحنقه الشديدين اللذين يزففيهما صاحبه يسمح ليديه الرستقراطيتين على كره منه أن تلتقطا بالدم، أما باديس فلم يكن يتطلب لشفاء نفسه أزيد من انغمس يده في دم عدوه، ومن دأبه بعد ذلك أن يعلق رأس القتيل على رمح ليطاف به في المدينة، وبهذا تبرد غلته، وأمير إشبيلية على عكسه فإن غضبه من عدوه لا يشفيه مجرد القتل، فهو يتبعه إلى ما بعد الموت، وما كان يتوقف لحظة عن إثارة أشلاء قتله وإخراجها من عيابها وصناديقها المقلفة إرضاءً لنزعاته الوحشية.

وكان يضع — أسوة بال الخليفة المهدى^٣ — جمامج أعدائه على نصب من الخشب إلى جانب الأزهار بحديقة في قصره، ويعملق في أذن كل جمجمة بطاقة يكتب عليها اسم صاحبها، وكانت تلك الحديقة المثمرة برءوس القتلى، تبعث في نفسه السرور والانشراح كلما رأها أمامه، وكثيراً ما كان يصرح بذلك في أقواله، على أنه لم يكن بين تلك الرءوس التي هي قرة عينيه رءوس من فتك بهم من أعدائه الأبناء، لأنه كان يحفظ رءوس أولئك في صناديق مقلفة قد أودعها في مكان بعيد من القصر.

ونقول: «إن مما يبعث على الدهشة أن ذلك المارد الوحشى القاسي كان يعتبر نفسه الأمير الخير بين الأبناء، ويرى أنه مثل «طبيطوس» الذي كون تكويناً خاصاً ليكون على يديه سعادة الجنس البشري، وكان مما يقوله في شعره هذه العبارات:

إن إرادة مولاي القدير لو اقتضت أن يمتد سلطانى على جميع الأحزاب المختلفة من العرب والبربر والصقالبة لخيمت السعادة على ربوع الأندلس، وإن مما يقوى عندي الأمل في سعادة الناس وعزهم وطمأنينتهم، أنى لا أزال أسلك معهم سبيل الجادة، وأنى لم أنحرف قط عن الصراط السوى، وما عاملت أحداً من رعاياي إلا بما يوجبه علي كرم عنصري وشرف نفسي وعلو همتى، من رعاية العدل وحب الإنفاق، ولست أنفك أدفع عنهم شر المعتدين، وغائلة المفسدين، وأزيل أسباب المصائب التي تنزل بساحتهم، وتنصب فوق رءوسهم.»

الفصل السادس

بعد أن قضى المعتضد على حياة «حبيب» وزير أبيه و مشاوره في الحكم، وأصبح منفرداً وحده لا منازع له ولا مشاور، وجه عسكته إلى البربر، وبدأ بجيرانه ببر قرمونة وكانت تعتاده هواجس نفسية، ويجسم عنده الوهم أنه إذا لم يكن على قدم الاستعداد والأهبة لbagatة أعدائه والقضاء عليهم، فإنهم — بلا شك — قد عقدوا النية، ووطّنوا أنفسهم على الإيقاع به، وانتزاع الملكة منه ومن عقبه، وكان بعض المنجمين قد تنبأ بأن جيلاً من الناس سيولد خارج مملكته يكون على يده انتزاعها من أبيديبني عباد، وهذه الظنون التي كانت تذهب به كل مذهب ما بربت تحمله يحاول أن يوقع بالبربر كلما أمكنته الفرصة لبييد خضراءهم، ويستأصل جرثومتهم، وقد استمرت هذه الواقائع والحروب مدة طويلة قتل خلالها محمد أمير قرمونة، حيث خدع واجتب إلى كمين وقع فيه (١٠٤٢-١٠٤٣) وكان من نتائجها اتساع المملكة في الجهة الغربية.

وفي سنة (١٠٤٤) قهر ابن طيفور^١ واستولى على «مرتولة»^٢ ثم هاجم بعده ابن يحيى أمير «لبلة» ولم يكن هذا الأخير من البربر بل كان عربياً، وما دام المعتضد يريد أن تتسع رقعة مملكته، فليس يقفه عن قصده أي شيء، ولما ضيق الخناق على ابن يحيى^٣ استدرج بالملظر صاحب بطيروس فتقدم لمعونته فصده المعتضد فلجأ إلى ببر غرناطة وأنشأ يؤلف ضد المعتضد حلفاً قوياً انضم إليه باديس ومحمد أمير مالقة ومحمد أمير الجزيرة الخضراء، وحدث على أثر ذلك أن أبا الوليد بن جهور الذي خلف أباه كرئيس لجمهورية قرطبة سنة (١٠٤٣) بذل كل ما في وسعه للتوفيق والصلح بين الفريقين فلم يفلح، وذهب سعيه عبثاً، ولم يستمع لرسالة الذين أرسلهم لإصلاح ذات البين أحد وأعد الحلفاء من البربر خطة لمحف على إشبيلية ريثما يجمعون شتات جيوشهم ويتصل بعضهم ببعض، وعرف المعتضد ذلك فانتهز فرصة وجود المظفر في منطقة

نفوذه بعيداً عن حلفائه بحيث لا يستطيع الدفاع عن نفسه وببلاده، فعمد – أول الأمر – إلى تخريب كورة بطليوس ثم سار مخالفًا عادته على رأس جيشه، وزحف على «بلة» وهجم أعداءه في مضيق على مقرية من أبواب المدينة، ورد فريقاً منهم إلى «الأحمر»، ولكن المظفر وفق لجمع رجاله، وحمل بهم حملة صادقة اضطرت المعتصم أن يتقهقر نحو إشبيلية، وتمكن المظفر حينئذ أن ينضم إلى حلفائه.

ولكن بينما هو يوقع التخريب في البلاد التابعة لإشبيلية خرج ابن يحيى من حلف هؤلاء، وانضم إلى المعتصم ودخل في حلفه – على كره منه – وقد عاقبه المظفر بالاستيلاء على أمواله التي كانت مودعة عنده، وأعمل السلب والنهب في كورة «بلة»⁴ فاستصرخ ابن يحيى بالمعتصم إشقاً على بلاده من التخريب والتدمر، فعمد هذا إلى إرسال جنوده لمقاتلة جند بطليوس، فاستدرجوهم إلى كمين وتمت الهزيمة على عسكر بطليوس، فاضطروا إلى التقهقر، ولم يقتنع بهذا الانتصار بل عمد إلى تخريب جهات «يابره» بواسطة ابنه إسماعيل، ولكن أمير بطليوس أمر أن يتقدّم السلاح كل من يستطيع القتال من الرعية، وبذلك تمكن من صد هجمات جيوش إشبيلية، ولما اتصلت به الإمدادات من إسحاق أمير قرمونة سير رجاله لمنازلة العدو، وعيّناً حاول برب قرمونة أن يقنعوه بالعدول عن عزمه الذي صمم عليه بداع الغرور والجهل بقوّة عدوه، ومما قالوه له: «إنك – بلا شك – لا تقدر جيش إشبيلية قدره، وتجهل وفراً عدده، ونحن أعرف منك بذلك، فقد وصلت إلينا أنباؤه فضلاً عن أننا رأينا رأي العين، ووقفنا على ما فيه من عدد وعدة». ولكن تحمس المظفر وحده طبعه أبيا عليه أن يعمل بمشورة ناصحيه، أو يصدق لهم قولًا، ومضى في سبيله بداع الجرأة التي كلفته ثمناً باهظاً، فقد حلّت به الهزيمة وتقهقر تاركاً ثلاثة آلاف قتيل على أقل تقدير، وكان من بين من قتل في هذه المعركة ابن أمير قرمونة الذي كان يتولى قيادة جيش أبيه، وقد حملت رأسه إلى المعتصم، فوضعها في صندوق مع رأس جد هذا الأمير الشاب.

بعد هذه المعركة المشئومة ظهرت بطليوس مدة طويلة في مظهر مزعج، ومنظر مخيف، تستوحش منه النفس، وينقبض له الصدر، إذ دامت حوانيتها مقفلة، وأسواقها مقفرة، بعد أن قتل في هذه المعركة المستأصلة صفوه أهلها، ومما زاد الحالة سوءاً وبلاءً أن الإشبيليين إبان المعركة أتلفوا المزارع ودمروا الحصاد، فأناشت المجاعة بكلكها على أنحاء المملكة، ولم يستطع المظفر عمل شيء بإزاء هذه الكارثة الماجحة، وتخلى عنه

خلافه بعد أن حاول عبّاً أن يستعين بهم على تخفيف هذه النازلة التي حلّت ببلاده، وظل ساكناً ببطليوس يحرق الأرم، ويتاكل نفسه غيظاً وندماً. ومع ما هو واقع فيه من سوء الحالة وتحرّجها لم يشاً أن ينزل عن عزة نفسه وإبائها، ويقبل صلحاً شريفاً بواسطة ابن جهور، بينما عدوه الظافر قد أظهر تمام الاستعداد لقبول هذا الصلح.

ولم يكتف بهذا بل تظاهر أنه غير مكترث لما أصابه من خسارة، ولحق ببلاده من أزمة ومجاعة، ويدافع هذا التظاهر الكاذب أرسل إلى قرطبة في طلب قينات – ولكن في ذلك الحين نادرات – وبعد عناء البحث اشتريت له اثنان لم تكونا على جانب من الحسن والبراعة في الغناء. ودھش الناس لرکون المظفر إلى اللھو والخلاغة، وهو المعروف بالجد والوقار، والبعد عن العبث وسماع القينات، ولم يدرك القوم كيف أنه يرکن إلى اللھو في هذا الوقت الذي تظهر فيه بلاده بمظھر الخراب والاضھار، ولكنهم أدرکوا السر في هذا السلوك الغامض حين علموا أن المظفر يريد أن يظهر لخصمه أنه في الوقت الذي يستطيع فيه أن يبيع أشياء مملوكة له، كذلك يستطيع – وهو مرتاح الخاطر – أن يشتري مغنيات يلھو بهن.

وبالرغم من هذا كله فقد واصل ابن جهور جهوده للتوفيق بين الخصمين وإبرام صلح شریف عاجل بينهما، وفي شهر يوليو سنة ١٠٥١ كللت جهوده بالنجاح، وتم بوساطته – بعد مفاوضات طويلة – عقد صلح بين المظفر والمعتضد.

وحيثئذ وجه المعتضد جميع قواته إلى ابن يحيى أمير «بلة» الذي انفصل عن حلفائه وعاد وحيداً دونهم، ولم تكن هذه الحملة حرباً، بل كانت بمثابة نزهة حربية، ولم يحاول «ابن يحيى» – لضعفه عن المقاومة – أن يدافع حتى عن نفسه، بل تحول إلى قرطبة، وعول على أن يقضي بها سائر أيام حياته، وقد عطف عليه المعتضد وأرسل ثلاثة من فرسانه كحرس له في الطريق.

وأدرك الأمير الذي كان باسطاً حكمه على «ولبة» وعلى جزيرة «سالطس»^٠ الصغيرة، وهو أبو عبيد عبد العزيز البكري صاحب كتاب المسالك والممالك أنه قد حان وقته، وجاء دوره، ومع هذا فقد كان يؤمل أن ينقذ من الغرق ما يمكن إنقاذه، فكتب يهنيء المعتضد بانتصاره الجديد، ويطلب إليه أن يدخل في حلفه، ويكون تبعاً له، وأن يتنازل له عن «ولبة» في مقابل أن يترك له «سالطس» ويشرح العلاقات الودية التي كانت بين أسرته وبين أسرة آل عباد، فقبل المعتضد ما تقدم به إليه، وتظاهر بأنه يريد مقابلته، والإفشاء

إليه بحديث هام فسافر إلى «ولبة»، ولكن عبد العزيز رأى من الحكمه وصواب الرأي إلا يكون في انتظاره وأن يتحول عنها إلى «سالطس»، وجاء المعتضد فوضع يده على «ولبة» وقفل عائداً إلى إشبيلية، وترك هناك ثقة من رجاله ليحول دون أن يبرح عبد العزيز جزيرته، أو ينتقل أحد إليه.

ولما عرف عبد العزيز ما وصلت إليه حاله لاذ بالحكمه، وشرع يفاوض عامل المعتضد على «ولبة» يطلب السماح له بالسفر إلى قرطبة، وباع سفنه وذخائره الحربيه للأمير الإشبيلي مقابل عشرة آلاف دوكا.

وقد أراد المعتضد أن يخونه ويستدرجه إبان سفره ليوقعه في الشرك كي يستولي على أمواله.

ولكن عبد العزيز فطن إلى قصده، وتمكن بواسطة حراس طلبه من أمير قرمونة أن يصل إلى قرطبة دون أن يصيبه في طريقه مكروه.

ثم هاجم المعتضد بعد ذلك ولاية «شلب» الصغيرة، حيث كان يلي الحكم فيها العرب من بني مرين وهم الذين كان أجدادهم يملكون الجهات المتعدة في هذا الإقليم، وقد تولوا في عهد الأميين المراكز المهمة، واستنتمت أمير «شلب» في الدفاع عن نفسه بكل إقدام وشجاعة، وقد صحت عزيمته على ألا يسلم أو يموت، ولكن جيش إشبيلية الذي كان يقوده محمد المعتمد قيادة اسمية فقط لبلوغه الثالثة عشرة من عمره بالغ في تضييق الحصار على «شلب» إلى أن استولى عليها عنوة. وكان ابن مرين اعترض أن يفتک بأكبر رأس في الجيش، إلا أن المعتضد بعد أن تمكن منه وهب له حياته واكتفى بنفيه. وبعد أن تم الأمر بالاستيلاء على «شلب» أصدر أمره بالزحف على «شنتمرية» القريبة من الرأس الذي يسمى إلى اليوم بهذا الاسم، وهي كورة كان الخليفة سليمان أعطاها لسعيد بن هارون، وكان مجهول النسب لا يعرف أكان من العرب أم من البربر، والرجال المجهول أصلهم في العادة يكونون من الإسبانيين، سكان البلاد الأصليين. بقيت هذه الجهة مع سعيد هذا إلى أن انتقل سليمان إلى جوار ربه، فاستقل بها، ثم خلفه عليها بعد وفاته ابنه محمد، وحين دهمه عسکر إشبيلية لم تكن منه إلا مقاومة قصيرة المدى، ولما تم للممعتضد أخذ هذه الكورة، ضمها إلى «شلب» وأراد أن يلي الحكم فيها ابنه محمد (١٠٥٢).

وبهذه الانتصارات السريعة اتسعت إماراة إشبيلية في الجهة الغربية من جزيرة الأندلس، أما الجهة الجنوبية فلم تكن قد اتسعت بعد؛ لأن أمراء الجنوب من البربر كانوا

— في ذلك الحين — مسلمين للمعتضد في الغالب، معتبرين بسيادته أو مقررين بخلافة هشام الثاني.

لم يقنع المعتضد بما أصاب من فتوحات اتسعت بها رقعة مملكته، وعد ما تم له من ذلك قليلاً بالنسبة لما يطمح إليه، فسرت إلى نفسه فكرة قتل أولئك الأمراء، والاستيلاء على ولاياتهم، ولكي يكون نجاح أعماله السرية محققًا رأى أن يسلك سبيل الاعتدال والحدر حتى لا يطوح بنفسه في محاولة جريئة، فذهب بعد غزوة «شلب» مع اثنين من الخدم لزيارة أميرين من أتباعه، وهما ابن نوح أميربني مرين وابن أبي قرة أمير رندة دون أن يعلنهما أنه آت لزيارتهما، وإن مما يبعث على الدهشة أن يلقي المعتضد بنفسه بين مخالب هؤلاء، ويضع نفسه بدون تبصر تحت رحمتهم وهو يعلم ما يكتن له أولئك البربر من عداوة وحقد، والواقع أن المعتضد — في مثل هذه المواقف — لا تنقصه الجرأة والإقدام، وهو على الرغم من خيانته ومخاالتته للجميع، واثق من حسن نيات وتقدير الغير له، فقد قوبل عندبني مرين بكل حفاوة وتجلة، وأعرب له ابن نوح عن فرط سروره وغبته بما هيأت له الظروف السعيدة من هذه الزيارة التي جاءت على غير انتظار، وأولم له وليمة فاخرة، وبالغ في إكرام وفادته، وحقق له من جديد أنه سيكون له التابع الوفي المخلص على الدوام، ولكن المعتضد لم يقدم على هذه الزيارة لسماع التحايا، وألفاظ التكريم والحب والولاء، بل كان يرمي إلى غرض آخر، وهو جس النبض ليعرف هل يستطيع أن يكسب إلى جانبه بعض أفراد من ذوي النفوذ والجاه؟ إذ قد لاحظ أن العرب يميلون من أعماق صدورهم إلى التخلص من نير البربر، وأنه لا يستطيع التعويل عليهم عند سنوح الفرصة.

وبفضل ما كان يحمله خادماه من الهدايا والتحف والأحجار الكريمة استطاع أن يرشو كثيرين من رجال البربر، دون أن يدخل ابن نوح أدنى ريب في دسائسه.

وبعد أن سر المعتضد كثيراً من نتائج هذه الزيارة استأنف سفره إلى «رندة» فقوبل بمثل ما قوبل به هناك من الإجلال والترحيب، ونجحت حيله السرية، وأعماله الخفية فيها كثيراً، لأن العرب هنا كانوا أكثر تذمراً من زملائهمبني مرين، وأشد رغبة في التحرر من حكم البربر.

والظاهر أنبني قرة كانوا أصلب عدواً وأكثر جرأة منبني نوح، فقد دبروا للمعتضد مؤامرة رهيبة يكون انفجارها بمجرد الإشارة، ومن الاتفاق الغريب أن تسلم

حياته وهي معرضة للخطر في سبيل إنفاذ مشروعه الخطر الجريء، فقد حدث مرة أن تناول معهم الطعام، وأخذوا يحتسون النبيذ وأحس هو — خلال ذلك — بمiley إلى الراحة والرقد، فقال للأمير: «إنني أشعر بتعب، وأحس بحاجة إلى النوم، فخذلوا أنتم في حديثكم، وامضوا في شرابكم، ريثما أستريح برهة، وأخذ حظاً قليلاً من النوم، ثم أعود فأخذ مجلسي معكم حول المائدة». فأجيب إلى طلبه وأعدت له وسائل الراحة، وبعد لحظة كان فيها متداوماً مظهراً أنه في سبات عميق، طلب بعض رجال البابر من الجالسين أن يصغوا لحظة إلى حديث خطير يريد أن يفضي به إليهم، فصمت الجميع، وقال الرجل بصوت خافت: «يظهر أن عندنا كبشًا سمينًا قد مد صفحته للسكين المشحودة، وقد واتانا حظ سعيد كنا بعيدين عن إدراكه، ولو أتنا بذلك في سبيل هذه الفرصة ما في الأندلس من ذهب لم يجد ذلك شيئاً، بينما ذلك الطاغية قد حضر بنفسه وأمكنته من مقاتلته، أنتم تعلمون جميعاً أن ذلك الرجل هو الشيطان بعينه، فإذا ما قضينا على حياته لم ينأزعننا أحد السلطة في هذه البلاد».

ولاذ الجميع بالصمت، وأخذوا يتداولون الإشارة باللحظ، ولا خفاء أن فكرة قتل ذلك الشيطان الذي يمقتونه ويزدرونه، ويعرفون طرقه الملتوية المترعة، تقابل بسرور وابتسام من أولئك الرجال الذين مرنوا على القسوة، وشبوا — منذ نعومة أظفارهم — على القتل وسفك الدماء، لذلك لم تبد على وجوههم علامات الدهشة، ولم تلح عليهما أمارات الاستنكار والاشمئزاز، وكان من بين هؤلاء جميعاً رجل واحد معتدل المزاج والتفكير قد غلا في رأسه الدم لهذه الفكرة الخاطئة، والخيانة الدينية، ذلك الرجل هو معاذ بن أبي قرة أحد أقارب أمير رندة فقد تطابير من عينه الشر، وأظهر امتعاضاً واشمئزازاً واحتقاراً لفكرتهم هذه المنافية للمرءة وكرم الضيافة، ورد عليهم في تؤدة وثبات بصوت متهدج يغض منه ويختضه قليلاً قائلاً: «إياكم أيها القوم أن ترتكبوا هذه الفعلة الشنعاء، إن هذا الأمير بزيارته لنا ومجيئه عندنا، قد وثق بنا وأمن جانبنا واعتمد على إخلاصنا ووفائنا له. ومسلكه هذا يدل على أنه يقطع بانا غير أهل لأن نخونه، أو نخفر ذمته، ولدينا من الشرف وطيب العنصر ما يدعونا لأن نحقق ظنه فيما، وثقتنا بنا. وبماذا تتحدث عنا القبائل غداً إذا علموا أننا وطئنا بأقدامنا قداسة حقوق الضيافة، فقتلنا ضيفنا؟ ففكروا أيها القوم ملياً، وثوبوا إلى رشدكم، ولعنة الله على من بهم بارتكاب هذه الجريمة».

وقد ترك هذا الكلام في نفوس البرير أثراً عميقاً، وحرك ما ردده عليهم من واجب الضيافة — في قلوبهم — وتراً حساساً، يندر أن يتتبه عند أمثال أولئك الطغام من شعوب أفريقيا.

وقد مثّلوا هذا الفصل والمعتضد في يقظة تامة — وإن كان متناوحاً — وقد سمع كل ما دار بينهم من الحديث، ولما حمد الآخر الذي أحدثه كلام معاذ في نفوس الآخرين، واطمأن إلى النتيجة، تظاهر بأنه بدأ يستيقظ، ومضى سريعاً إلى السماط. فوقف الجميع وعائقوه وقبلوه قبلًا مقرونة بالاحترام وإظهار المودة والاعطف. وكانت حركاتهم تدل على أن ضمائرهم لم تكن مرتاحه لما هموا به، وأنهم ينطون على سر مهانتهم من تلك اللحظة التي فكروا فيها بالغدر بضيفهم. ثم تكلم المعتضد فقال: «يجب أليها الأصدقاء، أن أتعجل العودة إلى إشبيلية ولا يفوتني أنأشكر لكم حفاوتكم، وأنذكر لكم مبلغ سروي بحسن مقابلتكم لي وترحيبكم بي، وكان يجعل بي أن أقدم لكم بعض هدايا نفيسة تكون عنواناً على اعتراضي بفضلكم وتقديركم لكم، ولكنني آسف جد الأسف لأن الهدايا — التي كان يحملها خادمائي — قد نفت أو كادت، ولا بأس من إحضار دواة وقرطاس، وليمل على كل منكم اسمه، وما تميل إليه نفسه من كسى تشريف أو صرر نقود أو جوار أو عبيد أو غير ذلك — مما يدخل في باب التحف وسني الهدايا — وليرسل إلى عند استقراري بعاصمة مملكتي ليأخذ ما يخصه من نفيس تلك الهدايا.» ولما استقر بحضرة ملكه جاءته رسالهم تترى، وعادوا محملين بصنوف الهدايا الثمينة، والحلل الفاخرة، وبذلك توثقت الروابط المتينة، والعلاقة الحسنة بين المعتضد والبرير، وتنوسيت الأحقاد والإحن القديمة، وحل محلها الوداد والوئام والصفاء والسلام.

مضت على ذلك ستة أشهر دعا المعتضد بعد انقضائه أمير رندة و«ابن مرين» إلى مأدبة فاخرة أدبها لهم، زعم أنها اعتراف منه بجميل إكرامهما وحسن استقبالهما له، وكذلك دعا من البرير ابن خزرون، وأميري «أركش» و«شريش»، فبادر الأمراء ثلاثة إلى إجابة الدعوة، ووصلوا إلى إشبيلية (١٤٥٣) فاستقبلهم المعتضد بحفاوة بالغة، وأعد لهم أسباب النعيم والراحة. وبعد أن ألقوا عنهم وعثاء السفر دعاهم وأكابر أتباعهم إلى الاستحمام بحمامه، وانتحل سبباً لإبقاء معاذ الشاب معه، وكانوا نحو ستين من البرير دخلوا الحمام الذي أعد لاستحمامهم، وبعد أن تجردوا من ملابسهم في الباب الأول، تطربوا إلى باب الحمام نفسه وهو مماثل لما يوجد الآن من نظائره في البلاد الإسلامية،

مغطاة أرضه وجدرانه بالرخام الملون، مكسوة قبابه بأنصاف كرات جوفاء من زجاج غير صقيل لإرسال الضوء إلى أسفل، في وسطه نافورة تمج الماء إلى أعلى، وفي جوانبه مغاطس مملوئة بالماء الساخن، وصنابير بارزة في الجدران، بعضها يصب منه ماء بارد، وبعضها متصل بمرجل الحمام يصب منه ماء ساخن قد وصل إلى درجة الغليان.

وبينما المستحمون يتذدون بهذا النعيم الذي هيأ لهم أسبابه المعتمد إذ شعروا بحركة خفيفة غير عادية ظنواها حركة بنائين أو وقادين منصريين إلى عملهم، فلم يعيروها اهتمامهم – لأول وهلة – ثم صارت الحرارة بعد برهة قليلة تتزايد إلى أن شعروا بالدوار وأحسوا بالضيق، فتلمسوها الباب يفتحونه، فوجدوه محكم الإرتفاع وكأنمابني عليهم من خلف، وما يلبثوا إلا قليلاً حتى ماتوا جميعاً نتيجة الاختناق.

ومكث معاذ طويلاً يتربّع عودة الأمراء والصحاب ثم انتهى به الأمر إلى القلق والضجر، ثم تجاسر فسائل المعتمد عن السبب الذي من أجله تأخروا هكذا مدة طويلة، فأفضى إليه المعتمد بالسبب وصرح له – وقد أربد وجهه، وشاع فيه الغضب – بقوله: «لا خوف عليك، أما أولئك الخونة من أهلك وعشيرتك فقد استأهلو العقاب، واستحقوا ما حل بهم من هلاكهم خنقاً في الحمام لتأمرهم على قتلي حين كنت بضيافتهم. وثق أني كنت متناوِماً إبان تأمرهم على قتلي، وقد سمعت كل ما دار بينهم من الحديث في هذا الموضوع الخطير، كما استحسنت كلامك في هذا الصدد، ولست أنسى ما حييت حيث أقامسك جميع ما أملك – إن شئت – وبين العودة إلى وطنك، وإذا اخترت العودة ورغبت في الإقامة برندة، فلك مني أن أغمرك بسني الجواز ونفيسي الهدايا».

فقال معاذ بصوت يشف عن حزن عميق: «وكيف العودة يا مولاي إلى الوطن، وكل ما فيه يمثل لي ذكرى من فقدتهم؟» فقال المعتمد: «عليك إذن أن تقيم بإشبيلية أمّا لا تخاف شيئاً»، وكف بعض رجال حاشيته أن يعمل على إعداد قصر لإقامة معاذ وأمر له بآلاف قطعة من الذهب نقداً، وعشرة من صافنات الجياد، وتلاثين جارية، وما يقرب من هذا العدد من العبيد، ثم توجه إليه بقوله: «وسأمنحك فوق هذا عشرة آلاف دوكا مرتباً سنوياً».

وبقي معاذ بإشبيلية، وهو محل عناية المعتمد وعطفه، فكان يبعث إليه كل يوم بهدايا غالية نفيسة بالغة في الإبداع، يندر أن توجد إلا في خزائن الملوك، وكان في غالب الأحيان

التي يجتمع فيها بوزرائه ومشيريه للاستشارة في أعمال الدولة يجعل لهذا الذي أنقذ حياته المكان الأول في الشورى والرأي.

وبعد أن انتهى المعتصم من تمثيل هذا الدور ووضع رعوس القتلى في صندوق بين رعوس ضحاياه التي كان يتمتع بإلقاء نظرات السرور عليها، أرسل جيشاً للاستيلاء على بني مرين وأركش وشريش وجهات أخرى. وقد نجح الجيش في مهمته من غير أن يعاني صعوبة بفضل مساعدة أهل تلك الجهات من العرب، والخونة الذين اشترأهم المعتصم بالمال. إلا أن الاستيلاء على رندة حيث خلف أبو النصر أباه فيها لم يكن من السهل، فقد كلف جيش المعتصم جهداً وعنة أكثر من غيرها، ولأنها كانت قائمة على ربوة جبل شاهق تحيط بها وهاد وطرق وعرة تجعل الوصول إليها صعباً.

ولكن حدث أن العرب ثاروا على البربر وتحمسوا لقتالهم وأعملوا فيهم سيفهم. وحاول «أبو النصر» نفسه الفرار – طلباً للنجاة – فتردى في هوة عميقه، إذ بينما كان يتسلق السور زلت به قدمه فهلك.

وقد أحدث الاستيلاء على رندة وحدها في نفس المعتصم سروراً عظيماً، فبادر إلى تحصينها، وجعلها أقوى منعة مما كانت عليه. ولما تم له ما أراد من تحصينها، وذهب بنفسه لمعاينتها تملكته نشوة سرور وارتياح جعلته ينظم فيها شعراً مضمونه: «أنت الآن قد بلغت في التحصين الغاية، ولا شك أنك قد صرت أثمن درة في تاج المملكة، وقد استولى عليك جنودي البواسل بأئسته الرماح، وظبا السيف..».

الفصل السابع

في الوقت الذي كان فيه المعتصد ثللاً بنشوء انتصاراته، عاكفاً على شهواته ولذاته، كان باديس حليف هموم وأحزان، حتى لقد بلغ به الحزن أن شق ثيابه – حين اتصلت به أنباء النكبة التي حلّت بالبربر – أخذ يصبح صيحات الغضب، ويزمجر زمرة الرعد، وقد استولى عليه الهياج والقلق والاضطراب، وتملّكه شعور أسود جعل الدنيا تظلم في عينيه، وقد وقر في نفسه أن عامة العرب ببرندة تحركوا للثورة بداعي الجنسية والوطن، وقاموا قوماً رجلاً واحداً للقضاء على منافسيهم من البربر.

ومن الذي يستطيع أن يدخل في روعه أن أتباعه من العرب لم يدخلوا في حلف مع بني عباد، وأنهم لم يأتُمروا به وبعرشه؟ لقد شغلت هذه الفكرة باله، وكانت لا تفارقه ليل نهار، ويقال إنه كانت تعتاده نوبة ذهول، ثم يهيج به هائج الغضب، إلى حد أنه كان يصبح صيحاً شديداً، ويقسم لبيدين كل عربي أَقْلَلَهُ الغباء، وأحياناً كانت تضطرم نفسه هلعاً، وتذوب جزعاً، وتفيض بالوساوس والأحلام والشكوك والأوهام، ثم يعود إلى حالته الأولى من السكون البهم الغامض الأليم، وكأنما انقضت عليه صاعقة.

على أثر هذه الحالة النفسية العصبية أخذ يفكّر في تدبير خطة مروعة رهيبة، وذلك أنه كان يدور بخلده أنه ما دام العرب مقيمين معه في داخل المملكة ومنبئين في الولايات التابعة له، فلن يتأتى له أن يطمئن على سلامته ملكه لحظة واحدة، فعول – في قليل من الحنكة السياسية وعدم التبصر في العواقب – على إبادة خبرائهم، واستئصال شأفتهم من المملكة، وعقد النيّة على أن ينفذ هذا الرأي الخطير عند اجتماعهم بالمسجد للصلوة من يوم الجمعة المُقبل، وكان لا يبرم أمراً دون أن يستشير وزيره إسماعيل اليهودي،

فلما صرَّح له بعزمِه، وأفضى إليه بسره، وأعلمَه أنه مصمم على تنفيذ خطته – رضي أم أبي – أظهرَ له الوزير شناعة هذه الخطة، ووَحَمَّة عاقبتها، وعملَ جهده على أن يعدل الأمير عنها، وأشارَ عليه أن يتمهل في الأمر ريثما تنضج الفكرة، وأن ينظر فيما سيمَّه أن ينجم عن هذا الرأي الخطير من النتائج، وكان مما قاله له: «لنسِّلُمُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سِيَّمَ عَلَى مَا تَرِيدُ وَتَهُوَى، وَلِنَفْرُضْ أَنَّكَ سَتَدْرُكَ غَرْضَكَ بِالْقَضَاءِ عَلَى جَمِيعِ الْعَرَبِ – بِقَطْعِ النَّظَرِ عَمَّا يَنْجُمُ عَنِ هَذَا الْعَمَلِ مِنَ الْخَطَرِ – فَهَلْ يَفْوَتُكَ أَنَّ الْعَرَبَ فِي خَارِجِ الْمُلْكَةِ لَا يَسْكُنُونَ عَنْ مَصَابِ إِخْوَانِهِمْ وَمَا يَحْلُّ بِزَمَلَائِهِمْ؟ وَهَلْ يَدُورُ بِخَلْدِكَ أَنَّهُمْ يَلْبَثُونَ سَاكِنِينَ فِي أَمَّاكِنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَا يَتَحَرَّكُونَ لِنَجْدَةِ أَبْنَاءِ جَنْسِهِمْ؟ كَلَّا، إِنِّي أَؤْكِدُ لَكَ أَنَّهُمْ يَسْارِعُونَ إِلَيْكَ بِدَافِعِ الْغَضْبِ الشَّدِيدِ، وَالْعَصْبَيَّةِ الْقَوْمِيَّةِ، وَيَتَدَافَعُونَ إِلَى بِلَادِكَ تَدَافَعِ الْأَمْوَاجِ الْهَائِجَةِ الْمُضْطَرِبةِ، وَلَا يَلْقَوْنَ السَّلَاحَ أَوْ يَعْلُوُ السَّيفَ رَأْسَكَ.»

ومع مشاكلة هذا الكلام للصواب، ومطابقته للواقع، فإنه لم يؤثر في نفس باديس ولم يصرفه عن رأيه، وأخذ على إسماعيل عهداً بأن يكون ما دار بينهما من الحديث سرّاً مكتتماً، وأصدر أمره بأخذ الأهبة والاستعداد لما يجب عمله يوم الجمعة.

وَقَضَى الْأَمْرُ، وَكَانَ جَمِيعُ الْجَنْدِ بِأَسْلَحْتِهِمُ الْمُخْتَلِفَةُ أَمَّا الْمَسْجَدُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ عَلَى هِيَةِ عَرْضِ عَامِ لِلْجَيْشِ، وَلَمْ يَقْفِ إِسْمَاعِيلُ حِيَالَ هَذَا الْأَمْرِ مَوْقِفَ الْخَمْولِ، بَلْ كَانَ قَدْ دَسَ نَسْوَةً إِلَى زُعْمَاءِ الْعَرَبِ عَمِّلَنَّ عَلَى تَفْرِيقِهِمْ، وَنَصَّحُنَّ لَهُمْ بِعَدْمِ الْإِجْتِمَاعِ لِلصَّلَاةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَأَنْ يَخْتَفُوا عَنِ الْأَنْظَارِ فِي هَذَا الْيَوْمِ فَلَا يَبْدُو لَهُمْ أَثْرٌ، فَعَمِلُوا بِنَصِيْحَتِهِنَّ وَأَخْذُوا حِذْرَهُمْ، وَلَمْ يَحْضُرِ الْمَسْجَدُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ سُوَى نَفْرِ يَسِيرٍ مِّنَ الْعَرَبِ مَنْ لَا خَطَرَ لَهُمْ مَعْ عَامَةِ الشَّعْبِ، وَتَحَقَّقَ بِادِيسُ فَشَلَ خَطْتَهُ، فَكَادَ يَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ وَأَرْسَلَ فِي طَلَبِ إِسْمَاعِيلِ، وَأَخْذَ يَلْوَمَهُ عَلَى إِذَاْعَةِ السَّرِّ الَّذِي أَفْضَى بِهِ إِلَيْهِ، فَقَالَ: «إِنَّ امْتِنَاعَ الْعَرَبِ عَنِ الْحُضُورِ لِصَلَةِ الْجُمُعَةِ لَمْ يَكُنْ لِسِرِّ مَذَاعِ، وَتَفْسِيرُ هَذَا الْامْتِنَاعِ مِنْ جَانِبِهِمْ ظَاهِرٌ، فَإِنَّ الْقَوْمَ رَأَوْا أَنَّكَ حَشَدْتَ جَنْدَكَ بِلَا سَبَبٍ مَوْجِبٍ فِي وَقْتٍ لَمْ يَكُنْ فِيهِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ جِيرَانِكَ حَرْبٌ، فَلَمْ يَشْكُوا فِي أَنَّكَ إِنَّمَا تَقْصِدُهُمْ بِالْسَّوْءِ، فَعَوْضًا مِّنْ أَنْ تَغْضِبَ وَتَنْدِمَ يَجِبُ أَنْ تَحْمَدَ اللَّهَ (تَعَالَى) عَلَى هَذِهِ الْعَاقِبَةِ الْحَمِيدَةِ، فَلَوْ أَنَّ الْعَرَبَ وَقَفُوا عَلَى مَا كُنْتَ تَبِيَّهُ لَهُمْ – مِنَ الشَّرِّ وَالْوَقِيعَةِ – لَثَارُوا وَاضْطَرَبُوا بِسَبَبِهِمْ حَبْلُ الْأَمْنِ، أَفَلَا يُسْرِكُ أَنَّكَ تَرَاهُمُ الآنَ سَاكِنِينَ هَادِئِينَ؟ فَتَرَوْ فِي الْأَمْرِ قَلِيلًا، وَسِيَجِيَّهُ الْوَقْتُ الَّذِي تَحْمَدُ فِيهِ رَأْيِي الَّذِي أَطْلَعْتُكَ عَلَيْهِ.»

وربما كان باديس وقد غاب عنه وجه الصواب غير مقتنع بصحة ما ذهب إليه وزيره، ولكنه حين جاء أحد شيوخ البربر وأيد إسماعيل في الرأي اقتنع أخيراً، واعترف في النهاية بأنه كان مخطئاً، ولم يعد يفكر في ملاشاة العنصر العربي من رعایا، إلّا أنه حين رأى فلول البربر الآتين من بنى مرين وأركش وشريش ورندة قد لجئوا إلى غرناطة وجاءوا يلتمسون لهم فيها مأوى، اعترض أن ينتقم من عدوه، ويغزو بجيشه والماجرين ولايات إشبيلية.»

وليس عندنا تفصيلات عن هذه الموقعة الحربية، ولكن الدلائل تدل على أنها كانت حرباً دموية؛ لأن البربر كانوا موتورين يلتهبون حماسة للانتقام لأبناء جنسهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن العرب كانت كراهتهم لبربر غرناطة أكثر من كراهتهم لسائر البربر، إذ كانوا يعدونهم من الرافضة أعداء الدين، لسكتهم على أن يكون بين وزراء المملكة رجل يهودي، ويقول بعض شعراء إشبيلية الذين كانوا يشيدون بانتصارات المعتصم ما معناه: «لقد أعملت سيفك في رقاب شعب من البربر ينتحلون اسم الإسلام، ولا يؤمنون بغير اليهودية».

لهذا كانت الحرب مع الغرناطيين تعد في نظر العرب حرباً دينية مما حملهم على مقاتلتهم بمنتهى الشدة حتى اضطروهم إلى التقهقر والارتداد إلى حيث يقيم أبناء جلدتهم، وقد ساءت حال أولئك المهاجرين البائسين إذ لم يسمح لهم المعتصم بالعودة إلى دورهم وبلادهم حين رأى باديس أن يحلوا عن غرناطة إلى مساكنهم الأصلية التي لا مندوبة لهم عن العودة إليها، فاضطروا إلى أن يجذروا بحر الزقاق إلى سبتة ولم يشأ «سقوط» أمير هذه الجهة أن يكون لهم فيها بقاء، وهكذا كانوا يطردون - حيثما حلوا، وأينما ارتحلوا - في وقت تفشت فيه المجاعة بـإفريقيـة مما أدى إلى هلاكـهم جميـعاً.

وبعد هذه النكبة التي حلـتـ بالـبرـبرـ وجهـ المـعـتـضـدـ جـنـدـهـ ضدـ القـاسـمـ بنـ حـمـودـ أمـيرـ الجـزـيرـةـ، وـكانـ أـضـعـفـ أـمـرـاءـ البرـبرـ فـلـمـ يـسـعـهـ إـلـاـ أـنـ يـدـخـلـ فيـ طـاعـةـ المـعـتـضـدـ وـيـطـلـبـ منهـ العـفـوـ، فـأـجـازـ لـهـ أـنـ يـتـحـولـ إـلـىـ قـرـطـبةـ فـرـحـلـ إـلـيـهاـ وـأـقـامـ بـهـ (١٠٨٥ـ).

ولا تَمَّ للمعتصم هذا الانتصار الباهر رأى أن الوقت قد حان لإتمام الدور التمثيلي الذي لعبه حتى الآن أسوة بأبيه من قبل، فطَوَّعَتْ له نفسه أن يعلن أن هشاما الثاني المزعوم، والذي قد مات وعلم الناس قاطبة بوفاته لا يزال على قيد الحياة.

على أنه لم تكن ثمة أسباب تدعو والده إلى إثارة مسألة الخلافة بانتحال هذا الاسم، فإن الناس جمِيعاً قد اقتنعوا — في ذلك الحين — باستحالة الرجوع إلى الماضي، والعودة إلى نظام الجماعة، وقد دلت التجارب على أن الخلافة قد سقطت بحيث لم يبق أمل في أن تقوم لها فيما بعد قائمة، وعلى هذا فقد أصبح في قلعة رباح شخص لا خطر له، ولا يترتب على وجوده أية فائدة.

ويجوز أن هذا الرجل الذي اختفى من سذين عديدة ولم يره أحد — لا من عامة الشعب، ولا من حاشية القصر — قد مات، أو أن المعتصد قد تضائق منه فأمر بقتله — كما تحقق ذلك بعض الأخبار — وليس في وسعنا أن نجزم بشيء في هذا الصدد؛ لأن أمير إشبيلية يعرف كيف يحيط أعماله بالأسرار الغامضة، وقد حدث أنه في سنة ١٠٥٩ جمع رجال الدولة، ونعي لهم هشاماً الذي مات من فالج أصابه، ولكنه أمر ألا يذاع خبر الوفاة ما دام في حروب مع جيرانه، أما الآن وهو في حالة سلم مع البلاد المجاورة، فقد أمر بدفن رفات أسير قلعة رباح باحتفال مشي فيه رجال الدولة، ومشي هو في الجنازة باعتباره الحاجب؛ أي: الوزير الأول، مترجمًا وبدون طليسان، وأرسل البرد بنعي هذا الخليفة إلى حلفائه في شرق الأندلس، وطلب إليهم اختيار خليفة جديد لبياعوه، ولم يفكر أحد في ذلك بطبيعة الحال، فزعم أن الخليفة الراحل عهد إليه أن يكون أميرًا على كل بلاد الأندلس من بعده، ومن المحقق أنه كان يعمل على إدراك هذا الغرض، وأن جميع جهوده كانت موجهة إليه، وقد توجهت نفسه الآن للاستيلاء على قرطبة عاصمة المملكة القديمة، ولم يدر ما كان يَحْبُّه له القدر من فشل وخذلان، وذلك أن جنوده أغروا عدة إغارات على بعض الجهات التابعة لقرطبة، وانضم إلى ذلك أنه أمر ابنه إسماعيل قائد جيشه أن يستولي على مدينة الزهراء التي دمر نصفها البربر، فقابل أمره بشيء من الاستياء والامتعاض والتبرم والاعتراض، وكان قد بدأ منذ زمن يظهر الكراهة والاشمئزاز من أبيه، ويشكوا قسوته وظلمه، ويرمييه بأنه كان يقحم به على الأهوال والأخطار، ويعرضه الواقع الهلكة، إذ كان يأبى في المعارك الكبيرة، وحصار العاقل المنيعة، أن يمده بالعدد الكافي من الجنود، وفوق هذا فقد حرك في نفسه عوامل الاستيلاء والبغض رجل أفافي يُدعى أبا عبد الله البرزيلي كان قد رحل من مالقة عندما استولى عليها باديس، وكان يطمع أن يكون حاجبًا لأي أمير، فأثار في نفس إسماعيل فكرة الثورة على أبيه، وأوْعَز إليه أن يؤسس لنفسه مملكة مستقلة في جهة أخرى كالجزيرة الخضراء، وقد أتيحت للرجل أسباب النجاح إذ أظهر إسماعيل في الوقت الذي أمر فيه بالزحف على قرطبة

منتهى ما يكون من الامتعاض والهياج؛ لأنه طلب من أبيه أن يمده بالعدد الذي يلزمته من الجند فأبى، وعبيداً حاول إسماعيل أن يقنعه بأن ما معه من الجند لا يكفي للزحف على ولاية كقرطبة، وبأن باديس لا بد آتٍ لمساعدة أهلها كما فعل ذلك سابقاً، وأنه إذا جاء لمعاونتهم ما دام محالفاً لهم، فإنه حينئذ يضع نفسه بين نارين، ويكون مضطراً لمنازلة عدوين، فلم يصح المعتصد إليه، بل كان في أشد حالات الغضب على ابنه، ودعاه بالجبان، وهدده بالقتل، وكان على وشك أن يبرز ذلك من حيز القول إلى حيز الفعل وأفضى إليه بقوله: «إذا لم تطع قولي، وأظهرت الخلاف علي، فإني مضطرك لا محالة أن أمر بضرب عنقك.»

فجرحت هذه الكلمات إسماعيل في صميم نفسه، وهاج به هائج الغضب، ودفعه حرج الموقف إلى المضي في الخطة الرهيبة التي رسماها لنفسه، ولكنه جاء إلى البرزيلي ليشير عليه بما يمكن عمله، فكان من السهل على هذا أن يقول له: «إنه قد حانت الساعة لتنفيذ الخطة التي أدلية بها إليك.»

وبعد مضي يومين من سفر إسماعيل على رأس الجيش من إشبيلية بلغ رؤساء الجند أن قد ورد عليه نبأ من أبيه أن يأمره فيه بالعودة لمقابلته ليقضي إليه بأمر هام. وقف راجعاً مع البرزيلي وثلاثين فارساً من فرسان الحرس إلى إشبيلية ولم يكن المعتصد في هذا الوقت بقصر الإمارة الحصين، بل كان قد تحول إلى قصر الزاهر الواقع على الضفة المقابلة من النهر، وأنس إسماعيل قلة الحامية والحراس، فاستولى عليه ليلاً، وحمل ما فيه من كنوز ونفائس على ظهور البغال، ولكي يحول دون أن يعبر أحد النهر إلى «قصر الزاهر» لإبلاغ أبيه الحادث أمر بإغراق الزوارق الرايسية تجاه الحصن، وتمكن من أخذ والدته ونساء القصر، ومضى لا يلوى على شيء في طريقه إلى الجزيرة الخضراء، وعلى الرغم من مبالغته في التكتم، وشدة الحذر والخوف من أن يصل نبأ هذا الحادث إلى أسماع أبيه، تسرب الخبر إلى أبيه من أحد فرسان ولده؛ لأنه لم يرضه هذا العمل، فاقتتح نهر الوادي الكبير سباحة وأبلغه الحادث في الحال.

فأنفذ المعتصد في أثره كتائب من الفرسان، وأرسل رسلاً إلى حكام حصونه في الوقت المناسب، فأوصدوا أبواب القصور التي في طريقه في وجهه، وخشي إسماعيل من تأليب أصحاب القصور عليه، فلجأ إلى واحد منهم اسمه «حصادي» وهو صاحب حصن قائم على ربوة جبل عند حدود قسم شذونة وطلب إليه أن يكون في جواره وحمايته،

فقبل أن يجireه، ولكن شرط عليه أن لا تبرح خيله سفح الجبل، وخرج إليه في جماعة من جنوده، ونصح له بعدم الخلاف على والده، وعرض عليه أن يكون وسيطاً في الصلح بينهما، ولكنوه قد فشل في محاولته هذه فشلاً تاماً،رأى أن ينزل عند رأيه ويعمل بمشورته، وحينئذ أذن له أن يدخل معه الحصن، وعامله بما يليق بمكانته، وأرسل إلى المعتصد كتاباً يذكر فيه أن إسماعيل ثاب إلى رشده، وندم على فعلته تلك، وتتوسل إليه أن يقبل وساطته ويصفح عنه، فأرسل إليه يقول: «إنه قد صفح عنه». فعاد إسماعيل إلى إشبيلية ورد والده إليه جميع أملاكه، ولكنه شدّد عليه الرقابة، وأمر بضرب رقاب أبي عبد الله ومن معه، وعلم إسماعيل بذلك فسقط في يده، وأدرك مبلغ خيانة والده وغدره، ووجد أنه قد وقع في الشرك الذي نصبه له من الصفح المزعوم، فأعمل الحيلة في الخلاص، وكتب بقوة المال الحراس، وطائفة من العبيد، وجمعهم - ذات ليلة - على الشراب ليبعث فيهم الحماس والجرأة، وقلدهم السلاح وتسوّر بهم ناحية من القصر رأى الوصول إليها هيناً، وكان يقدر أن يصادف والده في هذه الساعة نائماً، وقد صمم في هذه المرة أن يقضي عليه القضاء الأخير، ولكنه سرعان ما ظهر المعتصد فجأة على رأس حاميته، وما هي إلا أن عاينه المتأمرون حتى لاذوا بالفرار، ولكن جنود الحامية تعقبوهم إلى أن جاءوا بهم معتقلين، وكان الغضب قد وصل بالمعتصد إلى أقصى حد، فأخذ ابنه إلى مكان بعيد من القصر، وأرداه بيده قتيلاً بحيث لم يشهد مصرعه أحد، وهاج به هاج الغضب فأخذ يقتل وينكل بشركائه وأصدقائه وخدمه، وحتى بنساء قصره، وكم أمر ببتر أيد وأرجل وجدع أنوف، وقطع رءوس، وقتل في السر وقتل في العلن. وبعد أن شُفي غيظه وسكنت ثورة غضبه، تملّكه حزن عميق وتنبه في قراره نفسه تأنيب شديد، ووخر في الضمير اليم، وما كان يشعّ لهدا التأنيب وذلك الألم النفسي الدائم، أن ابنه القتيل كان آثماً على الحقيقة جديراً بما حلّ به من العقوبة، فقد ثار عليه، وحاول قتله في محاولتين فشلتا معاً، وسرق ذخائره وأعلاقه وكنوزه حتى لقد سرق مع ذلك نساءه، وكان لا يفتر لحظة عن التصرّح بهذه الشناعات والجرائم التي ارتكبها ابنه، ولا عن التحدث بأنه كان يحبه حباً حقيقياً، فإنه مع جبروته وقوسوته كان يحب أسرته وبخاصة ابنه الذي كان يرى فيه العاقل الرشيد السديد الرأي في المجلس، والقائد المدافع عن حوزة المملكة في ميادين القتال، والعون الوحيد له في شيخوخته، والمتم لعمله إذا وفاه الأجل المحتوم، وهذا هو قد حطم بيده تلك الآمال، وقضى بنفسه على كل تلك الأمانى.

وحكى بعض وزراء إشبيلية قال:

في اليوم الثالث لهذه الكائنة المحزنة، والفحجيعة الدامية، دخلت أنا وزملائي على المعتصم في مجلسه، وكان وجهه مربداً تعلوه كآبة الحزن، في منظر موحش فظيع، فعرتنا دهشة، وارتعنا هلغاً وفزغاً، وتقمنا فحيينا، وهو يجمجم بكلام لم نتبينه، فنظر إلينا نظر استثنى وتفحص، وجعل يصعد فيينا بنظره ويصوب، ثم قال في زمرة كز مجرة الأسد: «ما بالكم لا تنطقون أيها الأشقياء؟ إنه ليسركم في الباطن ما أنا فيه الآن من محن وبلاء، فاذهباوا بعيداً عنى، واجروا من هذا المكان.»

وربما استحال ذلك النشاط الوحشي، وتحولت تلك الإرادة الحديدية الآن إلى ذلة وضعف وفتور وانكسار لأول وهلة، وأصبح ذلك القلب المقدود من الصخر، والذي كان يلوح أنه منجاً أن يطعن في الصميم لصلابته وقوسته، قد أصبح بجرح دام يندمل على الزمن شيئاً فشيئاً، ولكن بعد أن يترك أثراً عميقاً، وفي هذه الفترة ترك جمهورية قرطبة في راحة وطمأنينة، وقد سرتها هذه الطمأنينة المفاجئة على قدر دهشتها بها، وكذلك لم يعد الآن يفكر في خططه الحربية ومشاريعه الواسعة، ثم عادت تلك الأطماء تتحرك في نفسه بصفة غير محسوسة، ثم تنبهت عوامل الجشع والطمع في نفسه، فأخذ يعد الأهة للاستيلاء على مالقة.^١

وكان نير باديس قد أثقل كواهل العرب في مالقة منذ سنين، وأخذوا يلعنون أيامه، ويئتون من جبريته وظلمه، وصاروا يعقدون الآمال في الخلاص من هذا الحكم الغاشم على أمير إشبيلية، وهو وإن كانوا على يقين من أنه مثله في الظلم، إلا أنهم كانوا يؤثثونه على باديس لأنه من جنسهم، ولهذا اتفقوا مع المعتصم، ودبوا مؤامرة كان باديس بتهاونه أول مساعد على تحقيقها، لإدمانه على الشراب، وإغفاله شئون دولته إلا في أوقات قليلة نادرة.

وفي اليوم المضروب موعداً لتنفيذ المؤامرة شب في العاصمة ثورة، اشترك في إضرامها خمسة وعشرون حصناً، وتلاحت في نفس الوقت جيوش إشبيلية بقيادة المعتمد بن المعتصم، فاجتازت الحدود لمساعدة الثائرين، فأخذت البربر على غرة، ولعب السيف في رقابهم ولم ينجُ منهم إلا من تعجل الفرار، وفي أقل من أسبوع من الزمن تم فتح جميع

الولاية، إلا حصن مالقة الذي كان به حامية البربر فإنه بقي وحده بدون تسليم، وهو حصن منيع لوقوعه على قمة جبل، ولمناعته كان في استطاعته أن يقاوم مدة طويلة، وحيثئذٍ كان يخشى أن ينتهز باديس الفرصة فيجيء لشد أزر الحامية، وهذا ما حسب له زعماء الثورة ألف حساب، فأشاروا على المعتمد أن يُشدّد الحصار على مَن في الحصن، وألأ يشق كثيراً بجماعات البربر الذين في جيشه، ولم يقدر المعتمد قيمة هذه النصائح الثمينة، ولم تلقَ منه أذناً صاغية، بل تهاون في الأمر، وأثر الراحة، وأطلق سراح الجنديين الذين أعجبوا بهذا المسلك الحسن، ففكروا على الشراب، وأخذوا يبحثون عن النساء، لاعتقادهم أنه لا خطر هناك يتهددهم، وقد غرهم ما قاله رؤساء البربر للمعتمد من أن الحصن عمّا قليل ستعلم حاميته، وكانت هذه الخديعة من البربر بداعف ميل خفي إلى باديس، وقد جرّ ذلك كثيراً من الشوّم على جيوش إشبيلية، فإن أولئك السودان الذين هم في الحصن، وجدوا عندهم متسعًا من الوقت يخبرون فيه باديس بأن الفرصة سانحة لbagatة عسكر المعتمد والقضاء عليه.

فجذت جنود غرناطة في المسير، وشققت طريقها إلى مالقة بين الجبال والأوغار في سرعة وحذر، ودخلت المدينة على حين غفلة من أهلها، دون أن يكون عند المعتمد قبل دخولهم بلحظة واحدة علم باقتراهم، فلم يستطع أن يجمع الجيش للاقتال العدو، ولم تكن بين الجيشين معركة، وكل ما في الأمر أن جند غرناطة قاموا بمذبحة في عسكر إشبيلية الذين كانوا عزلاً من السلاح، والذين كان أكثر من نصفهم سكارى، وقد أفلت المعتمد من أيديهم بانسحابه إلى رنده واضطربت ولاية مالقة جميعها أن تخضع من جديد لحكم باديس.

وللنتصور هنا مبلغ حنق المعتمد وغضبه حين نمى إليه خبر هذه الهزيمة، وأن ولده بتهاونه وتضييعه خطة الحزم قد فقد جيشه، وفقد ولاية عظيمة، وكان من نتيجة هذا الغضب أن أصدر أمره باعتقال المعتمد مع مسجوني حصن رنده وقد همّ أن يقضى على ولده الثاني في حياته أيضًا، ناسيًا وخز الضمير الذي أصابه لقتله ولده الأول.

وكان المعتمد يجهل مبلغ ما وصل إليه والده من الغضب والحسرة والندم، ولما استقر في الحصن، وعرف مدى غضب والده بعث إليه بقصيدة تفيض بالديح والثناء، وتشيد بكرم المعتمد، وتستجلب عطفه وصفحه، وتقضي فؤاده الرحمة والشفقة، بذل في هذه القصيدة كل ما في استطاعته ليصرف عن والده ما ساوره من حزن، وألمٌ به من ألمٍ، وليعززه عن هذا المصاب وذلك الإخفاق بما أحرزه فيما مضى من انتصارات

باهرة، وفتوحات اتسعت بها رقعة المملكة، ومن أجمع الآيات لهذه المعاني قوله في صدر قصيده الرائية:

ما زا يعيي عليك البث والحزن
واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر
فلا مرد لما يأتي به القدر
فكם غزوت ومن أشياعك الظفر
وعبرة من شئون العين تنحدر
وثق بـ «معتضد بالله» يغتفر
فالله يدفع والمنصور ينتصر
إذا أصابتهم مكرهه صبروا
عمرو أبوك له مجد وافتخر
ويستقل عطاياه ويحتقر
لولا نداء لقلنا إنها الحجر
لا توهنني فإني الناب والظفر
صن حَدَّ عبدي فهو الصارم الذكر
إلا تأتي مراد وانقضى وطر

سكن فؤادك لا تذهب بك الفكر
وازجر جفونك لا ترضي البكاء لها
 وإن يكن قدر قد عاق عن وطر
وإن تكن كبوة في الدهر واحدة
كم زفة في شغاف القلب صاعدة
فُوض إلى الله مما أنت خائفة
ولا ترُعك خطوب إن عدا زمن
واصبر فإنك من قوم أولي جلد
من مثل جدك والملك الهمام أبو
سميدع يهب الآلاف معتذراً
له يد كل جبار يقبلها
يا ضيغماً يقتل الأبطال مفترساً
وفارساً تحذر الأبطال صولته
هو الذي لم تشم يمناك صفحاته

ثم حاول في قصيده هذه أن يعتذر عن نفسه، ويلقي التبعة على البرير الخائنين، ويصف بأبدع أسلوب مبلغ الحزن الذي تملكه من جراء غضبه عليه فقال:

عتباً وها هو قد وافق يعتذر
وفى لهم عدلك المأثور إذ غدروا
بغض، ونفعهم إن صرفوا ضرر
ويعرف الحقد في الألحاظ إن نظروا
فإنما ذاك من نار القلى شرر
بَرْج، وفي راحتيك السلس الخضر
أَسْى، وذى مقلة أودى بها السهر

لم يأت عبدي ذنبًا يستحق به
ما الذنب إلا على قوم ذوي دغل
قوم نصيحتهم غش، وحبهم
يميز البغض في الألفاظ إن نطقوا
إن يحرق القلب نفتُ من مقالهم
مولاي! دعوة مظلوم به ظمأ
أجب نداء أخي قلب تملكه

فلست أعهد ما كأس ولا وتر
ولا سبى خلدي غنج ولا حور
 فهو العتاد الذي للدهر أدخر
عدمتها عبشت في قلبي الفكر
فلم يفارق — لعمري — سني الصغر
أخفقت فيه فلا ينسأ لي العمر
نظم الكل في القنا والهام تنتشر
تفنى الليالي ولا تفني لها الذكر
فليس في كل حي غيرها سمر

لم أوت من زمني شيئاً أسرّ به
ولا تملّكني دل ولا خفر
رضاك راحة نفسي — لا فجعت به —
وهو المدام التي أسلو بها فإذا
ما تركي الخمر من زهد ولا ورع
وإنما أنا ساع في رضاك، فإن
أجلولي راحة أخرى أسرّ بها
كم راحة لي في الأعداء واضحة
سارت بها العيس في الآفاق فانتشرت

* * *

لا زلت ذا عزة قعسae شامخة
ولا يزل وزر من حسن رأيك لي
أوي إليه، فنعم الكهف والوزر

وقد أثر هذا الشعر — ببروعته وسمو معانيه وانسجام عباراته — في نفس المعتصد وأخذ يرق تدريجًا، ويعطف على ولده، كما عطفه عليه رجل معروف بالصلاح والورع من رجال رندة أكثر من التوصلات والشفاعات التي رق لها قلبه، ولأن جانبه، فأباج المعتمد العودة إلى إشبيلية، وصفح عنه، ولكن مالقة قد أفلتت من يده بحيث لا سبيل إلى رجوعها، واستيقظ باديس» من ذلك الحين وأخذ في الأهبة والاستعداد والحيطة حتى لا يحاول المعتصد» مbagعتها والانتقضاض عليها مرة أخرى، ومما يقال عن ملك غربناطة أنه كان في ثورة غضبه لا يرحم، وأنه كان ينتقل من مكان إلى مكان للانتقام من التأثرين والزعماء، وهو محاط بجلاديه، وأنه أودى بحياة الآلاف من المساكين الذين ثاروا عليه وأبادهم تقتيلاً وتمثيلاً، وإحرافاً وتتكيلاً، فلم يعد أحد من التأثرين الكارهين لحكمه يرغب في إعادة الكرة عليه ثانية.

ووجد الناقمون عليه في وسط هذه المحن الشديدة والعذاب المستأصل سبيلاً لإثارة الخواطر حيث آنسوا أن نفوذ اليهود في بلاط غربناطة قد بلغ النهاية، فإنه بعد أن مات إسماعيل خلفه ولده يوسف الذي عني أبوه في حياته بتعليمه كثيراً من العلوم، وأعده إعداداً تاماً للقيام بأعباء الوزارة بعده، وقد اضططع بمنصب كبير الوزراء في الدولة،

ولديه كل المؤهلات العلمية والثقافية، إلا أنه كان يعوزه لين الجانب، والتواضع الذي كان يكسب والده — مع سمو المركز — صفح الأمير ورضا الجميع عنه، ولم يكن يوسف على شاكلة أبيه من هذه الناحية، بل كان يظهر بمظهر أميره باديس ممتنعًا جواده إلى جانبه، وركابه بإزاء ركابه، وشارته في اللبس كشارته، حتى إن الناظر إليهما لا يفرق بين الأمير وزيره.

بل لقد كان يوسف في الحقيقة ملّاكًا فوق الملك، وكان هو المسيطر المسلط على باديس لعكوفه على شرابه، وانغماسه في لهوه وبطالته، ولكي يستمر نفوذه وسلطانه على المملكة كان قد أحاط باديس بجواسيس وعيون من نساء وفتیان قصره، استغلهم بالمال، وغمرهم بالإحسان، فلا يكاد باديس ينبعس أو يتنفس إلا وهو يعلم ذلك.

وذهب كثير من الناس إلى أنه لم يكن على دين آبائه وأجداده، وأنه كان مستهترًا يحتقر الأديان جميًعا، وقالوا: إنه لم يكن يهوديًّا إلا بالاسم فقط، وكان — في حملاته على الدين الموسوي — لا يكاد يصرح بالطعن، أما الدين الحمدي فكان يجهر بالغضض منه، ويعيب أحكامه، هذا إلى أنه كان يحرف كثيرًا من آيات القرآن، يضاف إلى ذلك أنه أساء إلى العرب والبربر بل واليهود، وجرح كرامة الجميع بكبريائه وترفعه وإعجابه وزهوه، وأرائه اللادينية وقلة إنصافه، وعدم رعايته العدل، وحام حوله كثير من الشبه والظنون، وأصبحت تعزى إليه تهم وتداع مخازٍ وفضائح، واستهدف لكثير من الألسنة وحمل كثيرًا من جمهرة المسلمين على معاداته، بينهم الزاهد أبو إسحاق الألبيري الذي ذاعت قصidته في الإغراء باليهود.

عصف الشباب بهذا الرجل، فسُولَت له نفسه أن يتطلع لمركز في البلاد يرى نفسه — لمنصبه وسابقته في الزهد والورع — أهلاً للحصول عليه، فخيب يوسف آماله فرحل وهو يحمل في نفسه من الحقد والكراهة له ولليهود ما حفظه على أن ينظم فيهم قصidته التي يقول في مطلعها:

بدور الزمان وأسد العرين	ألا قل لصنهاجة أجمعين
يعد النصيحة زلفي ودين	مقالة ذي مقة مشقق
تَكَرَ بها أعين الشامتين	لقد ذل سيدكم ذلة
ولو شاء كان من المؤمنين	تخير كاتبه كافرًا

فعز اليهود به وانتخوا
وتاهوا، وكانوا من الأرذلين

ومنها:

لأرذل قرد من المشركين
ولكنَّ منا يقوم المعين
من القادة الخيرة المتقين^٢
وردهم أسفل السافلين
ولم يستطيلوا على الصالحين

فكم مسلم راغب راهب
وما كان ذلك من سعيهم
فهلا اقتدى فيهم بالأعلى
 وأنزلهم حيث يستأهلون
فلم يستخفوا بأعلامنا

ومنها يخاطب السلطان:

تصيب بظنك نفس اليقين
وفي الأرض تضرب منها القرون؟
وقد بغضوك إلى العالمين؟
إذا كنت تبني وهم يهدمون؟
وقارنته، وهو بئس القرين؟

أباديس^٣ أنت امرؤ حاذق
فكيف خفي عنك ما يعبثون
وكيف تحب فراغ الزنا
وكيف يتم لك المرتقى
وكيف استنمت إلى فاسق

ومنها:

فكت أراهم بها عابثين
فمنهم بكل مكان أمين

وإني حللت بغرنطة
وقد قسموها وأعمالها

ومنها:

وكيف يكون أمين خئون
فيُقصى، ويُدُنون إذ يأكلون.
فما يمنعون وما ينكرون!

وهم أمناكم على سركم
ويأكل غيرهم درهماً
وقد ناهضوكم إلى ربكم

ومنها:

وأجرى إليها نمير العيون
ونحن على بابه قائمون
فإنما إلى ربنا راجعونٌ

ورخم قردهم داره
وصارت حوائجنا عنده
ويوضحك منا ومن ديننا

* * *

كمالك كنت من الصادقين
وضح به فهو كيش سمين
فقد كنزوا كل علق ثمين
فأنت أحق بما يجمعون
بل الغدر في تركهم يعيثون
فكيف نلام على الناكثين
ونحن خمول وهم ظاهرون
كأننا أسانا وهم محسنون
فأنت رهين بما يفعلون
فحزب إلهك في حزبه
وراقب إلهك في حزبه

ولو قلت في ماله إنه
فبادر إلى ذبحه قربة
ولا ترفع الضغط عن رهطه
وفرق عراهم وخذ مالهم
ولا تحسبن قتلهم غدرة
فقد نكثوا — عندنا — عهدهم
وكيف تكون لنا همة
ونحن الأذلة من بينهم
فلا ترض فيينا بأفعالهم
وراقب إلهك في حزبه

وكان أثر هذه القصيدة في نفس باديس الذي أولاه ثقة لا حد لها بالغاً الغاية، كما أنها أثرت تأثيراً عميقاً في نفوس البربر، فثاروا للانتقام، وحلفو ليقتلنَّه، وأذاع زعماء المؤامرة أن اليهودي انضم تحت لواء المعتصم أمير المرية وكانت العلاقة بين الغرناتيين وبينه علاقة حرب لا سلم. وقد يتسعَل بعض الناس منْ كانوا أقل تصدِيقاً: ما الفائدة التي يجنيها يوسف من خيانته ملكاً وثق به، وسلم إليه قياده، وجعله صاحب السلطان التام دونه في المملكة؟ لقد أشاعوا حينئذٍ أن اليهودي يريد أن يمكن المعتصم من الاستيلاء على المملكة، ثم يعود هو فيقتل باديس ويتبُّأ العرش مكانه، ولستنا في حاجة لأن نبين أن كل هذه الإشاعات من قبيل الأرجيف والوشایات المحسنة، وإذا نظرنا إلى الواقعرأينا أن البربر كانوا يودون خلق الأسباب التي تدعوا إلى إبعاد اليهودي عن الحكم، والاستيلاء على ما يملكه اليهود من أموال وثروات يحسدونهم عليها، وييَّمِّنُونَ أن لو كانت في حوزتهم، ولما وجدوا أنهم قد ظفروا بالأسباب التي تبرر الفتنة باليهود ثاروا جميعاً، وهاجموا قصر الإمارة مع العامة، ودخلوا في طلب اليهودي، فزعموا أنه اخْفَى في بيت فحم

وسوَّد وجهه، ي يريد أن يتذكر ويلبس عليهم صورته، فعرفوه وقتلواه وصلبوه على باب المدينة.

ثم عمدت صنهاجة بعد ذلك إلى قتل سائر اليهود، فقتل في يوم منهم مقتلة عظيمة، ونهبت دورهم، وقد بلغ عدد من قُتل منهم أربعة آلاف يهودي ذهبوا ضحية العداوة الدينية (٣٠ ديسمبر سنة ١٠٦٦).

الفصل الثامن

لم تكن الحال في بقية أنحاء إسبانيا الإسلامية خيراً منها في البلاد الجنوبية، فقد حمى وطيس النزاع من جراء بقایا الشؤون الخلافية، وأخذ سيل الفتنة يطغى على وسط الجزيرة وشرقيها وغربيها حتى كاد يجرف أمامه جميع المالك الإسلامية المبنية في شبه الجزيرة.

وكان قد مضى على المالك المسيحية نصف قرن وهم بشئون بلادهم مشغولون عن غزو المالك الإسلامية، وبدأت الحال في سنة ١٠٥٥ م تتحول، فاستطاع «فردينند» ملك قشتالة وليون أن يوجه جميع جيوشه لقتال المسلمين، الذين كانوا — على ما يظهر — لا يستطيعون أن يقاوموا خصومهم مقاومة جدية، وهكذا أصبح الفوز حليف المسيحيين، فقد كان لهم من الروح الحربي، والوحى القومية، والغيرة الدينية ما لم يكن عند المسلمين، فكانت حروب «فردينند» سريعة، وانتصاراته متلاحقة، فانتزع من المظفر ملك بطلؤوس سنة ١٠٥٧ م مدينتين وأخذ من ملك سرقسطة «جميع الحصون والمعاقل التي تقع في الجنوب، وشن الغارة على المؤمن صاحب طليطلة وزحف بجيشه، ولما كان المؤمن أضعف من أن يثبت للعدو، فقد رأى من الحكمة أن يتقدم إلى «فردينند» عند قدمه بالهدايا الثمينة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، ويعرض عليه ولاءه، ويعودي له الجزية كما فعل ذلك من قبل ملكاً بطلؤوس وسرقسطة.

وجاء — بعد هؤلاء — دور المعتصم، ففي سنة (١٠٦٥) أحرق «فردينند» قرى إشبيلية، وباتت المالك الإسلامية جميعها في أشد حالات السوء والضعف مما جعل المعتصم — وهو أقوى ملوك الأندلس — يرى من الحكمة أن يحذو حذو المؤمن في إعطاء الإتاوة لفردينند، فمضى إلى معسكره وقدم إليه هدايا ثمينة وتسلل إليه أن يبقيه على ملكه، ولما

رأى من المعتصد جلال الشيخوخة، وتغضُّن الجبين، واحتعمال رأسه شيئاً وأنه متهدِّم القوى، لاح له أنه بمنجاة عن المكر والخبث، وكان المعتصد لما يُعد السابعة والأربعين من عمره، ولكن الهموم وشدة الطمع والجشع، وكثرة العمل، وفُرط الظلم، وتأنيب الضمير – على ما يُظُنُّ – كل أولئك، قد أحال لونه، وأبدى على معارف وجهه مظاهر الشيخوخة في إبان الكهولة، فلا غرابة إذا رحمه ملك قشتالة وأثرتشيخوخته في نفسه، ولكن هذا لم يرتح إلى دفع الإتاوة، ورأى أن يُستشير أهل مملكته ويستفتى فيها الفقهاء، فجمعهم ليُرِيَّ رأيَّهم فيما يكون من الشروط، وأن يقرروا من الرأي ما يعرضونه عليه، فاجتمعت كلمتهم على أن يدفع ملك إشبيلية جزية سنوية، وأن يسلم إلى رسل يرسلهم إليه «فردينند» جثمان القديسة «جوست» العذراء التي استشهدت في عصر الاضطهاد الروماني.

فقبل المعتصد الشرطين، وانسحب «فردينند» بعسركه، ولما وصل إلى ليون أوفد إلى إشبيلية «القينوس» أسقف العاصمة و«أردو» أسقف «استورقه» وأوجب عليهما أمرين:

الأول: نقل جثمان القديسة.

والثاني: تسوية مسألة الجزية.

وأُسف «القينوس» – مع زميلين له – حيث لم تسفر أعمال التقييب التي أجريت للعثور على رفات القديسة عن نتيجة، مما حمل «القينوس» أن يقول لرفيقيه: «إنكما أيها الأخوان، تريان أنه إذا لم تسعفنا الرحمة الإلهية فسنعود من هذه الرحلة الشاقة، وقد ضاع كل ما علقناه عليها من أمل، والظاهر أنه لا بد لنا من أن نستلهم المولى سبحانه وتعالى، وننتجه إليه بالصلوة والصيام ثلاثة أيام نسألُه فيها الهدایة إلى هذا الرفات الدفين، والكنز الثمين، الذي نبحث عنه في خبايا الأرض». وبناء على هذا العهد الذي عاهدوا الله عليه أمضوا ثلاثة أيام صائمين مصلين داعين حتى أثر ذلك في صحة «القينوس» وكانت معتلة، وبخاصة منذ قدم إلى إشبيلية، وفي صبيحة اليوم الرابع جمع الأسقف رفقاءه ثانية، وقال لهم: «إن رحمة الله لم تشا أن نرتد من رحلتنا هذه بالخيبة والفشل، فواجب علينا أيها الرفاق المحبوبون أن نشكر الله من صميم قلوبنا، فقد تم أمره، ونفذ قضاوه بأنكم ستحملون إلى وطنكم ما لا يقل قدرًا عن رفات القديسة «جوست» التي حرم الله علينا إخراجها من هذه الأرض، ذلك هو جثمان السعيد «إيزيدور» الذي حمل

الناظر الأسقفي إلى هذه البلاد، والذي زان – ببلاغته ومنتشراته – إسبانيا كلها، وقد كنت اعترضت أيها الإخوان، أن أقضى الليلة ساهراً أبتهل وأدعوا وأصلحي الله، ولكن خانتني قوائي، فما كدت أجلس لحظة حتى بلغ مني الإعفاء مبلغه، فأخذتني سنة من النوم، فرأيت كأن شيئاً عليه سمة الرهبان يقول لي: «لقد عرفت ما جئت أنت ورفقاوك من أجله، وقد أبى الإرادة الإلهية أن تحرم المدينة من رفات القديسة «جوست» فيخيم على ربوعها الحزن، وينتابها الألم، كما أبى اللطف الإلهي إلا أن يهبك جثماني رحمة بكم حتى لا تعود أنت ورفقاوك بأيّ أسفار من هذه الأمانة التي طالما تكبدتم من أجلها المشاق».

فقلت: «ومن تكون أنت؟» قال: «أنا بدأت كبير قساوسة هذه المدينة، وانتهيت طبيب إسبانيا كلها، أنا «إيزيدور»». واحتفى شبحهعني – على إثر هذه الكلمات – واستيقظت فصليل شاكراً الله، ودعوته أن يعيد هذه الرؤيا على مثني وثلاث إن كانت وحيناً من لدنه، فعاودتني الرؤيا مرتين؛ كان الشيخ في كل منهما يوجه إلى نفس عباراته الأولى بعينها، وزاد في المرة الثالثة أن أراني موضع قبره، وقد ضرب عليه بعضاً في يده ثلاثاً وهو يقول: « هنا، هنا، هنا، تجد جثماني، ولا يقعن في خلدي أني شبح يخدعك، وستكون أنت ما أبئتك به هو الحق، وأية ذلك أن رفاتي لا يكاد ينقل من موضعه حتى ينزل بك داء يستعصي على نطب الأطباء شفاء، ثم تموت، وتتأتي إلى عالمنا متوجّاً بتاج البرة الصالحين».

واحتفى بعد أن أتم هذه الكلمات.

وذهب «القينوس» وزملاؤه إلى قصر المعتصد وقص عليه رؤياه، واستأذنه في نقل رفات «إيزيدور» عوضاً عن نقل رفات القديسة «جوست».

وقد ترك كلام الأسقف في نفس المعتصد أثراً غريباً، ذلك الرجل المتشكك الساخر الذي لا يدين بغير شيئاً اثنين: هما الخمر، والملك، ولكنه من باب الدهاء قد أصفع باهتمام إلى كلام الأسقف، وقد قال له بعد أن فرغ من كلامه بالهجة تشف عن حزن عميق: «إنني آسف جد الأسف فإني إن أعطيتك رفات «إيزيدور» فماذا يبقى لي بعد ذلك؟ على أيها الشيخ الوقور لا أمتنع عن تنفيذ رغباتك، ول يكن ما أردت، قم فنقب وابحث عن القبر، وانقل رفات الراقد فيه على الرغم مما يساورني بعد ذلك من أجله». وكان ذلك العربي الدهاهية، والثعلب الماكر، يعرف كيف يستفيد من شفقة المسيحيين، ولو أنه كان يسخر من فرط هذه الشفقة إذا خلا مع نفسه.

وقد أحس من نفسه أن عليه جزية واجبة الأداء، فرأى أن يتظاهر بأنه شديد الاهتمام ببقايا «إيزيدور» التي لا يفرط فيها إلا مرغماً كارهاً، والتي يعدل إخراجها من قصره انتزاع روحه من جسده.

وعول على استقلال هذا الموقف لفائدته، فكان يفعل فعل المدين الذي إذا ما ألح عليه دائنه وأحرجوه، عرف كيف يدخل في الحساب ذلك الأثر الخالد النادر ويغالي في ثمنه، ويحمل دائنه على قبوله، وهكذا لعب المعتضد دوره إلى النهاية، فإنه عندما أراد «استورجه» وقد توفي أخيراً زميلاً «القينوس» أن يأخذ الأهمية لمبارحة إشبيلية وحمل رفات «إيزيدور» في مركب جاء المعتضد ووضع على التابوت غطاء من الدبياج المحلي بالنقوش والكتابات العربية البدعية وجعل يصعد الزفرات، ويتصنع الحسرات، وهو يقول: «ها أنت ذا تبرح المدينة يا «إيزيدور» المجل، وأنت تدرى ما بين بلدينا من أوثق روابط المودة والعلاقة».

وكان العام التالي (١٠٦٤) من أسوأ الأعوام وأشدتها على المسلمين، فاضطر أحد أمرائهم إلى الاستسلام والنزول على حكم «فردينند» بعد أن شدد عليه الحصار ستة أشهر، وقضت شروط الصلح أن يعطى للظافر خمسة آلاف من المدافعين، وأن يغادر الباقيون مساكنهم غير مزودين إلا بما يلزمهم من التفود لسفرهم، وفضلاً عن ذلك فقد أمر جميع المسلمين النازلين بين «دوبيرو» و«منتاجو» بأن يجلوا عن بلادهم. ووجه «فردينند» بعد ذلك قوته إلى مملكة بلنسية، وعليها ذلك الضعف المترافق «عبد الملك المظفر» الذي خلف أباه عبد العزيز سنة (١٠٦١).

وحاصر «القشتاليون» العاصمة، ولكنهم — بعد أن وجدوها منيعة — رأوا أن يلجؤوا إلى الحيلة ليخلووا العاصمة من الحامية، فتظاهرلوا بالانسحاب، فخرج البلنسيون في ثياب العيد يتبعقونهم، وهم يظنون أن الانتصار أمر سهل، على أن هذه الجرأة قد كلفتهم ثمناً باهظاً، فقد باغتهم القشتاليون بالقرب من الطريق المؤدية من بلنسية إلى «مورس» وقتلوا أكثر رجالهم، ونجا ملکهم على ظهر سابح، وكان الاستيلاء على قلعة «باريسترو» وهي من أهم القلاع في الشمال الشرقي بعد نكبة أخرى مروعة.

وقد سقطت هذه القلعة في يد جيش من النورمنديين كان يقوده «غليوم دي منتري» كبير قواد البابا، ويطلق عليه في روايات الفروسية اسم «أوروكوني» أي القصیر الأنف، وكانت خاتمة المقهورين خاتمة أليمة، فقد سلم جنود الحامية على شريطة الإبقاء

على حياتهم، ولكنهم — حين خرجن — من الحصن قُتّلوا على بكرة أبيهم، ولم يكن حظ العامة أحسن من حظ الجندي، فقد أمنوهم أيضًا على حياتهم، وبينما هم يتاهبون للرحيل من المدينة، إذ نظر «غليوم دي منتري» فراغه كثرة عددهم، واستولى عليه القلق والاضطراب، فمنعهم من الخروج وأمر رجاله أن يصفوهم صفوًا متقاربة، وأعمل فيهم القتل، ولم يكُف عن المذبحة إلا بعد أن قتل منهم ستة آلاف رجل، ثم أمر البقية الباقية أن يعود كلُّ إلَى منزله ومعه زوجه وولده، وذهب النورمنديون واقتسموا — فيما بينهم — كل شيء وصلت إليه أيديهم، وأصاب كل فارس لنفسه منزلًا — كما روى ذلك بعض مؤرخي العرب في ذلك العهد — فكان له كل ما في المنزل من أزواج وبنات وأولاد ونقود ومتاع، وكان له بحكم الاستيلاء والأسر أن يفعل برب الدار ما أراد من ضروب القهر، وصنوف التعذيب حتى يضطره للإذعان والاعتراف بما عَسَاه أن يكون قد أخفاه من مقتنيات وأموال، وكان من الخير الكثير للمسلم أن يقضي نحبه خلال هذا التعذيب؛ لأن حياته كانت مقرونة بما لا يطيق من الألم والتبرير والعذاب المطرد، ومن أشد ما كان يفعله هؤلاء من النكارة والعار والفضيحة للمسلمين أنهم كانوا يهتكون أعراض الزوجات والبنات أمام أزواجهن وأبائهن وإخوتهن وعلى مرأى منهم، وهم موثقون بالسلسل والأغلال ليكرهوهم على شهود هذه المناظر الفاضحة المخزية، وكان أولئك الأسرى المساكين لا يملكون بإزاء هذه الحالة المخزية المحرّقة غير صياغهم وإيسال دموعهم الغزيرة هلعاً وتائراً من تلك المناظر التي كانت تتحطم بإزاءها قلوبهم، وتنشق لها مراياهم.

ولم تدم هذه الحوادث طويلاً، فقد كان من حسن حظ المسلمين أن غادر «غليوم» وجنوده إسبانيا عائدين إلى بلادهم، حيث ينعمون بما أصابوه من مغانم وأموال، ولم يبق في المدينة غير حامية ضعيفة، وقد أمكنت الفرصة المنذر ملك سرقسطة من الاستيلاء عليها حيث أمده المعتصد بخمس مئة فارس فاستولى عليها في ربيع السنة التالية.

وكان «فردينند» يواصل جهوده للاستيلاء على بلنسية؛ ولذلك كان مركز صاحب هذه المدينة في نهاية الحرج والخطورة بالرغم من أن صهره المأمون أمده بما في استطاعته من المدد الكافي، ولكن الذي نَفَسَ عنه هذا الضيق مرض «فردينند» وأضطراره للعودة إلى ليون، على أنه — بعد سفر عدوه المفاجئ — لم يُدْ سروره، ولم يسكن فزعه، ولم يهدأ روعه، فقد خلعه صهره من الملكة، وأدمجها في مملكته بعد أن اعتقله بعض حصونه،

ولم يمض على هذا العاهم المريض والعدو المفزع الرهيب غير برهة من الزمن يسيرة ثم قضى نحبه، فتنفس المسلمون بموته الصعداء، وقد كان «فردينند» مثلاً حسناً، وقدوة صالحة لغيره من الملوك في البساطة والإقدام والتقوى وسلامة الضمير ونقاء الجيب، وختمت حياته الحافلة الرائعة، بخاتمة حسنة رائعة، وذلك أنه حين أسرع بالعودة إلى بلاده وصل إلى ليون يوم السبت ٢٤ ديسمبر فذهب — من فوره — إلى الكنيسة، وصل فيها صلوات وهبها إلى روح القديس «إيزيدور»، ودخل قصره فلبث فيه بضع ساعات، وبدأ يشعر إلى درجة اليقين أن حينه قد حان، وأن ساعته الأخيرة قد دنت، فعاد — حين أرخى الليل سدوله — إلى الكنيسة حيث كان القساوسة يحيون ليلة عيد الميلاد بترتيلاتهم وأنغامهم الشجيبة، وبينما كانوا يرثلون الصلاة الأخيرة في سحر تلك الليلة، على نظام الطقوس في طليطلة حسبما كان متبعاً في ذلك الحين، شارك «فردينند» القساوسة في صلواتهم، ومزج صوته الضعيف بأصواتهم، وطلب إليهم — عند طلوع الفجر — أن يسمعوه «القداس»، وبعد أن نال سر القرابان المقدس خارت قواه، فأقىهم إلى سريره، وهو يمشي غير مستمسك معتقداً على بعض رجال الحاشية، وفي صبيحة اليوم التالي ارتدى ملابسه الملكية، وأخذ إلى الكنيسة فخلع المعطف الملكي والتاج، وجثا على ركبتيه أمام المذبح، وقال بصوت واضح: «لك القوة والملك يا رب، أنت ملك الملوك، لك ملك السموات والأرض، إبني رأدُ إليك ما أعطيتني من الملك الذي وليته ما شاءت إرادتك، ضارع إليك أن تدخل في وسيع رحمتك روحي الذي طهرته وخلصته من أدران هذا العالم».

ثم سجد على الأحجار يجأر بالبكاء، ويستغفر من ذنبه، وأمَرَ عليه يده أحد القساوسة فنال المسحة الأخيرة، وسجي بالمسوح، وغطي رأسه برماد، وأخذ يرثب الموت وهو مملوء إيماناً ويقيناً وطمأنينة.

وفي الغد «الثلاثاء» أسلم الروح، أو رقد الرقدة الأخيرة الهادئة فكانت تعلو محياه ابتسامة وادعة مشرقة.

وأعقبت هذه الوفاة وفاة أخرى هي بطبيعة الحال أقل شأناً من الأولى،^١ فقد مات المعتضد يوم السبت ٢٨ فبراير سنة (١٠٦٩) وكان قبل عامين من وفاته قد أدمج قرمونة في مملكته، واقترف جريمة قتل جديدة، إذ طعن بخنجر في يده رجلاً من إشبيلية يُدعى أبي حفص.

وما كان يدور بخلد المعتضد أن أيدي القشتاليين ستمتد يوماً إلى ذلك التاج الذي وضعه على رأسه بقوة الحيلة والخيانة والغدر.

وفي آخر سني حياته امتلأت رأسه بالمخاوف، والأفكار السوداء، وقد تحققت نبوءة بعض الناظرين في ميلاده من المنجمين، كما أشرنا إلى ذلك آنفًا، وهي النبوءة القائلة إن ناسًا يولدون خارج البلاد يثلون عرش مملكته، وكانت فكرته متوجهة دائمًا إلى أن أولئك الذين سيقضون عليها هم البرازلة من البربر المقيمين بجواره، وما زال بهم حتى أفناهم جميعًا، وخيل إليه أنه قهر حكم الكواكب، وتغلب على مخاوف التنجيم، ولكنه بدأ يرى أنه كان مخدوعًا في وهمه هذا، ففي العدورة المقابلة لبر الأندلس على المضيق نزحت طائفة من البربر من الصحراء، وزحفوا على إفريقية فاتحين في سرعة مدهشة، وفي شدة بأس تشبه ما كان عليه سلف الأمة في فتوحاتهم، هؤلاء هم البربر الذين أطلق عليهم اسم المرابطين، وهم الذين كان يتربأ بظهورهم المعتصم ويتوقع أنهم الفاتحون لـإسبانيا في المستقبل، وكانت تساوره المخاوف من جانب أولئك الأقوام، ولا يستطيع بحال من الأحوال أن يمحض الفكرة أو يبدد الأوهام التي كانت تنتابه من جهتهم.

وورد عليه ذات يوم كتاب من «سقوط» صاحب سبعة يقول له فيه: «إن طلائع المرابطين عسكت في رحبة مراكش فاهمت لهذا النبا حتى قال له أحد وزرائه: «كيف يزعجك يا مولاي هذا النبا ويقللوك وبينهم المهامه الغبر وأمواج البحر الخضر». فقال المعتصم بصوت مختنق حزين: «إني على يقين من أنهم سيصلون إلينا يومًا، وربما تشهد بنفسك هول ذلك اليوم، فاكتب من فورك إلى حاكم الجزيرة، ومره أن يزيد في تحصين جبل طارق، وأن يكون شديد اليقظة، وعلى تمام الأهمة والاستعداد، وأن يرافق عن كثب كل حركة لأولئك المرابطين من وراء المجاز».

ثم أخذ يصعد بنظره في بنية ويصوب ويقول: «ليت شعري من منا ستحل به النكبة أنت أم أنا؟» فقال ولده المعتمد: «لا بل أنا — جعلني الله فداك — الذي أحمل عنك كل كائنة مهما عظمت».

و قبل موته بخمسة أيام ساءت حاله، وأخذ المرض يدب في جسمه، والضعف يتسرّب إلى عقله، فاستدعي أحد مغنيه وكان من الصقلب، وأمره أن يغنيه بما شاء من الأبيات، وكان يرمي إلى التفاؤل بما يختاره المغني، ويتفق مع توقيع النغم، فأخذ هذا يوقع الحالًا تجمع إلى الطرب الحزن والألم في آنٍ واحد، وللغة العربية من أغنى اللغات بهذا النوع.

وكان الشعر الذي اتفق للمغني أن يوقع عليه الغناء يدور حول معنى أن الحياة وأوقات السرور سريعة الزوال، وأنها إلى نهاية وشيكة عاجلة، وأنه ينبغي أن نحتسي المدام، ونمزج أبناء الكرم بابنة المزن.

وكانت القطعة التي لحنها المغني تتألف من خمسة أبيات، ومن غريب الاتفاق أن عدد هذه الأبيات، هو بعینه عدد الأيام التي عاشها المعتصد بعد سماعها، يضاف إلى ذلك أنه بعد مرور يومين على سماعها أي في يوم الخميس ٢٦ فبراير جرح المعتصد في عاطفته البنوية جرحاً دامياً، وقد كان - على قساوة قلبه - شديد الحب لبنيه، فرُزئ بموت ابنته التي كان يحبها إلى درجة العبادة، وشيعها إلى قبرها يوم الجمعة، وقلبه يتسع حزناً.^٢

وبعد أن ووريت التراب وعاد من الجنائز شكا وجعاً في رأسه أليماً، ودخل القصر وفيه اعتراه نزيف دموي كاد يودي بحياته، وأشار عليه طبيبه بالفصد ولكن المعتصد تمرد على طبيبه فأرجأ الفصد إلى الغد، فكان هذا من الأسباب التي عجلت بوفاته حيث اشتد النزيف في اليوم الثاني فانحبس لسانه، ثم لفظ النفس الأخير.
وخلفه ابنه المعتمد الذي سنقدمه للقارئ في الفصل التالي!

الفصل التاسع

ولد المعتمد عام (١٠٤٠) وقلده أبوه بعض الولايات الصغيرة وهو في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، وبعد برهة يسيرة ولاد قيادة جيش إشبيلية فحاصر «شلب» وفيما هو محاصر لها اتصل به فتى أفاق كانت سنه لا تعلو عن سن المعتمد بأزيد من تسع سنين، وقد واتاه الحظ باتصاله به، ونبه شأنه فيما بعد، ذلك الفتى هو ابن عمار كان مولده في قرية من أعمال «شلب» في بيت خامل الذكر، لا حظ له في الرياسة من قديم الدهر، نشأ في مدينة «شلب» هذه صغيراً، وتعلم فنون الأدب على جماعة من أهله، ثم رحل إلى قرطبة فتأنب بها، وبرع في صناعة الشعر، وما برح يجوب أنحاء الأندلس يتكسب بالشعر، وينظم قصائد المدح، يسترثد بها كل من يتوصم فيه الأريجية والعطاء، لا يخص بشعره الملوك دون السوقه، كما يفعل النابهون من شعراء عصره الذين يرون من الزراعة عليهم أن ينظموا الشعر في غير الملوك والنابهين من العظام.

كان هذا الشاب الناشئ والشاعر المغمور، بنزعته هذه وراثة ملبوسه وبما يلبسه من جبة صوف طويلة وقلنسوة صغيرة، يهش له ويبش في وجهه أناس، ويعطف عليه ويرثي لحاله آخرون.

وكان يعد من السعادة أن يظفر بسري من أولئك الذين أوتوا حظاً من الغنى، ونالوا نصيباً من الثراء، ليعطيه مقابل ما يمدحه به من شعره الذي له قيمته وخطره، فضلة مما أotti من المال يقنع بها، ولا يزهد فيها.

ومن ظريف ما حدث له في بعض سفراته: أنه ورد «شلب» في وقت مسأله فيه الضيق، وأجهده الضنك، وهو لا يملك سوى دابته التي لم يجد علفها، والتي مسأها الجوع، وشفّها الضنى مثله، فماذا يصنع في أمر ذلك الرفيق الأمين الذي يلazمه في رحله وأسفاره، ويشاركه في آلامه وشدائده، لم ير بدّاً من أن يبعث بشعره إلى رجل من وجوه

أهل السوق بالمدينة، لا حظ له من الأدب، ولا علم له بصناعة الشعر، فكانت منزلة شعره عند ذلك التاجر أن ملأ له المخلاة شعيراً، ووجه بها إليه، والرجل وإن لم يتنوّق ما في القصيدة من حلاوة الشعر، فإنه كان مزهواً بها، إذ رأى نفسه قد مُدح على لسان أحد الشعراء، وكذلك ابن عمار رأى أن ما وصله به من أجل الصلات.

بعد هذه الحالة التي تبين إسفاف ابن عمار في المنزلة وسقوطه إلى هذا الحد، ساعدت الحظ وانتهى به صعود الجد إلى أن جعله المعتمد — حين صار الأمر إليه — واليًا على «شلب» وأعمالها، فدخلها يومئذ في موكب ضخم وعبيد وحشم.

لم تمح من ذاكرة المعتمد تلك الإقامة الساحرة، والأيام الجميلة والأوقات المرحة التي قضتها بشلب حيث كان معظم أهلها يقرضون الشعر، وحيث كانت تلك المدينة وما زالت تعرف حتى الآن بفردوس البرتغال.

في تلك الآونة لم يكن قلب المعتمد قد تفتح للحب بعد، وقد وقعت له بعض وساوس وتخيلات غرامية لم تثبت أن تلاشت دون أن تدع في قلبه مجالاً للاسترسال فيها، وإلى جانب هذا كان يحتفظ بعهد الصداقة الملتقبة التي بينه وبين وزير ابن عمار ويستسلم لهذه العاطفة القاهرة التي لم يزاحمها أي ميل آخر إلى آخر لحظة.

لم ينشأ ابن عمار نشأة الأمير في بحبوحة الترف، وغضارة العيش، ونضارة السعادة، وفخامة الملك، بل نشأ على النقيض من ذلك — منذ فجر حياته — تكافحه الأيام وتقل من غربه، وتباطط من همته وعزمها، وترميء الظروف القاسية بخيبة الآمال، ورقة الحال، فكان لهذا أقل مرحًا، وأقل سرورًا وضحكًا، وأقل فتوة وشبابًا، ولكنه فوق هذا كان شاكًا مرتابًا ساحرًا في بعض نواحيه.

حدث أن الصديقين ذهبَا إلى المسجد يوم الجمعة، والمؤذن يعلن الناس بحضورهم وقت الصلاة، فطرح المعتمد على صديقه شطراً من الشعر فأجازه، وثانياً فأجازه، وثالثاً فأجازه، وكانت معانٍ الشعر تدور حول أن المعتمد يرجو للمؤذن المغفرة لِإقراره بالشهادة وتصديقه بالرسالة، وابن عمار يسخر في شعره من المؤذن، ويشك في مطابقة إقراره باللسان، لما ينطوي عليه الجنان.

إن هذا يعد من ابن عمار غريباً، وهو يفسر لنا مبلغ شكه، وعدم ثقته بالناس حيث عرفهم وخبرهم، ولهذا كان يشك حتى في الصداقة الحميمة البالغة التي يكنها له الأمير الشاب في نفسه، والتي لم تنفع كل المحاولات التي كان يحاول بها الأمير أن يزيل ما علق بنفس صديقه من شكوك وريب، وخاصة في مجالس الأنس والأوقات التي تتطلب المرح والسرور فإنه كان يرى فيها يائساً حزيناً.

ويررون في هذا الصدد حادثة عجيبة، ونادرة غريبة، حرية بالتحقيق والتمحيص، ولكن يظهر – على كل حال – أن لها ظلاً من الحقيقة، لأن هذه القصة تقوم على صحتها الشهادات القيمة التي تروي عن المعتمد ابن عمار¹ أنفسهما.

قيل إن المعتمد دعا ابن عمار ليسمِّر معه ذات ليلة، وبالغ في إكرامه وملاظفته فوق العادة، فإنه لما ارْفَضَ المجلس استبقاء المعتمد واستحلله أن ينام معه تلك الليلة على وساد واحد، وألح عليه في ذلك، فقبل مكرهاً واستسلم نزولاً على إرادته، ولكنه ما عَتَّ أن نام حتى سمع هاتفًا يقول له: أيها التّعس! إن هذا الذي تنام معه على فراش واحد لا محالة قاتلك. فهب من نومه فزعاً وقد تملّكه الرّعب، ولكنه قاوم هذا الحلم المروع، وطارد تلك الفكرة السوداء وعزّاها إلى تأثير النّبيذ، ثم رقد ثانية، فعاوده ذلك الحلم المشئوم مرة ثانية وثالثة.

ولما لم يستطع تكذيب هذه الأحلام المتكررة أيقن أن هذا نذير سوء، وأنه وحي سماوي فوق الطبيعة، فنهض من مرقده برفق دون أن يُحدث حركة، وذهب بعيداً، وأدرج نفسه في حصير، ونام في دهليز القصر عاقداً النية على اللياذ بالهرب حينما تُفتح في الصباح أبواب القصر، واعترم أن يركب من أول ثغر ليبحره منه إلى إفريقيا.

واستيقظ المعتمد فلم يجد صاحبه إلى جانبه، فصاح بالخدم، فواه جمِيع خدم القصر، وأخذوا يبحثون عنه في كل جانب من جوانب القصر، والمعتمد يتقدمهم بين يديه مصباح، وجاز إلى باب القصر يريده أن يفتحه لينظر هل خرج منه أحد؟ وفي نفس تلك اللحظة التي كان يمر فيها تحرك ابن عمار حركة قسرية، فرأى المعتمد كأن شيئاً يتحرك، فصاح: «ما هذا الذي يتحرك في داخل الحصير؟».

فسارع الخدم إليه فأخرجوه من داخل الحصير وهو في حالة يُرثى لها ليس عليه من ملابسه غير سروال، فوقف ترتجف أعضاؤه، وقد احمر وجهه خجلاً، وأطرق برأسه إلى الأرض، فأجهش المعتمد بالبكاء، وقال: «ما الذي حملك أن تزعجنا هكذا يا أبا بكر؟!» وأراد المعتمد أن يتبيّن من صديقه سر هذا المسلك الغريب، وأخذه برفق إلى مجلسه الخاص، وأعضاؤه ما زالت ترتجف، ولبث مدة طويلة يحاول كشف هذا السر فلم ينجح. أما ابن عمار فقد اضطربت أعصابه اضطراباً شديداً، وخجل أشد الخجل لبلوغه إلى هذا الحد من الإسفاف والسخرية، وقد تملّكه مع هذا الخوف، واستولى عليه الرعب، فكان مرة يضحك، وتارة يبكي.

ولما هدأت أعصابه، وسكن اضطرابه، أفضى إلى المعتمد بسر المسألة تفصيلاً، فتبسم ضاحكاً، وأمسك بيده وضغط عليها متحبباً متودداً وقال: «إن ما حصل لك لم يك إلا

بتأثير الخمر — أيها الصديق العزيز — ومن فعل أبخرة الخمر المتصاعدة إلى المخ فقد أسلمتك بتأثيرها إلى أن ترى ما سبب لك الانزعاج، وما هي في الحقيقة إلا أضغاث أحلام، وهذا كل ما في الأمر، وهل يدور في خلك أن نفسي تحذثني بأن أقتلك يوماً ما، إني — إن فعلت ذلك — فإنما أنتزع روحي، وأطفئ مصباح حياتي، ثق أني إن قتلتك فإنما أقتل نفسي، والآن يجب أن تزيل هذه الأفكار السوداء، وتحمّو أثر هذه الوساوس السيئة، والأحلام الشيطانية من نفسك، فلا تعود تتحدث بها فيما بعد.»

وقد قال بعض مؤرخي العرب المسلمين: وعمل ابن عمار منذ ذلك الحين على أن يتناسى هذه الحادثة فنساها، ومرت الأيام والليالي على ذلك إلى أن بدأت الرؤيا تتحقق، ووقع ما سنقشه عليك فيما يلي:

جرت عادة هذين الصديقين أنهما يجتمعان في «شب» لا يفترقان منها إلا إذا غادرها إلى إشبيلية حيث يتوافر لهما في العاصمة الأندلسية الظرفية كل أنواع السرور والمرح واللهو، فإذا خرجا إليها خرجا في زي لا ينم عليهما، وكثيراً ما كانوا يختلفان إلى «مرج القطة» على ضفاف الوادي الكبير للتنزه والتلهي بربوة الناس رجالاً ونساء في ذلك المكان النزه الأفريح، وهناك وقع المعتمد لأول وهلة في شرك تلك التي قدر أن تكون شريكته في الحياة، وذلك أنه بينما كان هو وصديقه يستريحان في «مرج القطة» — على عادتهما — إذ من النسيم على متن الماء فتتجعد واطرد فارتجل المعتمد هذين البيتين:

قيص النسيم واطرَّ	تجعد النهر بتر
داود نسجَّا وسرد٢	سابغة أحكمها

ولم يستطع ابن عمار أن يجيز البيتين، وكانت على مقربة منها جارية تسمع حديثهما فأجازت البيتين بقولها:

تصلح في يوم الوغى	لو أنها ماء جمد
تحسيها قد نسجت	من حلق ومن زرد٣

فعجب المعتمد إذ رأى فتاة تفوق — في سرعة الخاطر وموهبة ارتجال الشعر — شاعراً ذائعاً الصيت كابن عمار، والتقت إليها وحدها ناظريه، فراععه جمالها الفاتن، ومنظرها الساحر، وطلب إليها في رفق أن تذهب مع أحد الخصيّان إلى القصر، فقبلت ولم يلبث أن سارع بالعوده إلى القصر ليستطلع طلع تلك الفتاة الحسنة.

وحضرت الفتاة فسألها المعتمد: «من أنت؟ وإلى مَن تنتسبين؟» فأجابت: «أنا أبها الأمير، جاريتك اعتماد وإن جرت العادة بأن ينادوني باسم «روميكيا» لأنني مملوكة «روميك»، وأنا بحكم عملي بدالة.»

– «خبريني، هل أنت متزوجة؟»

– «كلا يا مليكي.»

– «هذا حسن لأنني أريد أن أشتريك من مولاك، بل وأقترن بك.»

ومن هذا الوقت أحبها المعتمد حبًّا ثابتاً متواصلاً لم يطرأ عليه تغيير، ولم يعتره نقص أو زوال، وقد أضافت إلى محسنها كل ما يعجبه من أدب وظرف ورقة، وكانوا يضعونها أحياناً في صف «ولادة القرطبية» أدبية ذلك العصر، وقد تكون المقارنة بينها وبين ولادة صحيحة من بعض الوجوه، وغير صحيحة من بعض الوجوه الأخرى، فهي وإن لم تسمُ في المعرفة والأدب إلى درجة «ولادة» التي كانت تُساجل أدباء عصرها، وتتفوق على الكثير منهم، فإنها لم تكن دونها في لطف المحادثة والذكاء، والتأنير، وسرعة الخاطر، وحضور الجواب، بل ربما فاقت عليها في محسنها الذاتية، لصغر سنها إلى حد الطفولة، وسذاجة طبعها إلى حد الغرارة.

هذا إلى ما هي عليه من مرح ونشاط ولباقة، وكانت سعادته بعد أن أصبحت له زوجة في موافقة ميلوها وأهواها — كُلُّهُ ذلك ما كُلُّهُ من ثمن — وكان لا ييأس من عمل ما يوافق مرضاتها، وإشباع نزعاتها وميلوها، فإنه يعلم أن أيّ خاطر يمر بقلبه، أو فكرة تستقر برأسها، لا يمكن أن تتحول عنها أو تنفذ.

حدث في يوم من أيام شهر فبراير أنها كانت تطل من خلال شرفات القصر بقرطبة فنظرت إلى قطع الثلج تتتساقط مع المطر، وهذا منظر نادر في تلك المدينة التي يندر فيها مشاهدة الثلج، فأخذت دموعها تتتساقط على خديها تساقط حب الغمام على الورد الناضر، فسألها المعتمد في لهفة: «ماذا بك أيتها الحبيبة المودودة؟»

فأجابت وهي تتنحّب: «تسألني ما الذي بي؟ الذي بي أنك قايس لا ترحم، ظالم غشوم وحشى الطبع، انظر إلى قطع الثلج الناصعة اللينة العلاقة بغضون الأشجار، الواقفة كالدموع الحائر في جفون الأزهار، كم هي بدعة وكم هي رائعة؟ متى يلين فؤادك، وتخلق لي أسباب الطمأنينة والسعادة، وتتركني أذهب في كل شتاء إلى بلد يكثر فيه سقوط الثلج، لتوفر على التمتع بمجالي الطبيعة الساحرة، ومباهجها الفتاتنة؟»

فقال لها: «لا تحزني يا ربِّي حيَّاتِي، ويا مصدر هنائي وسعادتي، سيَكون هذا المنظر أمامك في الشتاء القادم، بل أعدك وعداً صادقاً أنك ستشرين بمشاهدته هنا في نفس هذا المكان.»

وأصدر أمره في الحال أن تغرس أشجار اللوز في الحدائق المُحدقة بقصر قرطبة، وقدَّر أن تزدهر في فصل الجليد فتبدو زهراتها البيضاء في عين اعتماد كقطع من الثلج تجلُّ أغصان الشجر، وهو الذي يعجبها وتميل إليه.

ورأت مرة نسوة من المتهنفات قد وضعن أرجلهن في معجن فيه طين لضرب اللبن، فدفعها هذا إلى البكاء، فأثار ذلك في نفس المعتمد وسألها: «وما الذي يبكيك؟»

فقالت له: «آه إنني لتعسَّة، ومنذ انتزعني من الحياة الحرة الطليقة المرحة أيام أن كنت أنعم بخوخي الحقير وأنا سجينَة هذا القصر العابس، أُسيرة الحياة المقطبة، مثقلة بسلسل التقاليد، وعادات القصر الملة، انظر إلى هؤلاء النسوة اللاتي عند شاطئ النهر، وانظر إلى أرجلهن منتعلات بالطين، ليتني كنت عارية القدمين متهنَّأةً بمعجن الطين، وليتني حرمَت الغنى والسلطان، وأعطيت الحرية التي أستطيع بها أن أفعل ما أريد.»

فأجابها وقد شاعت على شفتيه ابتسامة لطيفة: «بل إنك عمّا قليل ستستطعين». ونزل في اللحظة نفسها إلى فناء القصر، وأمر بإحضار مقدار عظيم من المسك والعنبر وبعض الأعطار، ووضع ذلك كله في معجن، وأمر أن يمزج بماء الورد، ويداف ويُسحق، إلى أن صارت منه عجينة في حجم تلك التي كانت في معجن النسوة اللاتي كُنَّ يضربن للبن، ولما تهياً له كل ما أراد من ذلك صعد إلى اعتماد وقال لها: «لتتفضلي بالنزول إلى فناء القصر، أنت وجواريك، فإن معجن الطين في انتظارك.»

فنزلت الأميرة إلى ساحة القصر، وخلعت هي وجواريها نعالهن، وصرن يعجن بأقدامهن ذلك الطين المسكي المدوف وهُنَّ في مرح وسرور.

وممَّا لا ريب فيه أن تحقيق هذه الرغبة قد كَلَّفَ المعتمد ثمناً باهظاً وأموالاً طائلة، وقد كان في استطاعته أن يغضي عن هذه الحادثة، لولا أن زوجته لا تنتهي أهواها وميلها عند حد، ولا ترضى بغير تنفيذ رغباتها، وقد حدث ذات يوم أن طلبت شيئاً لم يكن في استطاعة الملك تنفيذه، فغضبت، وصاحت قائلة: «آه! إنني جديرة بكل شفقة ورحمة، وإنني بلا ريب أتعس النساء حظاً، ويشهد الله أنك لم تفعل معِي البتة أي شيء فيه إرضائي.»

فقال لها بصوت فيه معنى الحب والرقابة والعذوبية: «ولا يوم الطين؟»

فعلت وجنتيها حمرة الخجل ولم تحر جوابا.

وأراني مضطراً أن أضيف إلى ما أسلفت أن رجال الدين كانوا يمقتون اسم هذه الأميرة النزقة السريعة الحركة، ولا يجرونه على ألسنتهم إلا مصحوباً باشمئزاز وكره بياني، وكانتوا يدعونها الحائل الوحيد الذي يحول بين الصلاح والهداية وبين زوجها، والعامل الفذ الذي يدفعه بدون انقطاع وراء عاصفة من السرور واللذات تكاد تطوح بالملكة، وكانتوا كلما رأوا المساجد خالية من المصلين يوم الجمعة، ألقوا التبعة على لهو المعتمد وفتنته بها، وكانت اعتماد بحكم صباها الطائش، وشبابها النزق، تسخر من صيحة أولئك الشيوخ، ولا تكترث لجلبتهم، وما كانت تقدر في روعها أن أولئك الفقهاء سيصيّبون رهيبين يوماً ما.

ولم يكن حب المعتمد لها ليشغلها عن صديقه ابن عمار الذي حلَّ من قلبه محلَّ كبيراً.

وأتفق مرة أن نأى عنها، وانصرف للتنزه مع صديقه كالمعتاد، فحداد الشوق أن يرسل إليها رسالة ضمنها الأبيات الستة الآتية:

<p>و حاضرة في صميم الفؤاد و دمع الشئون و قدر الشهاد و صادفت ودي سهل القياد فيما ليت أني أُعطي مرادي و لا تستحيلي لطول البعد و أَلْفَت فيه حروف اعتماد</p>	<p>أ غائبة الشخص عن ناظري ع عليك السلام بقدر الشجون ت تملكت مني صعب المرام م مرادي لقياك في كل حين ا أقيمي على العهد ما بيننا د دسستُ اسمك الحلو في طيه</p>
---	---

وقد ختم هذه الأبيات الستة التي طرز فيها اسم اعتماد بذكر اسمها في البيت الأخير.^٤ ثم ختم كتابه إليها بقوله: «سأعود إليك على عجل لأنتمي برؤيتك إن شاء الله وشاء ابن عمار. فلما سمع ابن عمار الجملة الأخيرة من كتاب المعتمد إلى اعتماد، كتب إليه أبياتاً في المعنى الآتي: «ليس لي مأرب في غير مرضاه مولاي، ولن أحيد عن أمره، ولست إلا كالساري يهتدي بضوئه اللامع، فمرني بما شاء أطع».

ولما كان قلب الأمير الشاب متوزعاً بين الصداقة والحب، فإنه لهذا كان يشعر بحياة لذيدة ناعمة، إلا أن صفوها لم يدُم طويلاً، وقد ترنّقت سريعاً؛ لأن المعتمد رأى ابن عمار

قد استولى على ابنه المعتمد فقضى بالتفرقة بينهما، وحكم ببنفي ابن عمار، وقد انقض هذا النبأ على الصديقين كلِّيما انقضاض الصاعقة ولم يدرِّ كلَّ منهما ماذا يصنع، وقد علما أنَّ المعتمد إذا أمضى أمراً لا يمكن رجوعه فيه، ولا سبيل إلى عدوِّه عنه، وعلى ذلك نُفي ابن عمار، وقضى أعواام نفيه المحزنة متقدلاً في مدن الشمال، وبخاصة سرقسطة إلى أنَّ خلف المعتمد على الحكم أباه، وكان في التاسعة والعشرين من عمره.^٥

فسارع إلى صاحبه وصديقه القديم الذي صحبه من أول عهد الشباب فاستدعاه، وترك إليه اختيار ما يريده من مناصب الدولة المختلفة.

فطلب ابن عمار أن يكون واليَا على «شلب»، ذلك الإقليم الذي ولد فيه ونشأ به، فلم يسعه إلا أن يلبي طلبه ويعطيه هذه الولاية بالرغم من أنه في هذه الحالة سيكون بعيداً عنه، وبعد أن وَدَّع صديقه الحميم جاشت بنفسه ذكريات تلك الأيام المحبوبة التي قضياها معاً في «شلب» وجالت بخاطره خلجان جعلته يتمثل آثارها ومعاهدها البديعة، فقال يخاطب ابن عمار، وقد توجه إلى مقر عمله الجديد:

وسلَّهُنَّ هل عَهْدُ الوصالِ كَمَا أَدْرَى
لَهُ أَبْدَا شَوْقَ إِلَى ذَلِكَ الْقَصْرِ
فَنَاهِيكَ مِنْ غَيْلِ، وَنَاهِيكَ مِنْ خَدْرِ
بِمَخْصِبَةِ الْأَرْدَافِ مَجْدِبَةِ الْخَصْرِ
فَعَالَ الصَّفَاحَ الْبَيْضَ وَالْأَسْلَ السَّمَرَ
بِذَاتِ سَوَارٍ مُثْلِّ مَنْعَطِفَ الْبَدْرِ
نَضِيرٌ كَمَا انشَقَّ الْكِمَامُ عَنِ الزَّهْرِ

أَلَا حَيٌّ أَوْطَانِي بِشَلْبِ أَبَا بَكْرٍ
وَسَلَّمَ عَلَى قَصْرِ «الشَّرَاجِيبِ» عَنْ فَتِيَّ
مَنَازِلِ آسَادِ، وَبِيَضِ نَوَاعِمِ
وَكَمِ لِيلَةٍ قَدْ بَتُّ أَنْعَمَ جَنْحَهَا
وَبِيَضِ وَسَمَرِ فَاعِلَاتِ بِمَهْجَتِيِّ
وَلَيلِ بَسَدِ النَّهَرِ لَهُوا قَطَعْتُهُ
نَضَتْ بُرْدَهَا عَنْ غَصْنِ بَانِ مَنْعِمٍ

وقصر الشراجيب هذا متناهٍ في الحسن، مشرق الساحات، مباهٍ بمحاسنه غيره من القصور الشامخات.

ودخل ابن عمار «شلب» في موكب فخم يحُفُّ به عبيد وحشم وبلغ موكبه من الأبهة والجلال ما لم يبلغه موكب المعتمد نفسه أيام أنَّ كان واليَا عليها، ولكنَّه خفَّض من غلوائه، وطامن من كبرياته، وأتى بعمل يدل على النبل، وحسن التقدير، والاعتراف بالجميل، فإنه وقت دخوله المدينة سأله عن التاجر الذي واساه في أيام محتنته، وأعطاه علف بغلته، أَحَيْ هُو؟ فقالوا: إنه حَيٌّ، وكان ابن عمار قد احتفظ بتلك المخلافة عينها

الفصل التاسع

التي كان التاجر قد ملأها شعيرًا لعلف بغلته، فملأها هو دراهم وبعث بها إلى التاجر وقال لرسوله، قل له: «لو كنت ملأتها بِرًّا، لكنَّا ملأناها لك تبرًّا». وبقي واليًا عليها مدة لم تطل؛ لأنَّ المعتمد لم يستطع البقاء دونه فاستدعاه ليقيم بقصره، وعيَّنه كبير وزرائه.

الفصل العاشر

كان المعتمد وزيره مفتونين بالشعر، فأصبح قصر إشبيلية ملتقى الشعراء الفحول، ولم يكن للمتشاعرين مجال في هذا الميدان، ولا حظ لهم في رفد الخليفة أو مكافأته، فقد كان الخليفة نقاداً بارعاً للاحظة دقيق الحس، خصب الشاعرية، وكان يتذوق الأسلوب تذوق الشاعر الصادق الشعور، وكان رأيه فيصللاً في الحكم على الشعراء وتعرف موقع كل لفظ في قصيدهم، فإذا ظفر الخليفة بشاعر موهوب أقبل عليه وأدناه من مجلسه وأغرقه بكرمه إغراقاً.

ولقد سمع — ذات يوم — هذين البيتين:

قلَ الوفاء فما تل فيه في أحد
ولا يمر لإنسان على بال
كأنه عندهم عنقاء مغربة
أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال

فسأل المعتمد: «من هذان البيتان؟»
فأجابوه: «هما لعبد الجليل بن وهبون». ^١

فصاح المعتمد: كيف أن شاعراً من الشعراء المبرزين ممن يقوم لنا بواجب الولاء والخدمة، يعد أن منحة ألف مثقال حديث خرافه، وبادر في الحال بإعطاء عبد الجليل مئة مثقال. وحدث مرة أخرى أن أحد الظرفاء من الصقالبة، وفدى على قصره بعد أن غلب على البلاد «روچيه» النورمندي وصادف أن جيء لديه بقطع ذهبية من مسكونات دار الضرب، فنفح منها الصقلبي بدرتين، ويظهر أن هذه المنحة على ضخامتها لم تكفي، فحفزته الرغبة وحركه الطمع أن يمد عينيه إلى تمثال نادر مصنوع من الرخام على صورة جمل صغير مطعم بالجواهر الثمينة، وأراد ذلك الصقلبي أن ينفذ رغبته الملحة

قال: «إنك أيها الملك، قد نفحتني بهذه المنحة العظيمة التي أعجز عن شكرها، ولا أقوى على حملها، وأجدني لعظمها في حاجة إلى جمل يحملها إلى داري». «قال له المعتمد وقد أعجبته هذه المحاولة الطريفة: «دونك الجمل، وشأنك به وما تريده».

ومن المحقق الذي لا يرتات المرء فيه أن المعتمد يهتز أريحية، ويفيض إعجاباً بكل حاضر البديهة ذكي الفؤاد شاعراً كان أو غيره، ولو كان لصاً من قطاع الطريق، وممّا يقوم دليلاً على صحة ذلك حكاية البازي السنجابي، والبازي السنجابي – وقد حدثوني عنه بهذا اللقب – ما برح مدة طويلة أكبر لص في عصره، وكان بلاء عظيماً قد أوقع الربع والرهاة في سكان البوادي إلى أن أوقعه القدر المتاح في قبضة العدالة، فقضى عليه المعتمد أن يصلب على مرأى من الفلاحين في الطريق الأعظم، ليشهدوا ما حلّ به من خزي ونكال، ولما كان اليوم الذي حكم عليه فيه بالصلب قائظاً، والحرارة خانقة، فقد قل مرور الناس بالطريق، وكان قد وقف بأسفل الخشبة التي صلب عليها اللص زوجته وبناته يبكيته بدموع حارة ويقلن صارخات: «يا أبتهات على من ترتكنا إذا نفذ فيك سهم القضاء، إننا بلا شك سنمومت بعدك جوغاً» وكان البازي السنجابي – على وحشيته وفظاعته – غاية في الشفقة والحنو على أسرته، فتوزعت نفسه فكرة مصيرها إلى الشقاء، وصيورتها إلى الفاقة والمتربيّة.

ومر عليه في هذه اللحظة تاجر غريب الدار يحمل على بغل عدلين من القماش وبعض بضائع أخرى جاء ليبيعها في القرية القرية فاستوقفه، وقال له: «إنني أيها السيد، كما ترى في موقف من أسوأ المواقف، وفي حالة يرثى لها، وفي وسعك أن تقوم لي بخدمة جليلة تعود عليك قبل غيرك بأجدى الفوائد، وأجزل العوائد».

فسألته التاجر: «وما عسى أن تكون تلك الخدمة التي أقوم لك بها؟»

– «هل تعرف ذلك الجب البعيد هناك؟»

– «نعم أعرفه».

– «حسن جاً، فاعلم أني في اللحظة التي استولت عليَّ فيها الغفلة وتركت نفسي أقع في قبضة أولئك الشرطة الملعونين، أقيمت مئة مثقال من الذهب في ذلك الجب، فإذا سمحت نفسك ورضيت أن تنطلق، وتبذل كل ما في وسعك في استخراجها، فإني أهبك نصفها متى ظفرت بها، وهذا هي زوجتي وبناتي يقمن على حراسة بغلك حتى تفرغ من هذا العمل الذي فيه إنقاذ أسرة من مخالب الجوع».

واستهوت التاجر شهوة الحصول على الربح، فمضى سريعاً، وربط عند حافة الجب حبلأً، ودلل نفسه فيه حتى وصل إلى قاعه، ولما اختفى في البئر أسرع البازي السنجابي وقال لزوجته: «أسرعي واقطعي الجبل، وخذني البغل وخفني مسرعة أنت والبنات، واهربن جميعاً واحتفين عن الأنظار».

وتمَّ كل هذا في أقل من لمح البصر، وطلع التاجر من البئر بخفى حنين فوجد بضاعته قد استقلت المرأة وبناتها معها، وأدرك أنه لا يستطيع اللحاق بهن، فجعل يصبح كالماخون، ولكون صيحاته ذهبت هباء في ذلك الجب العميق، وفي بسيط من الأرض لا أنيس به ولا مغيث، فقد مضى وقت طويل دون أن يجد أحداً يتقدم لإنقاذه، وبعد لأي خرج من سجن، وتلاحق الناس لإنقاذه من ذلك القرار البعيد الغور في طبقات الجب السفلية وهم يسألونه في دهشة عن سبب تدليه في ذلك الجب، وهو يشكو سوء الطالع، ويندب حظه المشؤوم، ويرسل في إثر بضاعته الضائعة دموعه الغزيرة الحارة، ويصب جام غضبه ولعنته المتابعة على ذلك اللص المصلوب البالغ النهاية في الخبث والدنسة وال默ك والخديعة، وسرعان ما ذاع الخبر وتناقله الناس في المدينة حتى بلغ أسماع المعتمد نفسه الذي أصدر أمره في الحال بإنزال البازي السنجابي من فوق خشبة الصلب، والإتيان به في حضرته.

ولما مثل بين يدي المعتمد صوب فيه بنظره وصعد ثم قال: «من المحقق الذي لا ريب فيه أنك أكبر محثال، وأدھي ماكر خبيث عرف حتى الآن، إذ إن ترقب الموت الذي لا حالة واقع بك، لم يصدق على الالتجاء في هذا الوقت الرهيب إلى المكر السيئ، والإيقاع بذلك التاجر المسكين في حبالتك».

فأجابه اللص: «عفواً يا مولاي الملك! إنك لو علمت أية لذة تلك التي يشعر بها الإنسان عندما يكون لصاً، لوضعت هذا التاج عن رأسك، وألقيت معطفك هذا الملكي عن منكبيك، ولما كنت إلا لصاً مثلِي».

فأغраб الملك في الضحك، وقال: «ألا لعنة الله عليك من لص داهٍ خبيث، ولكن أصحَّ إلى بسمك لأتحدث إليك ملياً، وسأكون في حديثي معك جاداً لا هازلاً، هب أنني وهبتك الحياة، ورددت إليك حريتك السلبية، وهيأت لزوجك وبناتك أسباب العيش من طريق شريف، وأجريت عليك راتباً يكون لك ولعيالك سداً من عوز أكنت تصلاح من نفسك، وتثوب إلى عقلك ورشدك، وتعدل عن هذه المهنة الخطرة الحقيرة المقوفة؟»

فقال: «إن الإنسان — في سبيل إنقاذ حياته — يفعل كل ما في استطاعته فعله، وإذا كان إنقاذ حياتي — وهي أثمن شيء عندي — متوقفاً على استقامتي وصلاحي

وابتعادي عن الشرور والمفاسد، فإني أعدك أيها الملك، وعدًا صادقًا أن أكون عند ظنك بي، فهل يسرك مني هذا؟»

وقد بر البازي السنجابي بوعده حين عينه المعتمد رئيس شرطته، وأوقع الرهبة والرعب في نفوس أولئك اللصوص الذين كانوا زملاءه بالأمس، وبدل الخوف الذي كان ينتاب الفلاحين من قبلً أمّا.

ثم مضى المعتمد في حياة الترف والمرح والسرور، لا يصرف في مهام الدولة إلا القليل من وقته، وقد كان يقول — في بعض شعره — ما معناه: «إن الإنسان إذا غالط نفسه، وأراد أن يكون عاقلاً فلن يكونه».

وكان السماط المدود، والولائم الكثيرة تستنفدان كثيّراً من وقته وماله، وكان يصرف ما بقي من وقته داخل قصره مع القيان، والغيد الحسان، وهذا ما كان يجعله دائمًا يظهر بمظهر أهل الظرف والخلاعة والعشق، وليس معنى هذا أنه زهد في حب اعتماد فقد كان على العكس من ذلك مفتونًا بها مدللًا بحبها.

ولكن تبعًا للقانون الغريب الذي يخضع له الحب في البيئات الإسلامية يستطيع الرجل — إذا أراد ألا يُرمى بالخيانة عند حظيته — أن يغضي لهذا الغرض عن بعض ميولهgrammatical، وأن يتصل بعشيقاته الفينة بعد الفينة، دون أن تجد ما تقوله أو توجه إليه فيه لومًا، وهي مع هذا موقنة بأنها وحدها الحظية عند زوجها المهيمنة على قلبه.

وقد كانت زوجة الرومية المحبوبة الحسناء فاتنة بدعة، وكان إذا شرب معها وجد للنبيذ رائحة ونكهة لذيدة لم تجر العادة بها مع غيرها.

وكانت «لونان» تجلس إليه إذا فرغ من مجالس لهوه، وتفرّغ لمطالعة أشعار المتقدمين أو أراد أن يقرض هو شعرًا، فإذا أرسلت الشمس أشعتها من النافذة، قامت لتحول بينه وبين الشمس لعلمها — كما يقول الملك — «إنه لا يكشف الشمس من بين الكواكب غير القمر».

ولما كانت هذه اللؤلؤة الثمينة، والحسناء الفريدة، صعبة المراس، شرسة الطبع، فقد كانت كثيّراً ما تخضب ويتحمل المعتمد كل عناء في تسكين غضبها بتحقيق ما يوافق هواها، ويتفق مع مرامها، ومن ذلك أنها غضبت عليه مرة، فكتب يعتذر إليها، فردت عليه رِدًا حسناً ولكنها لم تضع اسمها في صدر الكتاب، كما يقضي به رسم الكتابة، فأفسف المعتمد لذلك، وحكم بأنها لم تصفح بعد، وإنما كانت بدأت الكتاب باسمها، طبقاً لما هو معروف في العادة، وقال: إنها تعرف أنني أعبد اسمها، وأتعشق كل حرف من

حروفه، فما بالها لم تصدر به جوابها إلى؟ إنها إذن لا تزال غاضبة على، وقد قدرت في نفسها أنه سيقبل الاسم بمجرد رؤيته على الطرس، فاستحسنت ألا يراها؛ لأن في تقبيله شفاءه من سقم الْمَّ به، وما أظرف أن تكون هذه الشيطانة الساحرة والغادة المحبوبة هي سبب الداء والدواء معًا، فقد توجه الملك إلى مولاه بالدعاء، يرجوه أن يتفضل عليه بنعمة يدها من أسبغ النعم، وهي أن يطيل سقمه، حتى يرى دائمًا عند سريره هذه الظبية الموردة الخدين، الأرجوانية الشفتين.

(وبعد) فقد يكون مخدوعًا من يخلي إليه أن المعتمد قد أغمض عينيه عن إتمام أعمال أبيه وجده؛ لأنه وإن لم يكن عنده من الأطماء ما عندهما، فقد عمل هو على الأقل ما حاولا عبًّا أن يعملاه ففشلوا، فمن ذلك أنه في السنة الثانية من حكمه، ضم قرطبة إلى مملكته، ولا ننكر أن والده هو الذي مهد له الطريق، وأن الظروف قد ساعدته كثيراً، ففي سنة (١٠٦٤) أي فيما قبل ذلك بست سنوات تنازل رئيس الجمهورية أبوالوليد بن جهور – لشيخوخته – عن الرياسة لولديه عبد الرحمن وعبد الملك وعهد لولده الأكبر بكل ما يتعلق بالشئون المالية والإدارية، وعهد إلى ولده الثاني – الذي كان يعده ضعيفاً – بالقيادة العامة، وقد نهج كل شيء منهجاً طوال وزارة الوزير الماهر ابن السقا، فقد كان هذا الوزير رجل المملكة لهذا العهد، وكانت شخصيته تبعث الرهبة والاحترام في نفوس جميع أعداء الجمهورية الألداء، سواء أكانوا ظاهرين أم كانوا يعملون في الخفاء، وفي مقدمتهم المعتمد نفسه، الذي أدرك أنه لكي يصل إلى تحقيق غرضه يجب أولاً أن يبدأ بإسقاط هذا الوزير.

فسعى بينه وبين عبد الملك بن جهور بأن جعله موضع ريبة يحول حوله كثير من التهم والشكوك، وقد نجح في هذه السعاية التي أفضت في النهاية بالقضاء على ابن السقا بالموت، وقد كان لهذا الحادث أسوأ الأثر، وأوخر العواقب على الجمهورية، حيث انفرط عقدها بخروج الموالين لابن السقا، من القواد والجند من الجيش، وأصبح عبد الملك مقوتاً عند الرعية، بغيضاً إليهم لفظاعته وقسوته وتهاونه، وبقي يحتفظ بما بقي من نظم الجمهورية قائماً على قديمه، إلى أن تزعزعت أركان سلطته فجاء المأمون صاحب طليطلة وحاصر قرطبة في خريف سنة (١٠٧٠).

ولما لم يجد عبد الملك ما يدافع به عن نفسه لأنه أصبح بلا جيش، ولم يبقَ عنده سوى مئتي فارس في حالة سيئة للغاية، عمد إلى المعتمد يطلب نجاته، فحقق رغبته،

وأرسل إليه نجادات كبيرة، أضطر معها جيش طليطلة للانسحاب، ولم يكن انسحاب عدوه فوزاً، بل بالعكس كان خذلاناً، فان رؤساء جند إشبيلية أخذوا يعملون في الخفاء على تنفيذ الخطط السرية التي أفضى المعتمد بها إليهم، وتم الاتفاق فيما بينهم وبين القرطبيين على خلع عبد الملك والاعتراف بسيادة ملك إشبيلية، واستمرت المؤامرة في طي الكتمان، وبعد الملك لا يدرى ما بيتَه الجندي له إلى أن حدث في صبيحة اليوم السابع من ارتداد المأمون بعسركه، وإعلان عسكر إشبيلية أنهم عائدون إلى بلادهم، أن تصاعدت صيحات الجنود وهم على أهبة الرحيل منذرة بالعصيان، وطرقت أذنيه لأول وهلة بوادر الشر، ونظر فإذا الجندي الذين جاءوا لنجدته، قد أحاطوا هم وعامة الشعب بقصره، وفي أسرع من ارتداد الطرف قبضوا عليه وعلى أبيه، وسائر أفراد أسرته، ونادوا بالمعتمد ملِّاً على قرطبة وأخذ آل جهور أسرى، واعتقلوا في جزيرة «شلطيش» ولم يبق أبو الوليد الشيخ على قيد الحياة بعد هذه النكبة سوى أربعين يوماً.

وقد تحدث الملك الشاعر عن هذا الفتح بحديث ملك شاي الملوك الصيد، وخطب قربة النساء بالبيض والأسل فلم تمنع عليه كما امتنعت على غيره، وذلك حيث يقول:

هيئات جاءتكم مهدية الدول
من جاء يخطبها — بالبيض والأسل
فأصبحت في سرّي الحلي والحل
كل الملوك به في مأتم الوجل
هجوم ليث بدرع البأس مشتمل

من للملوك بشأٌ والأصيـد البـطل
خطبـتُ قـرطـبة الـحسـنـاء — إـذـا مـنـعـتـ
وـكـمـ غـدـتـ عـاطـلـاً حـتـىـ عـرـضـتـ لـهـاـ
عـرـسـ الـمـلـوـكـ لـنـاـ فـيـ قـصـرـهـاـ عـرـسـ
فـرـاقـبـواـ عـنـ قـرـيبـ لـأـبـاـ لـكـمـ

ولم ير المؤمن أن ما وقع يعد هزيمة، وذلك لأنه كان مصمماً على الاستيلاء على قرطبة في فرصة أخرى مهما كلفه ذلك من ثمن.^٢

ولم يمض قليل من الزمن حتى جاء برفقة حليفه الأدفونش السادس فخر بسيط المدينة وما حولها، ولكنّ عباداً حاكم المدينة الشاب أحد أبناء المعتمد من حظيته الرومية الحسناء كان غافلاً عمّا يدبر من الدسائس للاستيلاء عليها، فقد أخذ ابن عكاشة على عهده أن يضمن للمؤمنون أخذ المدينة التي ينشدها، وابن عكاشة هذا رجل فظيع فاتك سفاح، وكان قبل ذلك من اللصوص المتحرّمين باللوعر والجبل، وهو مع هذا فارس ذكي

حديد القلب، نابه الشأن وفوق ذلك فإنه قد خبر قرطبة وعرفها معرفة جيدة؛ لأنه لعب فيها دوراً هاماً فيما سبق.

فلما عين حاكماً لبعض الحصون، بدأ يخلق الدسائس وينشئ المؤامرات لقرطبة، ولم يكن من الهين السهل عليه أن يغامر في مخاطرة جريئة مثل هذه، لولا أن الكثير من المواطنين كانوا مستائين من سير الأعمال، ومن الخطط الرديئة العوجاء الملتوية.

وفي الحق أن الأمير عباداً كانت تبدو عليه مخايل البشر، ويهدوه الأمل، ولكنه في هذه السن الصغيرة لم يكن في استطاعته أن يتولى بنفسه أرمة الحكم، ويضطلع وحده بأعباء المملكة، لذلك كانت السلطة في يد رئيس الحامية محمد بن مارتون الذي يظهر أنه من أصل مسيحي، كان هذا الرجل جندياً باسلاً، وفاتكماً دموياً قاسياً، مما حمل القرطبيين أن يمقتوه ويبغضوه، وقد حامت الشكوك والريب حول الكثير من سكان قرطبة في أن تكون لهم علاقة بابن عكاشه، واتصال بمحاولاتة الخفية.

على أن هذا الأخير لم ينجح نجاحاً تاماً في إلقاء الستار على أعماله وتدبراته الخفية، فقد لاحظ أحد حرس المدينة أن هذا الرجل الذي له سابقة في اللصوصية، كان كثيراً ما يتعدد على أبواب المدينة ليلاً ويحدث بعض جنود الحامية؛ مما حمل على الريبة، وجعل الشبهة القوية تحوم حوله، وقد سارع هذا الحرس وأبلغ عباداً الحادث، ولكن الأمير لم يُعنَ كثيراً بالأمر ولم يأبه للحادث، وأحال المبلغ على رئيس الحامية محمد بن مارتون وهذا أحاله على حرسي صغير دون درجته، والنتيجة أنهم توكلوا، فكان كل واحد يلقي المسألة على عاتق الآخر لاتخاذ الحيطة والتدبير، ولم يقم أحد بواجبه، ولم يُتخذ في المسألة تدبير حازم.

ونشط ابن عكاشه للتجسس في كل ليلة، ولم يكف عن التربص وتحين الفرص إلى أن أمكنته الفرصة، في يناير سنة (١٠٧٥) من دخول المدينة هو ورجاله في ليلة شاتية حالكة الظلام، شديدة الرياح والعواصف، وبادر قصر عباد وقد غاب عنه الحراس، وكان على وشك أن يقتتحم عليه باب القصر، لولا أن الحرسي الموكل بالباب أسرع إلى إيقاظ الأمير فنهض ونفر شرذمة قليلة العدد من السودان والعبيدين، وخرج بنفسه على صغر سنة للاقاء عدوه والوقوف في وجهه، ودافع دفاع الأبطال ببسالة وبأس حتى أكره المهاجمين أن يجلوا عن دهليز القصر، وأخذ يطاردهم، وهنا زلت به قدمه فابتدره أحد رجال العصابة، وانقض عليه فقتله، وبقيت جثته في الطريق العام عارية بالعراء، لأنه

حين أوقفت من نومه بغتة، لم يجد من الوقت ما يكفي لارتداء ثيابه، وانقتل ابن عكاشة ببرحالة يقصد دار رئيس الحامية، ولم يدر في خلد هذا الرجل، ولا كان عنده كبير ظن في أنه يُعتدى عليه ويهاجم في مثل تلك اللحظة التي اقتحموا عليه فيها داره وهو بين شدو القيان، ورقص الغيد الحسان، وكان دون عباد ذلك الأمير الحدث شجاعة، فلم يكدر يسمع صلصلة السيوف في فناء داره، حتى سارع إلى مخبأ اختباً فيه، ولكنه سرعان ما عرف حين كشف فقبض عليه، وقتل في المساء.

وفي غلس الصبح قبل إسفار الفجر بينما كان ابن عكاشة يطوف بأنحاء المدينة على دور العظام والنبلاء يدعوهم للانضمام إليه كان بعض الأئمة ذاهباً لتأدية الصلاة في المسجد، فرأى جثة عباد وقد فارق الحياة ملقاء على الأرض بين الطين والوحل، فرحم مصرعه، ونزع ثيابه ورمها على جسمه العاري، ولم يكد الشيخ يمضي لسيله حتى جاء ابن عكاشة بين صيحات الفرح والسرور على نحو ما يحدث في المدن الكبرى في إبان الثورات، وما وقف على عباد وهو بهذه الحالة حتى أمر بفصل رأسه من عنقه وأن ترفع على رمح، ويطاف بها في أنحاء المدينة، ولم ير ذلك جنود الحامية حتى ألقوا السلاح، ورکنوا إلى الفرار، وجدوا في الهرب.

ثم جمع ابن عكاشة أهل قرطبة بالمسجد الجامع، وبدأ يأخذ البيعة للمؤمنون، وكان كثير منهم لا يزال متعلقاً بالمعتمد يكن له الإخلاص والوفاء، ولما كان الخوف عظيماً وشاملاً لم يستطع أحد أن يختلف عن البيعة.^٣

ومرت أيام ثم جاء المؤمن بنفسه ودخل قرطبة وهو يتظاهر بمنتهى الإعجاب والتقدير لابن عكاشة وبيالغ في إكرامه والحفاوة به، والثناء على حسن بلائه، حتى ليظن من رأه أنه قد أولاً ثقة لا حد لها، وهو في الواقع يمقته كل المقت، ويرى فيه اللص القديم، والقاسي المجرم الأئم، والفاتك الذي لا يرضيه من خصمه غير سفك دمه، وأن يسقيه كأس الحمام بيده، كما فعل في ذبح عباد الحدث؛ لهذا كله أخذ المؤمن يبحث عن سبب يتعلّل به، أو حيلة يتذرّع بها للقضاء على خصمه الخطر خلسة من غير أن يحدث في المملكة ضجة، ولكنه لم يجعل ذلك حديداً مكتتماً في نفسه، بل كان كثيراً ما يكشف بهذا الرأي خواصه وجلساءه، حتى إن ابن عكاشة انصرف من مجلسه ذات يوم، وجعل هذا يصعد الزفرات، ويتبّعه بنظرات حادة من عينين يتطرّف منها الشرر، ويجمجم بكلمات أعقبت شؤماً ونحساً، وأراد بعض الموالين لابن عكاشة أن يدافع عنه، ويصفه بحسن الفعال، وجميل الخلال، فقال المؤمن: دع عنك هذه الكلمات الجوفاء،

فإن رجلاً لا يحتفظ بالجميل، ولا يرى حياة الملوك في نظره إلا رخيصة، غير خليق أن ينال ثقتهم، أو يبقى في خدمتهم.

ولم يمض على دخول المأمون قرطبة ستة شهور حتى قُتل مسموماً أى بعد انقضاء شهر يونيو سنة (١٠٧٥) وقد اتهم بقتله أحد المتدينين على مجلسه، ولكن هل يمكن ألا تكون ابن عكاشة يد في هذه الجريمة؟ هذا ما لا يكاد يصدقه العقل.

ولنترك الآن حديث الاستيلاء على قرطبة وما أعقبه من الحوادث، وننتقل إلى قصر إشبيلية، ولنتصور مبلغ ما وصلت إليه حال المعتمد حين نمى إليه ذلك الخبر المشئوم المزدوج: سقوط قرطبة، وموت ابنه عباد المرزوق له من سريته الرومية الحسناء التي ألوغ بحبها ولغاً شديداً، ومع أن نزعة الانتقام، والأخذ بثأر ابنه المقتول كانت تجيش بصدره، فقد كان إلى جانب هذا الشعور شعور آخر، وهو تقدير يحسه في أعماق نفسه لذلك الشيخ الفقيه الذي مر على عباد مقتولاً فنزع بدافع العاطفة النبيلة رداءه، وألقاه على جثمانه العاري، وهو يأسف إذ لم تتحقق له فرصة مكافأة ذلك الشيخ النبيل على حسن صنيعه، وكثيراً ما كانت تتحرك في نفسه هذه الذكرى الأليمة فيقول:

ولم أدر من ألقى عليه رداءه سوى أنه قد سل عن ماجدٍ محض

ومضت ثلاث سنين ضاع فيها ذلك المجهود العظيم الذي بذله ليسترد قرطبة وليثأر ولولده المقتول من ابن عكاشة إلى أن قيض الله له الاستيلاء عليها عنوة في يوم الثلاثاء ٤ سبتمبر سنة (١٠٧٨)، وفي الوقت الذي دخل فيه المعتمد من باب قرطبة كان ابن عكاشة قد بارحها من الباب الآخر، ولم يتركه المعتمد يفلت من يده بل بعث في الحال خيالة في أثره تمكناً من اللحاق به، ولما أدركه الطلب، وأيقن أنه لا مطمع له في الصفح من ملك موتور بقتل ابنه، أراد على الأقل ألا يبيع حياته رخيصة، فكرّ على أعدائه وقاتلهم قتال المستميت، إلى أن ذهب ضحية وفرة العدد، وأمر المعتمد بجثته فصلبت على خشبة وإلى جانبها كلب.

وأعقب غزو وفتح قرطبة فتح كورة طليطلة وأراضيها الممتدة بين الوادي الكبير ووادي آنه، وهذا في الحقيقة يعد نجاحاً كبيراً باهراً، ونحن لو حاولنا أن نقارن بين المعتمد وغيره لرأينا أنه أقوى ملوك الطوائف، وأكثرهم نفوذاً وامتداد سلطان، ولكنه مع هذا لم يكن أكثر منهم استقلالاً، إذ كان هو عليه أيضاً أن يؤدي الإتاوة، فاما أولاً فكان يدفعها «لغرسية» ثالث أولاد «فردينند»، وأما ثانياً فكان يدفعها ملك غالسيا،

وأما ثالثاً فكان يدفعها للأذونش السادس، من حين أن استولى على مملكة الشقيقين «سانكرو» و«غرسيه» وكان الأذونش ملكاً مزعجاً متعيناً في طلب الإتاوة، إذ هو لا يقنع بما يتقاضاه من إتاوة سنوية فحسب، بل كان في الفينة بعد الفينة يفرض ضرائب على المالك التي يدفع لها أبناء ملوك العرب جزية، فإن لم يؤدوها، وإلا هددهم بالاستيلاء على بلادهم.

وحدث مرة أنه جمع جيشاً قوياً، وتقىد به لغزو بلاد إشبيلية فاستولى على المسلمين الربع، وشلهم حزن يفوق الوصف، وذلك لما كانوا عليه من الضعف البالغ الغاية، بحيث كانوا لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، وكان كبير الوزراء ابن عمار هو رجل الدهاء الوحيد الذي لا يتسرّب اليأس إلى قلبه، وكان يعلم أن جمع جيش إشبيلي لللاقة الجيوش المسيحية، وردهم عن البلاد، وهم باطل، وحلم كاذب.

ولكنه رأى أن الأذونش يعرفه لأنه كثيراً ما كان يتربّد على خيمته، وأن من السهل عليه لما عرف عنه من الطمع والميول الخاصة أن يتغلب عليه بقوّة الحيلة والدهاء، وعلى هذه الناحية عوّل ابن عمار ولم يشأ أن يضيع الوقت في التسلّح، وأخذ الأهمة للحرب والقتال، وأخذ يتربّد على معسكر العدو، ومعه رقعة شطرنج غاية في الإتقان والفاخامة لا يوجد لها نظير عند الملوك، وكانت صورها من الآبنوس والعود والصندل، وأرضيتها غاية في الإبداع مموهة بالذهب، وزاع خبر الشطرنج حتى وصل إلى أسماء الأذونش على لسان نبيل من المقربين إليه، فطلب الأذونش ابن عمار وسأله:

– هل تجيد لعب الشطرنج؟

فأجابه ابن عمار وكان طبقة فيه:

– اشتهر عني بين أصدقائي أني أجيد لعب الشطرنج.

– قيل لي إن عندك شطرنجاً بدبيعاً معدوم النظير.

– نعم هو ذاك.

– هل يمكن أن أراه؟

– لا مانع من ذلك، ولكن على شريطة أن تلعب معّا، فإذا غلبتني كان الشطرنج لك، وإذا غلبتك فلي حكمي، وبعد مراجعة وحوار بينه وبين خاصته قبل الشرط، وجيء بالشطرنج فكان موضع إعجاب الأذونش ودهشته لجمالي ودقّة صنعه، وصاح من فرط دهشته وصلّب إكباراً له واستحساناً لصنعه، وقال: «والله ما خطّر بيالي قط أن في وسع إنسان أن يبدع في صنع شطرنج بمثيل هذه الدقة الفنية العجيبة».

وظل ينعم النظر، وقد اشتد إعجابه بالشطرنج ثم قال ابن عمار: «أعد عليًّا ما قلت، واذكر ما اشترطته علي». فأعاد ابن عمار عبارته الأولى فقال الأذفونش: «إني لا أعب على شرط مجهول، إنك تستطيع أن تسألني أمراً ليس في استطاعتي أن أجيبك إليه».

فأجابه ابن عمار بفتور وطوى رقعة الشطرنج وأمر أن تحمل إلى خيمته وقال: «شأنك أيها الملك وما تريد، أنا لا أعب إلا على هذا الشرط». وانفصل الاثنان دون اتفاق ولم يدرك ابن عمار الملل، ولم يحل اليأس بينه وبين الوصول إلى إتمام هذه الحيلة السياسية، فقد عمد إلى بعض نبلاء القشتاليين، وأسرّ إليهم بأنه إذا ربح الدور لا يطلب مستحيلًا، ووعدهم بمبالغ طائلة إذا هونوا على الأذفونش الأمر، وكانوا في عونه، فاستهولتهم هذه الوعود البراقة، وخلب أبابهم بريق الذهب، واستوثقوا من الوزير المسلم، وقطعوا على أنفسهم عهداً بأن يكونوا في صفه، وكان الأذفونش شديد الميل إلى اللعب لثقته من نفسه يحرق رغبة في الحصول على الشطرنج، فحسنوا له أن يلعب معه، وقالوا له: ماذا عسى أن يطلب هذا مما اشتط في الطلب؟! وأنت ملك ملوك النصارى فلا ينبغي أن تظاهر أمام هؤلاء بمظهر العجز، ومتى غلبه وفزت عليه ظفرت بشطرنج يحسد عليه الملوك، وهب أنك خسرت واشتط في الطلب فإنما نزدك إلى صوابه.

وما زالوا به حتى اقتنع بما أشاروا به عليه، فبعث إلى ابن عمار يبلغه أنه على استعداد للاعتباة، ولما حضر قال له: «قد قبلت شرطك فهيا نلعب»، فقال: حسن، ولكن ليحضر فلان وفلان لرجال سماهم من نبلاء القشتاليين، ليكونوا بمثابة شهود على اللعب، فقبل الملك وأخذنا يلعبان إلى أن انتهى الدور بغلب ابن عمار غالباً ظاهراً لا مطعن فيه لأحد، فالتفت ابن عمار إلى الملك وقال: «الآن لي أن أطلب حسب الشرط ما أريد».

فأجابه الملك: «بلا شك، فماذا تطلب؟» قال: «أطلب أن تعود إلى مملكتك، وتكلف عن القتال».

فهاج هاجن الأذفونش وأخذ يذهب ويجيء في خيمته، وهو يخطو خطوات واسعة، ثم جلس، ثم نهض قائماً، وهو في أشد حالات الهياج والقلق، ثم قال لجماعة النبلاء من القشتاليين الذين غرروا به: «ها أنا ذا قد وقعت في الشرك، وأنتم كنتم السبب، وهذا أخو福 ما كنت أخافه من طلبات هذا الرجل، لو لا أنكم طمأنتموني، وأنا الآن أجني ثمرة مشورتكم المقوّة».

وبعد صمت دام لحظات قال: «وما الذي يعنيك من شرط التزمت به لهذا الرجل، أنا لا أحفل بأمر مثل هذا البتة، وسأواصل زحفي».

فقال القشتاليون: «إن في هذا رجوعاً عمّا قطعته من العهد على نفسك، ومساساً بالشرف، وهل تحب أن يتحدث الناس عنك — وأنت ملك ملوك النصارى — أنك نقضت عهdk، ورجعت في قولك؟»

وبعد لأي هدأت ثائرة الأذفونش وسمحت نفسه في النهاية أن يقول لهم: «سأفي بمضمون الشرط، وأنجز ما وعدت به، ولكنني لا أرجع بجنودي إلا بعد أن آخذ الجزية عن هذا العام مرتين.»

فقال ابن عمار: «سيكون أيها الملك ما تريده.»
ويادر ابن عمار فحمل إليه مبلغ الجزيتين، وهكذا نجى الله المسلمين من الخوف بتدبير هذا الوزير الكبير ومهارته.

الفصل الحادي عشر

لم يقنع ابن عمار بما وفق إليه من إنقاذ مملكة إشبيلية من مخالب الأذفونش ورد عادية هذا الطاغية عنها، بل رغب في أن تمتد حدود المملكة وتنسخ رقعتها، واتجهت أطماعه إلى ولاية مرسية التي كانت من قبل قسمًا من مملكة زهير ثم من مملكة بلنسية ولكنها كانت مستقلة في العصر الذي نتحدث عنه الآن، وكان أبو عبد الرحمن بن طاهر ملكها، والمدبر لشئونها، وهو من أصل عربي ينتمي إلى قبيلة قيس، وكان ملگًا طائل الغنى، ضخم الثروة، قد دخل في حوزته نصف المملكة، وكان — مع غناه الطائل — مثقفًا خصب الذهن، حصيف الرأي، ولكنه مع كل هذه المزايا لم يكن كثير الخيل والجند، مما جعل الاستيلاء على بلاده ميسورًا وسهلاً، وقد لاحظ ذلك ابن عمار.

وفي سنة (١٠٧٨) من مرسية مقابلة «الكونت دي برشلونة ريمون بيرنجيه» الثاني المعروف باسم «كاب دي توب» وإنما سمي كذلك نظرًا لغزاره شعره، وإنما عرج على هذا الكونت ليخفى السبب الحقيقي الذي من أجله مر بهذه الجهة، ولكي يهتبل هذه الفرصة ارتبط بروابط الصداقة مع بعض أعيان مملكة مرسية الذين علم أنهم كانوا في حالة استياء من ابن طاهر أو أنهم على استعداد للخيانة والانقلاب متى اشتري ضمائرهم بالمال.

ولما كان في حضرة «ريمون» عرض عليه عشرة آلاف مثقال ذهبًا لقاء مساعدته بجنود من عنده لفتح مرسية فقبل الكونت الاقتراح، وتعاقد معه على أن يكون ابن المعتمد الذي يتولى قيادة جيش إشبيلية رهينة عنده، حتى يصله المبلغ المتفق عليه، وسلم الكونت ابن أخيه لابن عمار كرهينة وضمان لتنفيذ شروط المعاهدة، وكان المعتمد يجهل نص الاتفاق الذي يجعل ابنه رهينة عند الكونت، وضمانًا لوصول المبلغ، وابن عمار كان على

يقين من وصول المبلغ في الوقت المعين، فلا محل للخوف من تطبيق هذا النص، وليس ثمة ما يوجب بقاءه رهينة عند «ريمون» ما دام المبلغ يصل في الوقت المحدد.

وتم الاتفاق، واجتمعت جنود إشبيلية بجنود «ريمون» وزحف الجيش المتحد لهاجمة ولاية مرسية المستقلة، ولما كان من عادة المعتمد التهاون، ترك الأجل المضروب موعداً للدفع يمر دون أن يصل المبلغ في موعده، فترجح عند الكونت أن ابن عمار خدعاً، فاستشاط غضباً، وأمر بإلقاء القبض على ابن عمار وابن المعتمد قائد جيش إشبيلية وحاول جيش إشبيلية إنقاذهما، فهُزم واضطر إلى الاندحار.

وكان المعتمد لا يزال في طريقه إلى مرسية مع ابن أخي الكونت وحاشيته، وقد أبطأ به السفر، فلم يكن قد جاوز بعد ضفاف «الوادي اليانع» وكان النهر في إبان فيضانه فلم يكن قد عبره، وثمة صادفه بعض فلول جيشه على الضفة الأخرى للنهر، ومعهم فارسان يحملن إليه رسالة من ابن عمار فاقتتحما بجوازيهما النهر، وأبلغا المعتمد اعتقال «ريمون» لابنه ولوزيره، وأن هذا الأخير بعثهما إليه يريد منه أن يتعدل خلاص السجينين، وإطلاق سراحهما، بتنفيذ شروط الاتفاق، وأشار إليه أن يبقى حيث هو، فلم يقو فؤاده على احتمال هذه الكارثة ولم يطق صبراً، وقلق على مصير ولده، ووضع ابن شقيق «ريمون» في السلسل والأغلال.

ومضى على هذه الحال عشرة أيام، دخل فيها ابن عمار في جوار «جاين» فأطلق سراحه، وجاء إلى المعتمد ولكنه لم يستطع المثول بين يديه تفادياً من غضبه، وتلطف فأرسل إليه يقول:

فقد صرت من أمري على مركب صعب
فأجعله حظي أم الحظ في القرب
وإن أتعقّبْه نكست على عقبي
على كل حال ما يزحزح من كرببي
وأرجوك للحب الذي لك في قلبي
وتتبّو بكفي صفحة الصارم العضب
وليس له — غير انتصاك — من حُسْبٍ
يضاف به رأي إلى العجز والعجب
فللت بها حُدّي وكسرت من غربي

أَسْلَكْ قَصْدًا أَمْ أَعْوَجْ عَنِ الرَّكْبْ
وأَصْبَحْتْ لَا أَدْرِي أَفِي الْبَعْدِ رَاحْتِي
إِذَا انْقَدْتْ فِي أَمْرِي مَشِيتْ مَعَ الْهَوِي
عَلَى أَنْنِي أَدْرِي بِأَنْكَ مَوْثِرْ
أَهَابْكَ لِلْحَقِّ الَّذِي لَكَ فِي دَمِي
أَيْظَلْمَ فِي وَجْهِي لِذَا قَمَرِ الدَّجِي
حَنَانِيكَ فَيَمِنْ أَنْتَ شَاهِدُ نَصْحَه
وَمَا جَئْتَ شَيْئًا فِيهِ بَغْيٌ لِطَالِبْ
سَوْيَ أَنْنِي أَسْلَمْتَنِي لِمَلْمَة

تريني بعدي عنك آنس من قرببي
جرت جريان الماء في الغصن الرطب
ولا قلت إن الذنب فيما جرى ذنبي
وأسأل سقيا من تجاوزك العذب
سأهتف: «يا برد النسيم على قلبي!»
وما أغرب الأيام فيما قضت به
أما إنه لولا عوارفك التي
لما سمت نفسي ما أسمون من الأذى
سأستمنح الرحمى لديك ضراعة
فإن نفحتني من سمائك حرجَ

ولما كان المعتمد يشعر أنه هو الذي جرّ على ابن عمار وابنه الراشد ما وقعا فيه، لم يسترسل في غضبه، واحتفظ بصداقته ابن عمار ورق له ورد عليه بهذه الأبيات:^١

وسعيك عندي لا يُضاف إلى ذنبي
وأنسك ما ندريه فيك من الحب
إلى غيره فهو الممكן في القلب
فراجعت تأنيساً وعلمك بي حسيبي
وكيف يعاني الشعر مشترك اللب
لدي لك العتبى تراح من العتب
وأعزز علينا أن تصيبك وحشة
فدع عنك سوء الظن بي، وتبعده
قريرضك قد أبدى توحش جانب
تكلفته أبغى به لك سلوة

واطمأنَ ابن عمار لهذه الأبيات، وأهوى إلى قدمي الملك يريد تقبيلهما، ورجاه أن يقدم للكونت ابن أخيه والعشرة الآلاف ذهباً، حسب الاتفاق في نظير أن يطلق سراح ابنه الراشد، ولكن «ريمون» طمع في أكثر من المبلغ المتفق عليه، فاشتط في الطلب، ولم يقبل عشرة الآلاف المشروطة، بل طلب ثلاثة ألفاً ذهباً.

ولم يكن المعتمد يحمل كل المبلغ المطلوب، فأمر بضرب مسکوكات أدخل في تركيبها عناصر زائفة، ولحسن حظه لم يدرك «ريمون» مبلغ ما فيها من الغش فقبلها، وأطلق سراح الراشد ابن المعتمد.

وما زال ابن عمار — على الرغم من نجاحه الشبيه بالخذلان، ومحاولته الأولى المنطوية على الإخفاق — متطلعاً إلى مرسية طامعاً في أخذها، وقد زعم أن كتاباً تواردت عليه من كبار زعماء مرسية تبعث عنده عظيم الأمل في النجاح المحقق، وأخذ يحسن للمعتمد غزوها حتى سمح له أن يذهب على رأس جيش إشبيلي لحصارها، وعند وصوله إلى قرطبة بقي فيها أربعاء وعشرين ساعة حتى ينضم إليه الخيالة من جند المدينة، وأمسى ليلة وجوده بها في قصر ابن المعتمد الحاكم على المدينة، وبات يحادثه ليلته كلها، والأمير

مسرور بحديته، معجب بوفرة ذكائه، شاعر بجازبية قوية نحوه إلى أن انبثق الفجر، فجاء أحد الخصيّان يعلن بطلوع الفجر، فنظر إليه وارتجل ما معناه: «هذه ليلة قد أمضيناها مع الأمير في سرور، وقطعنها في حبور، وقد دامت وضاءة الجبين مشرقة الحياة، بطلعته البهية، وغرته المضية، فهي ليلة كلها بالأمير صبح، فماذا تعني بالفجر أيها الأحمق؟»

واستأنف السير في الصباح إلى أن وصل إلى حصن بلج أطلقوا على هذا الحصن اسم زعيم من عرب الشام الذين نزلوا في هذا المكان في القرن الثامن للميلاد، وكان على الحصن رجل عربي من قبيلة بلج يدعى ابن رشيق فبادر إلى استقباله، ودعاه للنزول بقصره، فقبل الدعوة، ورأى من الحفاوة والفاخامة وأسباب المرح والسرور، ما جعله يواليه ثقة بالغة لم يسأر الرجل وضعها، بل سار مع صديقه الجديد إلى أن وصل الجيش إلى مرسية وضرب الحصار على «مولا»، ولم يدم الحصار طويلاً حتى سلمت وكانت طريق وصول المؤمن إلى أهل مرسية، فكان سقوطها خسارة فادحة لهم مما جعل ابن عمار لا يشك في أنها على وشك التسلیم، وقد ترك «مولا» في حراسة كتبية من الفرسان بقيادة ابن رشيق وعاد بسائر الجيش إلى إشبيلية.

ولم يك يلقي بها عصا التسيّار حتى وردت عليه كتب عضده ومساعده ابن رشيق يخبره فيها أنّ المجاعة قد أضرت بأهل مرسية ضرراً بليغاً، وأنّ طائفة من أهلها من ذوي النفوذ والجاه قبلوا أن يساعدوا المحاصرين لقاء الحصول على مراكز مهمة في الدولة، وعلى هدايا نادرة نافعة، فقال ابن عمار حينئذ: «سترد إلينا الأخبار غداً أو بعد غد مبشرة بأنّ حامية مرسية قد سلمت». وقد صدقت نبوءته، وتحقق أمنيته، فإن فريقاً من الخونة من أهل المدينة قد فتحوا أبوابها، فدخل ابن رشيق وتسلمها واعتقل ابن طاهر وأخذ ببيعة جميع الأهالي المعتمد.

وبلغ ابن عمار ما تم على يد ابن رشيق فامتلاً قلبه سروراً، وطلب إلى المعتمد أن يأذن له في اللحاق بمرسية، فلم يتردد في الإذن له بذلك، واعترض أن يغمر جماعة من المرسيين بالهدايا، فصاحب معه عدداً من الخيول بسروجها ولجمها أخذها من الإصطبلات الملكية، وأضاف إليها عدداً من البغال حملها صناديق ملئت بالحلل النفسية والثياب، وقد بلغ عدد الأفراس والبغال زهاء مئتين، وسار في طريقه إلى مرسية في موكب حافل بين دق الطبول، وخفق الإعلام، وكان يعرج على كل مدينة يمر بها، ويدع فيها من الصناديق الملكية ما هو برسم أهله.

ودخل مرسيّة في يوم وصوله إليها بمظهر عادي، وفي الغد أجري له استقبال فخم بربز فيه لأهل المدينة بروز الملوك الفاتحين، وقد وضع على رأسه تاجاً مشرفاً مثل الذي يلبسه عادة مولاه في الحفلات الكبرى، وقد بدأ يستبد بأمر المملكة، فكان يوقع على رقاع الشكوى بتوقيع خاص به، ويغفل اسم المعتمد.

إن هذا المسلك الشاذ الدال على الزهو والإعجاب والاعتداد بالنفس والاستبداد بشئون المملكة الجديدة جعل ابن عمار كثائر على مولاه، وهذا رأي المعتمد واعتقاده فيه، ولكنّه لم يظهر بمظهر الغاضب الحانق عليه، بل استسلم ليأس وحزن كامن في النفس، وبدأ يشعر أن حلم الصدقة اللذيد الذي يرجع ابتداء عهده إلى خمس وعشرين سنة قد تلاشى الآن، وأنه كان مخدوعاً في ذلك الميل القلبي الكاذب؛ فصدقة ابن عمار القديمة، وظهوره دائماً بمظهر الخل الوفي، والصديق الحميم الذي لا يفصّم عراً صداقته تطاول الأيام، والصاحب المخلص النزيه المجرد من العلل والغايات، كل أولئك إذن لم يكن سوى كذب ورياء وخبث ونفاق.

ولعل المعتمد كان واهماً في تأثيم ابن عمار وتجريمه وإساءة الظن به إلى هذا الحد، ومما لا ريب فيه أن الفكرة الخاطئة الأثيمة فكرة الثورة على مولاه وولي نعمته لم تكن لتمر بخاطره البتة، والذي جعل الريب والشكوك تحوم حوله من جانب المعتمد هو زهوه المفرط الذي بلغ به إلى حد الجنون، ولم يكن من ضعف الخلق، وفتور المودة، وعدم الشعور بأثر النعمة، بحيث يدفع صدقة المعتمد وينسى ما له عنده من يد، وما طوّقه به من جميل، بل الواقع الذي لا يرتاب فيه أحد أنه كان يحب مليكه حباً صادقاً يدل عليه ما نظمه فيه بعد تغیره عليه من أشعار تفيف بالحب والإخلاص والولاء.

وقد نطق أشعاره الكثيرة، وقصائده التي كان يدفع بها هذه التهم والظنون عن نفسه، بأن ولاءه لم يتغير، وأن طبعه لم يتتحول، وأن حبه لأعز الأشياء عليه، ومنها نفسه التي بين جنبيه، أقل بكثير في قوة التأثير، وصدق الشعور، من حبه الصادق القوي المعتمد.

وما يدرينا لعل ظروفاً غير هذه الظروف لو كانت هيأت لهما الاجتماع ساعة يتحدث كل منها فيها إلى صاحبه، ويفضي إليه بدخلية نفسه، ويحتاج إلى قلبه طالما اختلفا، ما يدرينا لعل هذه الساعة لو أتيحت ل كانت كافية، للتوفيق بين هذين الروحين المتمازجين، والقضاء على تلك الوساوس والمخاوف التي أوجرت صدر الملك على

وزيره؟ إن من بواعث الأسف أن تتسع مسافة الخُلف بينهما وأن يحمل الحقد والحسد جماعة من الإشبيليين للإيقاع بابن عمار والسعادية والدس له، وتأويل كل عمل وكل كلام وكل حركة تصدر عنه تأويلاً ينطوي على الخبرة والحقيقة، وإظهاره دائمًا بالظاهر البشع الشنيع.

هؤلاء الحسدة الجبناء استولوا على لب المعتمد وعقله، وهم الذين يذكرون في شعره كثيراً، وينسب إليهم تغيير قلب مليكه عليه، ومن بينهم وزيره ابن الشاعر الكبير أبي الوليد بن زيدون الذي كان له أكبر نفوذ في القصر، والذي يرجع إليه السبب الأكبر في إيغار صدر المعتمد عليه، وإحاطته بكل أنواع الشكوك والريب من حين دخل مرسية بإذنه، وتمكن هذا من خلق أسباب القطيعة بينهما، وهناك خصم آخر ليس أقل من هذا خطراً، وهو ابن عبد العزيز ملك بلنسية وصديق ابن طاهر وقد كان ابن عمار على أثر دخوله مرسية يحاول أن يصطعن ابن طاهر صاحب مرسية المخلوع ويستميله إليه بكل أنواع الحفاوة والتكريم، وقد أرسل رسولًا عرض عليه كثيراً من الحل الفاخرة ليختار منها ما يروقه ويعجبه، وكان ابن طاهر - لحدة طبعه، ومزاجه الناري - قد هزل جسمه من جراء فقد ولائيته، فلما جاءه الرسول قال: «ارجع إلى سيدك ومولاك ابن عمار وقل له: إنني لا أقبل من هداياء سوى جبة الصوف الطويلة، والقلنسوة الصغيرة الحقيرة». وقد بلغته هذه الرسالة وهو بين خواصه وحاشيته، فسقط في يده، وأخذ يغضّ بنان الندم أسفًا وغمًا، وأدرك ابن عمار مغزى ما يقوله ابن طاهر وأنه يرمي بكلامه هذا إلى زيه المضحك المزري الذي كان يلبسه أيام بؤسه وخموله، وأيام أن كان ينشد أشعاره يبغى بها التكسب، وقد أسرّها ابن عمار في نفسه ولم يغفرها له، وأصر على أن ينتقم لنفسه من هذه الضربة الأليمة التي ثلمت شرفه، وخفضت من غلوائه، وغضت من زهوه، وقد أحفظته هذه الجرأة من ابن طاهر وتحولت نوایاه من جهته، وأمر به فسجن في قلعة «منتاجو».

وأخذ ابن عبد العزيز يراسل المعتمد في شأن ابن طاهر وإخراجه من السجن، فقبل رجاءه، وبعث إلى وزيره الأكبر في إطلاق سراحه، فأهمل ابن عمار أمر المعتمد وأبى أن يفك اعتقاله، وساعد ابن عبد العزيز على إخراجه من السجن، وتمكن من الفرار، ومضى إلى بلنسية ليقيم بها في حماية ابن عبد العزيز، فغاظ ذلك ابن عمار وغمّه ونظم في هذه

المناسبة شعرًا يحرض فيه أهل بلنسية على الثورة والخلاف على ملوكهم ابن عبد العزيز ويحثهم فيه على خلع نيره، والاستعاضة عنه بملك آخر، أي ملك كان يرفع عنهم ما نزل بهم من حيف، وحل بهم من ظلم، وظل يهجوه فيه هجوًا مقدعًا، ويرمي حرمه بأشنع السباب، وأفطع القذف، ويغريهم في آخر القصيدة بهدم قصوربني عبد العزيز وسلب أموالهم وكنوزهم، وترك خرائطها آثارًا ناطقة بخزي الدهر، وعار الأبد.

واتصلت هذه الأشعار بالمعتمد فضاعفت حنقه عليه، وحفرته لأن ينظم في ابن عمار شعرًا هازئًا صاحبًا يذكر فيه أوليته، ويقارن بين حاله في أيام بؤسه وحمله، وحاله الآن وقد وصل إلى درجة ينزع فيها ولـي نعمته السلطان، وسر بنو عبد العزيز بهذه القصيدة سرورًا لا يقدر، أما ابن عمار فاغتم بذلك غمًا شديداً، وبدأ من فوره ينظم شعرًا ينافق فيه شعر المعتمد حشاـ بالهـجـاءـ والمـثـالـ وـعـرـضـ فيـهـ لـشـأـنـ المـعـتـمـدـ معـ اـعـتـمـادـ وـقـذـفـ زـوـجـاتـهـ، وـكـشـفـ عـنـ عـيـوبـهـ وـفـضـائـهـ، وـلـمـ يـطـلـعـ أـحـدـاـ عـلـىـ هـذـهـ القـصـيـدـةـ التـيـ نـظـمـهـاـ وـهـوـ فيـ ثـوـرـةـ غـضـبـهـ سـوـىـ نـفـرـ مـنـ أـصـدـقـائـهـ الـذـيـنـ يـثـقـ بـهـ وـمـنـ بـيـنـهـمـ يـهـوـديـ يـتـجـسـسـ لـابـنـ عـبـدـ عـزـيـزـ كـانـ يـثـقـ بـهـ أـيـضـاـ، وـلـمـ يـكـنـ مـتـهـمـاـ عـنـهـ.

وقد حصل اليهودي بأيسر كلفة وأقل عناء على نسخة من القصيدة مكتوبة بنفس خط ابن عمار وقدمها للأمير صاحب بلنسية وهذا كتب في الحال كتاباً إلى المعتمد من طيه القصيدة، وأرسله إليه بواسطة الحمام الراجل.

ومن هذه اللحظة التي اطلع فيها المعتمد على الرسالة والقصيدة أصبح التوفيق بينهما أمراً مستحيلًا، فلا المعتمد ولا اعتماد ولا بنوهما في مكتنـهم جميـعاً أـنـ يـغـتـرـفـواـ لـابـنـ عـمـارـ هـذـهـ السـقـطـةـ التـيـ كـبـاـ فـيـهاـ كـبـوـةـ لـاـ قـيـامـ لـهـ بـعـدـهـاـ، وـعـثـرـ عـثـرـةـ لـاـ يـقـيـلـهـ مـنـهـ أـحـدـ، وـمـنـ ذـاـ الـذـيـ يـسـتـطـيـعـ أـنـ يـمـحـوـ عـارـ ذـلـكـ السـبـابـ الـجـارـ، وـالـعـهـرـ الـفـاحـشـ، وـقـدـ حـانـ حـينـ اـبـنـ عـمـارـ وـجـاءـ وـقـتـ الـاقـتـصـاصـ مـنـهـ، وـلـيـسـ الـمـعـتـمـدـ هـوـ الـذـيـ يـبـاـشـرـ الـاقـتـصـاصـ مـنـهـ بـنـفـسـهـ، بلـ هـنـاكـ آـخـرـونـ قـدـ تـعـهـدـواـ لـهـ بـذـلـكـ وـهـمـ لـهـ بـالـرـصـادـ.

وانصرف ابن عمار إلى مباحثه ولذاته، ولم يكن ليكتثر للأمر أو يفطن لما يدور حوله، أو يقدر في حسابه أن ابن رشيق سينقلب له ظهر المجن، ويخونه بمساعدة خصمه العنيف ملك بلنسية وقد ثاب إلى رشده وفطن للأمر، ولكن بعد أن فاتت الفرصة، ومضى الوقت، فلم يشعر إلا والجند - بتحريض ابن رشيق - جاءوا في حال هياج وثورة وصخب مطالبين بأعطياتهم المتأخرة، ولم يكن في استطاعة ابن عمار في هذا الظرف أن

يشبع نهمتهم، أو يجيبهم إلى ما طلبوه، فتوعدوه بتسليمه إلى المعتمد إذا هو عجز عن الوفاء لهم بما يطلبون، وهنا عرته رجفة، وأيقن بالهلاك، ولم ير بدأً أمام هذا التهديد والوعيد إلا أن يفلت من أيديهم، ويسارع إلى اللياذ بالفرار.

والتجأ — بعد فراره — إلى الأذفونش ليحتمي به، وليجد منه عوناً على فتح بلنسية وقد ظهر له أنه كان واهماً فيما قدره، بعد أن خيب الأذفونش أمله، وجعل كلامه دبر أذنه، وبان له أن ميله إلى جانب ابن رشيق كان لقاء الأموال والهدايا التي قدّمها له، وقد كاشفه الأذفونش بقوله: «أنا لا أرى فيكم إلا أنكم جماعة لصوص، فاللص الأول قد سرق، وجاء الثاني فسرق من الأول ما سرقه، وجاء الثالث فسلب من الثاني ما سرقه من الأول.»

لم ير ابن عمار أن أمله يتحقق في ليون فتحول إلى سرقسطة وهناك اتصل بخدمة أصحابها المقدّر ولكنه لم ير في قصره — من الروعة وأبهة الملك — ما كان يراه في قصر إشباعية فأنف من البقاء هناك، وزهد في عمل يغضّ من مركزه السياسي، ويحط من قيمته الاجتماعية، فمضى إلى «لاردة» حيث يقوم على الحكم المظفر شقيق المقدّر فقوبل بحفاوة بالغة، ثم بدا له أنه سيكون في «لاردة» أكثر عزلة وانقطاعاً عن العالم الخارجي، فعاد إلى سرقسطة حيث خلف المؤمنن أباه المقدّر على عرش المملكة.

هذا الاضطراب والتقلّل أورث ابن عمار كثيراً من الملل والساقة، وجعله يشعر بالفشل، وخيبة الأمل، وتركه ينظر إلى حاضره ومستقبله، وقد جلّه سوء الطالع بسحابة سوداء مظلمة، فكان يتلمس — في تضاعيف هذه الأوقات المنكودة، والساعات المنحوسة — لحظة مريحة يطرد بها عن نفسه الفتور والألم، ويزايل فيها الكسل والملل، وعرف أن أحد أصحاب الحصون امتنع في حصنه، وتمرد على المؤمن فطلب منه أن يعهد إليه في إخضاعه وقهره فخرج في سرية قليلة من الفرسان، ووصل إلى الحصن، وكان منيغاً لقيمه على قمة جبل، فراسل صاحب الحصن، ورجاه أن يسمح له بدخول الحصن هو ورجلان من خدمه، ولم يشك صاحب الحصن في حسن نيته، ولم يسأله به الظن، وكان ابن عمار قد أوزع إلى تابعيه أنهما إذا عاينا صاحب القصر يصافحه ويماشيه جنباً لجنب، سارعاً إليه فأغمدا في صدره سيفيهما، وتمت الحيلة وقتل صاحب القصر، وسلم الجناة من إلقاء التبعة عليهم، وسر المؤمن من ذلك سروراً لا يقدر، وأراد ابن عمار

أن يضيف إلى هذه الفتكة فتكة أخرى، يجدد فيها حمى نشاطه السياسي، فظن أنه بنفس هذا الأسلوب الوحشي المنطوي على الختل والغدر يكفل للمؤتمن أن يستولي على «شقرة».

وكانت هذه القلعة أشد مناعة من سابقتها، لقيامها على قمة جبل يتعدّر تسلقه، ولناعتها، وتوعّر طريق الوصول إليها، احتفظت باستقلالها، بينما نرى المقدّر قد استولى على دانية التي امتلكها سراج الدولة رداً من الزمن، ولما قضى نحبه أراد بنو سهيل وهم الأوصياء على بنيه، أن يساوموا في «شقرة» ويعطّوها لبعض الملوك المجاورين، فعهد ابن عمار إلى المؤتمن أن يستخلصها له بنفس الطريقة التي استخلص بها الحصن المتقدّم، ولتنفيذ هذه الخطة الخطرة سار هو وثلاثة من الجند إلى بنى سهيل، وطلب منهم أن يسمحوا بمقابلته، ولكن عوضاً عن أن يوقعهم في الشرك الذي نصبه لهم، فقد قدر له أن يقع هو نفسه في ذلك الشرك، وذلك لأن أولئك النفر من أساء إليهم ابن عمار في مرسية وناصبهم وقّومهم العداء.

وطريق الوصول إلى هذا الحصن المنبع كان كثير الوعورة والتعرج، وإذا بلغه أحد فلا بد أن يستعين على الوصول إليه، والاستقرار في داخله بقوّة ساديّه، وقد وصل ابن عامر وشريكاه في المغامرة الأولى إلى ذلك المكان الرهيب الخطر، وفي أقل من ارتداد الطرف جذبوا إلى أعلى الحصن، وما كادت تستقر قدماه على الأرض حتى أحاط به الجن، وصاحوا بزميليه أن يجدا في الهرب، وإلا قتلّهما الرماة بالسهم، فانحدرا مسرعين، وطقوفا يعودان حتى أتيا سرقة سطة وأبلغا الجند أن ابن عمار وقع أسيّراً، فركبوا يبغون نجاته، ولكنهم وجدوا المكان صعب المرتّقى، ورأوا الحصن أمنّ من عقاب الجو، فعادوا من حيث أتوا، بعد أن أيقنوا أنه لا سبييل إلى نجاته وإنقاذه من مخالب أعدائه بنى سهيل الذين اعتقلوه في الحصن، وأودعوه في غيابات سجن لا خلاص له منه، وبقي على سوم الشراء لديهم حتى يبذل في فك اعتقاله من ملوك وقته من يدفع أغلى ثمن، وكان المعتمد هو الذي غالى في دفع ثمنه، وتمت له الصفقة فيه، فأرسل ابنه الراضي في جماعة من الحرّس لأخذة من صاحب «شقرة» وأمرهم أن يبالغوا في الاحتياط حتى لا يفلت من أيديهم، وجاءوا به إلى قرطبة أسيّراً، ودخلها الوزير التّاعس مكبلاً بالسلسل والأغلال حاسراً الرأس منزوع العمامة، وقد أركبوا بغلّاً بين عدلي تبن، وبعد أن طافوا به في أنحاء المدينة على هذه الحال من التعasse والسخرية، أدخلوه القصر حيث مثل بين يدي المعتمد فانهال عليه لوماً وتقرّيغاً، وإقداعاً وسبّاً، وأخذ يعدد أياديّه عليه، ويحصي

عليه جرائمه وهو مطرق الرأس، لا ينبع ببنت شفة، إلى أن فرغ المعتمد من كلامه، فكان من جواب ابن عمار أن قال: «لا أنكر شيئاً مما يقوله مولاي، ولو أنكرته لشهدت عليًّا به الجمادات، فضلاً عن ينطق، ولكن عشرت فأقل، وزلت فاصفح.»
قال المعتمد: «هيهات! إنها عشرة لا تقال، وزلة لا تُمحى.»

وجعل نساء القصر يعيثن به، ويرميته بكل لفظ شائن، وسباب جارح، وإنما نلن منه بسبب تلك القصيدة التي هجا بها اعتماد وغيرها من أمراء القصر، ثم أمر به فاحضر إلى إشبيلية بين هزء الجمهور وسبابهم وسخريتهم ولعناتهم، وجعل في غرفة على باب قصر المعتمد المعروف «بالمبارك» طال فيه حبسه واعتقاله، ومع كل هذا فقد مرت عليه ظروف كان يؤمل فيها أن ينال عفو المعتمد والراشد ابنه هو الذي كان يفتح أمامه طريق الأمل، وقد رق له هذا الأمير وعطف عليه لكتة ما كان يبعشه إليه من قصائد يحشوها بالتنصل والاعتذار، وكثيراً ما كانت ترد الرسائل إلى المعتمد من الراشد وغيره من رجال الدولة في طلب العفو عنه، وهو الذي كان يحفزهم بما كان يكتبه إليهم وهو في سجنه، إلى أن ثقل على المعتمد كثرة ما يرد عليه من الرسائل، فأمر أن يمنع عنه ما يتمنى به من الكتابة، وقد أعطي — بأمر المعتمد — ورقتين كان طلبهما، كتب في إحداهما قصيده المشهورة التي يتولى بها إليه، وقد رفعت إليه في المساء عقب الانتهاء من وليمة، ولما أنشدت بين يديه أدركته عليه رقة، فأمر به فأتى به إليه ليلًا وهو في بعض مجالس أنسه، فجاء يرسف في قيوده، فجعل يعدد عليه منه ويعيب عليه من جديد إنكار الجميل، وجودن النعمة، فما كان جوابه إلا البكاء، وهملان الدموع، واجتلابه كل ألفاظ الرقة، وكل ما يمكن أن يزرع في قلب المعتمد الرأفة والحنان، فما زال به يستعطفه حتى عطفه عليه سابقته، وما كان بينهما من قديم الصدقة والصحبة، وخطابه بكلام يدل على الصفح تلوياً، ولا يدل عليه تصريحاً، فاطمأن بعض الشيء، ولم يدر أنه كان مخدوعاً في شعور المعتمد نحوه، فهو وإن كان محتفظاً ببعض الذكريات القديمة التي تعطفه عليه، وتجعله يرثي لحاله إلا أن هناك مسافة بعيدة بين ما هو ميل وعطف، وبين ما هو عفو وصفح، وقوى عنده الظن خطأ في أن الحظ سيواتيه، وأن السعادة ستعاوده، ولم يستطع أن يكتم سروره، فبعث بكتاب إلى الراضي يخبره فيه أن المعتمد قد وعده بالخلاص.

وكان بحضوره الراضي — حين وصل إليه الكتاب — قوم يكرهون ابن عمار ويضمرون له الشر، وسرعان ما ذاع الخبر في المدينة، وعرفه ابن عيسى وابن زيدون من وزراء المعتمد وكثير المرجفون وابن زيدون واجم مشرد الفكر، قد بات ليلته تلك ضيق الصدر، يخشى أن يتحقق الخبر، فتسقط منزلته ويكون لابن عمار محل الأول من الاعتبار، لا بل هو الموت عنده، وفي صباح ليلته هذه لم يستطع أن يذهب إلى القصر كعادته في الوقت المحدد، إلى أن أرسل إليه المعتمد فدخل القصر، واستقبل أحسن استقبال، فسرى عنه حين علم أن المعتمد لا يزال ناقماً على ابن عمار وأن موقفه بإزائه لم يتغير، وقد كثر الإرجاف، وتواتت الإشاعات حول ما دار بين المعتمد وابن عمار ونشروه في المدينة أقبح نشر، وعلقوا عليه بزيادات قبيحة أحفظت المعتمد، فأرسل لابن عمار، وقال له: «هل أخبرت أحداً بما كان بيئي وبينك البارحة؟»

فأنكر ابن عمار كل الإنكار، فقال المعتمد لأحد خصيانه: اذهب إليه، وقل له: «الحديث الذي دار بيئي وبينك أمس كان بيننا سراً مكتتماً، فما الذي أذاعه في الخارج؟» فذهب إليه الخصي وعاد يقول: «يصر ابن عمار على إنكاره، ويقول إنه لم يقل لأحد شيئاً»، فقال المعتمد: عد إليه، وقل له: «الورقتان اللتان طلبتهما أمس كتبت في إدحاماها القصيدة، فماذا صنعت بال الأخرى؟»

فعاد الخصي وقال: «يقول: إنه سوَّد فيها القصيدة».
فقال المعتمد: «عليَّ بالمسودة إذن!»

وهنا لم يستطع ابن عمار أن يتمادي في إنكاره، بل قال بصوت متهدج تخنقه العبرة: «الورقة الأخرى كتبت فيها إلى مولاي الراضي أذكر له فيها ما وعدني به مولانا الملك من الإفراج عنِي».

وعلى أثر هذا الاعتراف الرهيب غلا الدم في عروق المعتمد، وقام مغضباً، وصعد إليه وببيده أداة قاتلة من آلات الحرب كان أهدافها له الأذفونش فلما عاينه ابن عمار على هذه الحال من الغضب والثورة العصبية أيقن أنه لا شك قاتله، فزحف وقيوده تثقله إلى أن ارتمى على قدمي المعتمد يقبلهما، ويبالهما بدموعه.

ولم تكن الشفقة لتعرف إلى قلبه سبيلاً، فعلاه بالسلاح في يده، ولم يزل يضربه حتى برد.

هذه هي الفاجعة الأليمة التي ختمت بها حياة ابن عمار وقد أثرت هذه الكائنة
المحزنة أثراها في إسبانيا العربية.
ولم تطل مدة المعتمد بعده، فإن الحوادث الخطيرة التي وقعت في طليطلة
والانتصارات المتواترة التي أحرزتها جيوش القشتاليين حولت دفة السياسة إلى مجرى
آخر.^٢

الفصل الثاني عشر

اعترض الأذفونش السادس ملك ليون وقشتالة و«غاليسيا» و«نافار» عزماً قاطعاً لا تردد فيه أن يفتح شبه الجزيرة، وقد كان من القوة وخصومه من الضعف بحيث يستطيع إتمام ما اعتبرمه من ذلك، ولم يتعجل الفتح بل أثر الانتظار، ريثما يجمع من الإتاوات والجزى التي كان يفرضها على ملوك الأندلس أموالاً كثيرة يدخلها عنده لتكون عدة للحرب، ووسيلة لإدراك أطماعه الكثيرة التي توجهت إليها أنظاره.

وعلى هذا أراد أولاً أن يضع الملوك المسلمين تحت الآلة العاصرة، ولم يكن همه أن يعتصر بهذه الآلة شراب التفاح والنبيذ، بل أراد أن يأخذ من عصارة أولئك الملوك بعد سحقهم سائل الفضة والذهب.

وربما كان أضعف الملوك الذين كانوا يؤدون له الجزية «القادر» ملك طليطلة فقد أضر بهذا الملك ترف الحياة، ونعميم القصر حتى أصبح أعبوة الخصيán، وأضحوكة الجيران الذين كان ينافس الواحد منهم الآخر في سلبه وتجريده، والأذفونش وحده هو الذي كان يظهر بمظاهر من يحميه ويدافع عنه.

ولفداحة ما كان يرهاق به رعيته من الظلم والمغارم لم يسلس له قيادهم، فلجأ إلى الأذفونش يشكون إليه أنه لا يستطيع أن يملك زمامهم، فوعده أن يبعث إليه بجنود لتأييده وحمايته مقابل مبلغ طائل من المال، وأراد القادر أن يجمع هذا المال من كبار رجال المملكة فدعاهم لهذا الغرض وكاشفهم بالأمر، فأبوا أن يعطوه شيئاً، فأقسم لتدفعن المال، أو لذكرهن غداً على دفع أبنائكم رهائن عند الأذفونش فأجابوه: «إننا حينئذ نخلعك قبل أن تتمكن من ذلك».

وسلم الطليطليون من ذلك الحين قيادهم للمتوكل ملك بطليوس واضطرب القادر للهرب ليلاً، والتجأ من جديد إلى الأذفونش يخطب وده، ويطلب مساعدته، فاتفق معه

على أن يذهب لحصار طليطلة ويعيد إليه ملكه، ووُجِدَ أن ما حمله إليه من المال قليل، فلم يقبله، واشترط أن يعطيه بعض الحصون، ثم يطالبه فيما بعد بأزيد من هذا القدر الذي معه، فالترم القادر بكل هذه الأشياء، وبدأت الحرب سنة (١٠٨٠) ودامست سنتين، وبعث الإمبراطور كعادته رسلاه إلى المعتمد يطالبه بدفع الجزية السنوية، وكانت البعثة مؤلفة من جماعة من الفرسان عهد إلى يهودي من بين الجماعة اسمه ابن شبيب بالسفارة بينه وبين المعتمد؛ وذلك لأن اليهود لذلك العهد كانوا وسطاء بين المسلمين والنصارى، وضررت البعثة خيامها بظاهر المدينة، وأرسل المعتمد رسلاه إلىهم وعلى رأسهم ذو الوزارتين أبو بكر بن زيدون يحمل الإتاوة المطلوبة، وكانت أقل مما يجب دفعه، لسوء الحالة في ذلك الوقت على الرغم من أن المعتمد قد فرض على رعيته لسداد المبلغ ضرائب فوق العادة، فلم يقبل اليهودي ما دفعه إليه الوزير، وقال له: «أتراني من البلاهة والغباء بحيث أقبل هذه النقود الزائفة؟ إني لا أتسلم دون المبلغ المطلوب، ولا أتسلمه إلا ذهباً عيناً، وسيكون المدفوع في العام المقبل حصوناً ومدناً لا مالاً زائفاً».

وأتصل بالمعتمد ما فاه به اليهودي أمام سفرائه، وكبار رجاله، فاستشاط غضباً وأمر أن يحمل وصحبه إلى القصر، وما حصلوا عنده حتى أمر بالرسل من النصارى فأودعهم السجن، وباليهودي أن يُصلب، فارتعدت فرائص اليهودي الذي كان قبل برهة يتنهى على المعتمد ورجاله صلفاً وكبراً، وقال: «عفواً يا مولاي! إني أفتدي حياتي منك بوزن جسمي ذهباً».

فقال المعتمد: «والله لو جئتنني بإسبانيا كلها على أن تفتدي نفسك ما قبلت منك فداء».

وهكذا تم صلب اليهودي.

وبلغ الأذفونش ما حل بفرسانه، فأقسم بإلهه وبأرواح القديسين لينتقم من لهم من عدوه انتقاماً مروعاً، وليغزونه في إشبيلية وليحصرنه في عقر داره، وكان الإسبانيون لهذا العهد قد اهتبوا الغرة بما كان من تفرق كلمة المسلمين فتكلبوا عليهم واستولوا على حصونهم، وسار الأذفونش بجيشه يفتح المعاقل ويحرب القرى حتى بلغ فرضة المجاز من طريف على جبل طارق، وضرب على ملوك الطوائف أنواع الجزى، وفي مقدمتهم المعتمد كان يؤديها له — وهو صاغر — إلى أن طلب منه المعتمد في كل سنة على يد أولئك الفرسان ومعهم وزيره اليهودي، فصلب المعتمد اليهودي منكساً، وأودع أولئك الفرسان

في غيابات السجن، ولم يكن الأذفونش ليترك فرسانه القشتاليين وهم زهاء الخمسين، يعذبون في السجن على حساب خطئهم، دون أن يعمل على خلاصهم، ويسلطون في طلب الإفراج عنهم خوفاً على حياتهم، فأرسل إلى المعتمد في ذلك، فاشترط أن يرد إليه حصن المدور في نظير إطلاق سراحهم، فقبل الشرط ورد الحصن إليه، وأطلقهم، وما عاد جماعة الفرسان المسيحيين حتى قام الأذفونش بتنفيذ وعده، وإمضاء تهديده، وسار في طريقه لحصار إشبيلية فغنم وأحرق القرى، وقتل وأسر من المسلمين من لم يتسع لهم الوقت للالتجاء إلى الحصون المنيعة، وحاصر إشبيلية ثلاثة أيام، وخرب إقليم شذونة وما زال يزحف بجيشه حتى وطى الرمال وبلغ طريف ومس بحافر فرسه أمواج البحر وهو يقول: «نحن الآن في أرض المجاز وبها قد وصلنا إلى آخر حدود إسبانيا».

وير بقسمه، وأرضي طماعيته، ووجه بجيشه إلى طليطلة مقر مملكة القادر وتسليمها منه، وكان اتفق معه على أن يظاهره على أهل بلنسية، فاضطرر الم kuk أن يفر من وجه القادر ويتخلى له على بلنسية، ففتح أهلها أبوابها له على الرغم منهم عام (١٠٨٤) فجمع منهم أموالاً طائلة، وقدمها للأذفونش فلم يرضاها الإمبراطور، وقال له بفتور وامتعاض: «هذا لا يكفي».

فأضاف إليها فوق ذلك ما ورثه من الكنوز والنفائس عن أبيه وجده، فقال أيضاً: «هذا لا يكفي». فرجاه أن يعطيه مهلة ريثما يجمع له ما يكفيه من المال، فقال له الأذفونش: «كلا حتى تعطيني حصوناً أخرى أرتهنها خصمان لما هو مطلوب». وهكذا سلم القادر في كل ما يملك، وأضاع طارفه وتلديه، ومزق ثروته وميراثه، وبدد حصونه حصناً حصناً، وذهب ديناراً ديناراً، وهو مستسلم مرغم، وإلا فماذا عساه أن يصنع؟ إن سيف الأذفونش المصلت يتهدده بالقتل، وأقل حركة تبدىء منه تدل على عدم الطاعة والإذعان يجعله يهوي به على رأسه، فلم ير بدأ من أن يستنزف أموال الرعية، ويرهقها بأنواع المظالم والمغارم ويؤتي على الثمالة الباقية في أيديها، ورأى أهل بلنسية أنه لا قبل لهم بسد هذه المغارم الفادحة، ففروا من وجه هذا الظلم الصارخ زرافات ووحدان، وهاجروا إلى أرض سرقسطة وكان موقف القادر أمامه شاداً وغريباً، فإنه كلما حمل إليه قدرًا من المال ظناً منه أن ذلك يجدي في مرضاته، كان ذلك سبباً في تزايد طلباته الملحقة، إلى أن نضب معين المال، ولم يجد ما يقدمه إليه، وأقسم له أن ليس قبله شيء، فقام من فوره، وخرب بسيط المدينة وما حولها، كل هذا والقادر متعلق بعرشه بعد أن نخر في قوائمه السوس، وتداعى للانحلال والسقوط، ولكنه عدل في النهاية عن هذا التعلق الكاذب.

وحدث مرة أن حضر الأذفونش وكان هو في استقباله، فصرح له بأنه مضطر أن يتخلّى
له عن طليطلة وأنه متّازل عن العرش، فوضع الأذفونش الشروط التالية:

- يتولى الإمبراطور حفظ حياة الطليطليين وحراسة الملكة، وللسكان حرية البقاء
أو الهجرة إلى أي جهة شاءوا.
- لا يطالبهم إلا بدفع الجزية المفروضة عليهم بشرط أن يعطواها مقدماً.
- يترك لهم القيام على شئون المسجد.
- يتعهد للقادر بأن يكون ملّاكاً على بلنسية.

وتم الاتفاق على هذه الشروط، وقبلها الإمبراطور، وفي يوم ٢٥ مايو سنة (١٠٨٥) دخل عاصمة مملكة القوط القديمة،^١ ومن ذلك الحين بلغ في الأبهة والعظمة والكبراء مبلغاً كان يقابله من الناحية الأخرى اتضاع ملوك المسلمين واستكانتهم إذ لم يبقَ منهم أحد إلا بادر ببأيfad الوفود إليه يهنتونه ويحملون إليه الطرف والهدايا، وصرحوا له بأنهم يكونون داخل حدود سلطانه كجباة للأموال لتحصيل الضرائب ودفع الجزى، وكان الأذفونش — وهو ملك الديانتين الإسلامية والنصرانية — لا يعيّهم أدنى اهتمام لهوانهم عليه، حتى لقد كان يعلن الاستهانة بهم، ولا يخفى احتقاره لهم، ومن ذلك أن حسام الدولة ملك البرزاليين وفدى عليه ليقدم إليه بنفسه هدية فاخرة، وصادف في اللحظة التي دخل عليه فيها أن كان أمّامه قرد يرقصه رائضه لتسليته بتتنزّته وألاعيبه، فقال له الأذفونش بلهجة هي غاية في الزرارة عليه والساخرية منه: «دونك هذا القرد فخذه من هديتك عوضاً». وكان الأمير المسلم بعيداً عن الإحساس بهذه الإهانة، ورأى في القرد لهذه المناسبة ذريعة إلى اكتساب الصدقة، ودليلاً على أن الأذفونش لا يريد أخذ بلاده.

وبعد طليطلة جاء دور بلنسية وكان ابنا عبد العزيز^٢ يتّنزع عان الملك، وكل منهما له شيعة وأنصار، وهناك فريق ثالث كان يعمل على إعطاء بلنسية ملك سرقسطة، وفريق رابع يريد أن تعطى للقادر، وكان الفوز حليف الفريق الأخير دون هؤلاء جميعاً، ولم يكن القادر حائراً على الصفات المطلوبة، وكان خلفه جيش قشتالي بقيادة أحد رجال الأذفونش لا يعوزه إلا أن يقوم أهل بلنسية بتقديم الطعام لجنوده، مما يكلفهم في اليوم الواحد ست مئة قطعة ذهبية نقداً، وحاولوا عبثاً أن يقنعوا القادر بأنه ليس في حاجة إلى هذا الجيش ما داموا يشدون أزره ويقومون بنصرته بكل أمانة.

ولكن القادر لم يكن من السذاجة بحيث يثبت بهذه الوعود، وهو يعلم أنهم يمقتونه ويبغضونه، وأن الأحزاب القديمة لم تنس بعد أمانتها، ولهذا عول على إبقاء الجيش القشتالي، ولكي يقوم ب توفير نفقات هذا الجيش أثقل كاهل المدينة، والقسم الذي تقع فيه بضربية فوق العادة، وأخذ من النبلاء والعلماء مبالغ طائلة، وعلى الرغم من أعمال الاضطهاد والإهانة الفظيعة جاءه قائد الجيش القشتالي، وطالبه — تحت تأثير ضغط شديد — أن يعطيه المتأخر من أعطيات الجند، ولم يكن في استطاعته أن يقوم بتحقيق هذا الطلب، فاقتصر حينئذ أن يظل القشتاليون مقيدين داخل حدود المملكة في بسيط من الأرض يقطعه لهم، فقبلوا ذلك، وأخذوا يزرون ما أقطعه لهم من هذه الأراضي الواسعة بواسطة العبيد، ثم دأبوا بعد ذلك على الغارة على البلاد المجاورة، واكتفوا بالغزو والسلب عن الزراعة واستنبات الأرض، وازداد عدد جنودهم بمن انضم إليهم من شذاذ العرب وحثالتهم، وibمن انضوى تحت لوائهم من جماعات الأرقاء والفسدة، ومعتادي الإجرام، وارتدى الكثيرون منهم عن دينه، واعتنقوا الدين المسيحي، ولم يمض على هذه العصابات وقت طويل حتى اشتهرت بالفظاعة والقسوة شهرة تبعث على الأسف والحزن، فمن فظاعة هذه العصابات أنهم كانوا يقتلون الرجال، ويعتلون على أعراض النساء، وكثيراً ما كانوا يبيعون الأسير المسلم برغيف من الخبز، أو بجرعة من النبيذ، أو بشوأ من السمك، وكانوا يمثّلون بالأسيير الذي لا يستطيع أن يفتدي نفسه بمالاً تمثيلاً فظيعاً؛ فربما سلوا لسانه أو سملوا عينيه، أو أطلقوا عليه الكلاب الضاربة فمزقت جسمه.

وكانت بلنسية في الحقيقة تحت سلطان ونفوذ الأذفونش ولم يكن للقادر سوى أن يحمل لقب ملك، مع أن قسماً كثيراً من أرض المملكة كان ملكاً للقشتاليين، وكان ضم هذه المملكة إلى ممالكه رهن كلمة واحدة ينطق بها فمه.

ويظهر أن سرقسطة أيضاً أصبحت على شفا التسلیم، فإن الإمبراطور حاصر هذه المدينة وأقسم ليستولين عليها.

وكان في الطرف الآخر من إسبانيا قائد من قواد الأذفونش اسمه «غرسيه» مقيم في حصن لا يبعد كثيراً عن «لورقة» وهو يواصل غاراته على مملكة المرية ولم يغفل غزو غرناطة أيضاً، بدليل زحف عسكر القشتاليين في ربيع عام (١٠٨٥) حتى أصبحوا على بعد ميل من شرقي غرناطة وقد أجروا معارك مع المسلمين هناك، وأيّاً كان ذلك فإن الخطر كان عظيماً، والبلاء كان محيقاً، والقوة المعنوية عند المسلمين كانت تلاشت وذهبت، ولا يمكن أن يتكافئوا مع المسيحيين حتى ولا بنسبة خمسة من المسلمين إلى

واحد منهم، ومن أمثلة ذلك أن كتيبة من عسکر المرية مؤلفة من أربع مئة جندي من صفوة الجند، ولوا الأدبار أمام ثمانين جندياً من جنود القشتاليين.

ومما لا ريب فيه أن عرب إسبانيا لو تركوا وشأنهم — مع ما وصلوا إليه من التفكك والضعف — لدار أمرهم بين أن يختاروا أحد أمرئين: إما الخضوع للإمبراطور خصوغاً يفقدون به كل شيء، وإما الهجرة من البلاد طوائف وجماعات، وكان الرأي السائد في الواقع الهجرة من البلاد فراراً بالشرف والعرض والدين، وقد حرض على ذلك كثير من شعرائهم ونظموا القصائد في حض الناس على معادرة البلاد وتحذيرهم أخطار البقاء، وما يعرضهم له من ال�لاك الذي لا يرضاه لنفسه عاقل حسيف.

وكانت الهجرة هي آخر حيلة يلجئون إليها بعد أن سُدّت في وجوههم أبواب الحيل. على أن يأسهم هذا لم يكن ثمة داع إليه، فقد كان هناك بصيص من نور الأمل في الخلاص من ظلمة الخيبة والفشل، وكشف هذه الغمة الحالكة، وكان في وسعهم أن يلتمسوا النجدة والغوث من إفريقيا، وقد فكروا في ذلك، ورأوا فيه الأمل الوحيد الباقي لنجاتهم على يد أولئك البواسل الشجعان ذوي الطباع السليمة والعزائم القوية التي لم يفسدها الخور والهوان.

على أنهم لم يكادوا يسمعون هذا الاقتراح حتى عارضوه، وخشوا عواقبه الوخيمة؛ لأنهم كانوا يعرفون من وحشية أولئك العرب ما ينسفهم بسالتهم وشجاعتهم، وقد خشوا أن يلتجئوا إلى سلب أموالهم ونهب دورهم قبل أن يفكروا في مناواة المسيحيين وقتالهم. وثمة عدلوا عن إنفاذ هذا الرأي الخاطئ، واتجه أملهم ورجاؤهم إلى المرابطين، وهم جماعة من ببر الصحراء الذين قاموا بتمثيل أول دور على مسرح هذه البلاد.

وقد كان أولئك المرابطون حديثي العهد بالإسلام، وقد بث فيهم الدعوة إلى هذا الدين الجديد أحد دعاء الإسلام وهو من سجلماسة فدانوا له وتحمسوا معه، ووهو بوا نفوسهم لطاعته، وأقبلوا على الجهاد فتمنت لهم الفتوحات في أسرع وقت، وأصبح ملوكهم الفسيح، في هذا العصر الذي نتحدث عنه يترامى من السنغال إلى بلاد الجزائر.

وكانت فكرة استدعائهم إلى إسبانيا تفتر عن ثغور البشر لا سيما لرجال الدين، أما الملوك والأمراء فكانوا على عكس ذلك، فقد ترددوا في هذا الأمر طويلاً، على أن القليل منهم مثل المعتمد والموكل كانوا قد دخلوا في مكابيات وعلاقات مع يوسف بن تاشفين ملك المرابطين، ورجواه غير مرة أن يساعدهما على مناواة المسيحيين، على أن ملوك الأندلس بلا استثناء، وفي ضمنهم المعتمد والموكل كانوا قليلاً الميل إلى دخول هؤلاء القساة القتلة

المتعصبين من سكان الصحراء جزيرتهم، وكانوا يرون في (ابن تاشفين) منافساً خطيراً أكثر منه عوناً وظهيراً.

وأصبح خطر النصرانية يتفاقم ويترافق يوماً عن يوم، وصار استدعاء المرابطين والالتجاء إلى هذه الوسيلة الوحيدة لدرء هذا الخطر المحدق بالجزيرة أمراً لا مناص منه، ولا مدعى عنه، فما المعتمد إلى هذا الرأي، وذهب إليه، بالرغم من أن ابنه الراشد أبان له ما هو مستهدف له من الخطر إذا هم شرکوه في بلاده وظاهروه على عدوه، فأراه أنه لا يجهل هذه الحقيقة، وقال له: أنا بقطع النظر عن أي أمر آخر لا أريد أن تتهمني الأجيال المقبلة بأنني تركت الأندلس غنية في أيدي الكفار، ولا أحب أن يُلعن اسمي على منابر المسلمين، ولو ترك لي الخيار لآثرت من كل قلبي أن أكون جمّالاً في بلاد إفريقية على أن أكون راعي خنادير في قشتالة.^٢

ولما أبرم خطته أفضى بها إلى جاريه المتوكل ملك بَطْلِيُوس وعبد الله ملك غرناطة، ورجاهما أن يُشْرِكاه في إإنفاذ هذا الاقتراح، وطلب منها أن يرسل قاضيهما إلى إشبيلية فأوفد المتوكل قاضي بطليوس أبا إسحاق بن مقانا، وأوفد عبد الله^٣ قاضي غرناطة أبا جعفر، وانضم إليهما ابن أدهم وانضم إلى هؤلاء جميعاً الوزير أبو بكر بن زيدون.

وأبحر هؤلاء جميعاً إلى بر العدوة، وذهبوا لمقاضة يوسف ودعوته على لسان ملوكهم للعبور إلى إسبانيا على رأس جيش، وكان عليهم أن يعرضوا عليه شروطاً، ويقطعوا عليه بذلك عهداً، إلا أن ذلك بقي عندنا مجهولاً، كما كان واجباً أن يعين المكان الذي سينزل فيه يوسف من البحر، فاقتصر أبو بكر أن يكون المكان الذي ينزل فيه بعسركه جبل طارق، وأثر يوسف أن يكون نزوله في الجزيرة الخضراء بعد أن يتخلى له عنها، ولم يرُّ في نظر وزير المعتمد هذا الطلب، الذي لم يكن مخولاً إليه حق الاتفاق عليه، وعلى أثر ذلك كان يوسف يعامل أولئك السفراء بفتور، فكان يراوغهم ويجيبهم أجوبة مبهمة، ولذلك عادوا إلى بلادهم وهم يجهلون تحديد المسائل التي وقع عليها الاتفاق واستقر عليها الرأي، فهو لم يقطع عهداً بالاتفاق على دخول إسبانيا، كما أنه لم يصرح بعدم الدخول.

وكذلك صار ملوك الأندلس يشكّون في نواياه، ويرتابون في مقاصده، وقد خرجن من هذا المشكّل بحالة تستنكرها دولهم، وتستنكفها رعاياهم، على أن ارتياهم في الأمر كان قائماً على أساس^٤.

وكان من عادة يوسف ألا يقدم على عمل إلا بعد مشورة الفقهاء ورجال الدين، فاستشارهم فيما يجب عمله، فأشاروا عليه أن يبدأ أولاً بقتل القشتاليين، وإن كان

يعوزه في هذا السبيل أن يخلوا له الجزيرة الخضراء، وإن أبوا أن يخلوها له كان له الحق في أخذها، ولما تزود للأمر بهذه الفتوى أمر عدة من جيشه بالإبحار من مدينة سبعة على بعض السفن، والعبور إلى الجزيرة وأن تكون مكتنفة بجيش كثيف من جنوده، ورسم أن تقدم المؤن وما يحتاج إليه الجيش من نفس المدينة، وكان الراضي حاكماً على الجزيرة، فوقع في حيرة وارتباك لا قبل له باحتمالها، لأن الحالة التي تواجهه الآن لم يكن يتوقعها، ولم يمتنع من تقديم ما يحتاجه جيش المرابطين من المؤن، ولكنه كان على استعداد ل الدفاع القوة بالقوة متى دعت الحال لذلك.

وعدا ذلك فقد كتب إلى والده رسالة ربطها في جناح حمام، وأطلقتها صوب إشبيلية وتربيص ريثما يتلقى منه الأوامر، فورد إليه جواب أبيه على جناح السرعة، وقد بَتَ في الأمر بلا تردد ولا إمهال، ورأى أنه مهما يكن مسلك يوسف جافاً ومثيراً، فإنه يشعر بأنه قد أمعن في المضي، حتى لا يستطيع أن ينكص على عقيبه، ولم يبق إلا أن تقابل هذه اللعبة السيئة الجريئة بمظاهر الارتياح والاطمئنان، وما هو إلا أن أصدر في الحال أمره إلى ولده بإخلاء الجزيرة والانسحاب إلى رندة.

وتلاحت الجنود بالجزيرة، ووصلها يوسف نفسه أخيراً، فعني أولاً بتحصين المدينة حتى صارت في حالة حسنة، وزودها بالمؤن والذخائر، وترك فيها حامية كافية، ثم سار في معظم جيشه إلى إشبيلية وجاء المعتمد لاستقباله تحفًّ به أعظم رجال مملكته، ولما تلاقيا، همَّ المعتمد أن يقبل يده فأبى وتعانقا عناقاً تجلت فيه كل عواطف الإخلاص والحب والسرور، بقاء العدو المشترك، ولم يغفل المعتمد العادات الملكية المتبعة في مثل هذه الظروف من تقديم هدايا فاخرة تليق بمقام ضيفه الكريم ورجال دولته، وقد تقبلها شاكراً مغتبطاً، ووزعها على جنوده المرابطين، ولم يخامره شك على أثر ما قدم إليه من سني الهدايا أن إسبانيا في الذروة، من تزايد الغنى، ووفر الثروة.

فوقف المكان على مقربة من إشبيلية وقد وفاهما هناك ابنا باديس عبد الملك ملك غرناطة وتميم ملك مالقة وانضما إلى المرابطين، وكان مع الأول ثلث مئة فارس، ومع ثانيهما مئتان، وأرسل المعتمد ملك المرية كتيبة من الفرسان، واعتذر عن مجبيه بنفسه لجواحة نصارى البدو له، وبعد مضي ثمانية أيام زحف الجيش عن طريق بطليوس حيث التقى بالمتوك وجبوشه، ثم زحفوا إلى طليطلة ولم يتقدموا قليلاً إلا وقد فاجأهم العدو.

وكان الأذفونش لا يزال محاصراً سرقسطة في ذلك الوقت الذي علم فيه بدخول المرابطين إسبانيا وقد خيل إليه أن ملك هذه المدينة المحاصرة يجهل حادث دخول

المرابطين إلى هذه البلاد، فبعث إليه يطلب منه أموالاً كثيرة ليرفع عنه الحصار، ولكن المستعين كان قد وقف على هذا النباء العظيم مثله، فلم يعطه درهماً واحداً.

ثم عاد الأذفونش إلى طليطلة بعد أن أرسل إلى إيقارو وإلى مساعديه الآخرين أن يجيئوا بجيوشهم لينضموا إلى جيشه، ولما تجمعت وحدات الجيش الذي كان به كثير من الفرسان الفرنسيين زحف، إذ كان يريد أن تدور رحى القتال في بلاد العدو، والتقي بالمرابطين وحلفائهم في مكان لا يبعد عن بطليوس واقع بالقرب من مكان يعرف عند المسلمين «بالزلقة» وعند المسيحيين باسم «سکر الياس».

ولم يكن قد انتهى من ضرب خيامه حتى وفاه كتاب من يوسف يدعوه فيه إلى إحدى خصال ثلاثة: إما الإسلام، أو الجزية، أو الحرب، فاستاء جد الاستياء من هذا الكتاب، وكلف أحد كتابه من العرب أن يرد عليه بكتاب يقول فيه: إني ما كنت أتوقع أن يصل الحد بال المسلمين الذين كانوا يعطونني الجزية منذ سنين مضت، وأن يعرضوا علي مثل هذه الاقتراحات الجارحة، ومع هذا فإن لدى جيشاً في استطاعته أن يُنزل العقوبة على هذه الوقاحة البالغة من الأعداء.

ولما وصل الكتاب اشتغل بالرد عليه أحد الكتاب الأندلسيين، ولما سمعه يوسف رأه مطولاً فاكتفى بأن يكتب في حاشية كتاب الإمبراطور هذه العبارة: «الذي يكون ستراه»، وبعث بهذا الرد إليه.^٦

ولم يبق بعد هذا إلا تحديد وقت المعركة، وبذلك كانت تمضي العادة في ذلك العهد، وقد ضربوا لها موعداً يوم الخميس ٢٢ أكتوبر سنة (١٠٨٦) ولكن الأذفونش أرسل في نفس اليوم إلى المسلمين يقول: «غداً الجمعة وهو يوم عيدهم، والأحد عيدهنا، فأقترح إذن أن تكون المعركة يوم الاثنين». فقبل يوسف هذا الاقتراح، ولكن المعتمد رأى فيه حيلة سياسية.

وكان الأندلسيون في مقدمة الجيش معرضين للهجمات الأولى، أما المرابطون فكانوا في المؤخرة تسترهم الجبال، فلم يكن بدًّ من أن تتخذ مقدمة الجيش الحبطة والحدر حتى لا يباغتها العدو، وأخذت طلائع المسلمين تترقب حركات العدو، وكانت الأفكار والخواطر في قلق وانزعاج، والمعتمد لا ينفك يشتير منجميه، وأصبح الوقت حرجاً ودنت الساعة الخامسة التي ستدور فيها رحى المعركة الفاصلة التي يتوقف على نتيجتها مستقبل إسبانيا، وكانت جيوش القشتاليين أوفر عدداً إذ كانت تتواءح – على ما يظن – بين خمسين إلى ستين ألفاً، بينما جيوش خصومهم المسلمين لا تعدو عشرين ألفاً.

ومع طلوع الفجر بدأت مخاوف المعتمد تتحقق، فقد أبلغه بعض طلائعه أن الجيش المسيحي يقترب، وعلى هذا يصبح مرکزه على شفا الخطر، ويستهدف جيشه لأن يتحقق قبل أن يقترب المرابطون من ساحة القتال، فبعث إلى يوسف يستحثه أن يتقدم بجيشه على عجل، أو أن يوافيه على الأقل بالمدد الكبير الكافي، وقد كان يوسف قد وضع خطة لا يستطيع التحول عنها، فلم يبادر إلى تلبية طلبه، وكان قليل الاهتمام بما يصيب الأندلسين، وقد صاح لهذه المناسبة قائلاً: «وماذا يهمني إذا كان نصيب هؤلاء جميعاً الهلاك، إنهم جميعاً أعداء».

ولم يسع الأندلسين إلا الفرار حيث وجدوا أنفسهم وحدهم، أما الإشبيليون، فقد كانوا – على غرار ملوكهم الذي جرح في وجهه ويده – مثلاً للشجاعة والبسالة والإقدام، فصمدوا للعدو، وقاوموا صدماته العنيفة، إلى أن وصلت لمساعدتهم نجدة من عسكر المرابطين، وحيثئذ صارت المعركة أقل توازناً، وقد دهش الإشبيليون أشد دهشة حين رأوا العدو يقاتل متقهراً؛ لأن المدد الذي وصل لم يكن من الكثرة بحيث يزهى على سائر الجيش بأن يكون صاحب الفضل في الانتصار على الأعداء، والحقيقة أن الفضل في تقهير الجيش لم يكن مجرد وصول المدد.

وإليك ما وقع: لما رأى يوسف أن الجيش القشتالي التهم بالأندلسين بدأ ينفذ خطة وضعها، وهي مباغته من الخلف، ولذلك لم يرسل إلى المعتمد إلا المدد القليل الكافي حتى لا يسحقه الأعداء، ثم وفق إلى تنفيذ هذه الخطة الحربية حين زحف بأكبر جزء من جيشه على معسكر الأذفونش وأجرى مذبحة هائلة في الجنود الموكلين بحراسة المعسكر، وأشعل النار فيه فاحتراق، وانقض على ظهر القشتاليين، وهو يحتوش أمامه الجنود الفارين.

وإذ قد وجد الأذفونش نفسه بين نارين، ورأى أن الجيش الذي باغته من الخلف، أضخم عديداً من الجيش الذي في مواجهته، اضطر أن يحول قوته الرئيسية إليه، وحمي وطيس المعركة، وكانت الحرب سجالاً بين الفريقين المتحاربين، وكان يوسف يجول على صهوة جواده بين صفوف المقاتلة من المسلمين، وهو يهيب بهم: «أن تشجعوا أيها المسلمين، أعداء الله أمامكم، والجنة تنتظركم، وطوبى لمن أحرز الشهادة».

وسرعان ما عاد الأندلسيون الفارون فظفموا صفوفهم، وأخذوا أمكتنهم من ميدان القتال لشد أزر المعتمد، ثم جرد يوسف حرسه الاحتياطي من السودان فحملوا على القشتاليين من ناحية أخرى حملة منكرة أتوا فيها بالعجبائب.

وتمكن زنجي من الدنو من الأذفونش وطعنه بخنجر في يده فجرحه في فخذه، وأقبل الليل، والفريقان المتحاربان يتنازعان المعركة التي حمى وطيسها، ثم كان النصر في النهاية حليف المسلمين، وكان الفريق الأعظم من المسيحيين ملقى في ميدان القتال بين قتيل وجريح، ولاذ الباقون بالفرار، وتمكن الأذفونش نفسه من الفرار مع كبير عناه يحيط به خمس مئة فارس من جنده (٥) أكتوبر سنة (١٠٨٦).

وكان يوسف معتزماً أن يتعقب الفارّين، ويزحف بجيشه إلى بلاد الأعداء ليجني ثمرات انتصاره، ولكنه عدل عن ذلك حين بلغه نبأ وفاة ابنه الأكبر، وعاد إلى إفريقية مع عامة الجند، وترك تحت إمرة المعتمد جيشاً من المرابطين مؤلفاً من ثلاثة آلاف جندي.

ملوك الطوائف وعواصمهم

إشبيلية (بنو عباد)

- أبو القاسم محمد بن إسماعيل (القاضي) (١٠٤٢-١٠٢٣)
- أبو عمرو عباد بن محمد: المعتصم (١٠٦٩-١٠٤٢)
- أبو القاسم محمد بن عباد: المعتمد (١٠٩١-١٠٦٩)

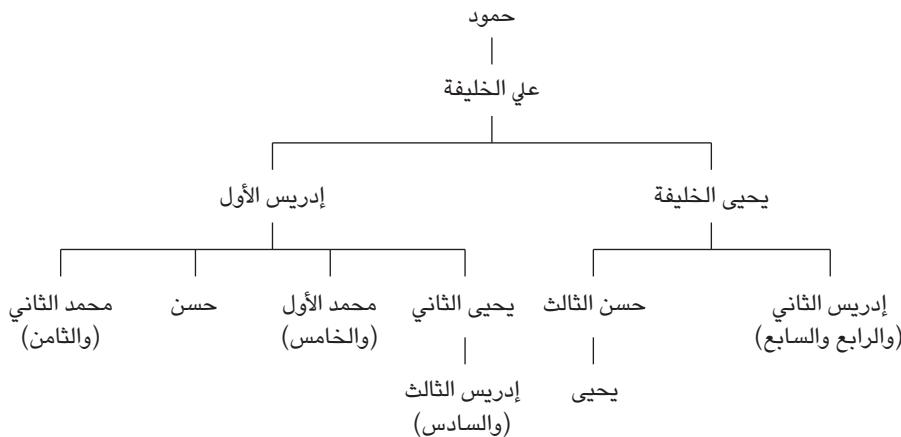
قرطبة (بنو جهور)

- أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور (١٠٣١) (ديسمبر-١٠٤٣)
- أبو الوليد محمد بن جهور (١٠٦٤-١٠٤٣)
- عبد الملك (١٠٧٠-١٠٦٤)

ثم ضمت قرطبة إلى حكم ملوك إشبيلية.

مالقة (بنو حمود)

- إدريس الأول (١٠٣٩-١٠٣٥)
- يحيى بن إدريس الأول (١٠٣٩)
- حسن بن الخليفة يحيى بن علي (١٠٤١-١٠٣٩)
- الصقلبي: نجاء (١٠٤٣-١٠٤١)



- إدريس الثاني (١٠٤٧-١٠٤٣)
- محمد الأول الابن الثاني لإدريس الأول (١٠٥٣-١٠٤٧)
- إدريس الثالث (١٠٥٣)
- إدريس الثاني (للمرة الثانية) (١٠٥٥-١٠٥٣)
- محمد الثاني (رابع أئمة إدريس الأول) (١٠٥٧-١٠٥٥)

ثم ضمت مالقة إلى مملكة غرناطة.

الجزيرة (بنو حمود)

- محمد بن الخليفة القاسم بن حمود (١٠٣٥-١٠٤٨)
- القاسم ابنه (١٠٤٨-١٠٥٨)

ثم ضمت «الجزيرة» إلى مملكة إشبيلية.

غرناطة (بنو زيري)

- زاوي بن زيري (حتى سنة ١٠١٩)
- حبوس (١٠٣٨-١٠١٩)
- باديس (١٠٧٣-١٠٣٨)
- عبد الله (١٠٩٠-١٠٧٣)

قرمونة (بنو برباز)

أسماء الملوك تبعاً لابن خلدون (عبدالج ٢ ص ٢١٦) هي كما يلي:

- إسحاق
- عبد الله ابنه
- محمد بن عبد الله (حتى سنة ١٠٤٢) ((٣))
- العزيز المستظاهر (١٠٤٢-١٠٦٧) (٣)

عن ابن حيان وابن بسام:

ابن عبد الله أبي محمد بن عبد الله، حكم قرمونة في العهد الذي كان فيه هشام الثالث متولياً قرطبة ١٠٣١-١٠٢٩ وعلى ما يقول المؤلف نفسه الذي كان أهلاً للثقة أكثر من ابن خلدون وكان خليفته محمد بن عبد الله.
ابنه إسحاق الذي حكم سنة ١٠٥٠.

ويظهر أن ابن الأبار «في أبحاثي ص ٢٨٦ الطبعة الأولى» قد أخطأ إذ قال:
إن محمد بن عبد الله، كان لا يزال حياً سنة ١٠٥١.

رُندة

- أبو نور بن أبي قرَّة (١٠١٤) (٥) (١٠٥٣-)
- أبو النصر (ولده) (١٠٥٣)

ثم ضمت «رُندة» إلى مملكة إشبيلية.

مورور

- نوح (١٠١٣) (٤) (٢) (١٠٤١)
- أبو مناد محمد وابنه (١٠٤١) (٢) (١٠٥٣)

ثم ضمت «مورو» إلى مملكة إشبيلية.

أركش

- ابن خزرون (حتى سنة ١٠٥٣)
- ثم ضمت أركش إلى مملكة إشبيلية.

ولبة

- أبو زيد محمد بن أبيوب (من سنة ١٠١١) (٢)
- أبو المصعب عبد العزيز (إلى سنة ١٠٥١)

ثم ضمت «ولبة» إلى مملكة إشبيلية.

نبلة

- أبو العباس أحمد بن يحيى اليعقوبي (١٠٢٣-١٠٤١) (٢)
 - محمد، شقيقه
 - فتح بن خلف بن يحيى بن أخي السابقين (حتى سنة ١٠٥١)
- ثم ضمت نبلة إلى مملكة إشبيلية.

«شلاب» (بني مزین)

- أبو بكر بن سعيد بن مزین (١٠٢٨-١٠٥٠)

• أبو الاصباغ عيسى (إلى سنة ١٠٥١ (٢))

وقد ضمت «شعب» إلى مملكة إشبيلية.

شنتمرية

• أبو عثمان سعيد بن هارون (١٠١٦-١٠٤٣)

• محمد (ولده) (١٠٤٣-١٠٥٢)

ثم ضمت شنتمرية إلى مملكة إشبيلية.

مرتلة

• ابن طيفور (إلى سنة ١٠٤٤)

ثم ضمت مرتلة إلى مملكة إشبيلية.

بَطْلِيُوس

• سابور

وبعدها بنو الأفطس:

• أبو محمد عبد الله بن محمد بن مسلمة المنصور الأول

• أبو بكر محمد المظفر (حتى سنة ١٠٦٨)

• يحيى المنصور الثاني

• عمر المتوكل (حتى سنة ١٠٩٤)

طليطلة

• يعيش بن محمد بن يعيش (حتى سنة ١٠٣٦)

وبعدهم بنو نون:

- إسماعيل الطافر (١٠٣٦-١٠٣٨)
- أبو الحسن يحيى المأمون (١٠٣٨-١٠٧٥)
- يحيى بن إسماعيل بن يحيى القادر (١٠٧٥-١٠٨٥)

سرقسطة

- المنذر بن يحيى^١ (حتى سنة ١٠٣٩)

وبعدهم بنو هود:

- أبو أيوب سليمان بن محمد المستعين الأول (١٠٣٩-١٠٤٦)
- أحمد المقدار (١٠٤٦-١٠٨١)
- يوسف المؤمن (١٠٨١-١٠٨٥)
- أحمد المستعين الثاني (١٠٨٥-١١١٠)
- عبد الملك عماد الدولة (١١١٠)

السهلة (بنو رزين)

- أبو محمد هذيل الأول بن خلف بن رزين (من سنة ١٠١١)
- أبو مروان عبد الملك الأول بن خلف، شقيقه
- أبو محمد هذيل الثاني عز الدولة نجل السابق
- أبو مروان عبد الملك الثاني حسام الدولة يحيى (إلى سنة ١١٠٣)

الفُتْنَة (بنو قاسم)

- عبد الله الأول بن قاسم الفهري نظام الدولة (إلى سنة ١٠٣٠)
- محمد يُمن الدولة
- أحمد عضد الدولة (إلى سنة ١٠٤٨)

- عبد الله الثاني جناح الدولة، شقيق السابق (١٠٤٨-١٠٩٢)

بنسيبة

- الصقلبيان: مبارك، والمظفر
- الصقلبي لبيب صاحب «طرطوشة»
- عبد العزيز المنصور (١٠٢١-١٠٦١)
- عبد الملك المظفر (١٠٦٥-١٠٦١)

ثم ضمت بنسيبة لمملكة طليطلة.

- المأمون (طليطلة) (١٠٦٥-١٠٧٥)

ثم انفصلت بنسيبة عن طليطلة.

- أبو بكر بن عبد العزيز (١٠٧٥-١٠٨٥)
- القاضي عثمان (ولده) (١٠٨٥)
- القادر (ملك طليطلة سابقاً) (١٠٨٥-١٠٩٢)
- ثم صارت بنسيبة جمهورية رئيسها ابن جحاف (١٠٩٢-١٠٩٤)

دانية

- أبو الجيش مجاهد موفق (إلى سنة ١٠٤٤ (٥))
- علي إقبال الدولة (١٠٤٤-١٠٧٦)

خلعه المقدار صاحب سرقسطة وضمت دانية إلى مملكة سرقسطة.

- المقدار (سرقسطة) (١٠٧٦-١٠٨١)

المقدار يقسم مملكته بين ولديه، فكان نصيب الحاجب منذر: لاردة، وطرطوشة، ودانية.

- الحاجب المنذر (١٠٨١-١٠٩١)
- ولده تحت وصاية بنى بطير

مرسية

- خيران (المرية) (١٠١٦-١٠٢٨) (٧)
- زهير (المرية) (١٠٢٨-١٠٣٨) (١٠٣٨-١٠٢٨)
- عبد العزيز المنصور بلنسية (١٠٦١-١٠٣٨) (١٠٦١-١٠٦١)
- عبد الملك المظفر بلنسية (١٠٦٥-١٠٦١) (١٠٦٥-١٠٦١)
- كان أبو بكر أحمد بن طاهر حاكماً لمرسية في عهد هؤلاء الملوك الثلاثة وتوفي سنة ١٠٦٣ وخلفه ولده أبو عبد الرحمن محمد (١٠٧٨-١٠٦٣)
- المعتمد (إشبيلية)
- ابن عمار
- ابن رشيق (إلى سنة ١٠٩٠)

المرية

- خيران (إلى سنة ١٠٢٨) (١٠٢٨)
- زهير (١٠٢٨-١٠٣٨) (١٠٣٨-١٠٢٨)
- عبد العزيز المنصور (بلنسية) (١٠٣٨-١٠٤١) (١٠٤١-١٠٣٨)

وبعدهم بنو صمادح:

- أبو الأحوص (١٠٤١-١٠٥١) (١٠٥١-١٠٤١)
- محمد المعتصم (١٠٩١-١٠٥١) (١٠٩١-١٠٥١)
- عز الدولة (١٠٩١)

الهوامش

الفصل الأول

(١) نشأت ملوك الطوائف بعد أن اضمحل أمر الخلافة الأموية بالأندلس، فقد استبد بالأمر المنصور بن أبي عامر وأعقابه، وأسسوا الدولة العامرية، وحالفوا برب صنهاجة واستعنوا بهم في مواقفهم من دون العرب، ثم ثارت الفتنة بعد ذلك فانقرضت دولة العامريين وانتهت التأثيرون دورهم وأديل لبني أمية ثانية، ثم تدهور بنو حمود وثبت الأمراء والموالي والوزراء وكبار العرب وأعيان البربر وقام كل واحد منهم بأمر في ناحية. وما زال حبل الأمن في اضطراب حتى ولـي الأمر أبو محمد جهور بن محمد بن جهور في قرطبة، وانطوى بساط الدولة الأموية وصار الأمر إلى رؤساء البلاد، وولي بنو عباد إشبيلية وغرب الأندلس.

وقد اشتغل ملوك الطوائف بتغلب بعضهم على بعض والتجلأوا إلى ملوك الفرنجة مستنترين بهم حتى جاءهم يوسف بن تاشفين وأقام في بلاد الأندلس دولة المرابطين.

(٢) تفرقت إمبراطورية عبد الرحمن الثالث العظيمة، وظهر على أنقاضها عدة ممالك صغيرة «دويلات» أنشأتها الظروف والمصالفات — كما يقول الأستاذ «نيكلسون» — وكان يحكمها بعض القادة المظفرین.

وقد أصاب «نيكلسون» في تشبيه إسبانيا في القرن الحادى عشر الميلادى بتاريخ إيطاليا في القرن الخامس عشر، فقد كان وجه الشبه — كما يقول — كبيراً جدًّا بينهما. وكان هؤلاء القادة الذين اقتسموا بلاد الأندلس أشبه بأولئك القادة الذين كان يطلق عليهم في إيطاليا اسم "Condottieri" وكان من بينهم ملوك بني عباد الذين قطعوا إشبيلية. وهم أقوى الملوك الذين أطلق عليهم كتاب المسلمين اسم: «ملوك الطوائف».

وعلى أن ذلك العصر كان عصر تدهور سياسي، وعلى أن إسبانيا كانت تشكو عجز مواردها الاقتصادية، فقد وصل المجتمع في تلك الأيام إلى مستوى لم يصل إلى مثله من قبل.

وهنا يجدر بنا أن نقف لحظة علينا نستطيع أن نستعرض فيها أمامنا الشوط البعيد الذي قطعه الآداب والعلوم في طريق النجاح في ذلك العصر الذي يعد أزهى عصور الاحتلال الإسلامي في أوروبا.

فبينما ترى العرب الفاتحين في آسيا قد سحرتهم حضارة قديمة تفوق حضارتهم بما لا نهاية له فأذعنوا لها وظهر أثرها فيهم، إذ تراهم لم يكادوا يعبرون مضيق جبل طارق – في الغرب – حتى انعكست الآية تماماً.

ذلك أنهم بعد أن تغلبوا على شبه الجزيرة وقع في أيديهم آلاف من المسيحيين من كل جهة فتحوها، وقد عاش أولئك المسيحيون في كنف المسلمين، وأحسنت الحكومة معاملتهم، ومنحتهم الحرية الدينية، وكثيراً ما رفعتهم إلى مناصب عالية في الجيش وفي بلاط الملك، فاعتنق كثير منهم الحضارة الإسلامية وافتتن بها افتاتاً.

حتى رأينا الفارو – كاهن قرطبة في أواسط القرن التاسع للميلاد – يولول في أوائل ذلك العصر، شاكياً من أبناء دينه انصرافهم إلى مطالعة أشعار العرب وأساطيرهم وهياهم بدراسة كتابات لاهوتى المسلمين وفلسفتهم، وهم لا يقصدون بذلك إلى تفنيدها بل يقصدون إلى التعبير عن خوالجهم بأسلوب عربي رائع صحيح. وكان الفارو يتسائل قائلاً: «أنى يتاح لإنسان في هذه الأيام أن يقابل واحداً من أبناء جنسنا يقرأ التفاسير اللاتинية للكتب المقدسة؟ ومن ذا الذي يدرس منهم فصول الأنجليل وسير الأنبياء والحواريين؟

واحسرتاه: إن كل الشبان ذوي الموهب لا يعرفون إلا العربية والإ كتابات العربية، فهم يقرءونها ويدرسونها بحماسة بالغة منتهاها، كما أنهم ينفقون المال الطائل لاقتنائها في مكتبهم، وإنك لترأه – حينما وجدوا – يذيعون أن تلك الآداب جديرة بالإعجاب. فإذا تجاوزت عن ذلك وأخذت تحدثهم عن الكتب المسيحية ازور جانبهم وأجاوبك بازدراء: «إنها أسفار تافهة لا خطر لها ولا قيمة».

واحسرتاه عليهم! لقد نسي المسيحيون أنفسهم حتى ليندر العثور بين آلاف منهم على فرد واحد يستطيع أن يحرر إلى أحد أصدقائه رسالة لاتينية بأسلوب مقبول، على حين ترى جمهرتهم قادرة على الإبانة عما في نفوسهم بأسلوب عربي رائع، وعلى حين

ترى حذقهم في قرض الشعر العربي قد وصل إلى حد فاقوا معه العرب أنفسهم.»
ومهما يكن في كلام هذا الكاهن من إغراء، فمما يترفع عن الجدل والتشكك أن الثقافة الإسلامية قد أخذت بألباب المسيحيين الإسبان، كما افتن بها اليهود الذين خدموا الشعر والفلسفة بمساعداتهم العديدة وكتاباتهم التي أنشئوا بها بلغتهم وبلغة أبناء عمهم العرب.

أما المولدون والصابئون من الإسبانيين الذين دانوا بالإسلام فقد استعربوا تماماً — بعد أجيال قليلة — ومن هؤلاء نبغ أشهر من ازدان بهم الأدب العربي.

وقد كان للشعر العربي — في أوروبا — على الإجمال نفس الخصائص التي رأيناها في الشعر المعاصر له في الشرق.

فإن الأوزان المصطلح عليها والقيود التي لم يستطع أساطير بغداد أن يحرروا أنفسهم من ربقتها ظلت — كما هي — في قرطبة وإشبيلية.

وكما تأثر الشعر العربي في الشرق بالأداب الفارسية، فقد تأثر في إسبانيا كذلك باتحاد الآريين والساميين واندماجهم شيئاً فشيئاً.

فكان ذلك سبباً في إدخال عناصر جديدة ظهرت في أدابهم بعد، ولعل أمعن ميزات الشعر الأندلسي هي ذلك الوجдан العاطفي الرقيق الذي يندر وجود مثله في النسيب، والذي ظهر كثيراً في أغانيهم عن الحب، وهو وجдан لا يقتصر على تصوير فروسيّة القرون الوسطى، بل يتحطى ذلك إلى حد أن تحسبه إحساساً جديداً بمحاسن الطبيعة التي جملته.

ولهذه الميزة سهل فهم ذلك الشعر على الكثيرين من الآريين الذين قد لا يسهل عليهم تفهم روح المعلقات أو قصائد المتنبي. انظر كتاب «نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي» للمترجم.

(٣) استولى أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور على مقاليد الحكم، وكان رئيس الجماعة بها أيام فتنة بنى أمية.

قالوا: ولما خلع الجندي آخر خلقاء بنى أمية بالأندلس استبد جهور بالأمر واستولى على المملكة بقرطبة سنة ٤٢٥هـ. وكان على ستن أهل الفضل، فأمسدوا إليه أمرهم إلى أن يوجد خليفة، ثم اقتصروا عليه، فدبر أمرهم إلى أن هلك سنة ٤٣٥هـ.

وخلفه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور وما زال على قرطبة، حتى خلعه أهلها سنة

٦٤٦١هـ، فأعقبه ابنه عبد الملك بن الوليد فأساء السيرة، فأخرجوه عنها، وزحف المعتمد بن عباد على قرطبة فملكها سنة ٤٨٤هـ.
(٤) قال صاحب كتاب المعجب:

ولما انقطعت دعوةبني أمية بالأندلس، ولم يبق من عقبهم من يصلح للإماراة، ولا من تليق به الرياسة، استولى على تدبير ملك قرطبة جهور ابن محمد بن جهور، ويكنى: أبو الحزم، وهو قدّيم الرياسة شريف البيت، كان آباؤه وزراء الدولة الحكمية والعامرية، وهو موصوف بالدهاء، وبعد الغور، وحصافة العقل، وحسن التدبير، ولم يدخل — من دهائه — في الفتنة الكائنة قبل ذلك، وكان يتصرفون عنها، ويظهر النزاهة والتدين والعفاف، فلما خلا له الجو وصفر الفناء، وأقفر النادي من الرؤساء، وأمكنته الفرصة وثبت عليها فتوى أمرها، واضططع بحمايتها. ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً جرياً على ما قدمنا من إظهار سنن العفاف بل دبرها تدبيراً لم يسبق إليه، وذلك أنه جعل نفسه ممسكاً للموضع إلى أن يجيء من يتتفق الناس على إمارته فيسلم إليه ذلك، ورتب البوابين والحشم على تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة ولم يتحول عن داره إليها، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبيهم لذلك وهو المشرف عليهم. وصير أهل الأسواق جنداً له، وجعل أرزاقيهم رءوس أموال تكون بأيديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها وروعوس الأموال باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون في كل وقت كيف حفظهم لها، وفرق السلاح عليهم، وأمرهم بتنزقته في الدكاكين والبيوت حتى إذا دهمهم أمر في ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان من بيته أو دكانه. وكان أبو الحزم هذا يشاهد الجنائز، ويعود المرضى جارياً على طريقة الصالحين. وهو مع ذلك يدبر الأمور تدبير الملوك المغلبين، وكان أميناً وادعاً وقرطبة في أيامه حرمًا يأمن فيه كل خائف، واستمر أمره على ذلك إلى أن مات في غرة صفر سنة ٤٣٥هـ، فكانت مدة تدبيره — منذ استولى إلى أن مات — أربع عشرة سنة وأشهرًا، ثم ولي ما كان يتولى من أمر قرطبة بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور، فجرى في السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه غير مخل بشيء من ذلك إلى أن مات أبو الوليد المذكور في سلخ شوال من سنة ٤٤٣هـ، فغلب عليها — بعد أمور جرت — الأمير الملقب بالمؤمن بن ذي النون صاحب طليطلة

فديبرها مدة يسيرة إلى أن مات، وخلف فيها بعده من البربر رجلاً يعرف بابن عكاشة أظلن اسمه موسى، فكان بها إلى أن غلبه عليها وأخرجه منها الأمير الظافر بحول الله أبو القاسم محمد بن عباد على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى)، فهذا آخر أخبار قرطبة وكونها داراً للملك، وبعد غلبة المعتمد عليها صارت تبعاً لإشبيلية.

وجاء في كتاب الصلة لابن بشكوال ما يأتي:

جهور بن محمد بن جهور بن عبد الله بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبي عبيدة رئيس قرطبة، يكنى: أبي الحزم.

روى عن أبي بكر عباس بن الهمذاني، وأبي محمد الأصيلي، والقاضي أبي عبد الله بن مفرج، وأبي القاسم خلف بن القاسم، وأبي يحيى زكريا ابن الأشج وغيرهم، وسمع منهم وأخذ العلم عنهم، وقد أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عتاب الفقيه، فقال: حدثنا ثقة من الشيوخ الأكابر، وهو يعني أبي الحزم هذا. ثم صار تبيراً أهل قرطبة إلى أبي الحزم هذا فألفها بالرياسة فيها، إلى أن توفي يوم الخميس لسبعين من المحرم من سنة ٤٣٥ ودفن بداره، وصلى عليه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور متولي الأمر من بعده. وكانت سنّه يوم وفاته إحدى وسبعين سنة. وكان مولده أول المحرم سنة ٣٦٤.

قالوا: «أما قرطبة فاستولى عليها أبو الحسن جهور بن محمد بن جهور وكان من وزراء الدولة العاميرية، موصوفاً بالدهاء والعقل، ولم يدخل في شيء من الفتن قبل هذا بل كان يتصاون عنها، فلما خلا الجو وأمكنته الفرصة وشب عليها فتوى وقام بحمايتها، ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً بل رتبها وديبرها تدبيراً لم يسبق إليه، وأظهر أنه حامٍ للبلد إلى أن يجيء من يستحقه ورتب البوابين والحسن على أبواب قصور الإمارة ولم يتحول عن داره إليها، ودعا ما يتحصل من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم له.

وكان جهور يشهد الجنازة، ويعود المرضى، ويحضر الأفراح على طريق الصالحين، وهو مع ذلك يدير الأمور تبيراً الملوك وكان مأمون الجانب. فأمن الناس في أيامه، وبقي كذلك إلى أن مات سنة خمس وثلاثين وأربع مئة، وقام بالأمر بعده أبو الوليد محمد بن جهور على هذا التدبير إلى أن مات.»

وجاء في المطمح:

الوزير الأجل أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور وبنو جهور أهل بيته اشتهروا كاشتهر ابن هبيرة في فزارة وأبو الحزم هذا أمدهم في المكرمات، وأنجدهم في الملتمات؛ ركب متون الفنون فراضها، ووقع في بحور المحن فخاضها، وهو منبسط غير منكش، لا طائش اللسان ولا رعش، وقد كان وزر في الدولة العامرة فشرفت بجلاله، واعترفت باستقلاله، فلما انقرضت وعاقت الفتن واعترضت تحيز من التدبير مدتها، وخلى لأخلاقه تدبير الرياسة وشدةتها، وجعل يقبل مع أولئك الوزراء ويدبر، غير مظهر للانفراد، ولا متصرف في ميدان ذلك الطراد، إلى أن بلغت الفتنة مداها، وسوغت ما شاءت رداها، وذهب من كان يجد في الرياسة ويحب ويسعى في الفتنة، ولا ارتفع الوبال، وأدبر ذلك الإقبال راسل مستمدًا بهم ومعتمدًا على بعضهم تخيلًا منه وتمويهًا وتداهيًا على أهل الخلافة وذويها، وعرض عليهم تقديم المعتمد هشام، وأومض منه لأهل قرطبة برق خلبه يشام، ثقة بسرعة التياثها، وتعجّل انتكاثها، وأنابوا إلى دعائه، وأجابوا إلى استدعائه، وتوجهوا مع ذلك الإمام، وأملوا بقرطبة أحسن إمام، فدخلوها بعد فتن كثيرة، واضطربات مستشيرة، والبلد مقفر، والجلد مسفر، فلم يبق غير يسير حتى نبذ واضطرب أمره فخلع، واحتطف من الملك وانتزع، وانقضت الدولة الأموية، وارتقت الدولة العلوية، واستولى على قرطبة عند ذلك أبو الحزم، ودبرها بالجد والعزم، وضبطها ضبطًا آمن خائفها، ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها، وخلاله الجو فطار، واقتضى للبانات والأوطار، فعادت له قرطبة على أكمل حالتها، وانجلى به نور جلالتها، ولم تزل به مشرقة، وغصون الآمال فيها مورقة، إلى أن توفي سنة ٤٣٥، فانتقل الأمر إلى ابنه أبي الوليد، و Ashton منه على طارف وتلية، وكان لأبي الحزم أدب ووقار وحلم سارت بها الأمثال وعلم نادر المثال. وقد أثبت من شعره ما هو لائق. وذلك قوله في تفضيل الورد:

الورد أحسن ما رأت عيني، وأذ
كي ما سقى ماء السحاب الجائد
خضعت نواوير الرياض لحسنها
فتذللت تنقاد وهي شواهد

يزهو، فذا ميت وهذا حاسد
لطوع صفحته فنعم الوافد
خبر عليه من النبوة شاهد
بقيت عوارفه فهن خوالد
وإذا تبدي الورد في أغصانه
وإذا أتى وقع الربيع مبشرًا
لليس المبشر كالمبشر باسمه
وإذا تعرى الورد من أوراقه

(٥) استبد القاضي أبو القاسم إسماعيل بإشبيلية بعد فرار القاسم بن حمود عن قرطبة وقد استطاع القاضي أن ينتزع قرطبة من ابن زيري الذي ولاه عليها القاسم بن حمود وما زال يعظم شأن القاضي حتى مات سنة ٤٢٣هـ فخلفه عليها ابنه عباد ولقب نفسه بالمعتضد وطالت أيامه وعظم شأنه حتى تغلب على أكثر المالك بغرب الأندلس، ومات سنة ٤٦١هـ.

فخلفه ابنه المعتمد، وما زال يعظم شأنه حتى استولى على دار الخلافة بقرطبة من يد ابن جهور وعظم أمر المعتمد بين ملوك الطوائف حتى غلبه يوسف بن تashfin على الأندلس سنة 484هـ.

(٦) القاسم بن حمود وعلي بن حمود كانوا في جملة جماعة المستعين الأموي المسمى سليمان بن الحكم، وبعد أن انقرضت دولةبني حمود من فاس عقد المستعين للقاسم بن حمود على الجزيرة الخضراء من الأندلس وعقد لعلي بن حمود على طنجة. وبعد قليل سمت نفس علي هذا إلى الخلافة وزعم أن هشاماً الأموي قد كتب له بعهد، فباعيه ناس، وأجاز إلى مالقة فملكتها، ثم دخل قرطبة سنة ٤٠٧ ولقب نفسه بالناصر لدين الله، وبقي كذلك حتى قتله صقالته سنة ٤٠٨ في الحمام.

فولي مكانه أخوه القاسم بن حمود - وكان حينئذ في طنجة - ولقب نفسه بالملعون، ثم غلبه يحيى - ابن أخيه علي - وزحف إلى قرطبة فملكها سنة ٤١٢ ولقب نفسه بالمعتلي، وما زال يعظم شأنه حتى حاصر ابن عباد بإشبيلية وكبا به فرسه فقتل. وانتهت بقتله دولة بنى حمود بقرطبة.

(٧) وكان عباد الجد الثالث لإسماعيل.

(٨) جاء في كتاب المعجب ما يلي:

أما أحوال إشبيلية فإنها كانت في طاعة الفاطميين أعني علي بن حمود والقاسم بن حمود، ويحيى بن علي بن حمود، أيام كان الأمر دائراً بينهم على ما تقدم ذكره.^٥

فلما زحف يحيى بن علي بالبربر إلى قرطبة، وهرب القاسم بن حمود منها، وقصد إشبيلية، وقد كان ابناه محمد والحسن مقيمين بها أجمع أمر أهل إشبيلية، واتفق رأيهم على إخراج محمد والحسن عنها قبل وصول القاسم أبيهما فآخر جوهما، وجاء القاسم فمنعوه دخول البلد أيضًا، واتفقوا على تقديم رجل منهم يرجع إليه أمرهم، وتجمعت به كلمتهم فتoward اختيارهم بعد حض الرأي وتنقح التدبير على القاضي أبي القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي لما كانوا يعلمونه من حصافة عقله، وسعة صدره، وعلو همته، وحسن تدبيره، فعرضوا عليه ما رأوه من ذلك، فتهيب الاستبداد، وخفف عاقبة الانفراد أولاً، وأبى ذلك إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجلاً سماهم لهم يكونون له أعوناً ووزراء وشركاء لا يقطع أمراً دونهم، ولا يحدث حدثاً إلا بمشورتهم، وهؤلاء المسمون هم الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، ومحمد بن يريم الألهاني، وأبوا الأصبع عيسى الهاوزني، ورجال آخرون ذهب عنى أسماؤهم ولا أعرف قبائلهم وبيوتهم، ففعلوا ذلك وأجابوه إلى ما أراد، ولم يزل يدبر أمر إشبيلية، وهؤلاء المذكورون من وزرائه، وكان له من الولد إسماعيل وهو الأكبر يكى أبا الوليد، وعباد يكى أبا عمرو، فأما إسماعيل فخرج إلى لقاء البربر، بعد أن حدث لأبيه أمل في التغلب على ما كان البربر يملكونه من الحصون القريبة من إشبيلية بعسرك من جند إشبيلية، فالتقى هو وصاحب صنهاجة فأسلمت إسماعيل عساكره. وكان أول قتيل، وقطع رأسه وسير به إلى مالقة إلى إدريس بن علي الفاطمي كما تقدم، وبقي الأمر كذلك، والقاضي أبو القاسم يدبر الأمور أحسن تدبير، وكان مصلحاً صالحًا إلى أن مات في شهور سنة ٤٢٩.

وفي كتاب عقد الجمان للعيني (القسم الرابع) ما يأتي:

وأما إشبيلية فاستولى عليها قاضيها محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي، وهو من ولد النعمان بن المنذر، وفي هذا الوقت ظهر أمر المؤيد هشام بن الحكم، وكان قد اختفى وانقطع خبره، وكان ظهوره بمالقة ثم سار منها إلى المرية، فخافه أصحابها، زهير العامري وأخرجه منها، وقصد قلعة رباح فأطاعه أهلها، فسار إليهم صاحبها إسماعيل بن ذي النون، فحاربهم وضعفوا

عن مقاومته فأخرجوه، فاستدعاهم القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد إليه بإشبيلية، وأذاع أمره وقام بنصره، فسار إليه وقام بواجبه، وكتب بظهوره إلى ملوك الأندلس، فأجاب أكثراً منهم وخطبوا له، وجرت بيته في المحرم سنة تسع وعشرين وأربع مئة، ثم إن عبادًا سير جيشًا إلى زهير العامري بأن يخطب للمؤيد، فاستتجد زهير حيوس الصنهاجي صاحب غرناطة، فسار إليه بجيشه فعادت عساكر ابن عباد، ولم يكن بين العسكريين قتال، وأقام زهير ببأسه، وجاء حيوس إلى مالقة فمات، وولي بعده ابنه باديس، واجتمع هو وزهير ليتفقا كما كان زهير وحيوس، فلم تستقر بينهما قاعدة، واقتتلوا فقتل زهير، وجمع كثير من أصحابه، والتقي عسكر ابن عباد وابنه إسماعيل مع باديس بن حيوس، وعسكر إدريس الفلوبي صاحب سبتة بطنجة واقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل إسماعيل، ثم مات بعده القاضي أبو القاسم بن عباد وولي بعده ابنه أبو عمرو، ولقب المعتمد بالله، فضبط ما ولـي وأظهر وفاة المؤيد، واشتعل بأمر إشبيلية وبقي كذلك إلى أن مات وولي بعده ابنه أبو القاسم محمد ولقب بالمعتمد على الله، فاتسع في ملـكه، وشـمخ سلطـانـه، وـملكـ كثـيرـاً منـ الأندـلسـ، وـملكـ قـرـطـبةـ أـيـضاًـ، وـوليـ عـلـيـهاـ اـبـنـ الـظـافـرـ بـالـلـهـ، فـبـلـغـ خـبـرـ مـلـكـهـ لـهـ إـلـىـ يـحـيـيـ بـنـ ذـيـ النـونـ صـاحـبـ طـلـيـطـةـ، فـحـسـدـهـ عـلـيـهـماـ فـضـمـنـ لـهـ جـرـيرـ بـنـ عـكـاشـةـ، وـسـارـ إـلـىـ قـرـطـبةـ فـأـقـامـ يـسـعـيـ فـيـ ذـكـرـ وـهـ يـنـتـظـرـ فـرـصـةـ، فـاتـقـ أـنـ فـيـ بـعـضـ الـلـيـالـيـ جـاءـ مـطـرـ عـظـيمـ وـمـعـهـ رـيـحـ شـدـيدـ وـرـعـدـ وـبـرـقـ فـتـارـ جـرـيرـ فـخـرـ الـظـافـرـ فـيـمـنـ مـعـهـ مـنـ الـعـبـيدـ وـالـحـرـسـ، وـكـانـ صـغـيرـ السـنـ، فـحـمـلـ عـلـيـهـ وـدـفـعـهـمـ عـنـ الـبـابـ، ثـمـ عـثـرـ فـيـ بـعـضـ كـرـاتـهـ فـسـقـطـ، فـوـثـبـ عـلـيـهـ شـخـصـ فـقـتـلـهـ وـلـمـ يـلـغـ الـخـبـرـ إـلـىـ الـأـجـنـادـ وـأـهـلـ الـبـلـدـ إـلـاـ وـالـقـصـرـ قـدـ مـلـكـ وـتـلـاحـقـ بـجـرـيرـ أـصـحـابـ وـأـشـيـاعـهـ، وـتـرـكـ الـظـافـرـ مـلـقـىـ عـلـىـ الـأـرـضـ، فـمـرـ عـلـيـهـ بـعـضـ أـهـلـ قـرـطـبةـ، فـأـبـصـرـهـ عـلـىـ تـلـكـ الـحـالـةـ، فـنـزـعـ رـدـاءـهـ وـأـلـقـاهـ عـلـيـهـ، وـكـانـ أـبـوـهـ إـذـ ذـكـرـ يـتـمـثـلـ بـهـاـ الـبـيـتـ:

ولم أدر من ألقى عليه رداءه سوى أنه قد سل عن ماجد محض

ولم ينزل المعتمد يسعى في أخذها حتى عاد ملكها إليه وترك ولده المأمون فيها، فأقام بها حتى أخذها يوسف بن تاشفين وقتل فيها بعد حروب كثيرة يأتي ذكرها إن شاء الله (تعالى).

وأخذت إشبيلية من أبيه المعتمد، وبقي مسجوناً في «أغمات» إلى أن مات بها وكان هذا وأولادهم جميعهم — الرشيد، والمؤمن، والراضي، والمعتمد — وأبوه وجده علماء شعراً.

الفصل الثاني

- (١) المجلة الآسيوية السلسلة الرابعة من الجزء ١٦ ص ٢٠٣-٢٠٥ مقال م. مونك.
- (٢) كرونيكادل مورو ورازيس ص ٣٧ تاريخ الرازي.
- (٣) ابن حيان — ابن بسام ج ١ ص ١٢٢.
- (٤) المجلة الآسيوية ص ٩٢.
- (٥) موسى بن عزرا (في المجلة الآسيوية ص ٢١٢ شرح) يسميه ابن أبي موسى وهذا في الحقيقة هو الاسم الذي أطلقه الحموي على الوزير ابن بقية وقد أخطأ من نقل مخطوط «عبد الواحد» (انظر طبعتي هذا المؤلف ص ٤٣) إذ محا كلمة «أبي» التي كتبها أولاً.
- (٦) عباد ج ٢٢ ص ٣٤.
- (٧) جاء في كتاب «البيان المغرب» بتحقيق العلامة «دوзи» ج ٢ ص ٨٦ ما يأتي:

ومن أخباره في الجبرية والقسوة، قال ابن حيان عندما استوعب الفتكة بأبي نصر بن أبي نور اليفرني أمير رندة المتنزي بها وقتلها، ورجوعها إلى ابن عباد، حكى أبو بكر الوشناني الفقيه عن ثقة عنده من أصحابه التجار: أنه حضر مدينة غرناطة حضرة باديس بن حبوس الجبار أيام حدث على أبي نصر صاحب تاكرنا ما حدث، وأن أميرها باديس قام بالحادية وقعد وهاج من داء عصبيته ما قد سكن، وشق أثوابه، وأعلن إعواله، وهجر سراريته التي لا صبر له عنهن وجفا بلاده وأوهنته نفسه الجيشه تملأ رعيته من أهل الأندلس على مثل الذي دها أبا نصر، فسولت له نفسه حمل السيف على أهل حضرته جميئاً مستحضرراً لهم وكهما ينفهم ويخلص برابرته وعيده فيريح نفسه، ودبر أن يأتي ذلك إليهم عند اجتماعهم بمسجدهم الجامع لأقرب أيام الجمعة من قوة همومه، وشاور وزيره اليهودي إسماعيل مدبر دولته الذي لا يقطع أمراً دونه مستخلياً مستكتماً بسره مصمماً في عزمه إن هو لم يوافقه عليه، فنهاه

عن ذلك وخطأ رأيه فيه وسأله الأناة ومحض الروية وقال له: هبك وصلت إلى إرادتك من بحضرتك على ما في استباحتهم من الخطر، فلن تقدر على الإحاطة بجميعهم من أهل حضرتك وبسائط أعمالك، أتراهم يطمئنون إلى الذهول عن مصابهم والاستقرار في موضعهم؟ ما أراهم والله إلا سوف ينتظرون عليك في جموع يغزونك في لججها أنت وجنك، فرد نصيحته وأخذ الكتمان عليه وتقديم إلى عارضه باعتراض الجند في السلاح والتعبئة لركوبه يوم الفتكة يوم تلك الجمعة فارتاج البلد، وذكر أن اليهودي دس نسوان إلى معارف لهن من زعماء المسلمين بغرناطة ينهاهم عن حضور المسجد يومهم ويأمرهم بإخفاء أنفسهم، وفشا الخبر فتختلف الناس عن شهود الجمعة ولم يأته إلا نفر من عامتهم، وانفردوا بمن أتاهم من مشيخة البربر وأغال القادمين، وجاء إلى باديس الخبر والجيش في السلاح حوالي قصره فسأه وفت في عضده ولم يشك في فشو سره، وأحضر وزيره وقلده البوح بسره فأنكر ما قرفة به وقال: « ومن أين ينكر على الناس الحذر وأنت قد استركبت جنك وجميع جيشك في التعبئة لا لسفر ذكرته ولا لعدو وثب إليك، فمن هناك حرس القوم على أنك تريدهم، وقد أجمل الله لك الصنع في نفارهم، ووكان إثارهم، فأعد نظرك يا سيدي فسوف تحمد عاقبةرأيي وغبطه نصحي». فنصح وزيره شيخ من موالي صنهاجة فانعطف لذلك بعد لأي وشرح الله صدره. ويجري التعريف بشيء من أمور وزيره قال ابن عذاري المراكشي في كتابه المسمى بـ«البيان المغرب»: «أمضى باديس كاتب أبيه ووزيره ابن نفذالة اليهودي عملاً ومتصرفين من أهل ملته واكتسبوا الجاه في أيامه واستطالوا على المسلمين». قال ابن حيان: «وكان هذا اللعين في ذلته على ما زوى الله عنه من هدايته من أكمل الرجال علمًا وحلمًا وفهمًا وذكاءً ودماثة وزكانة ودهاء ومكرًا وملگا لنفسه وبساطًا من خلقه ومعرفة بزمانه ومداراة لعدوه واستسلامًا لحقودهم بحلمه من رجل كتب بالقلمين واعتنى بالعلميين وشغف باللسان العربي ونظر فيه وقرأ كتبه وطالع أصوله، فانطلقت يده ولسانه وصار يكتب عنه وعن صاحبه بالعربي فيما احتاج إليه من فصول التحميد لله (تعالى) والصلة على رسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتزكية لدين الإسلام وذكر فضائله، ما يزيد ولا يقصر فيما ينشئه عن أوسط كتاب الإسلام، فجمع لذلك السجيح في علوم الأوائل الرياضية وتقديم

منتاحلها بالتدقيق للمعرفة النجومية، ويشارك في الهندسة والمنطق، ويتفوق في الجدل كل مسئول منه على غاية، قليل الكلام مع ذكائه، نافياً للسباب مع ذكائه، دائم التفكير، جماعة للكتب، هكذا في العشرين الثاني لمحرم سنة تسعة وخمسين وأربعين مئة، فحمل يهود نعشه على أعناقهم خاضعين وتفاقدوه جازعين وبكوه مغولين، وكان قد حمل ولده يوسف المكنى بأبي حسين على مطالعة الكتب وجمع إليه المعلمين والأدباء من كل ناحية يعلمونه ويدرسونه، وأعاقه بصناعة الكتابة ورشحه لأول حركة لكتابة ابن مخدومه ابن باديس المترشح لكانه، فمهد قواعد هلكته، فلما هكذا إسماعيل في هذا الوقت أدناه باديس إليه وأظهر الاعتقاب به والاستعاضة بخدمته عن أبيه.»

(ذكر مقتل اليهودي يوسف بن إسماعيل بن نفذالة الإسرائيلي) قال صاحب البيان: «وترك ابنًا له يسمى يوسف لم يعرف ذل اليهودية ولا قدر الذمة، وكان جميل الوجه حاد الذهن فأخذ في الاجتهاد في الأحوال وجمع المال واستخراج الأموال واستعمال اليهود على الأعمال، فزادت منزلته عند أميره، وكانت له عليه عيون في قصره من نساء وفتیان يشغلهم بالإحسان، فلا يكاد باديس يتنفس إلا وهو يعلم ذلك، ووقع ما تقدم ذكره في ذكر بلقين من اتهامه بسمه وتوليه (...) التهمة به عند أبيه الكثير من جواريه وخدماته، وفتى هذا بقريب له توله في الخدمة والواجهة يدعى بالقائد شعر (...) منه بمزاحمه إياه فتكة شهيرة واستهدفت للناس، فشغلت به السننهم وذاعت قصيدة الزاهد أبي إسحاق الألبيري في الإغراء بهم، واتفق أن أغارت على غرناطة بعوثر صمادحية تقول إنها باستدعائه ليعيد الأمر الصنهاجي إلى مجدها الأمير بمدينة المرية، وباديس في هذا الحال منغمس في بطالته عاكف على شرابه. ونمى هذا الأمر إلى رهطه من صنهاجة فراحوا إلى دار اليهودي مع العامة فدخلوا عليه، فاختفى — زعموا — في بيت فحم وسود وجهه يروم التنکير، فقتلوا لما عرفوه، وصلبوا على باب مدينة غرناطة، وقتل من اليهود في يومه مقتلة عظيمة ونهبت دورهم، وذلك سنة تسعة وخمسين وأربعين مئة.»

وقبره اليوم وقبر أبيه يعرف أصلاً من اليهود ينقولونه بتواتر عندهم أمام باب البيرة على غلوة يعرض الطريق على الحدة حجار كان جافية الجرم، ومكانه من الرقة والترف والظرف والأدب معروف، وإنما أتينا ببعض أخباره لكونه من لا يمنع من ذكره في أعمال الأدباء والأفراد الأجلة.

(٨) المجلة الآسيوية ص ٢٠٦-٢٠٨.

(٩) في «البيان المغرب» في أخبار خيران الصقليي العامري ما نصه: «فلما تخرست الخلافة وانشققت عصا الأمة، انتزى خيران هذا على مدينة المرية وأعمالها وانضوى إليه جميع فتيان محمد بن أبي عامر فحولهم وخصيائصهم ... إلى أن قال: فدبر أمر المرية إلى أن هلك سنة تسع عشرة وأربع مئة، وصار الأمر فيها إلى صاحبه زهير الفتى العامري فولوها من بعده نحو عشرة أعوام، وتحرك إلى مدينة غرناطة في جيش كثيف حتى وصل إلى بابها فخرج إليه جمع من صنهاجة مع أميرهم باديس بن حبوس، فوقيع بينهم حرب كان الظفر فيها لصنهاجة، وانهزم جيش الصقالبة، وقتل زهير أميرهم وكثير منهم».

(١٠) جاء في «البيان المغرب» ما يأتي:

وأما زهير الفتى المتقدم الذكر، فكان قد امتدت أطناب مملكته من المرية إلى شاطبة وما يليها إلى «بياسة» وما وراءها إلى «الفج» من أول عمل طليطلة. قال حيان بن خلف: «وكان سبب فساد باديس بن حبوس على جاره القديم الحلف زهير الفتى فتى المنصور بن أبي عامر مواليه لكاشه محمد بن عبد الله الزناتي.

ومضى على ذلك حبوس من عداوته، وخلفها كلمة باقية في عقبه ضرم زهير نارها بعد. فتمادى تمسكه بالذكور، فأرسل إليه باديس رسوله معاتباً مستدعيًا تجديد المحالفة، فسارع زهير مقبلًا نحو باديس وضييع الحزم واغتر بالعجب، ووثق بالكثرة، وصار أشبه شيء بمجيء الأمير الضخم إلى العامل من عماله، قد ترك رسوم الالقاء بالنظراء، وغير ذلك من وجوه الحزم، وأعرض زهير عن ذلك كله، وأقبل ضاربًا سوطه حتى تجاوز الحد الذي جرت عادته بالوقوف عنده من عمل باديس دون إذنه، وصير المضائق والأعوار خلف ظهره ولا يفكر فيها، واقتتحم البلد حتى صار إلى باب غرناطة.

ولما وصل زهير إلى غرناطة خرج إليه باديس بن حبوس في جمعه، وقد أنكر اقتحامه عليه، وعده حاصلاً في قبضته، فبدأ بالجميل والتكريم وأوسع عليه وعلى رجاله في القرى والقضيم، بما مكن اغترارهم وثبت طمأنينتهم، فوقيع المناظرة بين زهير وباديس ومن حضرهما من رجال دولتهما، فنشأ بينهما

عارض خلاف لأول وهلة، وحمل زهير على التشطط، ووزيره أحمد بن عباس يفرى الفرى في تصريح ما يعرض به زهير فعزم باديس عند ذلك على القتال ووافقه قومه صنهاجة، فأقام مراكبه، ونصب كتائبه، وقطع قنطرة لا مجيد لزهير عنها، والخائن زهير لا يشعر، وبات تتمخض له ليلته عن راغبة البكر، وغاداه باديس صبيحتها عن تعبئة محبكة، فلم يرعه إلا رجة القوم راجعين إليه بخنق طبولهم فدهش زهير وأصحابه، فيا لك من أمر شتت، وهو لمفاجئ، قسم بالمرء بين نفسه وماله ووزع همه بين روحه وروحه! إلا أن أميرهم زهيرًا أحسن تدبير الثبات لو استتمه، وقام ينتصب للحرب، فثبت في قلب معسكته، وقدم خليفته هذيلًا الصقلبي في وجوه أصحابه من الموالى العامريين الفحول، وعشيرته الصقلب وغيرهم لاستقبال صنهاجة فلما رأوه علموا أنهم حماته وشوكته، وأنهم متى خضدوها لم يثبت لهم من وراءهم، فاختالف الفريقان واشتد بينهما القتال مليًا، فلم يكن إلا قليلاً حتى حكم الله بالظهور لأقل الطائفتين عدداً ليري الله قدرته، ويجدد في قلوب عباده عبرته، فنكص في الصدمة قائدتهم هذيل وانهزم أصحابه، ويسيق هذيل لوقته إلى باديس أسيراً فعجل بضرب عنقه، فما هو إلا أن نظر زهير لمصرعه ففر على وجهه فلم يستصحب ثقة ولا انحاز إلى فئة، ولج به الفرار وانهزم أصحابه خلفه لا يلوون على شيء، وركبت صنهاجة ولفها من زناتة أكتاف القوم باذلين السيف فيهم بصدق العصبية وإيثار الإفناء، فلم يبقوا على أحد قدروا عليه، فأمساكوا الاعتداء، وأبادوا أمة أخذوا في شباب وعمر، وأجبل شامخة، أجاءهم إليها السيف، فكانت حتف من فر، وتقطعوا على هذه السبيل وأودى أميرهم زهير وجهل مصرعه، وكان سودانه غدروه أول وهلة، وانقلبوا مع صنهاجة وكانوا يقاربون خمس مئة.

وغم رجال باديس من المال والخزائن والأسلحة والحلية والعدة والغلمان والخيام وسائر أنواع الأموال ما لا يحيط به الوصف، فظفر باديس على قوم من وجوه رجال زهير فجعل على الفرسان والقواد بالقتل، وشمل الإسار حملة الأقلام وفيهم وزيره الكبير أحمد بن عباس الجار لحر لهذه الثائرة، فأمر بحبسه، وشفاؤه الولوغ في دمه، وعف باديس عن دماء حملة الأقلام دونه إلا من أصيب منهم في الحرب، وأطلق ابن حزم والباجي وغيرهما.

وكان باديس قد أرجأ قتل ابن عباس مع جماعة من الأسرى إلى أن وجه إليه أبو الحزم بن جهور رسولًا شافعًا في جماعتهم مؤكداً في شأن «ابن عباس» فكان أبعدهم من الخلاص، وأثر الشفاء في قتله على عظيم ما كان يعطى في فديته. فانصرف يوماً من بعض ركبانه مع أخيه بلقين فلما مر على الدار التي كان فيها ابن عباس أمر بإخراجه إليه فأقبل يرسف في قيوده حتى أقيم بين يديه، فأقبل على سبه وتبكيته بذنبه، وأحمد يلتطف ويسأله راحته مما هو فيه، فقال له: «الليوم تستريح من هذا الألم، وتنتقل إلى ما هو أشد منه». فبان لأحمد منه وجه الموت، فجعل يكثر الضراعة لباديس ويضعف له عدد المال، فأثر غضبه وهز مزراقه فوكزه فيه، وأمر بحز رأسه. فعلق، وووري جسده خارج القصر، فمضى زهير وابن عباس على هذه السبيل.

وكان ابن عباس حسن الكتابة مليح الخط، غزير الأدب، قوي المعرفة، مشاركاً في العلوم، حاضر الجواب، ذكي الخاطر، جامعاً للأدوات. وبلغني أن عبد العزيز بن أبي عامر سعى على دمه لما حصل على المريمة، وخف أن يتخلص فيكدرها عليه، وكذلك أكد ابن صمادح صاحب المريمة يومئذ في قتله، فقتله انصراف ابن صمادح عنه».

الفصل الثالث

- (١) هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر المتصور المتوفى سنة ٤٥٢هـ.
- (٢) هو مجاهد العامري صاحب داینة والجزائر الشرقية (ميورقة ومنورقة وياپسة).
- (٣) هو محمد بن عبد الله بن بزال بويع بقرمونة سنة ٤٠٤هـ وتوفي سنة ٤٣٤هـ.
- (٤) قال ابن الأثير:

لما قتل يحيى بن علي رجع أبو جعفر أحمد بن أبي موسى المعروف بابن بقية ونجا الخادم الصقليبي، وهم مدبراً دولة العلوين، فأتيا مالقة، وهي دار مملكتهم فخاطبوا أخاه إدريس بن علي، وكان له سبته وطنجة، وطلباه

فأتى إلى مالقة وباياده بالخلافة على أن يجعل حسن بن يحيى المقتول مكانه بسببة، فأجابهما إلى ذلك فبایاده، وسار حسن بن يحيى ونجا إلى سببة وطنجة، وتلقب إدريس بالمتأيد بالله، فبقي كذلك إلى سنة ثلاثين أو إحدى وثلاثين وأربع مئة، فسير القاضي أبو القاسم بن عباد ولده إسماعيل في عسكر ليتغلب على تلك البلاد، فأخذ قرمانة وأخذ أيضًا «إشبونة» و«أستيجة» فأرسل صاحبها إلى إدريس وإلى باديس بن حبوس صاحب صنهاجة، فأتاه صاحب صنهاجة بنفسه، وأمده إدريس بعسكري يقوده ابن بقية مدبر دولته، فلم يجرروا على إسماعيل بن عباد، فعادوا عنه فسار إسماعيل مجدًا ليأخذ على صنهاجة الطريق، فأدركهم وقد فارقهم عسكر إدريس قبل ذلك بساعة، فأرسلت صنهاجة من ردهم فعادوا وقاتلوا إسماعيل بن عباد، فلم يلبث أصحابه أن انهزوا وأسلموه فقتل وحمل رأسه إلى إدريس وكان إدريس قد يقن بالهلاك وانتقل عن مالقة إلى جبل يحتمي به وهو مريض، فلما أتاه الرسول عاش بعده يومين ومات. وترك من الولد يحيى ومحمدًا وحسناً، وكان يحيى بن علي المقتول قد حبس ابن عمه محمدًا والحسن ابني القاسم بن حمود بالجزيرة، فلما مات إدريس أخرجهما الموكل بهما ودعا الناس إليهما فبایعهما السودان خاصة قبل الناس ليل أبيهما إليهم، فملك محمد الجزيرة ولم يتسم بالخلافة، وأما الحسن بن القاسم فإنه تنسك وترك الدنيا وحج. وكان ابن بقية قد أقام يحيى بن إدريس بعد موت والده بمالكية، فسار إليها نجا الصقلبي من سببة هو والحسن بن يحيى. فهرب ابن بقية ودخلها الحسن ونجا، فاستملا ابن بقية حتى حضر فقتله الحسن، وقتل ابن عمه يحيى بن إدريس، وبایعه الناس بالخلافة، ولقب بالمستنصر بالله، ورجع نجا إلى سببة وترك مع الحسن المستنصر نائباً له يعرف بالشطيفي، فبقي حسن كذلك نحوًا من سنتين، ثم مات سنة أربع وثلاثين وأربع مئة، فقيل إن زوجته ابنة عمه إدريس سمتها أسفًا على أخيها يحيى. فلما مات المستنصر اعتقل الشطيفي إدريس بن يحيى، وسار نجا من سببة إلى مالقة وعزم على محو أمر العلوين، وأن يضبط البلاد لنفسه، وأظهر البربر على ذلك فعظم عندهم فقتلوه وقتلوا الشطيفي وأخرجوا إدريس بن يحيى وبایعوه بالخلافة وتسمى «بالعالى»، وكان كثير الصدقة يتصدق كل جمعة بالخمس مئة دينار، ورد كل

مطرود عن وطنه وأعاد عليهم أملاكهم. وكان متأدّباً حسن اللقاء له شعر جيد، إلا أنه كان يصعب الأذال ولا يحجب نساءه عنهم، وكل من طلب منهم حصنًا من بلاده أعطاه. فأخذت منه صنهاجة عدة حصون وطلبوا وزيره ومدبر أمره صاحب أبيه موسى بن عفان ليقتلوه فسلمه إليهم فقتلوه، وكان قد اعتقل أبني عمه محمدًا والحسن أبني إدريس بن علي في حصن «إيرش»، فلما رأى ثقته بأبرش اضطراب آرائه خالف عليه، وبایع ابن عمه محمد بن إدريس بن علي. وثار باديس بن يحيى من عنده من السودان وطلبوا محمدًا فجاء إليهم وسلم إليه إدريس الأمر، وبایع له سنة اثنتين وثلاثين وأربع مئة، فاعتقله محمد وتلقب بالمهدي وولى أخاه الحسن عهده، ولقبه السامي، فظهرت من المهدى شجاعة وجرأة فهابه البربر وخافوه، فراسلوا الموكل بإدريس بن يحيى فأجابهم إلى إخراجه وأخرجه وبایع له وخطب له بسبية وطنجة بالخلافة، وبقي إلى أن توفي سنة ست وأربعين. ثم إن المهدى رأى من أخيه السامي ما أنكره فنفاه عنه فسار إلى العدوة إلى جبال غماره وأهلها ينقادون للعلويين ويعظمونهم فبایعواه. ثم إن البربر خاطبوا محمد بن القاسم بالجزيرة واجتمعوا إليه وبایعوه بالخلافة وتسمى بالمهدي أيضًا، فصار الأمر في غاية الأخلوقة والفضيحة، أربعة كلهم يسمى أمير المؤمنين في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخًا، فرجعت البرابر عنه، وعاد إلى الجزيرة فمات بعد أيام. فولى الجزيرة ابنه القاسم ولم يتسم بالخلافة، وبقي محمد بن إدريس بمملكته إلى أن مات سنة خمس وأربعين، وكان إدريس بن يحيى المعروف «بالعالى» عندبني يفرن بتاكرنا فلما توفي محمد بن إدريس بن علي قصد إدريس بن يحيى مملكتها ثم انتقلت إلى صنهاجة.

وقد نقلنا هذا الفصل هنا لاتصاله اتصالاً شديداً بما نحن فيه.

الفصل الرابع

(١) في سنة خمس وثلاثين وأربع مئة بعد الفتنة المبية بقرطبة واستحکام الداء بين البربر من جهة والعرب والأندلسيين الأصليين وهم الصقالبة من جهة أخرى، انحاز أمراء الأندلس وملوك البربر وصاروا حزبين: حزب زعيمهم سليمان بن هود الجذامي

صاحب التغر الأعلى، وكان معه مقاتل الصقليبي صاحب طرطوشة، وعبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، ومن تحتهما من الولادة أصحاب الأعمال في الجهات الوسطى، وكان ابن معن صاحب المرية، وسعید بن رفیل صاحب «شقورة» وغيرهما من رؤساء هذا الجانب منضمين إلى محمد بن جهور صاحب قرطبة، وكان هؤلاء جميعاً - وهم الأندلسيون الأصليون - على نمط واحد ورأي واحد يمثلون حزب السكان الأصليين المناوئ لحزب البربر، وكان هؤلاء التغريون متظاهرين على زعيم البربرة بادیس بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة وعلى حزبه من البربر، وعلى إدريس بن يحيى صاحب مالقة ومن يدعوه إليه، وكانتوا يدعون لهشام، وكان بادیس ومن ظاهره من أمراء البربر يدعون لإدريس بن يحيى بن علي بن حمود الحسني إمامهم بمالكة.

وحزب آخر من ملوك الأندلس المسارعين إلى الانحياز والفرقة كمجاهد العامری صاحب دانیة، وكابن الأقطس صاحب بطليوس، ومن يتصل بعمله من الرؤساء في غربى الأندلس، ويحيى بن ذي النون صاحب طليطلة، وإسحاق بن محمد البرزالي صاحب قرمونة ومن تبعه من صغار الرؤساء، وكل هؤلاء على غرار واحد ونمط واحد، يتلون حول عباد المعتصد صاحب إشبيلية، ويدعون بدعوته للحصري المشبه بهشام المنصوب خليفة بإشبيلية. وكان كل حزب من الحزبين يتظاهر على ضده أتم مظاهره، ويتعاون فيما بينه على مدافعة عدوه، والاستعداد للحوادث المفاجئة، هذه هي الجماعات والفرق التي كانت تنضم إلى كل من الحزبين: الحزب البربري، والحزب العربي الصقليبي.

(٢) هذا التاريخ موجود في ابن بسام «ج ١ ص ٢٢٤».

(٣) لما تولى إدريس بن يحيى العلوی احتجب عن الناس على عادة العباسین في الشرق ولبث كذلك حتى أنسدھ عبد الرحمن الإشبوی قصیدته التي يقول في أولها:

هملت عيناك بالماء المعین؟
كمخاريق بآيدي لاعبين
وبقلبي زفرات وأنين
«ويك، لا أسمع قول العاذلين»
إن هذين لدين العاشقين

البرق لائح من أندريين
لعبت أسيافه عارية
ولصوت الرعد زجر وحنين
وأناجي - في الدجى - عاذلتي
خوفتني من سقام وضنى

فلما بلغ قوله:

انظرونا نقتبس من نوركم إله من نور رب العالمين

أمر إدريس صاحبه برفع الحجاب. وقد حكمت الدولة العلوية الأندلس سبع سنوات فقط وكانت عاصمتها سبتة وتنتمي إلى علي بن أبي طالب وعدد ملوكها ثلاثة. وعاد الأمر بعدها إلى بني أمية مرة أخرى ثم سقطت دولة بني أمية وخلفها ملوك الطوائف.
(٤) بلدة مشهورة من قواعد بلاد البربر واقعة على طرف بحر الزقاق بين براها وبين جزيرة الأندلس أقرب مسافة في البحر، وهي داخلة فيه كدخول كف على زند. ينسب إليها جماعة من أهل العلم منهم ابن مرانة السبتي كان من أعلم الناس بالحساب والفرائض والهندسة، وكان المعتمد يقول: «اشتبهت أن يكون عندي من أهل سبتة ثلاثة نفر: ابن غازي الخطيب، وابن عطاء الكاتب، وابن مرانة الفرضي». وتقع طنجة في الجنوب منها على شاطئ المحيط الغربي.

(٥) هي معقل حصن في الجهة الغربية من الأندلس بين إشبيلية ومالقة.
(٦) هي مدينة بالأندلس من أعمال رية واقعة على ساحل بحر الزقاق، وهو المعروف قديماً ببحر المجاز، والمعروف الآن بمضيق جبل طارق. وتقع قبالتها من العدوة الأخرى ببلاد المغرب مدينة سبتة.

(٧) نحن هنا بمسيس الحاجة إلى اختصار طرف من أخبار الدولة الحسنية الحمودية يعرف بها حالهم ونسبهم، ويتسق بها تسلسلهم وتعاقب ولا THEM: فأول ملوك بنى هاشم بالأندلس علي بن حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبيد الله بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، خرج من سبتة إلى مالقة للأخذ بثأر هشام الخليفة الأموي فانحاز إليه خيران الصقليبي، وزاوي بن زيري، وحبوس بن ماكسن وإخوته وبنو عمه من صنهاجة، ومن انضم إلى هؤلاء من جماعة الناس، فحارب بهم سليمان قاتل هشام وهزمه ودخل القصر بقرطبة، وتسمى بأمير المؤمنين، وبقي خليفة إلى أن قتله صقالبته بحمام قصره سنة (٤٠٨). وولي الخلافة بعده بقرطبة أخيه القاسم بن حمود، ولي مرتين: المرة الأولى سنة (٤١٢) وبقي بها إلى أن فر وخلعه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود، والثانية بعد ابن أخيه يحيى، وتوفي محبوساً عند ابن أخيه إدريس بن علي بن حمود، وبعد هؤلاء انقرضت دولة بنى حمود بقرطبة.

ولما خرج يحيى بن حمود من قرطبة في خلافته الأولى استوطن مالقة أما عمه

القاسم فخرج منها إلى إشبيلية فأوصد أهلها أبوابها في وجهه، فاستقر بشريش، فزحف إليه ابن أخيه يحيى هذا، وأسره وأسر معه بنيه وسجنه في مالقة، وبذلك صارت شريش ومالقة، والمرية، وسبتة في طاعته، وخطبوا له بالخلافة، وبقي عمه القاسم سجينًا عنده إلى أن قتله خنقاً، أما يحيى بن علي فبقي خليفة إلى أن قتل بقرمونة سنة (٤٢٧) ولما وصل خبر مقتله إلى أخيه إدريس بن بن حمود دخل مالقة ودعا لنفسه، فبایعه حبوس بن ماكسن وقبيلته صنهاجة، وتوفي إدريس هذا صاحب سبتة ومالقة سنة (٤٢١) وبويغ أخوه حسن بن علي بسبتة، ولما توفي قام بعده ولده يحيى بن حسن بن علي، ثم قام عليه ابن عمته حسن بن يحيى بن علي فخلعه وقتلته بسبتة ثم توفي حسن بن يحيى هذا بمالقة مسموماً، وترك ولداً صغيراً بسبتة، فقام به قائده «أبو الفوز نجاء» فجاز البحر إلى الجزيرة الخضراء، ولما كان في بعض الطريق قتله أخوال يحيى بن حسن ومواليه، ونهض قوم منهم إلى مالقة فقتلوا الوزير أبي جعفر بن موسى، وأخرجوا إدريس بن يحيى بن علي بن حمود من سجنه، فبایعه أمراء البربر، وخطبوا له باسم الخلافة وذلك سنة (٤٣٤) ثم قدم عليه بمالقة ابن عمته محمد بن إدريس بن علي بن محمود، وخلعه سنة (٤٣٨) وبويغ له بالخلافة، وكان سفاكاً للدماء فوجه إليه باديس بن حبوس بكأس عراقي مسموم فمات في سنة (٤٤٤) فولى ولده محمد، فخلعه البربر وأقاموا محمد بن القاسم بن محمود، ومات محمد بن القاسم، فبایعوا ابنه القاسم ثم تغلب ابن عباد صاحب إشبيلية على الجزيرة الخضراء، وأخرج منها القاسم بن محمد بن القاسم بن محمود، وبخروجه انقرضت ذريتهم من الأندلس، ودالت دولة الحموديين بها، وكانت مدتهم ٥٨ سنة.

الفصل الخامس

(١) المعتصد وأخباره وأشعاره

نقل هنا – بتصرف يسير – طرفاً من أخبار المعتصد عن كتاب المجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي، ثم نتبع ذلك بنبذة من قصائده ومقطوعاته نفلاً عما أثبتناه من شعر الملkin «المعتصد والمعتمد» في شرح «ديوان ابن زيدون» (ص ٢٧٠) تتميّاً للفائدة، وإثباتاً لما له مساس بالحصول (٦، ٥، ٧) من كلام «دوزي» حتى يكون القارئ على بينة مما يمر به فيها منحوثات التاريخية، والعبارات التحليلية التي يحلل بها «دوزي» نفسية ملkin عظيمين من ملوك الطوائف هما المعتصد ومنافسه باديس وذلك ما نراه ضروريًّا ولازماً لاتصاله بما نحن فيه اتصالاً وثيقاً.

المعتضد

هو أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد، ولـي أمرـور إـشـبـيلـيـة وأـعـمـالـهـا بـعـدـ وـفـةـ أبيـهـ القـاضـيـ أـبـيـ القـاسـمـ مـحـمـدـ بنـ إـسـمـاعـيلـ سـنـةـ (٤٣٩ـ)ـ هـ وـجـرـىـ عـلـىـ سـنـ أـبـيـهـ أـوـلـاـ مـنـ جـعـلـ الـحـكـمـ شـوـرـىـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ مـجـلـسـ مـنـتـخـبـ مـنـ أـعـوـانـ وـوزـرـاءـ وـشـرـكـاءـ لـاـ يـقـطـعـ أـمـرـاـ دـوـنـهـمـ،ـ وـلـاـ يـحـدـثـ حـدـثـ إـلـاـ بـمـشـورـتـهـمـ،ـ ثـمـ بـدـاـ لـهـ أـنـ يـسـتـبـدـ بـالـمـلـكـةـ وـحـدـهـ،ـ وـكـانـ شـهـمـاـ صـارـمـاـ حـدـيدـ الـقـلـبـ شـجـاعـ النـفـسـ بـعـيـدـ الـهـمـةـ ذـاـ دـهـاءـ،ـ وـوـاتـتـهـ مـعـ هـذـاـ الـمـقـادـيرـ،ـ فـلـمـ يـزـلـ يـعـمـلـ عـلـىـ إـبـعـادـ شـرـكـائـهـ فـيـ الـحـكـمـ وـاحـدـاـ وـاحـدـاـ فـمـنـهـمـ مـنـ قـتـلـهـ صـبـرـاـ،ـ وـمـنـهـمـ مـنـ نـفـاهـ عـنـ الـبـلـادـ،ـ وـمـنـهـمـ مـنـ أـمـاـتـهـ خـمـوـلـاـ وـفـقـرـاـ،ـ إـلـىـ أـنـ تـمـ لـهـ مـاـ أـرـادـهـ مـنـ الـاـسـتـبـادـ بـالـأـمـرـ،ـ وـتـلـقـبـ بـالـمـعـتـضـدـ بـالـلـهـ،ـ وـمـنـ حـيـلـهـ وـدـهـائـهـ فـيـ السـيـاسـةـ أـنـ اـدـعـيـ أـنـهـ وـقـعـ إـلـيـهـ هـشـامـ الـمـؤـيدـ بـالـلـهـ بـالـمـعـتـضـدـ بـالـلـهـ،ـ وـمـنـ حـيـلـهـ وـدـهـائـهـ فـيـ السـيـاسـةـ أـنـهـ اـدـعـيـ أـنـهـ وـقـعـ إـلـيـهـ هـشـامـ الـمـؤـيدـ بـالـلـهـ بـنـ الـحـكـمـ الـمـسـتـنـصـرـ بـالـلـهـ،ـ وـكـانـ الـذـيـ حـمـلـهـ عـلـىـ تـدـبـيرـ هـذـهـ الـحـيـلـةـ،ـ مـاـ رـأـهـ مـنـ اـضـطـرـابـ أـهـلـ إـشـبـيلـيـةـ وـخـافـ قـيـامـ الـعـامـةـ عـلـيـهـ،ـ لـأـنـهـ سـمـعـواـ بـظـهـورـ مـنـ ظـهـرـ مـنـ أـمـرـاءـ بـنـيـ أـمـيـةـ بـقـرـطـبـةـ كـالـمـسـتـظـهـرـ،ـ وـالـمـسـتـكـفـيـ،ـ وـالـمـعـتـضـدـ،ـ فـاـسـتـقـبـحـوـ بـقـاءـهـمـ بـغـيـرـ خـلـيـفـةـ،ـ وـبـلـغـهـ أـنـهـ يـطـلـبـونـ مـنـ أـلـوـادـ بـنـيـ أـمـيـةـ مـنـ يـقـيمـوـنـهـ،ـ فـادـعـيـ مـاـ اـدـعـاهـ مـنـ ذـلـكـ،ـ وـذـكـرـ أـنـ هـشـامـاـ عـنـهـ بـقـصـرـهـ،ـ وـشـهـدـ لـهـ خـواـصـ مـنـ حـشـمـهـ،ـ وـصـورـ نـفـسـهـ بـصـورـةـ الـحـاجـبـ لـهـشـامـ،ـ وـالـمـنـفـذـ لـأـمـورـهـ وـأـمـرـ بـالـدـعـاءـ لـهـ عـلـىـ الـمـذـابـرـ،ـ فـاـسـتـمـرـ ذـلـكـ مـنـ أـمـرـهـ سـنـينـ إـلـىـ أـنـ أـظـهـرـ مـوـتـهـ،ـ وـنـعـاهـ إـلـىـ رـعـيـتـهـ فـيـ سـنـةـ (٤٥٥ـ)ـ وـاـسـتـظـهـرـ بـعـهـدـ لـهـ هـشـامـ الـمـذـكـورـ فـيـمـاـ زـعـمـ،ـ وـأـنـهـ أـمـيرـ بـعـدـهـ عـلـىـ جـمـيعـ جـزـيـرـةـ الـأـنـدـلـسـ،ـ وـلـمـ يـزـلـ الـمـعـتـضـدـ هـذـاـ يـدـوـخـ الـمـالـكـ،ـ وـتـدـيـنـ لـهـ الـلـوـكـ مـنـ جـمـيعـ أـقـطـارـ الـأـنـدـلـسـ،ـ وـكـانـ قـدـ اـتـخـذـ خـشـبـاـ فـيـ سـاحـةـ قـصـرـهـ جـلـلـاـ بـرـعـوـسـ الـلـوـكـ وـرـؤـسـاءـ عـوـضـاـ عـنـ الـأـشـجـارـ الـتـيـ تـكـوـنـ فـيـ الـقـصـورـ،ـ وـكـانـ يـقـولـ:ـ فـيـ مـثـلـ هـذـاـ الـبـسـتـانـ فـلـيـتـنـزـهـوـنـ!ـ

وـجـملـةـ أـمـرـ هـذـاـ الرـجـلـ أـنـ كـانـ أـوـحـدـ عـصـرـهـ شـهـامـةـ وـصـرـامـةـ وـشـجـاعـةـ قـلـبـ،ـ وـحدـةـ نـفـسـ،ـ كـانـواـ يـشـبـهـوـنـهـ بـأـبـيـ جـعـفـرـ الـمـنـصـورـ مـنـ مـلـوـكـ بـنـيـ الـعـبـاسـ،ـ وـكـانـ قـدـ اـسـتـوـىـ فـيـ مـخـافـتـهـ الـقـرـيبـ وـالـبـعـيدـ،ـ لـاـ سـيـماـ مـنـذـ قـتـلـ اـبـنـهـ وـأـكـبـرـ أـلـوـادـ الـمـرـشـحـ لـوـلـاـيـةـ عـهـدـ صـبـرـاـ،ـ وـكـانـ سـبـبـ ذـلـكـ أـنـ وـلـدـهـ الـمـذـكـورـ،ـ وـاسـمـهـ إـسـمـاعـيلـ،ـ كـانـ يـبـلـغـهـ عـنـهـ أـخـبـارـ مـضـمـونـهـ اـسـطـالـةـ حـيـاتـهـ،ـ وـتـمـنـيـ وـفـاتـهـ،ـ فـيـتـغـاضـىـ الـمـعـتـضـدـ،ـ وـيـتـغـافـلـ تـغـافـلـ الـوـالـدـ إـلـىـ أـنـ أـدـىـ ذـلـكـ التـغـافـلـ إـلـىـ أـنـ سـكـرـ إـسـمـاعـيلـ الـمـذـكـورـ لـيـلـةـ وـتـسـوـرـ سـوـرـ الـقـصـرـ الـذـيـ فـيـهـ أـبـوـهـ فـيـ عـبـاءـ وـأـرـادـلـ مـعـهـ،ـ وـرـامـ الـفـتـكـ بـأـبـيـهـ،ـ فـانـتـبـهـ الـبـوـابـونـ وـالـحـرـسـ،ـ فـهـرـبـ أـصـحـابـ إـسـمـاعـيلـ،ـ وـأـخـذـ بـعـضـهـمـ فـاقـرـ،ـ وـأـخـبـرـ بـالـكـانـةـ عـلـىـ وـجـهـهـاـ،ـ وـقـيـلـ إـنـ إـسـمـاعـيلـ لـمـ يـكـنـ مـعـهـمـ وـإـنـماـ بـعـثـهـمـ

على ذلك، وجعل من قتل أباً المعتصم جعلًا سنّيًّا، فالله أعلم، فقبض المعتصم على ابنه إسماعيل هذا، واستتصفى أمواله، وضرب عنقه فلم يبق أحد من خاصته إلا هابه حينئذ. وبلغني أنه قتل رجلاً أعمى بمكة، كان يدعوه عليه بها، وكان هذا الرجل من بادية إشبيلية، وكان المعتصم قد وضع يده على بعض مال لهذا الرجل الأعمى، وذهب باقي ماله حتى افتقر، ورحل إلى مكة، فلم يزل يدعوه على المعتصم بها إلى أن بلغه عنه ذلك، فاستدعى بعض من يريد الحج وناوله حُقاً فيه دنانير مطلية بالسم، وقال: «لا تفتح هذا حتى تدفعه إلى فلان الأعمى بمكة، وسلم عليه عَنًا». فاتفق أن سافر الرجل ومعه الحق، فحين وصل مكة لقي الأعمى ودفع إليه الحق وقال: هذا من عند المعتصم، فأنكر ذلك الأعمى. وقال: «كيف يظلمني بإشبيلية، ويتصدق علي بالحجاز!» فلم يزل الرجل يخفيه إلى أن سكن وأخذ الحق، فكان أول شيء فعله أن فتح الحق، وعمد إلى دينار من تلك الدنانير فوضعه في فمه وجعل يقلب سائرها بيده، إلى أن تمكن منه السم، فما جاء الليل حتى مات، فاعجب لرجل بقاصية المغرب، يعني بقتل رجل بالحجاز، وقتل على هذه الصورة رجلاً من المؤذنين من أهل إشبيلية، فر منه إلى طليطلة، فكان يدعوه عليه بها في الأسحار مقدراً أنه قد أمن غائلته إذ صار في مملكة غيره، فلم يزل يعمل فيه الحيلة إلى أن بعث من قتله وجاءه برأسه. وكان أكبر من يناؤه من المغلوبين المجاورين له، وأشدهم عليه البربر: صنهاجة وبني بزال الذين بقرونونة وأعمالها من نواحي إشبيلية، فلم يزل يصرف الحيلة تارة، ويجهز الجيوش أخرى إلى أن استزلهم، ففرق كلمتهم، وشتت منظم أمرهم، ونفاهم عن جميع تلك البلاد وصفت له أمرها، كان له عين بقرونونة يكتب له بأخبار البربر، بلغ من لطف حيلة المعتصم — وقد أراد أن يكتب إلى ذلك الرجل الذي جعله عيناً له بقرونونة كتاباً في بعض أمره — أن استدعى رجلاً من بادية إشبيلية شديد البهكثير الغفلة وقال له: «اخلع ثيابك». وألبسه جبة جعل في جيبيها كتاباً وخطط عليه. وقال له: «اخرج إلى قرونونة فإذا وصلت بقربها فاجمع حزمة حطب وادخل بها البلد، وقف حيث يقف أصحاب الحطب، ولا تبعها إلا من يشتريها منك بخمسة دراهم». وكان قد قرر هذا كله مع صاحبه الذي بقرونونة، فخرج البدوي كما أمره المعتصم، فلما قرب من قرونونة جمع حزمة من الحطب، ولم يكن قبل هذا يعني جمعه، فجمع حزمة صغيرة، ودخل بها البلد ووقف في موقف الحطابين، فجعل الناس يمرون عليه، ويسمونه منه حزمه. فإذا قال لا أبيعها إلا بخمسة دراهم ضحك من يسمع هذا القول منه ومر عنه، فلم يزل كذلك إلى أن أجننه الليل، والناس

يسخرون منه، فبعضهم يقول: هذا آبنوس، ويقول الآخر: لا بل هو عود هندي، وما أشبه هذا حتى مر به صاحب المعتصم. فقال له: «بكم تبيع حزمنتك هذه.» فقال: «بخمسة دراهم.» فقال: «قد اشتريتها، فاحملها إلى البيت.» فقام يحملها، والرجل بين يديه حتى بلغ بيته فوضع الحزمة، ودفع إليه الخمسة الدراهم، فلما أخذها وهم بالانصراف، قال له: «أين تريد في هذا الوقت، وقد علمت خوف الطريق فبت الليلة عندي، فإذا أصبحت رجعت إلى منزلك.» فأجابه فأدخله إلى بيته وقدم له طعاماً وسأله كأنه لا يعرفه: «من أين أنت؟» فقال: «أنا من بادية إشبيلية.»

قال: «يا أخي ما الذي جاء بك إلى هذا الموضع وقد علمت نك البربر وشئونهم، وهوان الدماء عليهم؟» فقال: «حملتني على هذا الحاجة.» ولم يظهر له أن المعتصم أرسله، فلم يزل الرجل يحادثه إلى أن أخذه النوم، فلما رأى غلبة النوم عليه قال له: «تجرد من ثوبك هذا فهو أهناً لنومك، وأروح لجسمك.» فتجرد الرجل ونام، وأخذ صاحب المعتصم الجبة ففتق جيبها، واستخرج الكتاب فقرأه، وكتب جوابه وجعله في جيب الجبة، وخطط عليه كما كان، فلما أصبح الرجل ليس جبه، ورجع إلى إشبيلية وقصد باب دار الإمارة، واستأند فأخذ على المعتصم. فقال له: «اخلي هذه الجبة.» وكساه ثياباً حساناً، فرح بها البدوي وخرج من عنده فرحاً يرى أنه قد خلع عليه، ولم يعلم فيه ذهب ولا بم جاء؟ وأخذ المعتصم الكتاب من جيب الجبة فقرأه، وتم ما أراد من أمره. وله في تدبير ملكه، وإحكام أمره آراء عجيبة، وحيل غريبة، لم يسبق إلى أكثرها يطول تعدادها، ويخرج عن حد التلخيص بسطها.

ولما قتل ابنه إسماعيل كما تقدم، وكان قد لقبه المؤيد، عهد بعده إلى ابنه أبي القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد، ولقبه بالمعتمد على الله فحسنت سيرة أبي القاسم هذا في حياة أبيه وبعد وفاته.

وتوفي المعتصم بالله في شهر رجب من سنة (٤٦٤).

أشعاره

قال المعتصم بالله المنصور بفضل الله أبو عمرو عباد بن محمد بن عباد يصف شغفه بذكر المادمة وحبه لما يهوى التديم، ومناؤاته للعدو المناوى، وتقسيمه زمنه شطرين: شطر لتدبير الملك، وشطر للمرح واللهو وإدمان الخمر:

وإني — لما يهوى الندامي — لفعال
فللرأي أسفار، وللطيب آصال
وأضحى بساحات الرياسة أختال
من المجد؛ إني في المعالي لمحタル
أسهد عيني أن تنام بي الحال
يروق بدا مني مقال وأفعال

لعمرك إني — بالمدامة — قوال
قسمت زمانى بين كد وراحة
فأمسى على اللذات واللهو عاكفاً
ولست على الإدمان أغفل بغىتي
إذا نام أقوام عن المجد ضلة
وإن راق أقواماً من الناس منطق

وقال يتغزل:

سعيراً، وعيني منه في جنة الخلد
كثيبة الردفين غصنية القد
وأعلمتها ما قد لقيت من الوجد
فأعدى وذو الشوق المبرح قد يعدي
وقد ينبع الماء النمير من الصلد
أفضل نوار الأقاحي على الورد
تعيد الذي أملت منها كما تبدي
فرادي ومثنى كالشرار من الزند
لدي تقضت غير مذومة العهد

رعى الله من يصلي فؤادي بحبه
غزالية العينين شمسية السنما
شكوت إليها حبها بمدامعي
فصادر قلبي قلبها — وهو سالم —
فحادت — وما كادت — علي بخدتها
فقلت لها: هاتي ثناياك إني
وميلي على جسمي بجسمك فانشت
عنقاً ولثماً أرويا الشوق بيمنا
فيما ساعة ما كان أقصر وقتها

وقال يتمدح بالكرم والسخاء ومضاء العزم:

وإن كنت قد جردت عزمي ماضياً
ويرميني مني صائب السهم قاضياً
وما زلت من لبس الدنیات عارياً
يجدد منها الجود ما كان بالياً
ولا مر بخل الناس قط بباليها
وبذلي عند الحمد نفسي ومالها

رعى الله حالينا حديثاً وماضياً
فما للبيالي لا تزال ترومني
وقد علمت أن الخطوب تطيعني
أجدد في الدنيا ثياباً جديدة
فما مر لي بخل بخاطر مهجتي
الآن حبذا في المجد إتلاف طارفي

وقال حين دخل على ابنه المعتمد مالقه:

أرية! أنت فائدة الزمان
وقد رمناك من بلد بعيد
بذلنا جهودنا عزماً وحزماً
وأجهدنا العزائم والمساعي
ليهنىء أهل مالقة انتصاري
سينقذهم وينميهم جميعاً
وأرقىهم ذرا درج المعالي
وأضعاف الذي يبدي لسانني
الم أعتقهم من ذل كفر
وتوراة محرفة أعزت
إلى أن ثار بي عزم يمان
 وأنضيit الصوارم خاطبات
فعاد البر معمور المغاني
وقام إمام جامعهم يصلي

فقد فقت الممالك في معان
فأدناك الإله بلا توان
ووطنا الكمة على الطعان
وأعملنا الحسام مع السنان
وإعزازي لهم بعد الهوان
رضاع الخير أن درت لباني
كما أجنائهم ثمر الألماني
إليهم ما يجن لهم جناني
جرى في ضيهم ملء العنان
فطالت ذلة السبع المثاني
فأدرك سؤله العصب اليماني
فكان قضاها سحر البيان
وآب الفسق مهدوم المباني
وشنت المسامع بالأذان

هذا ما اختنناه من شعر المعتصم، وهو وإن لم يكسبه — كما يقول «دوزي» — بين معاصريه مكانة شاعر مجيد، لخلوه من الدبياجة والطلاؤة، وبعده عن المثانة والجزالة، وتقصيره عن بلوغ المرتبة الأدبية التي تسمو به إلى مستوى الشعر الفحل، فإن فيه من الشواهد التي ينتفع بها المؤرخ ما لا يصح معها إغفاله، ولا ينفي إهماله، لذلك ترى «دوزي» يستشف من خلال أبيات المعتصم، ويستخرج من تضاعيف قصائده ومقطعاته الكثير من صفاته وعاداته وأخلاقه، ويتعرف وجوه الفرق بينه وبين مناوئه وعدوه باديس عند الموازنة بينهما كملكتين متجاورين عاشا في حروب ومنازعات.

(٢) يقول الفتح بن خاقان، في كتابه قلائد العقيان، ضمن فصل عرض فيه لذكر باديس والمعتصم ما يلي بنصه وفصه:

ولما ثل عرش الخلافة وخوى نجمها، ووهى ركن الإمامة وطمس رسمها
وصار الملك دعوى، وعادت العافية بلوى، استنصر البغاث، وصحت الأضفاث،
واستأسد الظبي في كناسه، وثار كل أحد في ناسه، وخلت المنابر من رقاتها،
وفقدت الجموع مقيمي أوقاتها، وكان باديس بن حبوس بغرناطة عائياً في

فريقه، عادلاً عن سنن العدل وطريقه، يجترئ على الله غير مراقب، ويجرى إلى ما شاء غير ملتفت للعواقب، قد حجب سنانه لسانه، وسبقت إساءته إحسانه، ناهيك من رجل لم يبيت من ذنب على ندم، ولا شرب الماء إلا من قليب دم، أحزن من كاد ومكر، وأجرم من راح وابتكر، وما زال متقداً في مناخيه، مفتقداً لنواحيه، لا يرام بريث ولا عجل، ولا يبيت له جار إلا على وجل، إلى أن وكل أمره إلى أحد اليهود واستكفاه، وجرى في ميدان لهوه حتى استوفاه، وأمره أضيع من مصباح الصباح، وهمه في غبوق واصطباخ، وببلاده مراد للفاتك، وستره في يد الهاتك. فسقط الخبر على المعتصم بالله ملجم الحرب، ومنتج الطعن والضرب، الذي صاد الطير تحت أجنحة العقبان، وأخذ الفريسة من فم الثعبان، فسدد إلى مالقة سهمه وسانه، ورد إليها طرفه وبنانه، وصمم إليها تصميم سابور إلى الحضر، وعزم عليها عزيمة رسول الله ﷺ على النصر، ووجه إليها جيشه المتراحم الأفواج، المتلاطم الأمواج، وعليه سيفه المستل، وحثته المحتل، ابنه المعتمد سهام الأعادي، وحمام الأسد العادي، فلما أطل عليها أعتته صفتها، وأمطته صهوتها، إلا قصبتها فإنها امتنعت بطاقة من السودان المغاربة لم يرضوا سفاحها، ولا أمضوا نكاها، وفي أثناء امتناعهم، وخلال مجادلتهم ودفعهم، طيروا إلى باديس من ذلك خبراً أصحاب من نشوتة، ولحاه عن صبوته، فأخرج من حينه كتبته التي كانت ترمي بالزبد، ولا تتناثر عن القنا القصد، وعليها ابن الناية قائد جنده، وموري زنده، وقد كان وأشار على المعتمد بربابره بتتفيس المتنعين ولووه عن مساورتهم، وشنوه عن مراوحتهم ومبادرتهم، ومنعوه من نزالهم، وأطمعوه في استنزالهم، وإنما كان ذلك أبقى على الأقارب، وأتقى على أولئك المغارب. فعدل عن انتهاز فرصتهم، وإبراء غصتهم، إلى الاستراحة من تعبه، والإناخة على لهوه ولعبه، وتفرق أصحابه في ارتياض الفتيات، وطاراد اللذات، فما أمسى إلا وقد غشيه ليلها، وسال عليه سيلها، وأصحابه بين صريح رحique، ومُنادٍ من مكان سحيق، فخاب سعيه، وبالرأيه، ونجا برأس طمرة ولجام، وأوى إلى أحد المعاقل أعرى من الحسام، فقد المعتصم عليه بتتفيسه لأهل القصبة، وإصاخته إلى تلك العصبة، وضربه بالعصي، ونكله تنكيل القصي، فكتب إليه:

مولاي أشكو إليك داء
أصبح قلبي به جريحا
سخطك قد زادني سقاماً
فابعث إلي الرضا مسيحا

فعفا عنه وصفح، وعقب له عرف رضاه ونفح، وقد كان قبل كتب إليه — حين
أمره بالمقام بالموقع الذي نجا إليه مسجوناً — يسليه، ويعرض له بالبربر
ويستعطفه مما حصل فيه:

ماذا يعيid عليك البث والحزن
فلا مرد لما يأتي به القدر
فكم غزوت ومن أشياعك الظفر
صن حد عبdk فهو الصارم الذكر
وغال مورد آمالي بها كدر
والصوت منخفض، والطرف منكسر
وشبت رأساً ولم يبلغني الكبر
عثباً وها هو قد ناداك يعتذر
وفى لهم عدلك المألهف إذ غدروا
بغض، ونفعهم إن صرقووا ضرر
ويعرف الحقد في الألحاظ إن نظروا

سگن فؤادك لا تذهب بك الفكر
فإن يكن قدر قد عاق عن وطر
وإن تكون خيبة في الدهر واحدة
يا فارساً تحذر الأبطال صولته
قد أخلفتني صروف أنت تعلمها
فالنفس جازعة، والعين دامعة
قد حلت لوناً وما بالجسم من سقم
لم يأت عبdk ذنباً يستحق به
ما الذنب إلا على قوم ذوي دغل
قوم نصيحتهم غش، وحبهم
يميز البعض في الألفاظ إن نطقوا

إلى آخر ما ذكره في هذا الفصل عن المعتمد وولديه المأمون والراضي ونزول المرابطين
بقرطبة وزوال دولة آل عياد، ورائية المعتمد هذه لأبيه المعتمد قد رواها الفتح ناقصة
كما ترى، وهي بتمامها مثبتة في شعر الملكين من شرحنا «ديوان ابن زيدون».
(٣) هكذا يشبهه «دوزي» على حين يروي صاحب كتاب المعجب أن المعتمد كان
الناس يشبهونه بأبيي جعفر المنصور من ملوك بنى العباس (ارجع إلى الهاشم تحت
عنوان «المعتمد أخباره وأشعاره» أول هذا الفصل).

الفصل السادس

(١) هو أمير «مرتولة» حليف محمد بن الأقطش، وقد هزما معاً في حرب إشبيلية
 حوالي عام ١٠٣٠ م.

- (٢) هي مدينة على نهر الوادي اليانع انتزعها المعتصم من ابن طيفور عام ١٠٤٤م.
(٣) هو أمير «نبيلا» وهو عربي الجنس، وقد حاربه المعتصم رغبة في الاستيلاء على
مدينته فاستعلن ابن يحيى بالبربر، فنصروه وردوا المعتصم عما أراد.
(٤) «بلة»: مدينة في جنوب الأندلس تقع بين نهري الوادي الكبير والوادي اليانع.
(٥) «سالطس»: جزيرة صغيرة.

الفصل السابع

(١) في كتاب الذخيرة لابن بسام فصول هي أمس ما يكون بما كتبه «دوزي»
عن المعتصم، وسنذكر منها فيما يلي ما هو كالأصل لما كتبه «دوزي» عنه مع اختصار
وتحف حسبما يقتضيه المقام فنقول:

المعتصم بالله عباد بن ذي الوزارتين القاضي أبي القاسم محمد بن عباد، أفضى
إليه الأمر بعد أبيه سنة (٤٣٢)هـ وتنسمى بفخر الدولة، ثم بالمعتصم: قطب
رحي الفتنة، ومنتهى غاية المحن، من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد، ولا
سلم عليه قريب ولا بعيد، جبار أبزم الأمور وهو متناقض، وأسد فرس الطائى
وهو رابض، ثار والناس حرب، وكل شيء عليه إلبه، فكفى أقرانه، وهم غير
واحد، وضبط شأنه، بين قائم وقاعد، حتى طالت يده، واتسع بله، وكثير
عديده وعده، افتتح أمره بقتل وزير أبيه «حبيب» طعنة في ثغرة الأيام ملك
بها كفه، وجباراً من جبارية شرد به من خلفه، استمر يغري ويخرق، وأخذ
يجمع ويفرق، وهو في كل ناحية ميدان، وعلى كل رابية خوان، حربه سم لا
يبطئ، وسهم لا يخطئ، وسلمه شر غير مأمون.

وذكره ابن حيان فقال:

وعشي يوم الأربعاء لست خلت لحمادى الآخرة سنة إحدى وستين طرق قرطبة
نعي المعتصم عباد زعيم جماعة أمراء الأندلس في وقته، أسد الملوك، وشهاب
الفتن، وداحض العار، ومدرك الأوغار، وذو الأنباء البديعة، والحوادث الشنيعة،
والواقع المبيرة، والهمم العلية، والسطوة الأبية، فرماه الله بسهم من مراميه
المصممية أحمد ما كان في اعتلائه، وأرقى ما كان إلى سمائه، وأطمع ما كان في

الاحتواء على الجزيرة، محترفًا لها عند تشميه الذيل بفتنته لا كفاء لها، فتوفاه الله على فراشه من علة نبحة قصيرة الأمد، وحية الإيجاز ... وكانت ولاليته بعد موت أبيه القاضي يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين، وقضى نحبه يوم السبت من جمادى الآخرة سنة إحدى وستين، ودفن عشية يوم الأحد بعده، تغمد الله خططياه، فلقد حمل عليه — على مر الأيام في فرط القسوة، وتجاوز الحدود في المثلة، والأخذ بالظنة، والإخفار بالذمة — حكايات شنيعة، لم يجد في أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها، فالقول ينساغ في ذكرها، ومهما برع من معيبها فلم يبرأ من شدة القسوة، وسوء الاتهام على الطاعة، سجايا من جبلا لم يحسن فيها ذوي رحم وشجرة. وقد كان تقبيل سيرة أَحْمَدَ بْنَ أَبِي أَحْمَدَ بْنَ الْمُتَوَكِّلِ أَحَدَ أَشَدَّاءِ الْعَبَاسِيِّينَ، الذي ضم نشر المملكة بالشرق وسطا بالمنتزدين عليها، وبفقده انهدمت الدولة، فحمل عباد سنته المعتصدية، وطالع بفضل نظره أخباره السياسية، التي أضحت عند أهل النظر مثله هادية، إذ الاحتواء على أَمْدَ الْرِّيَاسَةِ فِي صِلَابَةِ الْعُصَيِّ، وصَنَاعَةِ الشَّظَّيِّ، فجاءَ مِنْهَا بِمَهْوَلَاتِ تَذَعُّرِ مِنْ سَمْعِ بَهَا، فَضْلًا عَنْ عَيْنِهَا، نَسَبُوا إِلَيْهَا الْأَمْيَرَ الشَّهَمَ أَمْتَالَهَا مِنْ غَيْرِ دَلَالَةٍ، وَقَدْ انطَوَى عَلَى اللَّهِ عَلَيْهَا، وَتَقَرَّرَ إِرْصَادُهُ لِلْمَكَافَأَةِ بَهَا، وَلَمْ يَقْصُرْ عَبَادُ فِي دُولَتِهِ الَّتِي مَهَدَهَا فَوْقَ أَطْرَافِ الْأَسْنَةِ، وَصَبَرَ أَكْثَرَ شَغْلِهِ فِي هَاشِ الْحَرُوبِ، وَكِيَادِ الْمُلُوكِ، وَإِهْرَاجِ الْبَلَادِ، وَإِحْرَازِ التَّلَادِ، مِنْ تَوَافِرِ حَظِّهِ الْأَوَّلِيِّ مِنَ الْأُمُورِ الْمُلُوكِيَّةِ، وَالْعَدْدُ الْسُّلْطَانِيَّةِ، وَالْأَلَاتِ الْرِّيَاسِيَّةِ، فَابْتَنَى الْقَصُورَ، وَاعْتَمَرَ الْعَمَارَاتِ الْمُغْلَةَ، وَأَكْتَسَى الْمَلَابِسِ الْفَاخِرَةَ، وَغَالَى فِي الْأَعْلَاقِ السُّنْنِيَّةِ، وَارْتَبَطَ الْخَيُولُ السَّابِحةُ، وَاقْتَنَى الْغَلْمَانَ الرُّوْقَةَ، وَاتَّخَذَ الرِّجَالَ الْذَّادَةَ، تَنَقَّاهُمْ مِنْ كُلِّ فَرْقَةٍ، فَسَاسُ طَبَقَاتِهِمْ مَا بَيْنِ إِدْرَارِ الْأَعْطِيَّةِ، وَضَمَانِ الْزِيَادَةِ عَلَى صَدْقِ الْعَمَالِ، وَالْوَفَاءِ بِالْوَعِيدِ عَلَى النَّكَالِ مِنَ الْعَدُوِّ، سِيَاسَةً أَعْيَتْ عَلَى أَنْدَادِهِ مِنْ مَلُوكِ الْأَنْدَلِسِ، فَخَرَجَ مِنْهُمْ رَجَالًا مُسَايِّرِ حَرُوبِ أَبَادِ بَهْمِ أَفْتَالِهِ، مِنْ نَادِرِ أَخْبَارِهِ الْمُتَنَاهِيَّةِ فِي الْغَرَابَةِ أَنْ نَالَ بَغْيَتِهِ مِنْ أَهْلِ تَلْكَ الْأَمْمَ الْعَاتِيَّةِ، وَإِنَّهُ لِغَائِبٍ عَنْ مَشَاهِدِهِ، مَتَرْفَهُ عَنْ مَكَابِدِهِ، مَدْبِرُ فَوْقَ أَرِيَكتِهِ، مَنْفَذُ حَلِيَاهَا مِنْ جَوْفِ قَصْرِهِ، مَا إِنْ مَشَى إِلَى عَدُوِّ أَوْ مَغْلُوبٍ مِنْ أَفْتَالِهِ غَيْرَ مَرَةٍ أَوْ اثْنَتَيْنِ، ثُمَّ لَزَمَ عَرِيسَتِهِ يَدْبِرُ دَاخِلَهَا أَمْوَارَهُ، جَرَدْ نَهَارَهُ فِي الإِبْرَامِ وَالْتَّدْبِيرِ، وَأَخْلَصَ لِيَهُ لِتَمْلِي السَّرُورِ، فَلَا يَزَالُ

تدار عليه كئوس الراح، ويحييا عليها بقبض الأرواح، التي لأنابيبها من أعدائه بباب قصره حديقة تطلع كل وقت ثمراً من رعوسمهم المهدأة إليه، مقرطة الآذان برقاع الأسماء المنوهة بحاملها، ترتاح نفسه لمعاينتها، والخلق يذعون من التماحها، وهو واصل نعيم ليله بإجاللة كيده، ومبتدع نشاط لهوه بقوّة أئيده، له في كل شأن شوين، وعلى كل قلب سمع وعين، ما إن سبر أحد من دهاء رجاله غوره، ولا أدرك قعره، ولا أمن مكره، لم يزل ذلك دأبه، منذ ابتدائه إلى انتهاه.

وكان محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدي، مفرق الجماعة بقرطبة، ومبتعد تلك الفتنة المبيرة، قد سبق عباداً إلى اتخاذ مثل هذه الحديقة المطلعة لرعوسم أعدائه أيام أكثر له «واضح» الخصي العامري من إرسال رعوسم الخارجين عليه لأول وقعة، وأصلاح بهم باب مدينة سالم، فغرس منها فوق الخشب المعلية لها بشرط النهر حذاء قصره حديقة هول عريضة، طولية الخطة، جمة عدد الصفوف المسطورة، شغللاً للناظرة.

وذكرتها شعراً، مثل قول صاعد بن الحسين من قصيدة أولها:

جلاء العين مبهجة النفوس	حدائق أطلعت ثمر الرعوسم
هناك الله — مهدي المساعي —	جنى الهمات من تلك الغروسم
فلم أر قبلها وحشاً جميلاً	كريه روائيه أنس الأنبيس
فماذا يملأ الأسماع منها	إذا ملئت بأبناء الطروسم

وقد كان لعباد وراء هذه الحديقة المائة قلوب البشر ذعراً مباهأة بخزانة بلوى، أكرم لديه من خزانة جوهره، مكتنونة (في) جوف قصره، أودعها هام الملوك الذين أبادهم بسيفه، منها رأس محمد بن عبد الله البرزيلي، شهاب الفتنة، ورعوسم الحجاب، ابن خزرون بن نوح وغيرهم، الذين قرن رعوسم برأس إمامهم الخليفة يحيى بن علي بن حمود، سابقهم إلى تلك الرفعة! فخص رعوسمهم بالصون بعد إذالة جسومهم الممزقة، وبالغ في تطبيتها، وتنظيفها للثواء لا للكرامة، وأودعها المصاون الحافظة لها، فبقيت عنده ثاوية تجيب سائلها اعتباراً (انتهى كلام ابن حيان).

ثم قال ابن بسام: قال ابن حيان: وكان عباد أوتي أيضًا من جمال الصورة، وتمام الخلة، وفخامة الهيئة، وسباطة البناء، وثقوب الذهن، وحضور الخاطر، وصدق الحسن، ما فاق به على نظرائه، ونظر مع ذلك في الآداب قبل ميل الهوى به إلى السلطان أدنى نظر بأذكى طبع حصل منه لثقوب ذهنه على قطعة وافرة علقتها من غير تعهد لها، ولا إمعان في غمارها ولا إكثار من مطالعتها، ولا منافسة في اقتناء صحائفها، أعطته نتيجتها على ذلك ما شاء من تحبير الكلام، وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة، في معانٍ أمدته فيها الطبيعة، وبلغ فيها الإرادة، واكتتبها الأدباء للبراعة، جمع هذه الحال الظاهرة والباطنة إلى جود كف باري بها السحاب. وأخبار ابن عباد في جميع أفعاله، وضروب أنوائه؛ علانياته وخافياته غريبة بعيدة، وكان على تجرده في أحكام التدبير لسلطانه ذا كلف بالنساء فاستوسع في اتخاذهن، وخلط في أجنسهن، فانتهى في ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه. قيل إنه خلف من صنوفهن السريات خاصة نحوًا من سبعين جارية إلى حرته الحظية لديه الفذة من حلائه بنت مجاهد العامرية أخت علي بن مجاهد أمير دانية، ففشا نسل عباد لتوسعه في النكاح وقوته عليه، ذكر أنه كان له من ذكور الولد نحو من عشرين، ومن الإناث مثلهم (انتهى كلامه).

حروب عباد مع المظفر وغيره من أمراء العرب

قال ابن حيان: وأول ما ظهر من تفاسد عباد والمظفر: أن ابن يحيى صاحب «بلة» عند هجوم عباد عليه استجار بالمظفر بن الأفطس فأجاره، وانزعج له، ووصل يده، وعطل ثغره، وجمع جيشه، وأقبل إلى «بلة» ناصراً لابن يحيى، مضيئاً لما خلفه، يوقد نار فتنته كان في غنى عنها، حتى نزل بنفسه على ابن يحيى، ودافع ابن عباد عنه، وحرك في ذلك من حلفائه البرابرة جماعة فسارعوا إليه غير ناظرين في عاقبة أمرهم، وتقدموا في تحريك يعسوبيهم محمد بالقاسم (؟) فانتظم به أمرهم وتقدم إلى إشبيلية ورحامه تدور على قريعهم باديس بن حبوس مدرهم في الجلي، ومفزعهم في النائية، يسلمون لرأيه، ويزدحمون برకنه، فأشفعوا الوزير ابن جهور من حركتهم تلك على عادته في التقليل لأمثالها، وجهد جهده في حربهم وأرسل ثقات رسليه إلى عامتهم إلا ما كان من الدائرين منهم عباد داعية المروانية، ومحمد بن إدريس صاحب مالقة دائم عمورية، فإنه تنكبها بعادرًا من الظنة، إذ كان هو وجماعة قربطبة متوقعين على كل دعوة، فلما وصلت رسليه إليهم ما زادهم إلا لجاجًا، ولم يزل ابن جهور يضرب لهم الأمثال، ويخوفهم من سوء

العاقبة حتى صار فيهم كمؤمن آل فرعون وعظاً وتذكرة، يحدو منهم الأطواد الراسية، ويرقى الحالات الضاربة، واستن القوم في ميدان العناد، فلما أصبح عند ابن عباد خروجه لـ «بلة» بجيشه دفع عن علي بن يحيى متظراً لخلطائه جرد جياد ضربت على بلد ابن الأفطس، وغارت وأنجدت، وفعلت فعلات نكبات القلوب، وقرفت الذنوب، ثم نهض ابن عباد بنفسه إلى «بلة» للقاء، فجرت بينهما على بابها وقعة عظيمة صعبة استهما فيها النصر في مكان واحد شق الأبلمة، وكانت أولاً على ابن الأفطس فولى الدبر، وخاض واديهما دون مخاضة [...] كثير ثم رجعت له على ابن عباد فكشف رحاله وأصاب منهم نفراً ثم افترقوا ولحق [...] قرطبة وجاز إلى الشرق وتجمع بخلفائه، وعاثوا في نظر إشبيلية، وانقطعت [...] وأمسى الناس في مثل عصر الجahلية ثم والى ابن يحيى بعد ذلك كله، لضرورة دفعته إلى ذلك، فكاشفه المظفر، وحانه فيما كان ائتمنه عليه من ماله وأودعه عنده أيام تورطه في حرب المعتصد فانابت بينهم العصمة، وضربت خيل المظفر على صاحب «بلة» فاستغاث المعتصد فلحق به خيله، واقتلت مع خيل المظفر وكان ابن جهور كثيراً ما يوالي رسله إلى الاصطلاح بينهما، فتصدر عنها (أخبار) تخبر أن ابن الأفطس أقرب إلى الملام بامتناعه قعود اللجاج في القطيعة، ومن النواذر المحفوظة بينهما: أن المعتصد والى حربه في شهور سنة اثنين وأربعين بغير بلده، وفتح عدة حصون ضمها إلى عمله، وشدها برحاله، ودمر عمارات واسعة أنسد غلاتها، وأوقع رعيته في المجاعة الطويلة، وعجز المظفر عن دفاعه شبراً واحداً فما دونه استكانة للحادثة التي هدت ركنه، وأفنت حماة رجاله، فاعتضم بحصنه بطليوس ولم يخرج من خيله فارساً، وجعل يشكوا به إلى حلفائه فلا يجد ظهيراً ولا نصيراً، فلما قضى المعتصد من تدويخ بلاده وطره وگر راجعاً إلى إشبيلية في شوال من العام، وردت علينا يومئذ بقرطبة غريبة: وذلك أن رسول المظفر في إثر هذه الواقعة عليه يلتمس وصائف ملهيات يأنس بهن نافياً بذلك الشماتة عن نفسه، ولم تكن له عادة بمثله، فبعث له رسوله عن ذلك، ولكن قد عدمن بقرطبة يومئذ، فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار لا طائل فيهما، فاشتراهما له وأقام رسوله يلتمس الخروج بهما فلم يستطع، لقطع خيل المعتصد جميع الطرق، فأقام مدة بقرطبة إلى أن شيع بخيل كثيفة، ومضى بهما وأولوا النهي يعجبون مما شهر به نفسه من البطالة أيام الحروب المحرمة لأطهار النساء على فحول الرجال العاقدة للأزرة، وعلى ما كان يدعيه لنفسه من الأدب والمعرفة، وببحث على هذه الأعجوبة وما الذي حمله على هذا الإفك؟ فإذا به ناغى كاسحه المعتصد المرتاح بعد الظفر، لاجتلاف قينة عبد الرحيم

الوزير من قرطبة إثر وفاته يومئذ، وقد اشتد لما وصفت له بالحذق في صنعتها، فوجّهت نحوه فتقبيله المظفر في إظهار الفراغ، وطلب الملهيات، وقد علم العالم أنه لفي شغل عنهم، فامتد شأو هذين الأميرين يومئذ في الغي، وتباريما في القطعية حتى أفنينا العالمين، إلى أن سنى الله بينهما الصلح في ربّع الأول سنة ثلاثة وأربعين بسعى من جهور أمير قرطبة كعادته بينهم بعد كتب ورسل في ذلك، والمظفر يمتطي اللجاجة هنالك، فلما سكنت الحال بينهما، فرغ المعتضد إلى حرب الأمراء الأصغر بالغرب كابن يحيى وابن هارون وابن مرين والبكري، وأتيح له من الظفر (ما أتيح) فضبط أملاكم وضمها جملة إلى عمله ثم مد يده إلى القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء، فرضة المجاز الأدنى من الأندلس إلى أرض العدوة التي كان منها فتحها، ومن قبلها مأتاها على قدم الدهر، وذلك أنه لما وجد هذا الفتى على نباهته وجلالة عمله، أضعف الأمراء البربرية شوكة، وأقلهم رجالاً صمد [...] القاسم حلفاؤه بالأندلس، وصاحب سبعة «سقوط» البرغواطي مولى ابن حمود [...] حتى سقط في يده، ونزل على أمان وإلي أمره، إلى أن لحق بقرطبة وسكنها تحت كنف ابن جهور [...] المخلوعين، فلما كانت سنة إحدى وخمسين وقد أتيح له من الظفر ما أتيح، اتصلت الأنبياء عندنا بقرطبة بضموم منابرها في جميع أعماله عن ذكر إمامه هشام بن الحكم صاحب الرجعة الذي اتصل الدعاء له على منابرها من عهد قيام والده إلى آخر هذه السنة، يومئذ إليه بالحياة في غيابه الحجب من غير ظهور لخاصة ولا عامة، ودعوته على ذلك كله مرفوعة عند من انتسى بالمعتضد من أمراء شرق الأندلس إلى أن قطعها قاطع الأعناق عليها ابن عباد، فذكر أنه دعا وجوه حضرته فنعته لهم إمامهم هشاماً، وكشف إليهم تقدم وفاته من علة زمانية، ووصف أن الحال التي كان بسبيلها من اشتداد الفتنة بينه وبين من تظاهر عليه من أمراء الأندلس الدانين منه، عاقته يومئذ عن البوح بوفاة هذا الإمام والشهرة لدفنه، إعطاء للحزم بقسطه، فلما سكنت الحال وجب التصرّح بالحق، وعطف — زعموا — بكلامه على شخذ بصائرهم في التمسك بحب الإمامة والفرار عن الميّة الجاهليّة، وذكر أنه خاطب من كان تحت دعوة هذا المنعى هشام من أمراء الأندلس ناعيًا له، داعيًا إلى التعوض منه، فارتّفعت الدعوة منذ ذلك الوقت، وصارت هذه الميّة لحامل هذا الاسم الميّة الثالثة، وعساها تكون — إن شاء الله — الصادقة. فكم قُتل، وكم مات، ثم انتقض من التراب، ومزق الكفن قبل نفخة الصور ووقعة الواقع، فقد كان مات في يد أول خالعه محمد بن هشام بن عبد الجبار ودفن علانية، ثم نشر بيد واضح الصقلي فتى بني عامر، ودال مديدة ثم قتله خالعه

الثاني سليمان المستعين ودفنه خفية، ثم استمر راصده علي بن حمود الحسني المنذري يذكي الطلب بتأثيره على الدولة، ودفنه الدفنة التي خلناها حقيقة، فلم يلبث أن نجم حيًّا بإشبيلية بعد حقب فبني هنالك ملَّا، ودار قرناً إلى أن وقعت عليه هذه الميزة الثالثة، فما نقول ونعتقد في الفرق بين هذه الميّزات المتّوالات إذا كان مائتها واحداً؟ وليس إلا السيوف عليها أدلة غير إخلاص الدّعاء لعامة المسلمين في الاختلاف لما فيه الصلاح (انتهى ما لخصه ابن بسام من كلام ابن حيان).

(قال ابن بسام): ثم غمس المعتصد يده بعد فيمن كان يليه من البرازلة، فصدق شرهم بشرهم، وضرب زيدهم بعمرهم، وقد كان عندما تسرعت نار الحرب بينه وبين رؤساء الغرب، هادنهم على دخن، ومتّح لهم حتى ضربوا حوله بعطن، ليقتلهم بسيوفهم [...] إلى حتفهم، فلما استقرت قدمه بسلب ناصية قواعد الغرب [...] كان أول ما بدأ على الحاجب ابن نوح المنذري كان بكورة مورور في غير كتبية نظمها ولا مقدمة إليه [...] ينهيان عليه، ويحملان الأموال بين يديه، تجسّراً على ركوب الخطر، الذي يصرف القدر، وهو لا يدري أتخطى أم تصيب؟ فخلص إلى ابن نوح هذا من رجل لا يبالي دم من تجرع، ولا يحفي بشيءٍ صنع، فبالغ ابن نوح في بره، وتضاءل لأمره، وحمل على ذلك من فعله على [...] وأتم وجوه الاستئمة، وفض المعتصد يوماً من صميم ماله في وجوه حماة ابن نوح ورعوس رجاله، ما استمال به قلوبهم، واستنصر به جيوبهم، ثم صار إلى ابن أبي قرة برندة فسامه مثلها، وهذا له نعلها، فتلقى أعتد عليهم يداً. وجعلها لما أراد من مكره، فراطّنهم يومئذ بغيره، ورمز لهم بالاستراحة من شره، ففهمها المعتصد وجعل تلك الكلمة دبر أذنه، وأثبتتها في ديوان إحنه، حتى حلّ بطائتها، واستفاد بعد مديدة من قائلها، وجأجاً الحاجبين المذكورين لأول تمكّنه من الغرة، وساعة صدره من مرکزه، فتهافتا تهافت الفراش على الجمرة، وجاءا مجيء الحائن إلى الشفرة، وتطفل عليهما الحائن بن خزرون المنذري، كان وقته بأركش، فله أبوه وافداً لم تحزه الوفادة، وواهًا له قتيلًا لم يحل بطائ الشهادة، فجرع الكل الح توف، وحكم في عامتهم السيوف، واستمر بعد ذلك على حرب بقائهم، وتتبع أخراهم، حتى تغلب على بلادهم، وألوى بطارفهم وتلادهم، في أخبار طويلة استوفاها ابن حيان، هي خارجة عن غرض هذا الديوان، وقد أمعت منها بما فيه الكفاية، إذ لا يتسع هذا المجموع لاستقصاء الغاية، والسبب الذي كان يغريه بطلبهم، ويبعثه على التمرس بهم، أن بعض من نظر بمولده كان أخبره

أن انقضاء دولته يكون على أيدي قوم يطربون على الجزيرة من غير سكانها، فكان لا يشك أنهم تلك البرازلة الطارئون عليها في عهد ابن عامر، فأعمل في نكالهم وجوه سياسته، وشغل بقتالهم أيام رياسته، واتفق أن دخل عليه يوماً بعض وزرائه، وبين يديه كتاب قد أطال فيه النظر، فإذا كتاب «سقوط» المنتمي يومئذ بحسبة يذكر أن القوم المثلثين المدعىين بالمرابطين، قد وصلت مقدمتهم رحبة مراكش فقال له ذلك الوزير المذكور: وأين رحبة مراكش؟ وحلوها فكان ماذ؟ ومات الحاج فمه؟ (؟) ودونهم اللحج الخضر، والمهامه الغبر، واللليالي والأيام، والجماهير العظام، فقال له المعتصم: هو والله الذي أتوقعه وأخشاه، إن طالت بك حياة فسراه، اكتب إلى فلان — يعني عامله على الجزيرة — باحتراس جبل طارق حتى يأتيه أمري، وأخذ يريش في تحسينه، ووضع أرصاده هنالك وعيونه. والله عزائم لا تقيها الحصون، ولا تهتدى إليها الأرصاد والعيون، ولكل شيء أمد مكتوب ومبيقات مضروب.

وكتب ابن بسام أيضاً في موضع آخر فصلاً عن ابن الأفطس يقول فيه: فرجع «ابن الأفطس» إلى مقاومة ابن عباد، فلما كان في سنة خمس وعشرين، وجَّه ابن عباد ابنه إسماعيل مع عسكر إلى أرض العدو تحت معاقدة بينه وبين ابن الأفطس، فلما أوغل إسماعيل ببلده يريد أرض «غاليسيا» وابن الأفطس يسر الغدر به، بادر بجميع رجال تعدد ورصده (؟) شعب ضيق في طريق أ Fowler، ولم يعلم ابن عباد بشيء من تبشيره، حتى حصل في الأشوط، فبادر إسماعيل بالنجاة لنفسه، وأسلم جميع عسكره له، وجرت عليه في مهربه مع جملة من أصحابه شدة لجأ فيها إلى ذبح خيله والاغتناء بلحومها، ونجا بذمائه إلى مدينة لشبونة آخر عمله من ساحل البحر المتوسط، فاصطلم ابن الأفطس عسكره اصطلاحاً لم يسمع بمثله، ووقع سرعان العدو من النصارى على كثير منهم فاقتتصوهم اقتناصاً، وقتلوا منهم أمة، وكانت حادثة شنيعة، بقيت بها عداوتهما إلى آخر وقتها.

هذه فصول تخيرنا نقلها من القسم الثاني من كتاب الذخيرة في أخبار الجزيرة لابن بسام، لعلاقتها بما كتبه العلامة «دوزي» عن المعتصم في هذا الفصل، وهي كما يلوح عند المقارنة، كالأصل لما نقلها زباد في الإيضاح، وإنتماماً للفائدة.

(٢) في هذا البيت شيء كثير من الركاكاة في قوله: «بالألى من القادة الخيرة المتقين»، ولكنها مغتفرة لما في تاليه من تتمة تلك الصورة الشعرية المنطقية البدعة.

(٣) الهمزة للنداء وباديس هو باديس بن حبوس، صاحب غرناطة، الذي يتحدث عنه «دوزي» في هذا الفصل، وكانت بينه وبين المعتصم حروب شديدة، قال ابن خلدون:

«ولي باديس ملك غرناطة بعد أبيه واستولى على سلطانه إسماعيل بن نغذلة الذهبي، ثم نكبه وقتل سنة تسع وخمسين وأربع مئة وقتل معه خلقاً من اليهود، وتوفي باديس سنة سبع وستين وأربع مئة.» (ارجع إلى ص ٩٤).

(٤) يرى القارئ في هذا البيت أسلوبه الشيطاني في استفزاز العاطفة الدينية عن طريق التفجع على ما أصاب الدين من ضعف وأدى بذلك اليهودي إلى السخرية منه.

(٥) مذبحة اليهود

ذكرنا في كتابنا «نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي» تعليقاً على القصيدة التي أنشأها أبو إسحاق الفقيه ما يأتي:

ولا يفوتنا بعد كل ما ذكرناه أن نبين أثراً فعلياً واضحاً من آثار تمكן العقيدة في نفوس أصحابها، متى وجدت محركاً قادراً على تصريفها، واستفزاز العاطفة الدينية فيها؛ فإن إلقاء نظرة سريعة على قصيدة أبي إسحاق الفقيه ورؤيه أثراها العظيم الذي أحدثته في نفوس الجمهور، ليكفي وحده في إثبات ذلك، وإنك لترى فيها مبلغ التحمس الديني العظيم، وكيف أنها كانت السبب في القضاء على ما يربى على أكثر من أربعة آلاف يهودي، ونهب أموالهم وتدمير منازلهم، وكانت السبب في حدوث تلك المذبحة الهائلة في القرن الخامس الهجري سنة ٤٥٩هـ.

وقد دعا أصحابها إلى قولها أن يوسف بن نغذلة اليهودي الوزير وشى بأبي إسحاق – قائل هذه القصيدة – فأقصاه السلطان عن بلاده، قالوا: وكان ذلك الوزير قد تعرض لتسفيه بعض الآراء الدينية الإسلامية، وكان عظيم الخطر واسع النفوذ، فوجد أبو إسحاق من ذلك دافعاً إلى إنشاء تلك القصيدة البليغة، وقد ملأها تحريضاً وأفعماها حجاً وبراهين، أفلح في التأثير بها على العامة وحملهم على إنفاذ رغباته، وما زال يتنفس في ضروب الاحتاث والتهييج حتى اشتعل الجمهور السانج حماسة، وهجم على ذلك الوزير فقتله في قصر السلطان نفسه، وليس من شك في أن أبو اسحاق بذل كل مواهبه في الضرب على النغمة الدينية وإظهار التفجع الشديد على ما انتاب الدين من التهاون به، وعرف كيف يواли فيها اطراد الأدلة واتساقها وتتفق المعاني وغزارتها مع دقة في التعبير عن أغراضه وخواجه بكلام فخم يتطير حماسة ويتأجج ناراً، وشعر صارخ:

خارج من قلب قائله مثلما یزفر بركان

وبهذا استطاع قائله أن يوهم ساميها أن قتل أولئك اليهود (خصومه) فرض
لا مناص من أدائه، وواجب حتم لا يصح السكوت عنه، وأنهم إن كانوا
غفلوا عن القيام به فيما مضى، فهم خلائقون أن يتداركوه في الحال، حتى لا
تصب عليهم لعنة الله، أو يحقيق بهم غضبه، فيخسفن بهم الأرض، أو تنقض
عليهم السماء، وكذلك لم يترك ناظمها وسيلة من الوسائل التي تستفرغ أخفى
العواطف الدينية الكامنة إلا استخدمها، ولا نغمة من نغمات التعصب للعقيدة
الدينية إلا ضرب على وثيرتها، كل ذلك بأسلوب سهل رشيق كاد يصل لسهولته
إلى حد الركاكة في بعض الأبيات، مع أنه من أجمل الشعر وأبدعه وإن شئت
فقل: وأروعه.

وهكذا استقرت الناس هذه القصيدة البليغة إلى الفتاك باليهود وأخذ البريء منهم بذنب المسيء، وكان من نتائجها تلك المذبحة الكبيرة التي أشرنا إليها والتي لا يؤخذ بجريتها إلا أبو إسحاق — ناظمها — الذي عرف كيف ينتقم لنفسه عن طريق التشيع للدين والظاهر بمظهر المتفاني في الدفاع عنه.

الفصل الثامن

۱) هکذا پری «دوزی».

(٢) لما مات رثاها ابن زيدون بهذه القصيدة التالية:

ن عناء لا غناء
موت قد أعيا الدواء
خطب غال الأنبياء
لى إذا ما الله شاء
دفنها كان الهداء
مزن شكلين سواء
أرج المسك ثناء
تَّا وفضلاً وذكاء
كوشر العذب رواه
سعداء الشهداء
أن غدت منك فداء
قى وإن عموا فناء
واسحب السعد رداء
رهم والأولياء

إنما يكسبنا الحز
أنت طب أنَّ داء الـ
فتَّاسَ، إن ذاك الـ
وسيفني الملا الأعـ
حبذا هدي عروس
عمرت حيناً وما الـ
ثم ولت فوجدنا
جمعت تقوى وإخبا
ستوفى من جمام الـ
حيث تلقى الأتقياء الـ
هان ما لاقت عليها
غم أحببتك أن تـ
فالبس الصنع ملاء
ورث الأعداء أعما

انظر ص(٧٥) من «ديوان ابن زيدون» شرح المترجم وعبد الرحمن خليفة.

الفصل التاسع

(١) ابن عمار: نشأته وطرف من أخباره، نقلًا عن المراكشي: هو الوزير أبو بكر محمد بن عمار ذو النفس العاصمية، كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبي القاسم محمد بن هانئ الأندلسي وربما كان أحلى منزلاً منه في كثير من شعره.
ولشعره ديوان يدور بين أهل الأندلس ولم أر أحداً من أدركته سُنّي من أهل الآداب الذين أخذت عنهم إلا رأيته مقدمًا له مؤثراً لشعره، وربما تغالي بعضهم فشبّهه بأبي الطيب وهيهات، فمن قصائده المشهورة التي أجاد فيها قصيدهه التي كتب بها من سرقسطة حين فرق المعتصد بالله بينه وبين المعتمد لأنه شغله عن كثير من أمره فنفاه، وهي:

عليَّ وإلا ما بكاء الغمائم وفيَّ وإلا ما نواحِ الحمام

لثار، وهَّ البرق صرخة طالب
وعني أثار الرعد صرخة طالب
لغيري، ولا قامت له في ماتم
وما لبست زهر النجوم حدادها

وفي هذه القصيدة يقول يمدح المعتمد بالله:

أبى أن يراه الله إلا مقلدا
حميلة سيف أو حمالة غارم

ومن جيد نسيبه قوله في قصيدة يمدح بها المعتمد بالله:

ونعيمه فاستعذبوا أواره
جاء الهوى فاستشعروه عاره
عبدانه في حكمه أحراره
لا تطلبوا — في الحب — عزًّا، إنما
يا حبذاه وحبذا إضراره
قالوا: أضرَّ بك الهوى فأجبتهم:
زَيْا فخلوه وما يختاره
قلبي هو اختار السقام لجسمه
يا حبذاه وحبذا إضراره
غيرتموني بالنحول، وإنما
زَيْا فخلوه وما يختاره
وشتُّم لفارق من آلفته
أحسبتم السلوان هب نسيمه؟
أو أن ذاك النوم عاد غراره؟
إن كان أعيا القلب من حرب الجوى
خذلته من دمعي إذن أنصاره

ولابن عمار هذا مع المعتمد أخبار عجيبة عُني بجمعها أهل الأندلس، وأنا — إن شاء الله — مورد منها ما لا يخل بالشرط الذي التزمته، ولا يخرج عن الحد الذي رسمته، حسبما بقي على خاطري من ذلك: لأنني كنت في حادثة سنى قد صرفت عنيتى إلى أخبار ابن عمار هذا مع المعتمد لما تضمنته من الآداب.

وقد فتشت خزانة حفظي فلم أُلْفِ فيها إلا نبذة يسيرة وأنا موردها إن شاء الله (عز وجل): فابن عمار هذا هو محمد بن عمار يكنى أبا بكر، أصله من «شلب» من قرية من أعمالها يقال لها «شنبوس» مولده ومولد آبائه بها، كان خامل البيت ليس له ولا أسلافه في الرياسة — في قديم الدهر ولا حديثه — حظ، ولا زكا منهم بها أحد، ورد مدينة «شلب» طفلاً فنشأ بها وتعلم علم الآداب على جماعة منهم أبو الحاج يوسف بن عيسى الأعلم ثم رحل إلى قرطبة فتأدب بها ومهر في صناعة الشعر فكان قصاراً التكسب به، فلم يزل يجول في الأندلس مسترفاً لا يخص بمدحه الملوك دون غيرهم، بل لا يبالي من أخذ ولا من استعطف من ملك أو سوقة وله في ذلك خبر ظريف، وذلك أنه

ورد في بعض سفراته «شب» لا يملك إلا دابة لا يجد علفها، فكتب بشعر إلى رجل من وجوه أهل السوق، فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلة شعيراً ووجه بها إليه، فرأها ابن عمار من أجل الصلات وأنسى الجوائز، ثم اتفق على أن علت حال ابن عمار وساعدته الجد، ونهض به البخت، وانتهى أمره إلى أن ولاه المعتمد على الله مدينة «شب» وأعمالها أول ما أفضى الأمر إليه، فدخلها ابن عمار في موكب ضخم، وجملة عبيد وحشم، وأظهر نخوة لم يظهرها المعتمد على الله حين ولد أيام أبيه المعتضد بالله، فكان أول شيء سأله عنه الرجل صاحبه صاحب الشعر، فقال: «ما صنع فلان أهوا حي؟» قالوا: «نعم.»

فأرسل إليه بمخلاته بعينها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله: «قل له لو ملأتها بربما ملأناها تبرأ». ولم يزل ابن عمار على الحال التي ذكرناها من التقلب في بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف إلى أن ورد على المعتضد بالله أبي عمرو، فامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها:

والنجم قد صرف العنان عن السرى
لما استرد الليل منا العنبرا

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره

وفيها يقول يمدح المعتضد:

والجو قد لبس الرداء الأغبرا
نار الوغى إلا إلى نار القرى
والطرف أجرد والحسام مجواهرا

عباد المخضر نائل كفه
قراح زند المجد، لا ينفك من
يختار أن يهب الخريدة كاعبا

وفي هذه القصيدة يقول في وصفه وقعة أوقعها المعتضد بالبربر:

إلا اليهود وإن تسما بربرا
لما رأيت الغصن يعيش مثمرا
لما عهدت الحسن يلبس أحمرا

شققت بسيفك أمة لم تعتقد
أثمرت رمحك من رءوس كماتهم
وخضبت سيفك من دماء نحورهم

ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع له تقدم ولا متاخر بمثله وهو قوله:

السيف أفسح من زياد خطبة — في الحرب — إن كانت يمينك منبرا

ولما أنشد المعتصم هذه القصيدة استحسنها وأمر له بمال وثياب ومركب، وأمر أن يكتب في ديوان الشعراء فكان كذلك، ثم تعلق بالمعتمد على الله وهو إذ ذاك شاب، فلم تزل حاله معه تتزيز، ومرات خدمته له تقوى وتنتأكد، إلى أن صار ابن عمار أزق بالمعتمد من شعرات قصه، وأدنى إليه من حبل وريده، كان المعتمد لا يستغنى عنه ساعة من ليل ولا نهار، ثم اتفق أن ولـيـ المعتمـدـ عـلـيـ اللهـ «ـشـلـبـ» من قـبـلـ أـبـيهـ، فـاستـوزـرـ ابنـ عـمارـ هـذـاـ فـيـ تـلـكـ الـوـلـاـيـةـ، وـسـلـمـ إـلـيـهـ جـمـيـعـ أـمـوـرـهـ، فـغـلـبـ عـلـيـهـ اـبـنـ عـمارـ غـلـبةـ شـدـيـةـ، وـسـاعـاتـ السـمـعـةـ عـنـهـمـ، فـاقـضـيـ أـمـرـ المـعـتـضـدـ التـفـرـيقـ بـيـنـهـمـ، وـنـفـيـ اـبـنـ عـمارـ عـنـ بـلـادـهـ حـسـبـ ماـ تـقـدـمـ إـلـيـهـ، فـلـمـ يـزـلـ اـبـنـ عـمارـ مـغـرـبـاـ فـيـ أـقـاصـيـ بـلـادـ الـأـنـدـلـسـ إـلـىـ أـنـ تـوـفـيـ المـعـتـضـدـ بـالـلـهـ، فـاسـتـدـعـاهـ المـعـتـمـدـ وـقـرـبـهـ أـشـدـ تـقـرـيـبـ حـتـىـ كـانـ يـشـارـكـ فـيـمـاـ لـاـ يـشـارـكـ فـيـهـ الرـجـلـ أـخـاهـ وـلـاـ أـبـاهـ، وـلـهـ مـعـهـ أـيـامـ كـوـنـهـمـاـ بـشـلـبـ خـبـرـ عـجـيبـ، وـذـلـكـ أـنـ المـعـتـمـدـ اـسـتـدـعـاهـ لـيـلـةـ إـلـىـ مـجـلـسـ أـنـسـهـ عـلـىـ مـاـ كـانـتـ العـادـةـ جـارـيـةـ بـهـ، إـلـاـ أـنـهـ فـيـ تـلـكـ اللـيـلـةـ زـادـ فـيـ التـحـفيـ بـهـ وـالـبـرـ لـهـ عـلـىـ المـعـتـادـ، فـلـمـ جـاءـ وـقـتـ النـوـمـ أـقـسـمـ المـعـتـمـدـ عـلـيـهـ لـتـضـعـنـ رـأـسـكـ مـعـيـ عـلـىـ وـسـادـ وـاحـدـ فـكـانـ ذـلـكـ، قـالـ اـبـنـ عـمارـ: فـهـتـ هـاتـفـ فـيـ النـوـمـ يـقـوـلـ: لـاـ تـغـرـرـ أـيـهـاـ الـمـسـكـينـ إـنـهـ سـيـقـتـلـ وـلـوـ بـعـدـ حـيـنـ. قـالـ: فـانـتـبـهـتـ مـنـ نـوـمـيـ فـزـعـاـ وـتـعـوـذـتـ ثـمـ عـدـتـ، فـهـتـ بـيـ الـهـاـفـتـ عـلـىـ حـالـتـهـ الـأـوـلـىـ فـانـتـبـهـتـ ثـمـ عـدـتـ، فـسـمـعـتـ ثـالـثـةـ فـانـتـبـهـتـ فـتـجـرـدـتـ مـنـ أـثـوـابـيـ وـالـتـفـتـ فـيـ بـعـضـ الـحـصـرـ وـقـصـدـ دـهـلـيـزـ الـقـصـرـ مـسـتـخـفـيـاـ بـهـ، وـقـدـ أـزـمـعـتـ عـلـىـ أـنـيـ إـذـاـ أـصـبـحـتـ خـرـجـتـ مـسـتـخـفـيـاـ حـتـىـ آتـيـ الـبـحـرـ فـأـرـكـبـهـ وـأـقـصـدـ بـلـادـ الـعـدـوـةـ فـأـكـونـ فـيـ بـعـضـ جـبـالـ الـبـرـبـرـ حـتـىـ أـمـوـتـ، فـانـتـبـهـ المـعـتـمـدـ فـاـفـتـقـدـنـيـ فـلـمـ يـجـدـنـيـ، فـأـمـرـ بـطـلـبـيـ فـطـلـبـتـ لـهـ فـيـ نـوـاحـيـ الـقـصـرـ وـخـرـجـ هوـ بـنـفـسـهـ يـتوـكـأـ عـلـىـ سـيـفـهـ وـالـشـمـعـةـ تـحـمـلـ بـيـنـ يـدـيـهـ، فـكـانـ هوـ الـذـيـ وـقـعـ عـلـيـ، وـذـلـكـ أـنـهـ أـتـيـ دـهـلـيـزـ الـقـصـرـ يـفـتـقـدـ الـبـابـ هـلـ فـتـحـ فـوـقـ إـزـاءـ الـحـصـيرـ الـذـيـ كـنـتـ فـيـهـ فـكـانـتـ مـنـ حـرـكـةـ فـأـحـسـ بـيـ وـقـالـ: «ـمـاـ هـذـاـ يـتـحـرـكـ فـيـ هـذـاـ الـحـصـيرـ؟ـ»ـ ثـمـ أـمـرـ بـهـ فـنـفـضـ فـخـرـجـتـ عـرـيـاـنـاـ لـيـسـ عـلـىـ إـلـاـ السـرـاوـيـلـ فـلـمـ رـأـيـ فـاضـتـ عـيـنـاهـ دـمـوـعـاـ، وـقـالـ: «ـيـاـ أـبـاـ بـكـرـ مـاـ الـذـيـ حـمـلـ عـلـىـ هـذـاـ؟ـ»ـ فـلـمـ أـرـ بـدـاـ مـنـ أـنـ صـدـقـتـهـ، فـقـصـصـتـ عـلـيـهـ قـصـتيـ مـنـ أـوـلـهـاـ إـلـىـ آخـرـهـاـ فـضـحـ وـقـالـ: «ـيـاـ أـبـاـ بـكـرـ أـضـغـاثـ أـحـلـامـ، هـذـهـ آثـارـ الـخـمـرـ.ـ»ـ ثـمـ قـالـ لـيـ: «ـوـكـيـفـ أـفـتـلـكـ؟ـ أـرـأـيـتـ أـحـدـاـ يـقـتـلـ نـفـسـهـ؟ـ وـهـلـ أـنـتـ عـنـدـيـ إـلـاـ كـنـفـسـيـ؟ـ»ـ فـتـشـكـرـ لـهـ اـبـنـ عـمارـ وـدـعـاـ لـهـ بـطـولـ الـبـقـاءـ وـتـنـاسـيـ الـأـمـرـ فـنـسـيـهـ، وـمـرـتـ عـلـىـ ذـلـكـ الـأـيـامـ وـالـلـيـلـيـ إـلـىـ أـنـ كـانـ

من أمره ما سيأتي الإيماء إليه، فصدقـت رؤيا ابن عمار وقتلـه المعتمـد نفسه كما قال، ولـما أفضـى الأمر إلى المعتمـد كما ذكرناـه سـأله ابن عمار ولـاية «ـشـلـب» وهي كانتـ بلـده وـمنـشـأـه كما تـقدـمـ، فأـجـابـهـ المعـتمـدـ إلىـ ذـلـكـ وـوـلـاـهـ إـيـاهـاـ، أـنـبـهـ ولـاـيةـ جـعـلـ إـلـيـهـ جـمـيعـ أـمـورـهـ خـارـجـهـاـ وـداـخـلـهـاـ، فـاسـتـمـرـتـ ولـاـيةـ ابنـ عـمـارـ عـلـيـهـاـ إـلـىـ أـنـ اـشـتـدـ شـوـقـ الـمـعـتمـدـ إـلـيـهـ، وـضـعـفـ عـنـ اـحـتـمـالـ الصـبـرـ عـنـهـ، فـاسـتـدـعـاهـ وـعـزـلـهـ عـنـهـاـ وـاسـتـوـزـرـهـ، فـكـانـ حـالـتـهـ شـبـيـهـ بـحـالـ جـعـفـرـ بـنـ يـحـيـيـ مـعـ الرـشـيدـ، وـلـمـ يـزـلـ الـمـعـتمـدـ يـعـدـ لـكـلـ رـتـبـةـ عـالـيـةـ، فـكـانـ ابنـ عـمـارـ مـعـ هـذـاـ لـاـ يـنـاطـ بـهـ أـمـرـ إـلـاـ اـضـطـلـعـ بـهـ وـكـانـ فـيـهـ كـالـسـكـنـةـ الـمـحـمـمـةـ، وـاشـتـهـرـ أـمـرـهـ فـيـ بـلـادـ الـأـنـدـلـسـ حـتـىـ كـانـ مـلـكـ الـرـوـمـ الـأـذـفـنـشـ إـذـاـ ذـكـرـ عـنـهـ ابنـ عـمـارـ قـالـ: «ـهـوـ رـجـلـ الـجـزـيرـةـ» وـكـانـ ابنـ عـمـارـ هـوـ الـذـيـ رـدـهـ عـنـ قـصـدـ إـشـبـيلـيـةـ وـقـرـطـبـةـ وـأـعـمـالـهـماـ، وـذـلـكـ أـنـهـ خـرـجـ فـيـ جـيـوشـ ضـخـمـةـ يـقـصـدـ بـلـادـ الـمـعـتمـدـ طـامـعـاـ فـيـهـاـ، فـخـافـهـ النـاسـ وـاـمـتـلـأـتـ صـدـورـ أـهـلـ تـلـكـ الـجـهـاتـ رـعـبـاـ مـنـهـ، وـتـيـقـنـواـ ضـعـفـهـمـ عـنـ دـفـاعـهـ، فـتـوـلـيـ اـبـنـ عـمـارـ رـدـهـ بـأـلـطـفـ حـيـلـةـ وـأـيـسـرـ تـدـبـيرـ، وـذـلـكـ أـنـهـ أـقـامـ سـفـرـةـ شـطـرـنـجـ فـيـ غـاـيـةـ الـإـتـقـانـ وـالـإـبـدـاعـ لـمـ يـكـنـ عـنـدـ مـلـكـ مـثـلـهـ، جـعـلـ صـورـهـاـ مـنـ الـأـبـنـوـسـ وـالـعـوـدـ الـرـطـبـ وـالـصـنـدـلـ وـحـلـلـهـاـ بـالـذـهـبـ، وـجـعـلـ أـرـضـهـاـ فـيـ غـاـيـةـ الـإـتـقـانـ، فـخـرـجـ مـنـ عـنـدـ الـمـعـتمـدـ رـسـوـلـاـ إـلـىـ الـأـذـفـنـشـ فـلـقـيـهـ فـيـ أـوـلـ بـلـادـ الـمـسـلـمـينـ فـأـعـظـمـ الـأـذـفـنـشـ قـدـوـمـهـ وـبـالـغـ فـيـ إـكـرـامـهـ وـأـمـرـ وـجـوـهـ دـوـلـتـهـ بـالـتـرـدـدـ إـلـىـ خـبـائـهـ، وـالـمـسـارـعـةـ فـيـ حـوـائـجـهـ، فـأـظـهـرـ اـبـنـ عـمـارـ تـلـكـ السـفـرـةـ فـرـآـهـاـ بـعـضـ خـواـصـ الـأـذـفـنـشـ فـنـقـلـ خـبـرـهـاـ إـلـيـهـ، وـكـانـ الـعـلـجـ —ـ أـعـنـيـ الـأـذـفـنـشـ —ـ مـوـلـعـاـ بـالـشـطـرـنـجـ، فـلـمـ لـقـيـ اـبـنـ عـمـارـ سـأـلـهـ: كـيـفـ أـنـتـ فـيـ الشـطـرـنـجـ؟ وـكـانـ اـبـنـ عـمـارـ فـيـ طـبـقـةـ عـالـيـةـ فـأـخـبـرـهـ بـمـكـانـهـ مـنـهـ، فـقـالـ لـهـ: بـلـغـنـيـ أـنـ عـنـكـ سـفـرـةـ فـيـ غـاـيـةـ الـإـتـقـانـ، قـالـ اـبـنـ عـمـارـ: نـعـمـ. فـقـالـ: كـيـفـ السـبـيلـ إـلـىـ رـؤـيـتـهـ؟ فـقـالـ اـبـنـ عـمـارـ لـتـرـجـمـانـهـ: قـلـ لـهـ: أـنـاـ آـتـيـكـ بـهـاـ عـلـىـ أـنـ أـلـعـبـ مـعـكـ فـإـنـ غـلـبـتـنـيـ فـهـيـ لـكـ، وـإـنـ غـلـبـتـكـ فـيـ حـكـمـيـ. فـقـالـ لـهـ الـأـذـفـنـشـ: هـلـمـهـاـ لـنـنـظـرـ إـلـيـهـاـ. فـأـمـرـ اـبـنـ عـمـارـ مـنـ جـاءـ بـهـاـ فـلـمـاـ وـضـعـتـ بـيـنـ يـدـيـ الـعـلـجـ صـلـبـ وـقـالـ: مـاـ ظـنـنـتـ أـنـ إـتـقـانـ الشـطـرـنـجـ يـبـلـغـ إـلـىـ هـذـاـ الـحـدـ. ثـمـ قـالـ لـاـبـنـ عـمـارـ: كـيـفـ قـلـتـ؟ فـأـعـادـ عـلـيـهـ الـكـلـامـ الـأـوـلـ فـقـالـ لـهـ الـأـذـفـنـشـ: لـاـ أـلـعـبـ مـعـكـ عـلـىـ حـكـمـ مـجـهـولـ لـاـ أـدـرـيـ مـاـ هـوـ وـلـعـلـهـ شـيـءـ لـاـ يـمـكـنـيـ. فـقـالـ اـبـنـ عـمـارـ: لـاـ أـلـعـبـ إـلـاـ عـلـىـ هـذـاـ الـوـجـهـ. وـأـمـرـ بـالـسـفـرـةـ فـطـوـيـتـ وـكـشـفـ اـبـنـ عـمـارـ سـرـ مـاـ أـرـادـهـ لـرـجـالـ وـثـقـ بـهـمـ مـنـ وـجـوـهـ دـوـلـةـ الـأـذـفـنـشـ، وـجـعـلـ لـهـمـ أـمـوـلـاـ عـظـيـمـةـ عـلـىـ أـنـ يـؤـازـرـوـهـ عـلـيـهـ فـعـلـوـاـ فـتـعـلـقـتـ نـفـسـ الـعـلـجـ بـالـسـفـرـةـ وـشـاـورـ خـاصـتـهـ فـيـمـاـ رـسـمـهـ اـبـنـ عـمـارـ فـهـوـنـوـاـ عـلـيـهـ وـقـالـوـاـ لـهـ: إـنـ غـلـبـتـهـ كـانـتـ عـنـكـ سـفـرـةـ لـيـسـ عـنـ مـلـكـ مـثـلـهـ، وـإـنـ غـلـبـكـ فـمـاـ عـسـاهـ أـنـ

يحتكم، وقبعوا عنده إظهار الملك العجز عن شيء يُطلب منه، وقالوا له: إن طلب ابن عمار ما لا يمكن فنحن لك بردك عن ذلك. ولم يزالوا به حتى أجاب، وأرسل إلى ابن عمار فجاء ومعه السفرة. فقال له: قد قبلت ما رسمته. فقال له ابن عمار: فاجعل بيدي وبينك شهوداً سماهم له، فأمر الأذفنش بهم فحضروا وافتتحا يلعبان، وكان ابن عمار كما ذكرنا طبقة في الأندلس لا يقوم له أحد فيها، فغلب الأذفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين لم يكن للعلاج فيها مطعن، فلما حقت الغلبة قال له ابن عمار: هل صح أن لي حكمي؟ قال: نعم، فما هو؟ قال: أن ترجع من هنا إلى بلادك. فاسود وجه العلاج وقام وقعد، وقال لخواصه: قد كنت أخاف من هذا حتى هوَّنتموه علي في أمثال لهذا القول، وهم بالنكث والتمادي بوجهه، فقبعوا ذلك عليه، وقالوا له: كيف يحمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى في وقتك. فلم يزالوا به حتى سكن، وقال: لا أرجع حتى آخذ إتاوة عامين خلاف هذه السنة، فقال ابن عمار: هذا كله لك. وجاء بما أراد، وكف الله بأسه، ودفعه بحوله، وحسن دفاعه عن المسلمين، ورجع ابن عمار إلى إشبيلية، وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به. ثم إن المعتمد حدث له أمل في التغلب على مرسية وأعمالها، وهي التي تعرف بتدمير، وكانت بيد أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر، كان هو المتغلب عليها والمدبر لأمرها، فجهز المعتمد جيوشاً عظيمة، وتكلف له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها، فلحق ابن طاهر حين خرج من مرسية ببني عبد العزيز ببلنسية، فكان بها إلى أن مات (رحمه الله).

ولما تغلب ابن عمار على مرسية – دار ملك بني طاهر كما ذكرنا – حدثته نفسه وسول له سوء رأيه أن يستبد بأمره وأن يضبط تلك البلاد لنفسه، فلم يزل يصرف الحيلة في ذلك إلى أن تم له بعضه، ودانت له مرسية وأعمالها، وطمع في ملك بلنسية إلى أن قام عليه رجل من أهل مرسية يقال له ابن رشيق كان أبوه من عرفاء الجند بها، وكان ابن عمار قد خرج لبعض أمره، فدعا ابن رشيق هذا إلى نفسه وقامت معه العامة وبعض الجند.

فجاء يركض حتى المدينة، وقد غلقت أبوابها دونه فحاصرها بمن معه أيامًا فامتنعت عليه، ولم يقدر على دخولها فبقي حائرًا لا يدري ما يصنع، ولا أين يتوجه، وقد كان بلغ المعتمد قيامه عليه وخلع يده من طاعته، فلم ير إلا الهروب ملحاً فهرب حتى لحق ببني هود بسرقسطة، فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته. وبغضه في عيونهم ما فعل مع صاحبه وولي نعمته، فأخرجوه عن بلادهم، ولم تزل

البلاد تتقاذفه، وملوكها تشتهي، إلى أن وقع في حصن من حصنون الأندلس في غاية المتعة يدعى «شقرة» كان المتغلب عليه رجلاً يقال له ابن مبارك فأكرم وفاته وأحسن نزله، ثم بدا له بعد أيام رأي فقبض عليه وقيده وجعله في سجنه، فلما رأى ابن عمار ذلك منه قال له: «لا عليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكوني عندك، وتعرضني عليهم، فما منهم إلا من يرحب في، فمن كان أشدهم رغبة جعل لك مالاً ووجهت بي إليه». ففعل ابن مبارك ذلك فما عرضه على أحد من ملوك الأندلس إلا رغب فيه، وكتب فيمن كتب إلى المعتمد، وفي ذلك يقول ابن عمار:

أصبحت في السوق ينادي على رأسي بأنواع من المال
والله ما جار على ماله من ضمّني بالثمن الغالي

وفي هذا السجن يقول ابن عمار وقد استدعي نوره يستنبط بها فتعذر عليه فاستدعي
موسى فأتي بها فقال في ذلك:

بوسى «شقرة» عندي أربت على كل بوسى
فقدت هارون فيها وظلت أطلب موسى

وبعث المعتمد على الله من رجاله من تسلم ابن عمار من يد ابن مبارك بعد أن
بعث إليه بمال وخيل، وأمر المعتمد الذين تسلّموا ابن عمار أن يزيدوا في الاحتياط عليه
وتقيده، فخرجوا به حتى وافوا قرطبة، ووافق ذلك كون المعتمد بها فدخلها ابن عمار
أشنع دخول وأسوأه على بغل بين عدلي تبن وقيوده ظاهرة للناس.
وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصتهم وعامتهم حتى ينظروا إليه على تلك
الحال، وقد كان قبل هذا إذا دخل قرطبة اهترأ له، وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم
ورؤساؤهم، فالسعيد من يصل إلى تقبيل يده، أو يرد عليه ابن عمار السلام، وغيرهم لا
يصل إلى تقبيل ركباه أو طرف ثوبه، ومنهم من ينظر إليه على بُعد لا يستطيع الوصول
إليه، فسبحان محيل الأحوال، ومديل الدول. فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا بعد العزة
القعساء، والملك الشامخ، والرياسة الفارعة ذليلاً خائفاً فقيراً لا يملك إلا ثوبه الذي عليه.
فسبحان من سلبه ما وله، ومنع ما كان به أمتעה، وأخبر بعض الموكلين به ما
اتفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنته قال: لما قربنا من قرطبة بحيث يرانا الناس

خرج فارس من البلد يركض يقصدنا، فلما رأه ابن عمار وكان معتماً، أزال العمامة عن رأسه، فجاء الفارس، حتى وصل إلينا فنظر إلى ابن عمار ودخل معنا في الصف فمشى، فسألناه فيم جاء؟ فقال: «الذى جئت فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل إليه»، فعلمنا أنه أرسل ليزيل عمامة، فأدخل على المعتمد على الله على الحالة التي ذكرت يرسف في قيوده، فجعل المعتمد يعدد عليه أيديه ونعنه وابن عمار — في ذلك كله — مطرق الرأس لا ينبع إلى أن انقضى كلام المعتمد، فكان من جواب ابن عمار أن قال: «ما أنكر شيئاً مما يذكره مولانا — أبقاه الله — ولو أنكرته لشهدت علىَّ به الجمادات فضلاً عنَّ ينطق، ولكن عثرتُ فأقل، وزلتُ فاصفح.»

فقال المعتمد: «هيهات، إنها عثرة لا تقال.» وأمر به فأحضر في النهر إلى إشبيلية فدخل به إشبيلية على الحال التي دخل عليها قربطة وجعل في غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك وهو باقٍ إلى وقتنا هذا.

فطال سجنه هناك، كتبت عنه في هذا السجن قصائد لو تُوَسَّلَ بها إلى الدهر لنزع عن جوره، وإلى الفalk لكف عن دوره، فكانت رقى لم تنجح، ودعوات لم تسمع، وتمائم لم تنفع، فمنها قوله:

وعذرك إن عاقبت أجيلى وأوضحت
فأنت إلى الأدنى من الله تجنب
عداي ولو أثروا عليك وأفصحوا
يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
يكرّان في ليل الخطايا فيصبح
أما تفسد الأعمال ثمة تصاح
له نحو روح الله باب مفتوح
بهبة رحمى منك تمحو وتمصح
فكل إماء بالذى فيه يرشح
يزوربني عبد العزيز موشح
إذا ثبت لا أنفك آسو وأجرح
أشاروا تجاهي بالشممات وصرحوا
فقلت: «وقد يعفو فلان ويصفح»

سجاياك — إن عافيت — أندى وأسجح
وإن كان بين الخططين مزية
حنانيك! في أخذني برأيك لا تطع
فإن رجائى أن عندك غير ما
ولم لا وقد أسلفت ودًا وخدمة
وهيبني قد أعقبت أعماق مفسد
أقلني بما بيني وبينك من رضى
وعف على آثار جرم سلكتها
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم
سيأتيك في أمري حديث وقد أتى
وما ذاك إلا ما علمت، فإنني
كأنني بهم لا در لله درهم
وقالوا: «سيجزيه فلان بفعله»

سوى أن ذنبي واضح متصحّح
صفاة يزدّل الذنب عنها فيسفح
إلى فيدنتو أو على فيننذح
أموت ولني شوق إليه مبرح
ستنفع لو أن الحمام يجلح

وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا
نعم لي ذنب، غير أن لحلمه
عليه سلام كيف دار به الهوى
ويهنيه – إن مت – السلو فإني
وبين ضلوعي – من هواه – تميمة

لما بلغت المعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه كان بحضرته رجل من البغداديين،
جعل يزري على البيت: «وبين ضلوعي ...» ويقول: «ماذا أراد بهذا المعنى؟»
فكان من جواب المعتمد (رحمه الله) أن قال: «أما لئن سلبه الله المروءة والوفاء، لما
أعدمه الفطنة والذكاء. إنما نظر إلى بيت «الهذلي» من طرف خفي وهو:

وإذا المنية أنشبت أظفارها أليت كل تميمة لا تنفع»

ولم يزل ابن عمار هذا بسجن المعتمد إلى أن قتله صبراً في شهور سنة ٤٧٩.
وتلخيص خبر قتله أنه لما طال سجنه كتب إليه بالقصيدة التي تقدم إنشادها
فأدراك المعتمد بعض الرقة، فوجه إليه ليلاً وهو في بعض مجالس أنسه فأتى به يرسف
في قيوده، فجعل المعتمد يعدد منه عليه وأيادييه قبله، فلم يكن لابن عمار جواب ولا عذر،
غير أنه أخذ في البكاء وجعل يترقق للمعتمد ويمسح عطفيه ويستجلب من الألفاظ كل ما
يقدر أنه يزرع له الرأفة في قلب المعتمد، فتم له بعض ما أراد من ذلك، وعطفت المعتمد
عليه سابقته وقديم حرمته. فقال له قولاً يتضمن العفو عنه تعرضاً لا تصريحاً وأمر
برده إلى محبسه، فكتب ابن عمار من فوره بما دار له مع المعتمد إلى ابنه الراضي بالله
فواه الكتاب وبحضرته قوم كانت بينهم وبين ابن عمار إحن قديمة. فلما قرأ الراضي
الكتاب قال لهم: «ما أرى ابن عمار إلا سيتخلص». فقالوا له: «ومن أين علم مولانا
 بذلك؟» فقال: «هذا كتاب ابن عمار يخبرني فيه أن مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص.»
فأظهر القوم الفرح لهم يبطنون غيره، فلما قاموا من مجلس الراضي نشروا حديث ابن
عمار أقبح نشر وزادوا فيه زيادات قبيحة صنعت هذا الكتاب عن ذكرها، فبلغ المعتمد
ذلك، فأرسل إلى ابن عمار وقال له: «هل أخبرت أحداً بما كان بيني وبينك البارحة؟»
فأنكر ابن عمار كل الإنكار، فقال المعتمد للرسول: «قل له: الورقتان اللتان
استدعيتهما كتبت في إدحاماً القصيدة، مما فعلت بالأخرى؟» فادعى أنه بيّض فيها

القصيدة، فقال المعتمد: «هل المسودة». فلم يحر جواباً، فخرج المعتمد حنقاً وببيده الطبرزين حتى صعد الغرفة التي فيها ابن عمار فلما رأه علم أنه قاتله، فجعل ابن عمار يزحف وقيوده تشققه حتى انكب على قدمي المعتمد يقبلهما، والمعتمد لا يثنيه شيء فعلاه بالطبرزين الذي في يده، ولم يزل يضربه حتى برد، ورجع المعتمد فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك.

فهذا ما انتهى إلينا من خبر ابن عمار ملخصاً حسب ما بقي على خاطري.
ومن مختار شعره قوله إلى المعتمد حين تقبض النصراوي على الرشيد ابنه إذ حاول أمر مرسية:

فأنضي عزمي أم أعوج مع الركب
يعثراها ما قد تعرض من ذنبي
وإن أتعقبه نكشت على عقبي
تريني بعدي عنك آنس من قربى
وأرجوك للحب الذي لك في قلبي
إلى الدهر لم يرتع لنائبة سرבי
فلا غرو يوماً أن تفل من غربى
يطبقها ما بين شرق إلى غرب
فلم يبق إلا أن تخفف من عتبى

أصدق ظني أم أصبح إلى صحي
وإنني لتفهوا بي إليك مودة
إذا انقدت في رأي مشيت مع الهوى
وما أغرب الأيام فيما قضت به
أهابك للحق الذي لك في دمي
ولي حسنات لو أمت ببعضها
وكم قد فرت يمناي بي من ضريبة
ولا بد ما بيني وبينك من نثا
ولا شك أن العفو منك سجية

فأجابه المعتمد على الله:

ورد تلقيك العتبى حجاباً من العتب
صفوحاً عن الجاني رعوماً على الصحب
وأعرض عما كان إن كان من ذنبي
ولا صار نسيان الأذمة من شعبي
فلليس يعاني الشعر مشترك اللب

تقدماً إلى ما اعتدت عندي من الرحب
متى تلقيت تلقى الذي قد بلوته
سؤاليك مني ما عهدت من الرضا
فما أشعر الرحمن قلبي قسوة
تكلفته أبغى به لك سلوة

(٢) لم نعثر على أصل هذين البيتين، فاضطررنا إلى ترجمتها نظماً.

(٣) لم نعثر على أصل هذين البيتين، فاضطررنا إلى نظمهما.

(٤) وللمعتمد أشعار في اعتماد منها قوله:

سفهًا وهل يثني الحليم الجاھل
من لا يرد هواي عنها عاذل
لا القلب ضاق به، ولا هو راحل
أو لم يرُوغك الھزبز الباسل
فعلى هواك له على دلائل
ھطلت سحائبها وجسم ناحل

بكرت تلوم وفي الفؤاد بلا بل
يا هذه! كفي فإني عاشق
حب اعتماد في الجوانح سakan
يا ظبية سلبت فؤاد «محمد»
من شك أني هائم بك مغمرا
لون كسته صفرة ومدامع

وقوله:

وكم عَقَنِي عن دار أهيف أغيد
كماة الأعادي في النسيج المسرد
مرادي وعزمًا مثل حد المهند
 محل اعتماد من فؤاد محمد
 وتصمي بلا قتل وترمي بلا يد

أدارَ النوى كم دار فيك تلدي
حلفت به لو قد تعرض دونه
لجردت للضرب المهنـد فانقضـي
فما حل خل في فؤاد خليلـه
ولكنـها الأقدار تردى بلا ظـبـا

(٥) ولِيَ الْمُعْتَمِدُ الْحَكَمُ وَهُوَ فِي الْثَلَاثِينَ مِنْ عَمْرِهِ، كَمَا يَدِلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ وَزَيْرَهُ وَشَاعِرِهِ أَبْنِ زَيْدُونَ فِي تَهْنِئَتِهِ:

وَمَا أُعْطِتَ السَّبْعُونَ – قَبْلَ – أُولَى الْحَجَى
مِنَ الْأَرْبَبِ، وَمَا أَعْطَاكَ عُشْرُوكَ وَالْعَشْرَ

الفصل العاشر

(١) جاء في كتاب المعجب عن هذا الشاعر المجد ما يلى:

قال الوزير أبو بكر ابن وزير أبي مروان عبد الملك: «بينما أنا قاعد في دهليز دارنا وعندي رجل ناسخ أمرته أن يكتب لي كتاب الأغاني فجاء الناسخ بالكراريس التي كتبتها فقلت له: «أين الأصل الذي كتبت منه لأقابل معك به؟»

قال: «ما أتيت به معني». فبينما أنا معه في ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بذ الهيئة عليه ثياب غليظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامه قد لاثها من غير إتقان لها، فحسبته لما رأيته من بعض سكان أهل البابية فسلم وقعد، وقال: «يا بنى! استأذن لي على الوزير أبي مروان». فقلت له: هو نائم، هذا بعد أن تكفلت جوابه غاية التكلف – حملتني على ذلك نزوة الصبا، وما رأيت من خشونة هيئة الرجل – ثم سكت عنى ساعة وقال: «ما هذا الكتاب الذي بأيديكم؟» فقلت له: «ما سؤالك عنه؟» قال: «أحب أن أعرف اسمه فإني كنت أعرف أسماء الكتب». فقلت: «هو كتاب الأغاني». فقال: «إلى أين بلغ الكاتب منه؟» قلت: «موضع كذا» وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قوله، فقال: «وما لكاتبك لا يكتب؟» فقلت: «طلبت منه الأصل الذي يكتب منه لأعراض هذه الأوراق، فقال لم أجيء به معني». فقال: «يا بنى خذ كراسيك وعارض». فقلت: «بماذا وأين الأصل؟» فقال: «كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صباي». فتبسمت من قوله فلما رأى تبسمي قال: «يا بنى أمسك على». فأمسكت عليه وجعل يقرأ، فوالله إن أخطأ واؤلا فاءً هكذا نحو كراسين، ثم أخذت له في وسط الشعر وأخره فرأيت حفظه في ذلك كله سواء، فاشتد عجبه وقمت مسرعاً حتى دخلت على أبي فأخبرته الخبر، ووصفت له الرجل، فقام كما هو من فوره لا يرافق على نفسه وأنا بين يديه وهو يوسعني لوماً حتى ترامى على الرجل وعانقه وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول: «يا مولاي اعذرني فوالله ما أعلمني هذا الخلف إلا الساعة». وجعل يسبني والرجل يقول: «ما عرفني». وأبي يقول: «هبه ما عرفك فما عذره في حسن الأدب». ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به، فتحدثا طويلاً، ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافياً حتى بلغ الباب، وأمر ببابته التي يركبها فأسرجت وحلت عليه ليركبها ثم لا ترجع إليه أبداً، فلما انفصل قلت لأبي: «من هذا الرجل الذي عظمته هذا التعظيم؟» فقال لي: «اسكت! وいく! هذا أديب الأندلس وسيدها في علم الأدب هذا «أبو محمد عبد المجيد بن عبدون» أيسر محفوظاته كتاب الأغاني، وما حفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته؟» ا.ه.

ارجع إلى كتابنا «نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي» ص ٣٥٣.

(٢) هذه فصول نثبتها هنا من كتاب «البيان المغرب» في أخبار ملوك الأندلس والمغرب» (ج ٣ ص ٢٥٥) وما يليها قال:

في سنة سٌّ وخمسين وأربع مئة كثُر خوض أهل قرطبة في الذي رأوه من تنافس ولدي أبي الوليد بن جهور في الانتصاف بالإمارة: ابنه عبد الرحمن كبير جماعتهم، وأخوه عبد الملك أشهمهم فؤاداً، وأصلبهم عوداً، الذي كشف عن وجوههم غمة مركسهم ابن السقاء، فاستدرك لهم ما كان تولى من سلطانهم بفتكه به الفتكة التي ثبتت أوتاد ملوكهم، ثم نازع أخاه عبد الرحمن فيما ذهب إليه من التفرد به.

وقد كان وأشار على أبيهما بعض حلفائه بيايثار عبد الرحمن، فتمسك الشيخ بحظه من إرضاء ولده الصغير عبد الملك فمال إلى قسمة الرياسة بينهما مدة حياته، غير ناصب أحدهما للأمر، يقضي الله أمره من يشاء، وأنشد قول الجزيري:

وإذا الفتى فقد الشباب سما له حب البنين ولا كحب الأصغر

ثم نظر لعبد الرحمن فقدمه في الإشراف والجباية، وجعل إلى عبد الملك النظر في الجندي، والتولي لفرضهم، والإشراف على أعطياتهم، فرضيا منه هذا التقسيم وأقامهما على الضراط المستقيم.

وقال ابن بسام: «إلى هنا انتهى ما وجدته في كتاب ابن حيان من أخبار الدولة الجمهورية». (قال مؤلف «البيان المغربي»): «وها أنا أذكر من كلام ابن بسام وغيره ما أمكن من بقية أخبارهم إن شاء الله، فأقول أولاً:

كان عباد المعتصد خامر قلبه من أمر ابن السقاء مدبر دولة بنى جهور ما لا يسعه بوح ولا كتم، وما لا يدعه سفه ولا حلم، شرقاً بحسن سيرته، وفرقماً من استمرار مرينته، وحسداً لآل جهور، فقد كان ابن السقاء هذا من الاستقلال بمكانه، والضبط لسلطانه، بحيث يخيف الأنداد، ويغليظ الحساد، فدس عباد إلى عبد الملك بن جهور من جسره على الفتكت، وإلى ابن السقاء من ألقى في روعه حب الملك، راش وبرى، حتى جرى القدر بينهما بما جرى، ولما خلا لعبد الملك الجو بعد ابن السقاء أعرض وأطال، وطلب الطعن والتزال، ووجد عباد السبيل إلى شيء طالما أسرّ ذكراه، ونفّص عليه كثيراً من دنياه، من افتقار بنى

جهور إلى نصره، تصرفهم بين يدي نهيه وأمره، وانقبض عن عبد الملك لأول استبداده بالأمر حماته الذين كان ابن السقاء يرفهم برفقه، ويصطنهما بحذقه.

وحاصر ابن ذي النون من الشغف بقرطبة ما هون عليه إنفاق المال، واحتمال الأثقال، وتکلف الحل والترحال، ومضت السنون، وغالت عباداً المنون، وصار الأمر إلى ابنه المعتمد سنة إحدى وستين، فلما كان سنة اثننتين بعدها دلف ابن ذي النون إلى قرطبة وكان لا يغبها شره، ولا ينام عنها مكره، فاحتاج عبد الملك بن جهور إلى استمداد المعتمد لانقضاض من لديه، وعجزه عما كان أنسد من أمر قرطبة إليه، فأمدده المعتمد بجمهور أجناده على أكابر قواه، وقد تقدم إليهم بمراده، ونهج لهم سبيل إصداره وإيراده، فوافوا قرطبة ونزلوا بربضها الشرقي وأقاموا بها أياماً يحمون حماها، وأعينهم تزدحم عليه، ويدبون عن جناها، وأفواههم تنجدب إليه، فلما شمل ابن ذي النون سفره واحتواه، وقضى من غزو قرطبة وطره وما قضاه، أخذ في الرحيل عنها فما انقضت سدفة ليله، ولا تمزق غبار سنابك خيله، حتى هتك العباديون الحريم، وركبوا الأمر العظيم، باتوا متهددين بالقفول ثم غلسو مظهرين للرحيل، وعبد الملك متأهب لتشييعهم، عازم على البكرة إلى توديعهم، وشكراهم على حسن صنيعهم، فلم يرمه إلا إدحاقهم بقصره، وارتفاع أصواتهم بالبراءة من أمره، وقد تمخضت له ليلة عن يوم عقيم، وافت له ناجذ صبحها عن ليل بهيم، ومشى من أنصاره هنالك بين أسود مسوم، وأسد شتيم.

ومن يجعل الضراغم للصيد بازه تصيده الضراغم فيما تصيده

فقبض للحين على عبد الملك وأخواته، وجميع أهل بيته، وباللغوا لوقتهم في الانتهاك لحرمه، وإزالة نعمه، وإخفار ذممه، وأخرج الشيخ أبو الوليد بقية أشراف الأندلس، وكان إذ ذاك مائل الشق، مفلوج الشدق، مغلوب الباطل والحق، لم تحفظ له حرمة، ولا رُعيَ فيه إلّا ولا ذمة. بلغني أنه لما وسط به قنطرة قرطبة خارجاً منها على مركب هجين، وحاله تقر منها عيون الحاسدين، رفع يديه إلى السماء، وأخذ يبتهل في الدعاء،

فكان مما حفظ عنه قوله: «اللهم كما أجبت فينا الدعاء علينا، فأجبه لنا». ثم مات بعد أربعين يوماً من نكتبه بجزيرة «شلطيش» مزال النعمة، مدار الحرمة، وأقرت ساقته بها، أقاموا هناك بقية أيام المعتمد يأخذهم الحدثان ويدعهم ويخفضهم الزمان أكثر مما يرفعهم. انتهى كلام ابن سام (رحمه الله).

(وقال الوراق): وفي سنة ستٌ وخمسين نوحاً أبو الوليد بن جهور بابنيه عبد الرحمن وعبد الملك واستعلن بهما دون تفويض منه إليهما، فلم يلبث عبد الملك أن أثل مجده لأول ظهوره بالاقتراب إلى المعتصم عباد، فكتبه بما كان من أمره، وبعد ذلك زاره بإشبيلية فأكرمته المعتصم إكراماً كثيراً، وانصرف إلى قرطبة وقد زادت همته، وبعد آماله، حتى فاق أخاه وغلبه على الأمر، واستبد بالأمر دونه إلى أن جعل سجنه منزله، وكان له بطانة سوء من السفال وسقاط الناس، ومن لا خلاق له، فكان لهم تسلط على الناس بالأذى، يهيم بهم في كل وادٍ من الدناءة، إلى أن غزا قرطبة البائسة المأمون يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة فاستجاش عند ذلك عبد الملك بن جهور حليفه المعتمد بن عباد فأمده بجنوده وحشوده، حتى امتلأت منهم قرطبة فوق القتال بين أهل قرطبة وابن ذي النون أيامًا إلى أن أقلع عنهم.

(قال صاحب «البيان المغرب»):

ولما أقلاع ابن ذي النون عن قرطبة اجتمع أهلها في السر على أن يخلعوا ابن جهور وينولوا ابن عباد فأبرموا أمرهم وأحكموه، وقاموا بأجمعهم لما ضجروا من جور ابن جهور وتعديه هو وحاشيته السفلة على الناس، وثاروا في صبيحة اليوم الذي اتفقوا فيه مع قواد ابن عباد وقام أصحاب ابن جهور دونه، وكانوا طائفة قليلة، فغلب عليهم أهل قرطبة واستوى الخائن عبد الملك بن جهور في يد ابن مرتين قائد ابن عباد وانقرض ملكبني جهور، فكانت دولة أبي الوليد بن جهور بقرطبة ستًا وعشرين سنة وستة أشهر ونصفًا.

ومن كتاب «الأنباء في سياسة الرؤساء». قال:

لما أخذ أبو الوليد بن جهور العهد على أهل قرطبة لولي عهده ابنه عبد الملك وولاه على قرطبة جار واعتدى، وتعاظم وتعاطى حتى سُمّى نفسه ذا

السيادتين المنصور باشا الظافر بفضل الله وخطب له في منبر قرطبة بهذا كله، فسلط الله عليه نكایة ابن ذي النون له، وتضييقه عليه حتى ملك حصن المدور وحاصره بقرطبة، فاستغاث بالمعتمد محمد بن عباد فوجّه إليه مقدمة في ثلاثة مئة فارس، ثم جدد في إثрем ألف فارس مع قائدية خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين فدخلوا قرطبة فانصرف ابن ذي النون منحوباً مفتاظاً، فاستبان ابن عباد حال عبد الملك وضعف عقله، وقلة رجاله، وكراهة رعيته فيه، فلحقهم الطمع فيه، فكان زوال ملكه أسرع من لحسة الكلب أنفه.

وثوى العسكر العبادي بقرطبة بعد رحيل ذي النون عنها أكرم ثوابه، وأهلها يبتونهم شجونهم، ويطأuponهم على ما هم فيه، ويناشدونهم الله ألا يبرحوا حتى يقبحوا على الغوي الظالم أميرهم عبد الملك بن جهور ويحبسوا البلد على سلطانهم ابن عباد فأصبحوا عشي يوم الأحد المؤرخ على تعبئة سفرهم، ثم قدم القائدان على الباب من ضبطه، وأسرعوا التقدم في الجند وال العامة إلى دار عبد الملك بن جهور فاستوى هو وخواليصته فوق غرفة داره، وتکاثر الجند عليهم، فأنهوا من كل جهة، وتوصلوا إلى داره من السقف المتصل به، ونزلوا منه إلى قعرها، وغشياها جموع من الناس أعلاها وأسفالها كالجراد المنتشر، فتقدمت العامة على النهب، فصيروا جميع ما احتوى عليه قصره كحريق سريع، وفضوا أقاصي مخازنه على نفيس أعلاها، وأما الشيخ أبو الوليد والده رب القصر فأوى إلى المقصورة ببناته وكرائمه، فاقتصرها عليه قوم من النصارى فجردوهم ونهبوا ما عندهم، فأصبح أميراً، وأضحى أسيئاً، وأآل الحال بالغوي ابنه إلى أن صعد إلى عليه أغلقها على نفسه وعلى نسائه، فارتقي الجندي إليه، ليقضوا فيها عليه، فطلب الأمان، ونزل طائعاً للقائدان وبادر ابن مرتين بالمنع عن تخطي أحد من الناس، وأعلن بالنداء بالسيف في ذلك فكف الفسقة، وارتفع النهب، وأسرع ابن مرتين الرجوع إلى دار المخلوع، وقد حاصره ابن نجاح وقدم النظر في إخراج الغوي ليومهم إلى حضرة إشبيلية فوكلا به من أخرجه على أعين الناس مع أخيه وطائفته، ثم عطاها على النظر في شأن الشيخ الضليل والدهم ومن معه من بناته ونسائه، فصيروا جميعهم في دار صغرى، والتزم القائدان الجلوس للنظر في الأمور إلى أن وصل ابن عباد قرطبة فملكتها.

نقلنا هذه الفصول لعلاقتها بما هنا، ولما فيها من الفائدة، وقد أصلحنا في عباراتها كلمات محرفة أرشدنا إليها التأمل، ودلنا عليها صدق النظر.

(٣) ثبت هنا هذا الفصل التالي من قلائد العقيان، لفتح بن خاقان، لارتباطه بكلام «دوزي»، قال الفتح بعد كلام في المعتمد:

وكانت قرطبة منتهى أمله، وكان روم أمرها أشهى عمله، وما زال يخطبها بمداخلة أهلها ومواصلة واليها إذ لم يكن في منازلها قائد، ولم يكن لها إلا حيل ومكائد، لاستمساكهم بدعاوة خلفائها، وأنفقتهم من طموس رسم الخلافة وعنائها، وحين اتفق له تملكها، وأطلاعه فلكلها وحصل في قطب دارتها، ووصل إلى تدبير رياستها وإدارتها، قال من البسيط:

هيئات جاءتكم مهدية الدول من جاء يخطبها — بالبيض والأسل فأصبحت في سري الحلي والحلل كل الملوك به في مأتم الوجل هجوم ليث بدرع البأس مشتمل	من للملوك بشأو الأصياد البطل خطبت قرطبة الحسناء — إذا منعت وكم غدت عاطلاً حتى عرضت لها عرس الملوك لنا في قصرها عرس فراقبوا عن قريب لا أبا لكم
--	---

ولما انتظمت في سلكه، واتسعت بملكه، أعطى ابنه الظافر زمامها، وولأه نقضها وإبرامها، فأفاض فيها نداه، وزاد على أمده ومداه، وحملها بكثرة حبائه واشتغل بأعبائها عن فنائه، ولم يزل فيها أمراً وناهياً، غافلاً عن المكر ساهياً، حسن ظن بأهلها اعتقده، واغترار بهم ما رواه ولا اعتقده، وهيهات كم من ملك كفنه في دمائه، ودفنه بذمائه، وكم من عرش سلوه، وعزيز أذلوه، إلى أن ثار فيها ابن عكاشه ليلاً وجرأ إليها حرباً وويلًا، فبرز الظافر منفردًا من كماته، عاريًا عن حماته، وسيفه في يمينه، وهاديه في الظلماء نور جبينه، فإنه كان غلامًا كما بلله الشباب بأندائ، وألحفه الحسن بردائه، فدفعهم أكثر ليلته، وقد منع منه تلاحق رجله وخيله، حتى أمكنتهم منه عشرة لم يقل لها لعا، ولا استقل منها ولا سعي، فترك ملتحفًا بالظلماء، مغبرًا وسط الحمام، تحرسه الكواكب، بعد المواكب، ويستره الحندس، بعد السنديس، فمر بمصرعه سحرًا أحد أئمة الجامع المغلسين وقد ذهب ما كان عليه ومضى، وهو أعرى

من الحسام المنتضي، فخلع رداءه عن مكنبه ونضاه، وستره به ستراً أقنع المجد وأرضاه، وأصبح لا يعلم رب تلك الصناعة، ولا يعرف فتشكر له يده الرفيعة، فكان المعتمد إذا تذكر صرعته، وسرع الجوى لوعته، رفع بالعویل نداءه وأنشد:

ولم أدر من ألقى عليه رداءه

ولما كان من الغد حز رأسه، ورفع على سن رمح وهو يشرق كنار على علم ويرشق نفس كل ناظر بألم، فلما رمقته الأ بصار، وتحققته الحماة والأنصار، رموا أسلحتهم، وسوسوا للفرار أحنتهم، فمنهم من اختار فراره وخلاه، ومنهم من أتت به إلى حينه رجلاه، وشغل المعتمد عن رئائه بطلب ثاره، ونصب الحبائل لوقوع ابن عكاشة وعثاره، وعدل عن تأبينه إلى البحث عن مفرقه وجبينه، فلم تحفظ له فيه قافية، ولا كلمة لوعته شافية، إلا إشارته إليه في تأبين أخويه المأمون والراضي المقتولين في أول الناثرة التي ينتهي بنا القول إلى سرد خبرها، ونص عبرها، فإنه قال (طويل):

سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري
يختشن لهفاءً وسطه صفحة البدر
ويا صبر ما للقلب في الصبر من عذر
بصنوبيه يعذر في البكاء مدى الدهر
على كل قبر حل فيه أخو القطر
يسعر مما في فؤادي من الجمر
يزيد فهل بعد الكواكب من صبر
كما بيزيد الله قد زاد في أجري
وأدعى وفيأً قد نكست إلى الغدر
ولم تلبث الأيام أن صغرت قدرى
إذا أنتما أبصراً مانى في الأسر
ثقيلاً فتبكي العين بالحس والنقر

يقولون صبراً لا سبيل إلى الصبر
نرى زهرها في مأتم كل ليلة
ينحن على نجمين أثكلن ذا وذا
مدى الدهر فليبك الغمام مصابه
بعين سحاب واكف قصر دمعها
وبرق ذكى النار حتى كائنا
هوى الكوكبان «الفتح» ثم شقيقه
أفتح! لقد فتحت لي باب رحمة
هوى بكم المقدار عنى ولم أمت
توليتما والسن بعد صغيرة
فلو عدتما لاخترتما العود في الثرى
يعيد على سمعي الحديد نشيده

وأمكما الثكلى المضمرة الصدر
ويزجرها التقوى فتصفي إلى الزجر
أبا النصر مذ ودعت ودعني نصري
تجدد طول الدهر ثكل أبي عمرو

معي الأخوات الهالات عليكم
فتباكي بدمع ليس للقطر مثله
أبا خالد أورثتني البت خالداً
و قبلكما ما أودع القلب حسراً

الفصل الحادي عشر

(١) ذكر صاحب قلائد العقيان في سبب هذه الأبيات وجهاً آخر قريباً من الوجه الذي ذكره «دوزي» هنا، فقال: ولما فغر المعتمد على مرسية فمه، وأراد أن يرفع بها علمه، وثبت بها قدمه، ويتحذ ملاكها خوله وخدمه، وجعل ابن طاهر غرضه، ونبذ ذمام الوفاء له ورفضه، لضيق مجاله، وقلة رجاله، عجم أعادوه، وسر أنجاده، فلم ير سهماً يفوقه لعرشه، ولا شهماً يطوقه أمر جيشه، إلا ابن عمار رأياً لم ينتقه، واعتقاداً لم يفتقده، وظلاً أخلفه، وقضاء ما أسلفه، مجازاة لبغيه، وموازاة لقبح سعيه، وانتصاراً من الله لمن لم يجن ذنباً، ولم يثن عن موضع المولاية جنباً، فلماً وصل إليها، وحصل عليها، وفط ختمها، وصح لنفسه اسمها، نبذ عهد المعتمد وخلعه، وأنزل ذكره من منابرها بعدهما أطلاعه، فقيص له من ابن رشيق رجل حكاف فعلاً، وصار لتلك العقلية بعلاً، فاقتصر منه اقتصاص ابن ذي يزن من الحبشان، وتركه أخسر من أبي غبشان، وما كان إلا ريثما أوقد جمره، وقلده نهيه وأمره، وخرج هو إلى افتقاد أقطاره، وقضاء بعض أوطاره، حتى ثار له ثورة الأسد الورد، وامتنع له بمرسية امتناع صاحب الأبلق الغرد، فبقي ابن عمار ضاحياً من ظل غبطته، لاحياً نفسه على غلطته، ولما استبهم أمره ولم يعلم له تفسيراً، وعاد جناحه الوافر مهياضاً كسيراً، أراد الرجوع إلى المعتمد فخاف أن يوبقه غدره، وعزم على القعود عنه فضاق بفقد ما عهده عنده صدره، فكتب إليه:

أسلك قصدًا أم أعوج عن الركب فقد صرت من أمري على مركب صعب

إلى آخر القصيدة.

ثم قال: فرق له المعتمد وأشفق، وأقشع نوء حقده عليه وأخفق، وعزم على الصفح عنه والتجاوز، وأن يرفع بالإغضاء له تلك المعاوز، فكتب إليه مراجعاً:

لدي لك العتبى تراح من العتب

إلى آخر الأبيات التي أثبتتها «دوзи» في كتابه، كما أثبتت أبيات ابن عمار السابقة.
(٢) ارجع إلى ما كتبناه عن أخبار ابن عمار مع المعتمد في هامش الكتاب.

الفصل الثاني عشر

(١) سقطت طليطلة في عهد القادر آخر ملوكبني ذي النون من ملوك الطوائف وقد بلغت دولتهم في إبانها من الاستفحال أقصى غاية، حتى غلبو المعتمد بن عباد على قربطة وقتلوا ولده عباداً ونزعوا بلنسية من يد ابن أبي عامر إلى أن أدرك دولتهم الضعف والانحلال في عهد القادر بن ذي النون هذا.
واستولى الأذفونش منهم على طليطلة وفي ذلك يقول بعض شعرائهم في التفجع على طليطلة:

سروراً، بعدهما بئست ثغور
ثبير الدين، فاتصل الثبور
«أمير الكاشحين له ظهور»
مضى عنا لطيته السرور
يدور على الدوائر إذ تدور
وزال عتها ومضى النفور
وسامح في الحرير فتى غيور
حاماها إن ذا نباً كبير
ولا منها الخورنق والسدير
تناولها ومطلبها عسير
فذلله كما شاء القدير
فصاروا حيث ساء بهم مصير
معالمنها التي طمست تثير
على هذا يقر ولا يطير

لذلك كيف تبتسم الثغور
أما وأبي مصاب هد منه
لقد قسمت ظهور حين قالوا:
ترى في الدهر مسروراً بعيش
أليس بها أبي النفس شهم
لقد خضعت رقاب كن غلباً
وهان على عزيز القوم ذل
طليطلة أباح الضد منها
فليس مثالها إيوان كسرى
محصنة محسنة بعيد
ألم تك معقلاً للدين صعباً
وأخرج أهلها منها جمیعاً
وكانت دار إيمان وعلم
مساجدها كنائس! أي قلب

يكسر ما تكررت الدهور
إلى يوم يكون به النشور
مصنونات مساكنها القصور
لسرب في لواحظه فتور
لو انضمت على الكل القبور
وكيف يصح مغلول قرير
بأحزان وأشجان حضور
بمهملتهم فقد وفت النذور
وجاءهم من الله التكير
نجور وكيف يسلم من يجور

فيما أسفاه يا أسفاه حزناً
وينشر كل حسن ليس يطوى
أدileت قاصرات الطرف كانت
وأندركها فتور في انتظار
وكان بنا وبالفتیات أولی
لقد سخنت بحالتهن عین
لئن غبنا عن الإخوان إنما
نذور كُنَّ للأيام فيهم
فإن قلنا العقوبة أدركتهم
فإنا مثلهم وأشد منهم

ومنها:

فقد حامت على القتلى النسور
تهاب مضاربًا عنه النحور
بكم من أن تجاروا أو تجوروا
يلام عليهم القلب الصبور؟
وأم الصقر مقلة نزور

خذوا ثأر الديانة وانصروها
ولا تهنووا وسلوا كل عصب
وموتوا كلهم فالموت أولى
أصبراً بعد سبي وامتحان
فأم الصبر مذكار ولود

ومنها:

«إلى أين التحول والمسيير»
وليس لنا وراء البحر دور
نباكرها فيعجبنا البكور
فلا قر هناك ولا حرور
ويشرب من جداولها نمير
ويؤخذ كل صائفة عشر
وغير القوم بالله الغرور

كفى حزناً بأن الناس قالوا:
أنترك دورنا ونفر عنها
ولا ثم الضياع تروق حسناً
وظل وارف وخرير ماء
ويؤكل من فواكهها طري
يؤدي مغرم في كل شهر
لقد ذهب اليقين فلا يقين

رأوه؟ وما أشار به مشير؟
 فما ينفي الجوى الدمع الغزير
 حيary لا تحط ولا تسير
 عسى أن يجبر العظم الكسير
 وما إن منهم إلا بصير
 ولكن ما لنا كرم وخير
 فليس بنافع عدد كثير

رضوا بالرق — يا لله — ماذا
 مضى الإسلام فابك دمًا عليه
 ونُح واندب رفاقًا في فلادة
 ولا تجنح إلى سلم، وحارب
 أنعمى عن مراشدنا جميًعا
 ولو أننا ثبتنا كان خيرًا
 إذا ما لم يكن صبر جميل

(٢) جاء في كتاب «البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب» لابن عذاري المراكشي عن حيان بن خلف قال: هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر، وكان لقبه المنصور، وكان الموالي العامريون عند ذهاب مجاهد عنهم قد أنسدوا أمرهم إلى نفر من مشيختهم، فتشاوروا في أن يقدموا أميرًا من أنفسهم يعتنون له، فاتفقوا على عبد العزيز ابن مولاهم، إيثارًا له على ابن عمه محمد بن عبد الملك وكان مقيًما بقرطبة، وعبد العزيز بسرقسطة، في كنف منذر بن يحيى فأحكم له التدبير، وخرج سرًّا، فلحق ببلنسية، فاستقبله الموالي أفواجاً، وقلدوه رياستهم، وكان عبد العزيز هذا من أوصلهم لرحمه، وأحفظهم لقرباته، ابتعثه الله رحمة للممتحنين من أهل بيته، فآواهم، وجبر الكسير، ونعش الفقير طول منته، حتى بلغ من ذلك مبلغاً أعيما ملوك زمانه، وخطاب لأول حينه الخليفة بقرطبة القاسم بن حمود مع هدية حسنة، وذكره بذمام سلفه، فسماه المؤمن ذا السابقتين، فتوطد سلطانه، واشتمل على خدمته أربعة من الكتاب، حتى سماهم الناس الطبائع الأربع، وهم: ابن طالوت وابن عباس وابن عبد العزيز وابن التاكرني كاتب رسائله، ولم تزل حاله تسمى، حتى اتصل بوزارته فنال جسيمًا من دنياه، وطالت إمارة عبد العزيز إلى سنة اثنتين وخمسين وأربعين مئة فتوفي في ذي الحجة منها، وهو صاحب بلنسية ومرسيية وشاطبة وجزيرة شقر وأعمالها.

ضعف أمر ولده المظفر ببلنسية، فملك ابن طاهر مرسيية واستيد بها إلى أن مات، فورث ملكه بها ابنه محمد بن طاهر.

وبعد عبد العزيز بن أبي عامر ولـي ابنه عبد الملك، اجتمع أصحاب أبيه عبد العزيز على تأميره، وقام له بأمره كاتب والده، والمدير لدولته الوزير ابن عبد العزيز المشهور، مع معرفته بابن روش القرطبي وكان مشهورًا بالرجاحة، فأحسن هذا الكاتب معونته على شأنه، وتولى تمهيد سلطانه، واستقر أمره على ضعف ركته، لعدم المال، وقلة الرجال،

وفساد أكثر الأعمال، وراعي هذا الكاتب الشهم، مدبر تلك الدولة في هذا المؤمر عبد الملك مكان صهره من الأمير المأمون يحيى بن ذي النون إذ كان صهر عبد الملك أباً امرأته، المساهم له في مصاب أبيه، المعين له على سد ثلمه، الزائد عنه كل من طمع فيه، فانزعج عند نزول الحادثة من حضرته طليطلة إلى قلعة «كونكة» من أعماله، للدنو من صهره عبد الملك وبادر بإنفاذ قائد من خاصته، وبالكاتب ابن مثنى إلى بلنسية في جيس كثيف، أمرهم بالمقام مع عبد الملك وشد ركته، فسكنت الدهماء عليه.

ومضى عبد العزيز أبوه، غير فقيد المكان، ولا عديم الشأن، ولا مبك لسمائه وأرضه، ما فجع به إلا ذو رحمة من آل أبي عامر، لتناهيه في صلتهم، حتى صار إسرافه في ذلك من أضر الأشياء لجنه وأجلبها لذمه، له في ذلك أخبار مأثورة، وتوفي وهو أطول أمراء الأندلس مدة إمارة، وتملكها أربعين حجة، فسبحان المنفرد بالبقاء، الأول قبل الأشياء.

(٣) عبارة المعتمد في النص العربي هي: «رعى الجمال خير من رعي الخنازير».

وقد جاء في كتاب آخر ملوكبني سراج وقد بدأ بتلخيص ما رواه صاحب كتاب «الروض المعطار» ثم عقب عليه بكلام من عنده فقال: تأخر المعتمد في دفع الضريبة لاشغاله بغزو ابن صمادح صاحب المرية، فلما أرسلها استشاط الأذفونش غضباً، وأرسل يطلب منه بعض الحصون وأم昏 في التجني، وسأل في دخول امرأته الحامل جامع قرطبة لتلقيه حسب إشارة القسيسين والأساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمه عندهم، وأن تنزل في قصر الزهراء غربي مدينة قرطبة، والزهراء هذه هي التي بناها الناصر لدين الله وأم昏 في بنائها، وجلب إليها الرخام الملون، والمرمر الصافي، والحوض المشهور ... إلخ؛ ذلك لتلد الأذفونشة بين نسيم الزهراء وفضيلة الكنسية من الجامع المذكور، وكان صاحب هذه السفارة يهودياً هو وزير الأذفونش فأبى ابن عباد إجابة التماسه، فراجعه وألح عليه حتى أىأسه بما غلظ له من القول، فضربه المعتمد بمحربة كانت بين يديه فأنزل دماغه في حلقه، وأمر به، فصُلب منكوساً بقرطبة، واستفتى في جواز الفعلة الفقهاء، فبادر محمد بن الطلاع الفقيه بالفتيا بجواز ذلك لتعديي الرسول حدود الرسالة، واحتج بأنه إنما بادر بذلك خوفاً من أن يكسل المعتمد عن منابذة العدو، وبلغ الخبر الأذفونش فأقسم بالله أنه ليغزونه بإشبيلية، ولويحصرنه في عقر داره، وجرد له جيشين أحدهما زحف إلى كورة باجه فليلة فإشبيلية، والثاني تولى قيادته بنفسه، حتى التقى الجيشان تحت لوائهما قبالة قصر ابن عباد على ضفة النهر الأعظم، وفي أيام مقامه هناك كتب إلى ابن عباد زارياً: «كثير بطول مقامي في مجلسي الذباب، واشتد الحر،

فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي، وأطرد بها الذباب عن وجهي..» فوقع له ابن عباد بخطه في ظهر الرقعة: «قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسانظر لك في مراوح من الجلود الملطية، تروح منك، لا تروح عليك إن شاء الله (تعالى)». وشاع توقيع ابن عباد وفشا في الناس عزمه على استئثار البربر لمجاهدة العدو، فلما علم بذلك أقرانه ملوك الطوائف، اهتموا وتشاوروا للأمر، ومنهم من كاتبه، ومنهم من شافهه، قائلين: «إن الملك عقيم، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد». فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة: «رعى الجمال خير من رعي الخنازير، أي أن يكون مأكولاً ليوسف بن تاشفين، يرعى جماله في الصحراء، خير من كونه ممزقاً للأذفونش أسيراً عنده يرعى خنازيره في قشتالة، وقال لعذاله قوله آخر: «يا قوم إني من أمري على حالين، حالة يقين، وحالة شك، ولا بد لي من إدحهما، فاما حالة الشك، فإني إن استندت إلى الأذفونش أو إلى ابن تاشفين فمن الممكن أن يفي لي، ويمكن أن لا يفعل، وأما حالة اليقين، فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أرضي الله، وإن استندت إلى الأذفونش أخسخت الله، وهذه حالة يقين، فلماذا أدع ما يرضي الله إلى ما يسخطه.»

ولما عزم المعتمد على الاستجاشة، أمر كلاً من «المتوكل بن الأفطس» صاحب بطليوس وعبد الله بن حبوس صاحب غرناطة أن يوفد كل منهما قاضي الجماعة بحضرته، واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن أهتم وكان أعلم أهل زمانه، فلما اجتمع عنده القضاة بإشبيلية، أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ ابن تاشفين وترغيبه في الجهاد، وأسند إلى وزيره ابن زيدون ما لا بد منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية «وقد وفي يوسف بالأولى ولم يف بالثانية».

وكان ابن تاشفين منذ اعتلاء الضعف دول الأندلس لم تزل تفدي عليه وفود المسلمين من وراء البحر، مستعطفين مجهشين بالبكاء، فما وفدت رسل ابن عباد حتى أسرع الإجابة، وحشد العساكر، وأنزلها بالجزيرة الخضراء، وأجاز على أثرها، وامتلأت الجزيرة بالمجاهدين والتطوعة، وعلى رواية ابن خلكان أنه أمر بعبور الجمال، فعبر منها ما أغص الجزيرة، وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملًا قط ولا خيلهم، فصارت الخيل تجتمع من رؤية الجمال، ومن رغائها، وكان ليوسف في عبور الجمال رأي مصيبة، فكان يحدق بها عسکره عند الحرب، وكانت خيل الفرنج تجتمع منها.

ولما نزل يوسف بحشوده في الجزيرة، وبلغ الأذفونش تأبّل أمراء المسلمين لمناهضته، استنفر جميع أهل بلاده، وما يليها وما وراءها، ورفع القسيسون والأساقفة صلبانهم، واجتمع له من الإفرنجية والجلالقة ما لا يحصى عدده، وببعث الأذفونش إلى ابن عباد: «إن صاحبكم يوسف تجشم المشقة، وخاص بالبحر، وأنا أكفيه العنا فيما بقي، وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم». وكان مقصدته في الدلوف إلى ديار المسلمين أنه إن دارت عليه الدائرة، كان له من ورائه من معاقله ومدانه معتصم، وإن كانت عليهم، كان أقدر على النكأة فيهم في عقرتهم.»

ومما قيل إنه كتب إلى يوسف كتاباً أنشأه له بعض غزاة المسلمين، يغليظ له في القول، ويتوعده، فأمر ابن تاشفين — ولم يكن أعلم بالعربية من الأذفونش — كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجاوبه، وكان كاتباً مجيداً فكتب وأجاد، فلما قرأه، يوسف استطالة، وأخذ كتاب الأذفونش وكتب على ظهره: «الذى يكون ستراه»، وأخذ المعتمد وأمراء الأندلس يجلبون لجيوش المغاربة الأقوات والضيافات.

ولما قرب أمير المسلمين من إشبيلية خرج ابن عباد للقاء في وجوه أصحابه، وعندما تلقيا، تصافحا وتعانقا، ثم شكر أئم الله، وتواصيا بالصبر والرحمة، وتتوسلا إلى الله أن يجعل سعيهما خالصاً لوجهه، ووافت الجيوش كلها بطليوس.

وجاءهم الخبر بزحف الطاغية، ولما تداني الفريقان، أذكى المعتمد عيونه في محلات الصهراويين خوفاً عليهم من المكاييد لجهلهم المكان، وكان يوسف قد كتب إلى الأذفونش يدعوه إلى إحدى الثلاث وهي الإسلام أو الجزية أو السيف، كما هي السنة، فامتلأ الأذفونش غيظاً، وقامت الأساقفة ورفعوا صلبانهم، وتباعدوا على الموت، وقام الفقهاء من الجهة المقابلة، ووعظوا وحضوا على الصبر والثبات، وصدعوا بقوارع الكتاب، وأصبح يوم الخميس، فبعث الأذفونش إلى ابن عباد يقول له: «غداً يوم الجمعة، وهو عيدكم، والأحد عيدهنا، فليكن لقاونا بينهما وهو يوم السبت.»

فأعلم ابن عباد السلطان يوسف بذلك وأنها خديعة ليفتك بال المسلمين يوم الجمعة، فانتبه الجيش الإسلامي طول ليلة الجمعة، واستيقظ الفقيه الناشر أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي فرحاً مسروراً يقول: إنه رأى النبي ﷺ تلك الليلة في النوم، فبشره بالفتح والشهادة، فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه بالطيب، وانتهى ذلك إلى ابن عباد ببعث إلى يوسف يخبره.

وجاء في الليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفوا على محله الأذفونش

وسمعاً ضوضاء الجيوش، وصليل الأسنة، وجاءت العيون من داخل محلتهم، يقولون: قد استرقنا السمع فسمعنا الطاغية يقول لأصحابه: «ابن عباد مسرع هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون – وإن كانوا ذوي حفاظ وبصائر في الحرب – فهم جاهلون البلاد، فاقصدوا ابن عباد، وأصدقوا الحملة، فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون».

فأرسل ابن عباد يعرف أمير المسلمين، وقبل ورود الجواب غشته جنود الأذفونش من كل جهة، وهاجت الحرب، وحمي الوطيس، وتبایع الناس على الموت، وصبر المعتمد صریحاً لم يعهد مثله لأحد، واستبطأ يوسف في النجدة، وانكشف بعض أصحابه، وأثخن جراحات، وعقرت تحته ثلاثة أفراس.

ويبينما هو على تلك الحال أقبل عليه – من قواد المرابطين – داود ابن عائشة، وكان من الأبطال، فنفس عن خناقه، وأقبل يوسف بجامعة، وأصوات طبوله قد ملأت الفضاء، فنهد إليه الأذفونش بمعظم جيشه، فصدتهم ابن تاشفين بجنده، فردهم إلى مراكزهم، وانتظم – بيوسف – شمل ابن عباد وحملوا جميعاً حملة الرجل الواحد، فتزلزلت الأرض بحوافر خيالهم، وأظلم الجو من العثير، وتراجع المنكشرون من أصحاب ابن عباد وتجددت الحملة، فانكشف الأذفونش وقيل: بل تصادم الجماعان، وتناوبا الكر والفر، إلى أن أمر يوسف حشمه من السودان، فترجل منهم نحو أربعة آلاف بدرق اللطم، وسيوف الهند، ومزاريق الزان، وأدرك الأذفونش أسود لصق به، وقبض على عنانه، وانتقض خنجرًا أثبته في فخذه، فهتك حلق درعه، وهبت ريح النصر، وأنزل الله السكينة على المسلمين، وانكشف العدو من كل جانب، وقد فشا فيه القتل والأسر، واعتصم الأذفونش – بخمس مئة فارس من قومه – بربوة عالية انسابوا منها بعد تخيم الظلم، وقد أباد القتل من الإسبانيول أمة، وجعل المسلمين من رءوسهم مائن يؤذنون عليها، واستشهد في ذلك اليوم ابن رمillaة كما بشّرَه النبي ﷺ، وقاضي مراكش أبو مروان عبد الملك المصمودي، وغيرهما من الأعيان.

وأقامت العساكر بالملوّض أربعة أيام، حتى جمعت الغنائم، فتعطف عنها أمير المسلمين، إيثاراً لأهل الأدلّس، وعادوا جميعاً إلى إشبيلية وحضرت الكتب من بر العدوة إلى ابن تاشفين، تقتضي عزمه بالرجوع، فعبر البحر ودعا المعتمد، وهذه وقعة الزلاقة الشهيرة من أشهر ما حملته التواريخ من الوقائع بين الإسلام والنصرانية.

(٤) توفي باديس عام ١٠٨٣م، فقسمت مملكته بعد وفاته بين حفيديه عبد الله وتميم فكان نصيب الأول غرناطة والثاني مالقة. «دوزي»

(٥) يوسف بن تاشفين والمعتمد

جاء في كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكمي ما يأتي: ولما كانت سنة ٤٧٩ جاز المعتمد على الله البحر، قاصداً مدينة مراكش إلى يوسف بن تاشفين، مستنصرًا به على الروم، فلقيه يوسف المذكور أحسن لقاء، وأنزله أكرم نزل، وسأله عن حاجته، فذكر أنه يريد غزو الروم، وأنه يريد إمداد أمير المسلمين إياه، بخيل ورجل ليستعين بهم في حربه، فأسرع أمير المسلمين المذكور إجابته إلى ما دعاه إليه، وقال له: وأنا أول منتسب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسي.

فرجع المعتمد إلى الأندلس مسروراً بإسعاف أمير المسلمين إياه في طلبه، ولم يدر أن تدميره في تدبيره، وسلَّ سيفاً يحسب له، ولم يدر أنه عليه، فكان كما قال أبو فراس:

إذا كان غير الله للمرء عدة
أنته الرزايا من وجوه الفوائد
كما جرت الحنفاء حتف حذيفة
وكان يراها عدة للشدائد

فأخذ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في أهبة العبور، إلى جزيرة الأندلس وذلك في شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة، فاستنصر من قدر على استئثاره من القواد، وأعيان الجندي، ووجوه قبائل البربر، فاجتمع له نحو سبعة آلاف فارس في عدد كثير من الرجال، فعبر البحر بعسكر ضخم، وكان عبوره من مدينة سبتة فنزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء، وتلقاه المعتمد في وجوه أهل وطنه، وأظهر من بره وإكرامه، فوق ما كان يظنه أمير المسلمين، وقدم إليه من الهدايا والتحف، والذخائر الملكية ما لم يظنه يوسف عند ملك.

فكان هذا أول ما أوقع في نفس يوسف التشوف إلى مملكة جزيرة الأندلس، ثم إنه فصل عن الخضراء بجيشه قاصداً شرقي الأندلس، وسأله المعتمد دخول إشبيلية دار ملكه ليستريح فيها أيامًا، حتى تزول عنه وعاء السفر، ثم يقصد قصده فأبى عليه وقال: «إنما جئت ناوياً جهاد العدو، فحيث ما كان العدو توجهت وجهه».

وكان الأذفونش محاصراً لحسن من حصن المسلمين يعرف بحصن «الليط»، فلما بلغه عبور البربر أقلع عن الحصن راجعاً إلى بلاده، مستنفراً عساكره، ليلاقي بهم البربر، وتوجه يوسف المذكور إلى شرقي الأندلس يقصد ذلك الحصن المحاصر، والإصلاح بين المعتمد على الله وبين رجل كان تغلب على مرسية يقال له ابن رشيق قد تقدم ذكره في أخبار ابن عمار، فأصلاح بينهما يوسف أمير المسلمين، على أن يخرج له ابن رشيق عن

مرسية ويعوضه المعتمد عن ذلك مالاً جعله له، ويوليه في جهة إشبيلية أضخم ولاية، فأجابه ابن رشيق إلى ذلك، و وسلم المعتمد مرسية وأعمالها، ولقي يوسف أمير المسلمين ملوك الأندلس الذين كان عليهم طريقة، كصاحب غرناطة والمعتصم بن صمادح صاحب المرية وابن عبد العزيز أبو بكر صاحب بلنسية ثم إن يوسف المذكور استعرض جنده على حصن الرقة فرأى منهم ما يسره، فقال للمعتمد على الله: «هلم لما جئنا له من الجهاد، وقصد العدو».»

وجعل يظهر التألف من الإقامة بجزيرة الأندلس، ويتشوق إلى مراكش، ويصغر قدر الأندلس، ويقول في أكثر أوقاته: «كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيماً قبل أن نراها، فلما رأيناها وقعت دون الوصف.»

وهو في ذلك كله يسر حسوا في ارتقاء، فخرج المعتمد بين يديه قاصداً مدينة طليطلة واجتمع للمعتمد أيضاً جيش ضخم من أقطار الأندلس، وانتدب الناس للجهاد من سائر الجهات، وأمد ملوك الجزيرة يوسف والمعتمد بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح، فتكامل عدد المسلمين من المتطوعة والمرتزقة، زهاء عشرين ألفاً، والتقووا هم والعدو بأول بلاد الروم، وكان الأذفنش - لعنه الله - قد استنفر الصغير والكبير، ولم يدع في أقصى مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه، وجاء يجر الشوك والشجر، وإنما كان مقصوده الأعظم، قطع تشوف البربرة عن جزيرة الأندلس، والتهيب عليهم.

فأما ملوك الأندلس، فلم يكن منهم أحد إلا يؤدي إليه الإتاوة، وهم كانوا أحقر في عينه وأقل من أن يحتفل لهم.

ولما تراءى الجمuan من المسلمين والنصارى رأى يوسف وأصحابه أمراً عظيماً هالهم من كثرة عدد وجودة سلاح وخيل، وظهور قوة، فقال للمعتمد: «ما كنت أظن هذا الخنزير - لعنه الله - يبلغ هذا الحد.»

وجمع يوسف أصحابه، وندب لهم من يعظهم ويدركهم، فظهر منهم من صدق النية، والحرص على الجهاد واستسهاش الشهادة ما سر به يوسف والمسلمون، وكان ترائيم يوم الخميس وهو الثاني عشر من رمضان، فاختافت الرسل بينهم في تقرير يوم الزحف ليسعد الفريقان، فكان من قول الأذفونش لعنه الله: «الجمعة لكم، والسبت لليهود وهو وزراؤنا وكتابنا، وأكثر خدم العسكر منهم، فلا غنى بنا عنهم، والأحد لنا، فإذا كان يوم الاثنين كان ما تريده من الزحف.» وقصد - لعنه الله - مخادعة المسلمين، واغتيالهم، فلم يتم له ما قصد، فلما كان يوم الجمعة تأهب المسلمين لصلاة

ال الجمعة، ولا أمارة عندهم للقتال، وبنى يوسف بن تاشفين الأمر على أن الملوك لا تغدر، فخرج هو وأصحابه في ثياب الزينة للصلوة، فأما المعتمد فإنه أخذ بالحزم فركب هو وأصحابه شاكي السلاح، وقال لأمير المسلمين: «صل في أصحابك، فهذا يوم ما تطيب نفسي فيه، وهذا أنا من ورائكم، وما أظن هذا الخزير إلا قد أضمر الفتاك بال المسلمين». فأخذ يوسف وأصحابه في الصلاة، فلما قعدوا الركعة الأولى ثارت في وجوههم الخيل من جهة النصارى، وحمل الأذفونش — لعنه الله — في أصحابه، يظن أنه قد انتهت الفرصة، وإذا المعتمد وأصحابه من وراء الناس، فأغنى ذلك اليوم غناء لم يشهد لأحد من قبله، وأخذ المرابطون سلاحهم، فاستووا على متون الخيل، واختلط الفريقان، فأظهر يوسف بن تاشفين وأصحابه من الصبر وحسن البلاء والثبات ما لم يكن يحسبه المعتمد، وهزم الله العدو، واتبعهم المسلمون يتبعونهم في كل وجه، ونجا الأذفونش — لعنه الله — في تسعه من أصحابه، فكان هذا أحد الفتوح المشهورة بالأندلس، أعز الله فيه دينه، وأعلى كلامه، وقطع طمع الأذفونش — لعنه الله — عن الجزيرة، بعد أن كان يقدر أنها في ملكه، وأن رءوسها خدم له، وذلك كله بحسن نية أمير المسلمين، وتسمى هذه الواقعة عندهم وقعة الزلاقة.

وكان لقاء المسلمين عدوهم — كما ذكرنا — في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان الكائن في سنة ٤٨٠.

ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين مفتوحًا لهم وبهم، فسر بهم أهل الاندلس، وأظهروا التيمن بأمير المسلمين والتبرك به، وكثير الدعاء له في المساجد، وعلى المنابر وانتشر له من الثناء — بجزيرة الأندلس — ما زاده طمعًا فيها، وذلك أن الأندلس كانت قبله بصدق التلاف من استيلاء النصارى عليها، وأخذهم الإتاوة من ملوكها قاطبة.

فلما قهر الله العدو، وهزمه على يد أمير المسلمين، أظهر الناس إعظامه، ونشأ له الود في الصدور، ثم إنه أحب أن يجول في الأندلس على طريق التفرج والتنزه، وهو يريد غير ذلك، فجال فيها، ونال من ذلك ما أحب، وفي خلال ذلك كله، يظهر إعظام المعتمد وإجلاله، ويقول مصريحاً: «إنما نحن في ضيافة هذا الرجل، وتحت أمره، وواقفون عند ما يحدده».

وكان من اختص بأمير المسلمين من ملوك الجزيرة، وحظي عنده، واشتد تقريره أمير المسلمين له أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح المعتصم صاحب المرية، وكان

المعتصم هذا قديم الحسد للمعتمد كثير النفاسة عليه، لم يكن في ملوك الجزيرة من يناؤه غيره، وربما كانت بينهما في بعض الأوقات مراسلات قبيحة. وكان المعتصم يعييه في مجالسه وينال منه، ويمنع المعتمد من فعل مثل ذلك مروعته، ونزاهة نفسه، وطهارة سريرته، وشدة ملوكيته، وقد كان المعتصم — قبل عبور أمير المسلمين بيسير — توجه إلى شرق الأندلس يتطوف على مملكته، ويطالع أحوال عماله ورعيته.

فلما دانى أول بلاد المعتصم خرج إليه في وجوه أصحابه، وتلقاه لقاء نبيلاً، وعزم عليه ليدخلن بلاده، فأبى المعتمد ذلك، ثم اتفقا بعد طول مراودة، على أن يجتمعوا في أول حدود بلاد المعتصم وأخر حدود بلاد المعتمد فكان ذلك واصطلاحاً — في الظاهر — واحتفل المعتصم في إكرامه، وأظهر من الآلات السلطانية، والذخائر الملكية المعدة لجالس الأنس، ما ظنه مكمداً للمعتمد، مثيراً لغمه، وقد أعاد الله المعتمد من ذلك، وصان خلقه الكريم عنه، وعصمه بفضله منه، ثم افترقا بعد أن أقام المعتمد عنده في ضيافته ثلاثة أسابيع، ورجع المعتمد إلى بلاده وبأثر ذلك عبر إلى مراكش، ولم يزل ما بينه وبين المعتصم معموراً، إلى أن عبر أمير المسلمين كما ذكرنا، فلقيه المعتصم بهدايا فاخرة، وتحف جليلة، وتلطف في خدمته، حتى قربه أمير المسلمين أشد تقريب، وكان يقول لأصحابه: هذان رجلاً الجزيرة، يعني المعتمد والمعتصم.

وكان أكبر أسباب تقريب أمير المسلمين إياه ثناء المعتمد عليه عند أمير المسلمين، ووصفه إياه عنده بكل فضل.

ولم يكن المعتصم بعيداً من أكثر ما وصفه به، ولما اشتد تمكن المعتصم من أمير المسلمين، بدا له أن يسعى في تغيير قلبه على المعتمد وإفساد ما بينهما، حسن له ذلك سوء رأيه، ودنس سريرته، وضعف بصره بعوائق الأمور، ولعيضي الله أمراً كان مفعولاً، ولبيبلغ القدر ميقاته، وإذا أراد الله أمراً هيأً له أسباباً، فشرع المعتصم فيما أراده من ذلك، ولم يدر أنه ساقط في البئر التي حفر، وقتيل بالسلاح الذي شهر، فكان من جملة ما ألقى إلى أمير المسلمين، أن جعل يقرر عنده عجب المعتمد بنفسه، وفرط كبره، وأنه لا يرى أحداً كفواً له، وزعم أنه قال له في بعض الأيام، وقد قال له المعتصم: «طالت إقامة هذا الرجل بالجزيرة — يعني أمير المسلمين — ولو عوجت له أصبعي، ما أقام بها ليلة واحدة هو ولا أصحابه، وكأنك تخاف غائلته، وأي شيء هذا المسكين وأصحابه، إنما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش، وغلاء من السعر، جئنا بهم إلى هذه البلاد

نطعهم حسبة وائتجاراً، فإنما شبعوا أخرجنهم عنها إلى بلادهم». إلى أمثال هذا القول من تحcir أمرهم، وأعانه على ذلك قوم من وجوه الأندلس، إلى أن بلغوا ما أرادوه من تغير قلب يوسف أمير المسلمين على المعتمد.

وقد كان أمير المسلمين ضرب لنفسه ولأصحابه أجلاً، وحدّ له ولهم مدة يقيمونها في الجزيرة لا يزيدون عليها، وإنما فعل ذلك تطبيباً لقب المعتمد وتسكيناً لخاطره، فلما انقضت تلك المدة أو قاربت، عبر أمير المسلمين إلى العدوة، وقد وغر صدره وتغيرت نفسه:

وَمَا النَّفْسُ إِلَّا نَطْفَةٌ فِي قَرَارٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ كَانَ صَفْوًا غَدِيرَهَا

هذا مع ما ذكرنا من طمعه في الجزيرة، وتشوفه إلى مملكتها، وظهرت للمعتمد — قبل عبوره — أشياء عرف بها أنه غير عليه، ورجع أمير المسلمين إلى مراكش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المبعد، فبلغني أنه قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه: «كنت أظن أنني قد ملكت شيئاً، فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي، فكيف الحيلة في تحصيلها؟»

فاتفق رأيه ورأي أصحابه، على أن يراسلوا المعتمد يستأذنونه في رجال من صلحة أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس، ومجاهدة العدو، والكون ببعض الحصون المصاقبة للروم إلى أن يموتو، ففعلوا، وكتبوا إلى المعتمد بذلك، فأذن لهم، بعد أن وافقه على ذلك ابن الأفطس المتوكل صاحب الشعور، وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبتوثين بالجزيرة في بلادها، فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم، أو إظهار مملكتهم، وجدوا — في كل بلد لهم — أعوناً.

وقد كانت قلوب أهل الأندلس — كما ذكرنا — قد أشربت حب يوسف وأصحابه، فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالاً انتخبهم، وأمر عليهم رجالاً من قرابته يسمى بلجين وأسرر إليه ما أراده، فجاز بلجين المذكور، وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة، فقال له: «أين تأمرني بالكون؟

فوجه معه المعتمد من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التي اختارها لهم، فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه، وأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتمد وكان مبدئها في شوال من سنة ٤٨٣ بأخذ جزيرة طريف المقابلة لطنجة من العدوة، دون مقدمة ظاهرة توجب ذلك، فتشعبت جموعه، وأهواؤها ملتئمة، وانتشرت بلاده، وقلوب أهلها

على محبته منتظمة، ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة أمير المسلمين، انتشر ذلك في الأندلس، وزحف القوم الذين قدمنا ذكرهم الكائنوں في الحصون إلى قرطبة فحاصروها، وفيها عباد بن المعتمد الملقب بالمؤمن، وقد تقدم ذكره، وهو من أكبر ولده، فدخلوا البيت، وقتل عباد هذا بعد أن أبلى عنزراً، وأظهر في الدفاع عن نفسه جلداً وصبراً، وذلك في مستهل صفر الكائن في سنة ٤٨٤، فزادت الإحنة والمحنة، واستمرت — في غلوائها — الفتنة، وأجمعت على الثورة بحضور إشبيلية طائفة، فأعلم المعتمد بما اعتقدته الطائفة المذكورة وكشف له عن مرادها، وأثبتت عنده سوء اعتقادها، وأغريت بتمزيق أديمها، وسفك دمها، وحضر على هتك حريمها، وكشف حرمها، فأبى له ذلك مجده الأثيل، ورأيه الأصيل، وذهبه الجميل، وما حباه الله من حسن اليقين، وصحة العقل والدين، إلى أن أمكنتهم الغرة يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة، فقاموا بجيش غير مستنصر، واستنسروا بغاياً غير مستنصر، فبرز هو من قصره سيفه بيديه، وغلالته ترف على جسده لا درقة له ولا درع عليه، فلقي على باب من أبواب المدينة يسمى «باب الفرج» فارساً من الداخلين، مشهور النجدة، شاكي السلاح، فرماه الفارس برمح قصير أذابيب القناة، طوبل شفرة السنان، فالتوى الرمح بغلالته، وخرج من تحت إبطه، وعصمه الله منه ودفعه — بفضله — عنه، وصب هو سيفه على عاتق الفارس، فشقه إلى أصلاعه، فخر صريعاً، وانهزمت تلك الجموع، ونزل المتسنمون للأسوار عنها، وظن أهل إشبيلية أن الخناق قد تنسس.

فلما كان عصر ذلك اليوم عاودهم القوم، فظهر على البلد من واديه، ويفس من سكنا ناديه، وبلغ فيه الأمل حاسده وشانيه، وشب النار في شوانيه، فانقطع عندها العمل والقول، وذهبت القوة من أيدي أهلها والحول، وكان الذي ظهر عليها من جهة البر رجل يعرف بالقائد أبي حمامه مولى «بني سجوت» والتوت الحال أياماً يسيرة، إلى أن ورد الأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين وهو ابن أخي أمير المسلمين بعساكر متظاهرة، وحشود من الرعية وافرة، والناس في خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزء، وخلط قلوبهم الهلع، يقطعون السبل سياحة، ويعبرون النهر سباحة، ويتولون مجرى الأقدار، ويترامون من شرفات الأسوار، حرصاً على الحياة، والموفون بالعهد، المقيمون على صريح الود ثابتون، إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السنة المذكورة، وهذا يوم الكائنة العظمى، والطامة الكبرى، فيه حم الأمر الواقع، واتسع الخرق على الرافع، ودخل البلد من واديه، وأصيّب حاضره وباديه، بعد أن جد الغريقان

في القتال، واجتهدت الفئتان في النزال، وظهر من دفاع المعتمد — رحمة الله — وبأسه، وتراميه على الموت بنفسه، ما لا مزيد عليه، ولا تناه لخلق إليه، وفي ذلك يقول المعتمد بعدما نزل بالعدوة أسيراً حسيراً:

لما تماستك الدموع
قالوا الخضوع سياسة
وألذ من طعم الخضوع
إن تستلب عني الدنى
فالقلب بين ضلوعه
لم أستلب شرف الطبا
قد رمت يوم نزالهم
وبربت ليس سوى القمي
وبذلت نفسي كي تسيب
أجل لي تأخر لم يكن
ما سرت قط إلى القتا
شيم الألى أنا منهم

ونهنه القلب الصديع
فليبدُّ منك لهم خضوع
ع على فمي السم النقيع
ملكي وتسلمني الجموع
لم تسلم القلب الضلوع
ع، أيسلب الشرف الرفيع؟
ألا تحصننني الدروع
ص عن الحشى شيء دفوع
ل إذا يسيل بها النجيع
بهواي ذلي والخشوع
ل، وكان من أملبي الرجوع
والأصل تتبعه الفروع

فشنت الغارة في البلد، ولم يترك البربر لأحد من أهلها سبباً ولا لبداً، وانتهت قصور المعتمد نهباً قبيحاً، وأخذ هو قبضاً باليد، وجر على مخاطبة ابنيه المعتمد بالله والراضي بالله وكانا بمعقليين من معاقل الأندلس المشهورة، لو شاءا أن يمتنعا بهما لم يصل أحد إليهما، أحد الحصتين، يسمى رندة والآخر مارتلة فكتب (رحمه الله) وكتبت السيدة الكبرى أمهما، مستعطفين، مسترحمين، معلمين أن دم الكل منهم مستترهن بثبوتهما، فأنقا من الذل، وأبيا وضع يديهما في يد أحد من الناس، بعد أبيهما، ثم عطفتهما عواطف الرحمة، ونظرها في حقوق أبييهما المقتنة بحق الله (عز وجل)، فتمسک كل منها بدينه، ونبذ دنياه، ونزلها عن الحصتين بعد عهود مبرمة، ومواثيق محكمة.

فأما المعتمد بالله فإن القائد الواسط إلىه، قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه. وأما الراضي بالله فعند خروجه من قصره قُتل غيلة، وأخفي جسده، ورحل بالمعتمد والله، بعد استئصال جميع أمواله، ولم يصحب من ذلك بلغة زاد، فركب السفين، وحل بالعدوة محل الدفين، فكان نزوله من العدوة بطنجة فأقام بها أياماً، ولقيه بها الحصري

الشاعر، فجرى معه على سوء عادته من قبح الكدية وإفراط الإلحاد، فرفع إليه أشعاراً قديمة قد كان مدحه بها، وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدها عند وصوله إليه، ولم يكن عند المعتمد في ذلك اليوم مما زود به — فيما بلغني — أكثر من ستة وثلاثين مثقالاً، فطبع عليها وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها، سقطت من حفظي، ووجه بها إليه، فلم يجاوه عن القطعة على سهولة الشعر على خاطره، وخفته عليه، كان هذا الرجل — أعني الحصري — الأعمى أسرع الناس في الشعر خاطراً، إلا أنه كان قليل الجيد منه فحركه المعتمد على الله على الجواب بقطعة أولها:

م وما أحصى صوابه	قل لمن قد جمع العل
فتنظرنا جوابه	كان في الصرة شعر
جلب الشعر ثوابه؟	قد أثبناك فهلا

ولما اتصل بزعانفة الشعراء، وملحفي أهل الكدية ما صنع المعتمد (رحمه الله) مع الحصري تعرضوا له بكل طريق، وقصدوه من كل فج عميق، فقال في ذلك رحمه الله:

ذهبوا من الإغراب أبعد مذهب
بسؤالهم لأحق فاعجب واعجب
طي الحشا ساواهم في المطلب
نادى الصريخ ببابه اركب يركب

شعراء طنجة — كلهم — والمغرب
سألوا العسير من الأسير وإنه
لولا الحباء وعزه لخمية
قد كان إن سئل الندى يجزل وإن

وله في هذا المعنى (رحمه الله):

كلما أعطى نفيساً نزعا
أن ينادي كل من يهوي لعا

قبح الدهر فماذا صنعا
قد هوى ظلماً بمن عادته

ومنها:

قد أزال اليأس ذاك الطمعا
قل لمن يطمع في نائله

راح لا يملك إلا دعوة جبر الله العفة الضياع

وأقام المعتمد بطنجة (رحمه الله) أيامًا على الحال التي تقدم ذكرها، ثم انتقل إلى مدينة «مكناسة» فأقام بها أشهرًا، إلى أن نفذ الأمر، بتسييرهم إلى «أغمات» فأقاموا بها إلى أن توفي المعتمد (رحمه الله) ودفن بها، فقبره معروف هناك، وكانت وفاته في شهور سنة ٨٧ وقيل سنة ٨٩ فالله أعلم، وسننه يوم توفي إحدى وخمسون سنة.

وجاء في كتاب «نفح الطيب» ما يأتي:

ثم إنه بقي مأسورًا بـ«أغمات» إلى سنة ٤٨٦ فأخذ بمالقة رجل كبير يعرف بابن خلف فسجن مع أصحاب له فنقبوا السجن وذهبوا إلى حصن «منت ميور» ليلاً فأخرجوا قائدتها ولم يضروه.

وبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رجل فسألوه، فإذا هو عبد الجبار بن المعتمد فولوه على أنفسهم وظن الناس أنه الراضي، فبقي في الحصن ثم أقبل مركب من المغرب ويعرف بمركب ابن الزرقاء فانكسر بمرسى الشجرة قريباً من الحصن فأخذوا بنوده وطبلوه وما فيه من طعام وعدة، فاتسعت بذلك حالتهم ووصلت أم عبد الجبار إليه ثم خاطبها أهل الجزيرة وأهل أركش فدخلها سنة ٤٨٨، ولما بلغ خبر عبد الجبار إلى ابن تاشفين أمر بثقاف المعتمد في الحديد وفي ذلك يقول:

قيدي أما تعلمني مسلماً
أبيت أن تشفق أو ترحم
بيصرني فيك أبو هاشم
فيئنني القلب وقد هشما

وبقي إلى أن توفي (رحمه الله) سنة ٤٨٨، وقد ساق الفتح قضية ثورة عبد الجبار بن المعتمد بعباراته البارعة فقال: وأقام بالعدوة ببرهة لا يروع له سرب، وإن لم يكن آمناً، ولا يثور له كرب، وإن كان في ضلوعه كامناً، إلى أن ثار أحد بنيه بأركش معقل كان مجاوراً لإشبيلية مجاورة الأنامل للراح، ظاهراً على بسائط وبطاح، لا يمكن معه عيش، ولا يمكن من منازلته جيش، فغدا على أهلها بالملكاره وراح، وضيق عليهم المتسع من جهاتها والبراح، فسار نحوه الأمير سيف بن أبي بكر رحمة الله عليه، قبل أن يرتد طرف استقامته إليه، فوجده وشره قد تشرم، وضره قد تنمر، وجمره مستعر، وأمره متوعر، فنزل عدوته، وحل للحزم حبتوه، وتدارك داءه قبل عضاله، ونازله وما أعد آلات نضاله،

وانحشدت إليه الجيوش من كل قطر، وأفرغ من مسالكه كل قطر فبقي محصوراً لا يشد له إلا سهم، ولا ينفذ عنه إلا نفس أو وهم، وامتسك شهوراً حتى عرضه أحد الرماة، بسهم فرماه فأصمه، فهو في مطلعه، وخرّ قتيلاً في موضعه، فدفن إلى جانب سريره، وأمن عاقبة تغريبه، وبقي أهله ممتنعين مع طائفة من وزرائه، حتى اشتد عليهم الحصر، وارتدى عنهم النصر، وعمّهم الجوع، وأغب أجهانهم الهجوع، فنزلت منهم طائفة متهاففة، وولت بأنفاس خافتة، فتبعهم من بقي، ورغل في التنعم من شقي، فوصلوا إلى قبضة الملامات، وحصلوا في غصة الممات، فوسّمهم الحيف، وتقسمهم السيف، ولما زأر الشبل، خافت سورة الأسد، ولم يدرج صلاح الكل والبعض حتى فسد، فاعتقل المعتمد خلال تلك الحال وأثناءها، وأحل ساحة الخطوب وفناءها، وحين أركبواه أساوداً، وأورثوه حزنًا بات له معاوداً، قال:

<p>شقلت على الأرواح والأبدان فغدا عليك القيد كالثعبان متعطفاً لا رحمة للعاني ما خاب من يشكو إلى الرحمن ما كان أغنى شأنه عن شاني من بعد أي مقابر وقیان</p>	<p>غنتك أغماتية الألحان قد كان كالثعبان رمحك في الوعي متمدداً يحميك كل تمدد قلبي إلى الرحمن يشكو بشه يا سائلاً عن شأنه ومكانه هاتيك قينته، وذلك قصره</p>
---	--

ولما فقد من يجالسه، وبعد عن من كان يؤانسه، وتمادي كربه، ولم تسامله حربه، قال:

<p>وتأبى الخطوب السود إلا تماديها كما صحبت قبل الملوك اللياليها وبعدهما نسخ المانيا الأمانيا</p>	<p>تؤمل للنفس الشجية فرحة لياليك في زاهيك أصفى صحبتها نعميم وبؤس ذا لذلك ناسخ</p>
--	---

ولما امتدت في الثقاف مدتها، واشتدت عليه قسوة الكل وشدة، وأقلقته همومه، وأطبقته غمومه، وتولت عليه الشجون، وطالت لياليه الجون قال:

<p>أنباء أسرك قد طبقن آفaca سرت من الغرب لا تطوى لها قدم</p>	<p>بل قد عمن جهات الأرض إقلقا حتى أنت شرقها تنعك إشراكا</p>
--	---

فأحرق الفجع أكباداً وأفئدة
قد ضاق صدر المعالي إذ نعيت لها
أئي غلبت و كنت الدهر ذا غالب
قلت الخطوب أذلتي طوارقها
متى رأيت صروف الدهر تاركة
وأغرق الدمع آمماً وأحدقا
وقيل: إن عليك القيد قد ضاقا
للغالبين وللسباق سباتا
وكان عزمي للأعداء طرفا
إذا انبرت لذوي الأخطار أرمانا

وقال لي من أثق به: لما ثار ابنه حيث ثار، وأثار من حقد أمير المسلمين عليه ما أثار، جزع جزاً مفروطاً، وعلم أنه قد صار في أنشطة الشر متورطاً، وجعل يتشكى من فعله ويحتضر، ويتوجع منه ويتألم، ويقول: «عرض بي للمن، ورضي لي أن أمتحن، والله ما أبكي إلا انكشف من أتخلفه بعدي، ويتحيفه بعدي». ثم أطرق ورفع رأسه وقد تهافت أسرته، وظلتله مسربته، ورأيته قد استجمع، وتشوف إلى السماء وتعلع، فعلمت أنه قد رجا عودة إلى سلطانه، وأويبة إلى أوطانه، فما كان إلا بمقدار ما تنداح دائرة، وتلتفت مقلة حائرة، حتى قال:

إذا هز كف طويل الحنين
ولم تروه من نجيع يميني
م مرتقباً غرة في كمين
تراعي فرائسها في عرين
ي مما به من سمات الوبتين
ويشفية من كل داء دفين
شديد الحنين ضعيف الآلين
تبؤه صدر كفاء معين
إذا يهلك السيف في جفنه
كذا يعطش الرمح لم أعتقله
كذا يمنع الطرف علک الشكير
كأن الفوارس فيه ليوث
ألا شرف يرحم المشرف
ألا كرم ينعش السمهري
ألا حنة لابن محنية
يؤمل من صدرها ضمة

وكان طائفة من أهل فاس قد عاثوا فيها وفسقوا، وانظمو في سلك الطغيان واتسقوا، ومنعوا جفون أهلها السنات، وأخذوا البنين من حجور أمهاتهم والبنات، وتلقبوا بالإمارة، وأركبوا السوأى نفوسهم الإمارة، حتى كادت تقرف على أيديهم، وتدثر رسومها بإفراط تعديهم، إلى أن تدارك أمير المسلمين (رحمه الله) أمرهم، وأطفاء جمهم، وأوجعهم ضرباً، وأقطعهم ما شاء حزناً وكريباً، وسجّنهم بـ«أغمات» وضمتهم جوانح الملمات، والمعتمد إذ ذاك، معتقل هناك، وكانت فيهم طائفة شعرية، مذنبة أو بريئة، فرغيوا إلى سجانهم، أن

يسريحا إلى المعتمد من أشجانهم، فخلى ما بينهم وبينه، وغمض لهم في ذلك عينه، فكان المعتمد (رحمه الله) يتسلى بمجالستهم، ويجد أثر مؤانستهم، ويستريح إليهم بجواه، وبيوح إليهم بسره ونجواه إلى أن شفع فيهم وانطلقا من وثاقهم، وانفرج لهم مبهم أغلاقهم، وبقي المعتمد في مجلسه يشتكي من ضيق الكلب، ويبكي بدموع كالوبل، فدخلوا عليه مودعين ومن بثه متوجعين، فقال:

لقد آن أن يفنى ويفنى به الخد
بما منه قد عافاكم الصمد الفرد
عليّ قيود لم يحن فكها بعد
تلوي وأما الأيد والبطش فالأسد
سعادته إن كان قد خانني سعد
ولله في أمري وأمركم الحمد

أما لانسحاب الدمع في الخد راحة
هبا دعوة يا آل فاس لمبتلى
تلخصتم من سجن «أغمات» والتوت
من الدهم أم خلقها فأساؤد
فهنتتم النعمى ودامت لكلكم
خرجتم جماعات وخلفت واحداً

ومر عليه في موضع اعتقاله سرب قطا لم يعلق لها جناح، ولا تعلق بها من الأيام جناح،
ولا عاقها عن أفرادها الأشراك، ولا أعزها البشام ولا الأراك، وهي تمرح في الجو، وتسرح
في موقع النّو، فتنكد ممّا هو فيه من الوثاق، وما دون حبته من الرقباء والأغلاق، وما
يقاربها من كبله، ويعانيه من وجده وخبله، وفك في بناته وافتقارهن إلى نعيم عهدهن،
وبحبور حضرنه وشهدنه، فقال:

سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولكن حنيتاً أن شكلي لها شكل
وجيع ولا عيناي يبكيهما ثكل
ولا ذاق منها بعد عن أهلها أهل
إذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل
وصفت الذي في جبلة الخلق من قبل
سواي يحب العيش في ساقه حبل
فإن فراخي خانها الماء والظل

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بي
ولم تك والله المعيد حسادة
فأسرح لا شملي صديع ولا الحشا
هنيتاً لها أن لم يفرق جميعها
 وأن لم تبت مثلي تطير قلوبها
وما ذاك ممّا يعتريه وإنما
لنفسه إلى لقيا الحمام تشوف
ألا عصم الله القطا في فراخها

وفي هذا الحال زاره الأديب أبو بكر بن اللبانة وهو أحد شعراء دولته المرتضعين درها،
المنتجعين درها، وكان المعتمد (رحمه الله) يميزه بالشفوف والإحسان، ويجوزه في

فرسان هذا الشان، فلما رأه وحلقات الكلب قد عضت بساقيه عض الأسود، والتوت عليه التواء الأسود السود، وهو لا يطيق إعمال قدم، ولا يريق دمعاً إلا ممزوجاً بدم، بعد ما عهده فوق منبر وسرير، ووسط جنة وحرير، تخفق عليه الأولوية، وتشرق منه الأندية، وتكلف الأمطار من راحته، وتشرف الأقدار بحلول ساحتها، ويرتع الدهر من أوامره ونواهيه، ويقصر النسر أن يقارنه أو يضاهيه، ندبه بكل مقال يلهب الأكباد، ويثير فيها لوعة الحارث بن عباد، أبدع من أناشيد معبد، وأصدع للكبد من مراتي أربد، أو بكاء ذي الرمة بالمربيد، سلك فيها للاختفاء طريقاً لاحباً، وغداً فيها لذيول الوفاء ساحباً، فمن ذلك قوله:

فالأرض قد أفترت والناس قد ماتوا
سريرة العالم العلوي «أغمات»
من لم تزل فوقه للعز ريات
هندية وعطایا هنيدات
دهر مصيباته نبل مصيبات
وكيف تنكر في الروضات حيات
وبينها فإذا الأنواع أشتات
من رأسه نحو رجليه الذؤابات
إذا بها لثقاف المجد آلات
عذرتهم فلعدوى الليث عادات
قامت بدعوته حتى الجمادات
كنقطة الدارة السبع المحيطات
أهلة ما لها في الأفق هالات
كانت لنا بكر فيها وروحات
قد أوقدتھن في الأذهان أنبات
قد ظللتھا من الأشام دوھات
وغاية الحسن أسلاك ولبات
كانت لها في قبل الراح سورات
وفي الخليج لأهل الراح راحات

انفض يديك من الدنيا وساكنها
وقل لعالمهها السفلي قد كتمت
طوت مظلتها لا بل مذلتها
من كان بين الندى والباس أنصله
رماد من حيث لم تستره سابعة
أنكرت إلا التواءات القيود به
غلطت بين همایین عقدن له
وقلت هن ذؤابات فلم عكست
حسبتها من قناة أو أعننته
دروه ليثا فخافوا منه عادية
لو كان يفرج عنه بعض آونة
بحر محيط عهناه تجيء له
لهفي على آل عبادٍ فإنهم
راح الحيا وغدا منهم بمنزلة
أرض كأن على أقطارها سرجاً
وفوق شاطئ واديها رياض ربى
كأن واديها سلك بلبتها
نهر شربت بعيريه على صور
وربما كنت أسمو للخليج به

وبالغروسات لا جفت منابتها من النعيم غروسات جنيات

ولم تزل كبدہ تتقد بالزفرات، وخلدہ يتربد بين النکبات والعثرات، ونفسه تنقسم بين الأشجان والحسرات، إلى أن شفته منيته، وجاءته بها أمنيته، فدفن بـ«أغمات» وأریح من تلك الأزمات، وعطلت المأثر من حلماها، وأفردت المفاخر من علاها ورفعت مکارم الأخلاق، وکسدت نفائس الأخلاق، وصار أمره عبرة في عصره، وصار أبداً عبرة في مصره، وبعد أيام وفاه أبو بکر بن عبد الصمد شاعرہ المتصل به، المتوصل إلى المني ببسیه، فلما كان يوم العید وانتشر الناس ضھی، وظھر كل متواڑ وضھا، قام على قبره عند انفصالمهم من مصلاھم، واختیالھم بزینتھم وحلامھ، وقال بعد أن طاف بقبره والتزمھ، وخر على تربة ولثمه:

ملك الملوك أسامع فأنادي
لما خلت منك القصور فلم تكن
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعاً
أم قد عدتك — عن السماع — عوادي
فيها كما قد كنت في الأعياد
وتخذت قبرك موضع إنشاد

وهي قصيدة أطالت إنشادها، وبني بها اللواعج وشادها، فانحشر الناس إليه وأحفلوا، وبکوا لبكائه وأعلوا، وأقاموا أكثر نهارهم مطيفين به طواف الحجيج، مدیمین للبكاء والعجیج، ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عیونهم، وأقرحوا مآقیهم بفیض شئونهم، وهذه نهاية كل عیش، وغاية كل ملک وجیش، والأیام لا تدع حیاً، ولا تألو كل نشر طیاً، تطرق رزایها کل سمع، وتفرق منایاها کل جمع، وتصمی کل ذی أمر ونهی، وترمی کل مشید بوھی، ومن قبله ما طوت النعمان بن الشقیقة، ولوت مجازها في تلك الحقيقة.
انتهی ما قصدنا جلبه من کلام الفتح مما يدخل في أخبار المعتمد بن عبد المناسبة لما مر، وکلام الفتح کله الغایة وليس الخبر كالعیان، ولذا قال بعض من عرف به أنه أراد أن يفضح الشعراء الذين ذکرهم في کتبه بنثره — سامحة الله — وأخبار المعتمد (رحمه الله) تحتمل مجلدات، وأثاره إلى الآن بالغرب مخلدات.

وكان من النادر الغریب قولهم في الدعاء للصلوة على جنازته «الصلوة على الغریب» بعد اتساع ملکه، وانتظام سلکه، وحكمه على إشبیلیة وأنھائها، وقرطبة وزھرائھا، وهكذا شأن الدنيا في إغراھا، وقد توجه لسان الدين الوزیر بن الخطیب إلى «أغمات» لزيارة قبر المعتمد (رحمه الله) ورأى ذلك من المهمات، وأنشده على قبره أبياته الشهیرة

التي ذكرتها في جملة نظمه الذي هو أرق من النسيم، وأبهج من الحياة الوسيم.
قلت وقد زرت أنا قبر المعتمد والرميكية أم أولاده — رحمهما الله — حين كنت
بمراكش المحروسة بالله عام عشرة وألف، وعمي على أمر القبر المذكور وسألت عنه من
تظن معرفته له، حتى هداني إليه شيخ طعن في السن، وقال لي: هذا قبر ملك من ملوك
الأندلس، وقبر حظيته التي كان قلبه بحبها خفافاً غير مطمئن، فرأيته في ربوة حسبما
وصفه ابن الخطيب (رحمه الله) بالأبيات، وحصلت لي في ذلك محل خشية وادخار،
وذهبت بي الأذكار في ضرب الآيات، فسبحان من يؤتي ملكه من يشاء لا إله غيره وارث
الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.
وما أحسن قول الوزير ابن عبدون في مطلع رائيته المشهورة:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

وهو القائل:

يا نائم الليل في فكر الشباب أفق
غضت عنانك أيدي الدهر ناسخة
وأسلمت للمنايا آل مسلمة
لقد هوت منك خانتها قوادها
فصبح شيك في أفق النهى بادي
علمًا بجهل وإصلاحًا بإنفاسه
وعبدت للرزايا آل عباد
بكوكب في سماء المجد وقاد

ومنها:

ومالك كان يحيي شول قرطبة
شق العلوم نطاقاً والعلا زهراً
أستغفر الله لا بل شول بغداد
فبتمن ما بين رواد ووراد

وأين هذه القصيدة في مدحهم من قصيدة العظة منهم وهي قول أبي الحسن جعفر بن
إبراهيم بن الحاج اللورقي:

تعزّ عن الدنيا ومعرفة أهلها إذا عدم المعروف في آل عباد

حالٍ بهم ضيًّا ثلاثة أشهر بغير قرى ثم ارتحلت بلا زاد

وهذا يدلّك على أنّ الشعراء لم يسلّم من لسانهم من أحسن فضلاً عَمَّن أساء، من العظام والرؤساء، وما أُمِدَّ قول أبي محمد بن غانم فيهم:

ومن الغروب غروب شمس في الثرى وضياؤها باقٍ على الآفاق

وجاء في المطمح حين عرض لذكر المعتمد وبني عباد قوله: «هذه بقية منتماها في لخم، ومرتماها إلى مفترض خم، وجدهم المنذر بن ماء السماء، ومطلعهم من جو تلك السماء، وبنو عباد ملوك أنس بهم الدهر، وتنفس منهم عن أعيق الزهر، وعمرروا ربع الملك، وأمرروا بالحياة والهلك، و«معتضدهم» أحد من أقام وأقعد، وتبأوا كاهم الإرهاب واقتعد، وافتشر من عريسته، وافتسر من مكائد فريسته، وزاحم بعود، وهز كل طود، وأحمل كل ذي زي وشارقة، وختل يومي وإشارة، و«معتمدهم» كان أجود الأملاك، وأحد نيرات تلك الأفلاك، وهو القائل وقد شُغِلَ عن منادمة خواص دولته بمنادمة العقائل:

لقد حنتت إلى ما اعتدت من كرم حنين أرض إلى مستأخر المطر
فهاتها خلعاً أرض السماح بها محفوفة في أكف الشرب بالبدر

وهو القائل وقد حن في طريقه إلى فريقه:

أدار النوى كم طال فيك تلذني وكم عقتني عن دار أهيف أغيد
حلفت به لو قد تعرض دونه كماة الأعادي في النسيج المسرد
لجردت للضرب المهند فانقضى مرادي وعز ما مثل حد المهند

والقاضي أبو القاسم هذا جدهم، وبه سفر مجدهم، وهو الذي اقتنص لهم الملك النافر، واحتضنوا منه بالحظ الوافر، فإنه أخذ الرياسة من أيدي جبابر، وأضحي من ظلالها أعيان أكابر، عندما أناخت بها أطماءهم، وأصاحت إليها أسماعهم، وامتد إليها من مستحقها اليد، وأتعلعوا أجياداً زانها الجيد، وففر عليها فمه حتى هجا بيت العبدى، وتصدى لها من تحضر وتبدى، فاقتعد سُنامها وغَارَ بها، وأبعد عنها عجمها وأغار بها، وفاز من الملك بأوفر حصة، وغدت سُمته به صفة مختصة، فلم يمح رسم القضاء، ولم

يتسم سمة الملك مع ذلك النفوذ والمضاء، وما زال يحمي حوزته ويجلو غرته، حتى حوته الرجام، وخلت منه تلك الأجام، وانتقل إلى ابنه المعتضد وحل منه في روض نمق له ونضد، ولم يعمر فيه ولم يدم ولاه، وتسمى «بالمتضد» باهلا، وارتمنى إلى أبعد غايات الجود بما أناله وأولاها، لولا بطش في اقتضاء النفوس كدر ذلك المنهل، وتصور أثناء ذلك القل والنهل، وما زال للأرواح قابضاً، وللوثوب عليها رابضاً، يخطف أعداءه اختطاف الطائر من الوكر، وينتصف منهم بالدهاء والمكر، إلى أن أفضى الملك إلى ابنه المعتمد فاكتحل منه طرف الرمد، وأحمد مجده، وتقلد منه أبي باس ونجده، وندى به لحق منه، وجر رسنـه، وأقام في الملك ثلاثة وعشرين سنة، لم تعدـم منه فيها حسنة، ولا سيرة مستحسنة، إلى أن غلب على سلطانـه، وذهب بهـ منـوطـانـهـ، فـنـقلـ، إلىـ حيثـ اـعـتـقـلـ، فأـقـامـ كذلكـ إلىـ أنـ مـاتـ، وـوارـتهـ بـرـيةـ «أـغـمـاتـ»ـ.

وكان للقاضي جده أدب غض، ومذهب مبيض، ونظم يرتجله كل حين، ويعنهه
أعطر من الرياحين، فمن ذلك يصف النيلوفر:

يا ناظرين ندى النيلوفر البهج
وطيب مخبره في الفوح والأرج
كأنه جام در في تأله
قد أحكموا وسطه فصاً من الثيج

(٦) رد الخليفة هارون الرشيد مثل هذا الرد تقريرياً على كتاب للإمبراطور «نقوفر».

ملوك الطوائف وعواصمهم

(١) يؤخذ من رواية صحيحة لابن حيان أنني كنت على حق إذ قلت إنه لم يكن لسرقسطة سوى ملك واحد من هذه الأسرة، وهو المنذر، وأن الملك هو الذي قتل سنة ١٠٣٩ وليس ابنه. «دوزي»

الجزء الثاني

نظرات في تاريخ الإسلام

ديانة العرب في الجاهلية

كان كل شيء سائراً في طريقه المعتادة في النصف الأول من القرن السابع الميلادي سواء في الإمبراطورية البيزنطية أو الإمبراطورية الفارسية.

ولا جرم كانت هاتان الملكتان في نزاع دائم، سببه الرغبة والطمع في تملك آسيا الغربية، وكانتا – في ظاهريهما – مزدهرتين، تُجْبِي لهما الضرائب والخارج فتمتنع الخزائن بالمال، وتتضخم ثروة الحكام، حتى أصبح الترف والأبهة – اللذان انغمسا فيهما سكان العاصمة – مضرب الأمثل.

على أن كل ذلك لم يكن إلا ظهراً كاذباً، فقد كان يسري في كيان هاتين الملكتين داء كمين، وظل السوس ينخر في عظامهما دائمًا على تقويض أركانهما بسبب ما أظهرتاه من عسف وجرم مهلكين، هذا إلى ما حدث من الفوافع التي نجمت من تلك الأسرات، وما لعبته من الأدوار المفجعة التي كانت – على الحقيقة – سلسلة متصلة بالحالات من الاضطهادات والفتن الدينية الشعواء.

وَتَمَّ رأينا شعراً يظهر فجأة من بين تلك الصحراء التي لا يكاد يعرفها أحد، شعراً جديداً بدأ يمثل دوره على مسرح الحياة، بعد أن ظل نهباً مقتسمًا، تناوى كل قبيلة منه القبيلة الأخرى، فيحتمد النزاع وتقع الحرب الطاحنة، ها قد رأيناه يَتَّحد ويجمع شمله الشتت للمرة الأولى.

ذلكم هو الشعب الناهض الذي تملك نفسه حب الحرية وساعدته على النجاح صفاتـه النبيلـة، فقد كان متـقـشـفـاً في طـعـامـهـ، مـخـشـوـشـنـاً في لـبـاسـهـ، نـبـيـلاً في أـخـلـاقـهـ، كـماـ كان طـرـوـبـاً سـرـيـعـاً بـالـبـيـهـةـ حـاضـرـ النـكـتـةـ.

ولقد كان شريف النفس أـرـيـحـيـاً، فإذا استـثـرـتـهـ مـرـةـ فهو قـاـسـ غـضـوبـ شـرـسـ¹ لا يـنـيـ عنـ أـخـذـ ثـأـرـهـ، ولا يـرـدـهـ عنـ اـنـقـامـهـ شـيءـ.

ذلكم هو الشعب الذي قلب — في لحظة واحدة — إمبراطورية الفرس بعد أن ظل السوس ينخر في عظامها قروناً عدة، وانتزع من خلفاء «قسطنطين» أجمل ضواحيهم، ثم سحق مملكة جرمانية حديثة العهد تحت قدميه، وشرع يهدد — بعد ذلك — بقية أوروبا.

بينما كان في ذلك الوقت نفسه يوالي فتوحه وانتصاره في الجانب الآخر من المعمورة حتى وصلت جيوشه الظافرة إلى الهملايا.

لم يكن ذلك الشعب فاتحًا فحسب — كغيره من الشعوب الأخرى — بل كان داعيًا إلى دين جديد ومبشراً به أيضًا، كان داعيًا إلى دين جديد، فقام يناؤه الثنوية^٢ الفارسية واليسوعية التي أفسدتها الخرافات والبدع، حاملاً إلى الناس توحيدًا خالصًا لم يلبث أن دان به الملايين من الناس حتى بلغ عددهم في أيامنا هذه نحو عشر الإنسانية كلها.

ذلك هو الدين الذي أخذنا على عاتقنا محاولة الكلام فيه وفي تاريخه العام، ولعل أول ما يعرض لنا هو هذا السؤال: «ممَّ نشأ؟ وكيف تفرع من الديانة التي سبقته، ثم نما حتى وصل إلى ما وصل إليه؟»

فكيف نجيب على هذا السؤال الذي يجدر بنا الإجابة عليه قبل كل شيء؟ الحق أنني لم أكُن أعرض لهذا حتى وقعت في حيرة لا مثيل لها، فقد اعترضتني — حتى في هذه الخطوة الأولى — صعوبة لم أكن لأتوقعها قبل أن أتصدى لبحث هذا الموضوع، وإليك البيان.

إنني — على إجلالي وتقديري لما قام به بعض الباحثين الذين تصدوا للكلام عن ديانة العرب القديمة وأصل الإسلام، وعلى إعجابي بفطنتهم واجتهادهم — أقرر ولا أرى بـًدا من المصارحة: أن هذه البحوث الطريفة لا تكفيني قط، لأنها لم تستطع أن توضح هذه الأمور أكثر من قبل؛ لذلك رأيتني مضطراً إلى إعادة البحث — من جديد — سالكًا طريقة أخرى مخالفة لما نهجه غيري من الباحثين إلى اليوم، وقد وصلت إلى نتيجة، أنا أول المدهوشين لها، وليس في وسعي أن أسردها في بعض صفحات، إلا أنها — في جوهرها وأساسها — مرتبطة بعدة نتائج أخرى لها خطراها وأهميتها.

ولما كانت نتائج بحوثي مناقضة — على طول الخط — كل الآراء السائدة إلى اليوم لغرابتها عنها، والعلم يقتضي على الإنسان، ألا يلقي للناس قضايا مسلمة لا يدعمها برهان، ولا تقوم على أساس متين من الحجج العلمية الناهضة، والأدلة الصحيحة المستقاة من مصادرها الأصلية.

والدعوى — ما لم يقيموا عليها بینات — أصحابها أدعياء!

ولما كانت المصادر الأصلية التي أعنيها هي مصادر أجنبية بالنسبة لقارئ هذا السفر^٢رأيتني مضطراً إلى تفصيل ذلك الرأي في سفر مستقل آخر.^٤ ولكن ماذا نصنع الآن في هذا الفصل؟

إما أن نجتزئ ببعض الآراء التي وصلتنا، مبدلين فيها رغبة في أن نوаем بينها وبين آرائنا الخاصة، فهذا محال؛ لأن منهجين متبابنين من مناهج البحث لا سبيل إلى التقاءهما والتوفيق بينهما، هذا فضلاً عن عقم هذه الطريقة التي لا غناء فيها، فليس ظمًّا آية فائدة من تعرف جزء من الحقيقة.

لذلك أعملت الفكر، فلم أجد إلَّا مخرجاً واحداً من هذا المأزق، هو أن أتبع الفكرة المقررة، مقتضياً على سردها وذكر ما وصل إليه الباحثون من النتائج في هذا الصدد، لا سيما «سپرنجر» أقرب الباحثين وأوفاهم درساً واستيعاباً للتاريخ الإسلامي وترجمة النبی.

على أنني جدير أن أقرر — منذ الآن — في أسلوب صريح لا يحتمل لبساً ولا تأويلاً، أنني إن استطعت بهذه الطريقة أن أرفع عن عاتقي عبء التبعة والمؤاخذة، بما أقرره في هذا الفصل من وصف الحال الدينية التي كان عليها العرب في القرن السادس الميلادي، فلن يكون ذلك شأنی فيما أقرره في بقية الفصول.

وقد دفعتني هذه الاعتبارات السابقة، كما دفعني غيرها من الأسباب التي لا يصعب على القارئ فهمها إلى الاقتصار على ذكر ذلك الزمن السابق بأقصى ما في قدرتي من الإيجاز الذي التزمته في تبيان ديانة العرب الأولى ونشأتها في بلادهم، فلم أحِد عن هذا الشرط قيد أنملة.

ديانة العرب الأولى

كان العرب يؤمنون بكائن أعلى — هو الله (تعالى) — ويعتقدون أن له ذاتاً لا كذواهـم وأنه محـيط بالـعالـم، وما يـحـويـهـ منـ كـائـنـاتـ — هوـ بـارـئـهاـ — وإنـ اـخـتـلـفـ حـظـوظـهاـ منـ الطـاعـةـ وـالـعـصـيـانـ، وـكـانـواـ يـدـيـنـونـ بـأـنـهـ خـالـقـ السـمـوـاتـ وـالـأـرـضـ. ° وأنـهـ الذـاتـ المـنـزـهـةـ التيـ لاـ حـدـ لـحـكـمـتهاـ، وـلـاـ يـمـارـونـ فيـ أـنـهـ مـدـبـرـ الـعـالـمـ، وـأـنـهـ هوـ الذـيـ يـرـسـلـ عـلـيـهـمـ المـطـرـ منـ السـمـاءـ: °

كانوا يـعـتـقـدـونـ هـذـاـ وـيـعـتـقـدـونـ أـيـضـاـ أـنـ لـيـسـ لـهـ كـهـانـ وـلـاـ هـيـاـكـلـ، كـتـلـكـ الـتـيـ خـصـواـ بـهـ أـوـثـانـهـمـ.

العرب والجن

فـإـذـاـ تـرـكـنـاـ ذـلـكـ إـلـىـ سـوـاـهـ رـأـيـاـهـمـ يـعـظـمـونـ الجـنـ وـيـمـجـدـوـنـهـمـ، وـقـدـ دـفـعـتـهـمـ إـلـىـ ذـلـكـ صـحـارـيـهـمـ وـجـبـالـهـمـ الـتـيـ كـثـيـرـاـ مـاـ يـضـلـلـوـنـ فـيـهـاـ أـسـابـيـعـ كـامـلـةـ، فـيـتـمـثـلـوـنـ رـؤـيـةـ هـذـهـ الـعـالـمـ الـغـرـبـيـةـ، وـيـتـبـيـّنـ فـيـ نـفـوسـهـمـ هـذـهـ التـصـورـاتـ مـاـ يـكـابـدـوـنـهـ فـيـهـاـ مـنـ أـلـمـ الـجـوـعـ وـالـعـطـشـ، وـمـاـ يـحـتـلـمـوـنـهـ مـنـ شـمـسـ الـصـحـراءـ الـمـحـرـقةـ، وـهـوـاـهـاـ الـلـافـحـ، وـسـوـافـيـهـاـ الـمـهـلـكـةـ، هـذـاـ إـلـىـ مـاـ يـعـانـوـنـهـ مـنـ تـقـلـيـاتـ الـجـوـ الـفـجـائـيـةـ، حـتـىـ لـيـصـلـ بـهـمـ الرـوـعـ إـلـىـ حـدـ أـنـ يـتـخـيـلـوـنـهـمـ يـسـمـعـوـنـ أـصـوـاتـ الـجـنـ وـيـبـصـرـوـنـ ذـوـاتـهـمـ فـيـ أـشـكـالـ عـدـةـ، وـعـلـىـ صـورـ شـتـىـ، مـنـهـاـ السـخـيـفـ وـمـنـهـاـ الـمـعـجـبـ، ° وـكـانـوـنـ يـعـتـقـدـوـنـ بـأـنـ أـجـسـامـهـمـ تـشـغـلـ جـزـءـاـ مـنـ الـفـضـاءـ — كـمـاـ تـشـغـلـهـ أـجـسـامـنـاـ — وـأـنـهـمـ يـنـتـشـرـوـنـ، وـلـكـنـهـمـ يـخـتـلـفـوـنـ عـنـاـ فـيـ تـكـوـيـنـهـمـ؛ لـأـنـ أـجـسـامـهـمـ مـخـلـوـقـةـ مـنـ النـارـ أـوـ الـهـوـاءـ، ° وـمـنـ ثـمـ لـاـ تـرـاـهـاـ الـعـيـنـ الـإـنـسـانـيـةـ إـلـاـ شـذـوـذـاـ، وـفـيـ قـدـرـتـهـمـ أـنـ يـأـتـوـنـاـ كـثـيـرـاـ مـنـ ضـرـوبـ الـشـرـ وـالـخـيـرـ، وـمـنـ كـانـوـنـاـ كـذـلـكـ فـقـدـ وـجـبـ عـلـيـهـمـ أـنـ يـتـحـبـبـوـاـ إـلـيـهـمـ وـيـمـجـدـوـهـمـ وـيـقـدـسـوـهـمـ، وـمـمـاـ سـهـلـ عـلـيـهـمـ الـوصـولـ إـلـىـ تـحـقـيقـ هـذـهـ الـغـاـيـةـ اـعـتـقـادـهـمـ أـنـ لـكـلـ جـنـيـ مـوـطـنـاـ خـاصـاـ بـهـ.

فـهـذـاـ فـيـ حـجـرـ وـذـلـكـ فـيـ نـصـبـ وـثـالـثـ فـيـ شـجـرـةـ. °

وـكـانـتـ تـجـمـعـ قـبـيـلـةـ — أـوـ عـدـةـ قـبـائـلـ أـحـيـانـاـ — عـلـىـ تـمـجـيدـ جـنـيـ بـعـيـنـهـ، وـتـكـلـ العـنـيـةـ بـهـ إـلـىـ أـسـرـةـ بـعـيـنـهـاـ مـنـوـطـ بـهـ أـمـرـ رـعـيـتـهـ وـتـلـيـةـ رـغـبـاتـهـ، وـكـانـتـ هـذـهـ الـفـئـةـ تـقـومـ بـحـرـاسـتـهـ وـتـعـظـيمـ شـائـنـهـ، سـوـاءـ فـيـ الـحـجـرـ أـوـ الـشـجـرـ أـوـ الـصـورـةـ الـتـيـ تـمـثـلـهـ، كـمـاـ تـؤـدـيـ لـهـ حـقـّـهـ مـنـ الـمـرـاسـيمـ الـكـهـنـوـتـيـةـ وـالـطـقـوـسـ الـدـيـنـيـةـ الـتـيـ تـقـيمـهـاـ فـيـ مـحـرـابـهـ، وـرـبـماـ سـمـعـ

لذلك النصب صوت — كما يحدث ذلك في كثير من الأحيان، ومن الواضح أن الكهنة القائمين بحراسة الوثن قد مرنوا بالحيلة على إحداث تلك الأصوات لإيهام الناس أنها تتكلم، وكان لكل منها صوت خاص به يميزه عن غيره، وكان العرب يعدون ذلك من الخوارق والمعجزات التي يعزونها إلى أوثانهم.

كذلك كانت تحرص كل قبيلة على صنمتها، وتشيد بذكره، وتفرده بأقصى ما تستطيع من حب، لأنها ترى فيه نوعاً من الملكية، وكان الكهان ينضجون عنه، ولا ينون في طلب القرابين لذلك النصب، وإن كانوا — على الحقيقة — يطلبونها لأنفسهم ويجررون المغانم لهم باسم الله (تعالى).

هذا ما نستطيع أن نستخلصه بسهولة من القرآن، وأقوال المفسرين على وجه الإجمال، على أن أحد المؤرخين الذين تخصصوا في درس ترجمة حياة النبي يعزون ذلك إلى قبيلة «خولان» وحدها، وهي التي كانت تقطن اليمن في ناحية منه تعرف باسمها. وكان من عادتهم، حين تقدم القرابين إلى الآلهة — وهي من البر أو الفصال^{١٠} — أن يقسموها قسمين، أحدهما وقف على الله، وهذا من نصيب العوزين وأبناء السبيل الذي يحلون ضيوفاً على أهل القبيلة، والآخر وقف على النصب، وهو من نصيب الكهنة وحدهم.

فإذا وقع في القسم الأول — بطريق المصادفة — بعض النفائس، استأثروا به وجعلوه من نصيب الوثن، ووضعوا مكانه النصيب الأدنى لله^{١١}. ولكن ما علاقة هذه الأرباب الصغيرة بالله؟ لقد كانوا يعتقدون أن تلك الأرباب بنات الله،^{١٢} وأن مثتها منه كمثل الفروع من الأصل تماماً، فهي تحكم الناس كما يحكم حاكم الإقليم بعد أن يخوله مليكه سلطان الحكم، وثمة كانوا يرون في تلك الأرباب وسائل بين الناس وبين الله.^{١٣}

مكة والكعبة

وكانت مكة حاضرة الثقافة في أواسط بلاد العرب، وقد بنتها قريش في منتصف القرن الخامس الميلادي، في وادٍ رملي شديد الضيق، حتى ليبلغ أقصى اتساع فيه نحو سبع مئة خطوة — أما أضيق مكان فيه فلا يزيد عن مئة خطوة — وتكلته جبال جد عارية يرتفاعها بين مئتي قدم وخمس مئة.

في هذه المدينة المحراب الذي يفخر به كل من يملكه ويقع في حوزته، ذلك هو محراب الكعبة الجليلة الشأن^{١٤} وهو أقدم من المدينة نفسها بكثير، وإن جدد وأُعيد بناؤه عدة مرات، وهو مؤلف من أربع حوائط مبنية بحجارة لم يهذبها الصisel، وقد رصف بعضها إلى بعض دون أن يتخاللها الملاط، وقد غطيت بريطة^{١٥} أو بقطعة من القماش، أما ارتفاعها فلا يزيد عن ارتفاع الرجل، وأما مساحتها فتبلغ مئتي قدم.

وكان هبل^{١٦} اسم الصنم الكبير الرئيسي بين أصنامها، منذ النصف الأول من القرن الثالث، وهو تمثال عققي^{١٧} جلبه من الخارج بعض الرؤساء^{١٨} وكان هبل في ذلك العهد ربّاً لقبيلة قريش، أما الكعبة نفسها فلم تكن ملّاً للقرشيين، بل كانت – على الحقيقة – ملّاً مشاعاً لأكثر القبائل التي تربطهم بها وشائج المصلحة السياسية العامة، وكان للكعبة صبغة عالمية عندهم.

وقد وضعت كل قبيلة من تلك القبائل صنماً يعبد في ذلك المحراب الكعبة حتى بلغ عدد الأرباب التي بها ثلاثة مئة وستين ربّاً، وكان التسامح الديني سائداً، وقد وصل بهم إلى أعظم حدوده، فقد كنت ترى في الكعبة – زيادة على ما أسلفنا ذكره من الأصنام – صورة إبراهيم الخليل وصورة الملائكة، وصورة العذراء مع طفلها عيسى.

الحجر الأسود

على أنهم كانوا لا يقدسون شيئاً، كما يقدسون الحجر الأسود وهو الحجر الذي يزعم المسلمون أنه كان أول أمره أبيض، ثم اسود من تواли الحريق الذي حدث في الكعبة، وقد لعب هذا الحجر فيما بعد – في قابل الإسلام – دوراً خطيراً في التاريخ الإسلامي، ولا زال يعده المسلمون – حتى أيامنا هذه – حجراً مقدساً، وسنذكر في بعض الفصول التالية بعض أقاوصيص يرويها بعض علماء الكلام واللاهوت من المسلمين عن هذا الحجر.

وقد وصفه لنا بعض السائحين الأوروبيين الذين شاهدوه، فذكر أنه قطعة من حجر البازلت البركاني، تلمع في أنحائه نقط بلورية، وتبدو في بعض جهاته قطع صغيرة من النوع الذي يطلقون عليه اسم «فيلاسبار» لونها تارة أحمر بأسفله ظلال قاتمة، وتارة أسمراً يميل إلى السوداد.

وقد تعاورته ظروف مختلفة، فكسر أكثر من مرة حتى غدا في هذه الأيام مؤلفاً من اثنتي عشرة قطعة مضموم بعضها إلى بعض، والكثيرون على أنه حجر من الرجوم الساقطة من السماء.

أما احترامهم للكعبة، فقد بلغ بهم حد التقديس^{١٩} وزاد إجلالهم لها، فقدسوا ما جاورها من البقاع – التي خلعت عليها الكعبة مسحة القدسية – وثم أصبح ما يكتنفها – إلى بُعد عدة فراسخ – حراماً لا يجوز لكافئ من كان أن يقتله بسواد فيها، أو يصطاد من حيوانها احتراماً لها.

ويؤم الكعبة في كل عام جمهور ضخم من الناس من شتى الأنهاء، لتأدية الشعائر الدينية المقدسة فيها.

٢٠. عبادة الأصنام

أما العبادة فقد فقدت معناها الأول في القرن السادس من الميلاد، ودب فيها الفساد وتغير جوهرها، فأصبحت طائفة من الخرافات والأوهام – التي يمجها العقل – تدين بها طائفة من المبطلين.

قال أحد معاصرى محمد ﷺ: ^{٢١}

«كنا – فإذا عثرنا على حجر جميل – عبناه، فإذا عز علينا أن نجده، أنشأناه من الرمل إنشاء، ثم سقيناه لبن ناقة درور مدة من الزمن، ومتى تم لنا ذلك عبناه، ثم لا نزال نفعل ذلك ما دمنا في ذلك المكان!»

ولكن هناك طائفة كبيرة من الناس كانت – على العكس من ذلك – على جانب عظيم من الرقي والحضارة، فلم يكن عندهم عقيدة في أرباب هي من صنع أيديهم، من الحجارة أو الخشب!

ولقد كان الناس – في ظاهر أمرهم – يمجدون تلك الأرباب، ويحجون إلى محارابها، ويحتفون بمواسمها السنوية، ويدبحون القرابين في هيكلها، ويريقون دماءها على تلك الآلهة التي يعبدونها، سواء أكانت من الحجر أم من الخشب، بل لقد كانوا يلتجئون إليها كلما حزبهم أمر، ليتمسوا منها البركات، ويكتشفوا بوساطتها مستقبل أمرهم الغامض.

على أن عقيدتهم فيها لم تزد على هذا القدر من المظاهر، أما فيما عدا ذلك، فقد كانوا لا يترددون في تحطيم آهتهم إذا لم تتحقق نبوتها، أو إذا جرأت على إذاعة شيء يكرهونه ويخشون إذاعته مما اقتربوه من الدنيا.

وقد تنزل بأحدهم كارثة فينذر لأحد الأصنام أن يذبح نعجة قريانًا له إذا تكشفت غمته، فلا يكاد يزول عنه الخطر^{٢٢} حتى يستبدل النعجة – وهي قيمة عنده – بغزال لا يكله ثمنه أكثر من أن يصطاده بيده، يفعل ذلك وهو معتقد أن ذلك المعبود لا يكاد يفرق بين النعجة والغزال!^{٢٣}

أضف إلى ذلك أن نبوءات الآلهة لم يكن لها خطر عندهم، ما لم تتوافق رغباتهم، وتعبر عمّا يقصدون إليه من التفاؤل، بما هم قادمون عليه من الأمور.

يؤيد ذلك أن أعرابياً اعتزم أن يثار لأبيه من قتله، فأتى «ذا الخلصة»^٤ وهو نصب مربع الشكل من الحجر الأبيض – ليستشيره فيما هو قادم عليه – وبدأ يقترب على عادة العرب في ذلك – فرأى في السهم الأول أمراً بالمضي في طريقه، وفي الثاني نهياً عن ذلك، وفي الثالث أمراً بالانتظار والترىث، فلم ترضه هذه النتيجة، وأعاد الكرة مرة بعد أخرى، فكانت النتيجة واحدة في المرات الثلاث، فغضب وألقى بالسهام في وجه الصنم وقال له: «مخصست بظر أمك، لو كان أبوك قتل ما عوقتنى!»^{٢٥}

ذلك كانوا يغضبون لاتفاقه الأسباب، وكلما تعارضت أوامرها مع رغباتهم، ولم تعبر عمّا يودون سمعاه من الكلام، انهالوا عليها بالسباب والتحقيق.

وأقبل رجل من بني ملكان^{٢٦} على سعد صنم قبيله المعبود – وهو صنم في الصحراء – وكان مع الرجل إبله جاء بها ليقفها عليه يريد التبرك به، وبينما كانوا يريقون عليه دماء العთائر^{٢٧} – حسب عادتهم – نفرت الإبل وولت هاربة، فغضب أصحابها، وتناول حجرًا، فرمى به وقال: «لا بارك الله فيك إلهًا أنفرت عليًّا إبلي». ثم خرج في طلبها حتى جمعها، وانصرف عنه وهو يقول:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من «سعد»
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعى لغى ولا رشد؟

وكان بنو حنفة أنفسهم أقل الناس احتراماً لآهتهم، إذ كانوا يأكلونها، ونحن جديرون أن نقر عذرهم في ذلك، فقد كانوا يصنعون آهتهم من نوع – بعينه – من العجوة ومن اللبن والزبد، فلما وقعوا في قحط ومجاعة أكلوها.

ومن هنا يتضح أن العرب لم تكن تعتقد في تلك الأرباب اعتقاداً جدياً، فقد كان أكبر شيء يحترمونه هو الله (تعالى)، على أن الله لم يكن له عندهم أيضاً عقيدة قوية راسخة في قرارة نفوسهم؛ لأنهم كانوا لا يعرفون عنه شيئاً كثيراً، إذا لم يكن له كهان يدعون الناس إليه، ويرغبونهم في عبادته وطاعته، ويذيعون إرادته ويوضّحون لهم ما قدره من خير وشر.

عقيدة البعث

ولم يكن الناس على عقيدة واحدة، كانوا شديدي الاختلاف، فمنهم من كان يؤمن بحياة ثانية بعد هذه الحياة، ويدين باليوم الآخر، ولا يقف عند حد الاعتقاد في بعث الإنسان، بل يدين ببعث الحيوان أيضاً.

ومن ثمَّ كان يدفن راحلته إلى جانبه أو يتركها تموت على قبره، ليركبها يوم القيمة، فلا يتكدب عناء السير على قدميه.

على أن سوادهم كان يستهزئ بفكرة البعث ويسخر منها، وكانوا يدينون في كل مكان برأي القائل:

حياة، ثم موت، ثم حشر حديث خرافة يا أم عمرو

وليس في هذا موضوع للعجب، فإن هذه الفكرة – فكرة البعث – لمحببة إلى نفوس الآريين، شديدة الغرابة عند الساميين، وأية ذلك، أن اليهود أنفسهم لم يقبلوها من الفرس إلا بعد تشريدهم^{٢٨}، إن لم نقل في أوائل التاريخ الميلادي، على أن جماعة الصدوقيين نفسها – وهي كبيرة العدد – قد رفضت فكرة البعث، ولم تقبلها قط.^{٢٩} كذلك لم يلق محمد ﷺ مقاومة جدية من العرب إلا حين دعاهم إلى هذه الفكرة، ونادى فيهم بوجوب الإيمان بصحتها، وما زال البدوي – إلى أيامنا هذه – لا يعنيه أمر البعث، ولا يكتثر له.^{٣٠}

المسيحية واليهودية

قلنا إن ديانة العرب الأولى كانت واهية، لا ترتكز على أساس متيّن، ومتى أقررنا ذلك سهل أن نفرض أنه كان من اليسيير على العرب أن يقبلوا ديناً آخر – غير دينهم هذا – فيدينوا بال المسيحية أو اليهودية مثلاً.

وهذا كلام صحيح، ولكن إلى حد ما؛ فقد انتشرت المسيحية لهذا السبب نفسه في جهتين، انتشرت في بلاد الحبشة – جنوباً – وفي سوريا – شمالاً – حيث لقيت شيئاً من القبول، وقد انتصرت كذلك في مدينة نجران في وقت مبكر، ودانت شبه جزيرة سينا بالمسيحية، كما تنصرَّ عرب سوريا، وأصبح علم النصرانية خفاقاً على كثير من الأديرة والكنائس.

على أن هذا النجاح كله لم يكن – في أي مكان تقريباً – إلا مظهراً من المظاهر لا حقيقة من الحقائق.

أما في أوسط بلاد العرب، وفي قلب جزيرتهم حيث نبتت جرثومة العربي البح وأرومته، فلم تنجح فيها الدعاية للدين المسيحي، ولم نكن لنرى ثمَّ إلا أثراً ضعيفاً له – إن لم نقل – معدوماً.

وكانت المسيحية في ذلك الزمن – على وجه عام بما تحويه من معجزات، وبما فيها من عقيدة التثليث، وما يتصل بذلك من رب مصلوب – قليلة الجاذبية، بعيدة عن التأثير في نفس العربي الساخر الذكي.

وآية ذلك ما تراه واضحاً فيما حدث للأساقفة الذين سعوا إلى تنصير المذر الثالث ملك الحيرة – حوالي عام ٥١٣ من الميلاد – وإن المذر ليصفي إلى ما يقولون بانتباه، إذ دخل عليه أحد قواده، فأسرَّ إليه بعض كلمات، ولم يك ينتهي منها حتى بدت على أسرير الملك أمارات الحزن العميق، فتقدم إليه أحد القساوسة يسأله متأنِّياً متاطفاً عما أشجاه، فأجابه الملك: «يا له من خبر سيء! لقد علمت أنَّ رئيس الملائكة قد مات، فوا حسرتا عليه!»

فقال القسيس: «هذا محالٌ أيها الأمير، وقد غشَّك من أخبرك بذلك، فإنَّ الملائكة خالدون يستحيل عليهم الفناء!»

فأجابه الملك: «أحق ما تقول؟ وتريد أن تقنعني بأنَّ الله ذاته يموت؟»

أما حظ اليهودية في اجتذاب العرب إليها، فهو أكثر من حظ المسيحية، فقد رحلت جمهرة كبيرة من اليهود بعد أن شردهم الإمبراطور «أدريان» الذي ثاروا عليه، فألحق بهم الأذى، وشتت شملهم، فوجدوا في بلاد العرب ملجاً لهم، وبثوا دعایتهم فيها، فدان باليهودية قبائل عدَّة من سكان الجزيرة العربية.

ولعل هؤلاء هم وحدهم المتهودون الذين أخلصوا لليهودية حقاً، وقد صارت اليهودية نفسها – في زمن ما – دين اليمن الرسمي.

على أنها ضعفت — على مرور الزمن — وقل إقبال العرب عليها؛ لأن اليهودية لا تلائم إلا شعراً مختاراً، أما أن تكون ديننا عاماً للناس قاطبة فلا! ذلك أنها ملائ بالشكاليات والأعمال الغامضة التي تعلق بها اليهود بعد أن خرب بيت المقدس، وليس هذا مما تلائم طبيعته الشعب الطموح إلى المجد!

وليس من أصلالة الرأي أن نقول إن سواد العرب كانوا يشعرون بحاجة إلى دين آخر، فإن العربي — ذلك البدوي الحر كما سرناه في كثير من المناسبات التي ستيحها لنا الفرصة أثناء دراسته — ليس متدينًا بطبيعة، كما أن كل محاولة بذلت في سبيل جعله كذلك كان نصيبيها الفشل التام.

فالعربي رجل عملي مادي، لا يعنيه بغير الحقائق حتى في شعره، فهو لا يسبح في الخيال والوهم، ولا يميل إلى الأخذ بتلك الألغاز والمعميات الدينية، التي يعتمد الإنسان في استيعابها على التخيل أكثر من اعتماده على التعقل.

إن ديانة العرب التي ألفوها، لم تكن مهيمنة على نفوسهم ومشاعرهم، بل كانت ضعيفة الأثر، قليلة الخطر، ولكنها كانت دين سوادهم على كل حال، فإذا كان من الحق علينا أن نعترف أن المستنيرين منهم لم يؤمنوا بتلك الأرباب، فمن الحق علينا أن نقرر أيضًا أن عدم إيمانهم بها لم يكن كافياً للقضاء عليها.

والحق أن أحداً لم يكن مضطراً إلى العقيدة، فقد كان البدو لا يبالون أن يسخروا حتى من أربابهم التي يعبدونها، ولا يتذمرون في إلحاد الأذى والضرر بها، بقلوب جد مغبطة، بيد أن القضاء — بعد كل هذه الاعتبارات — على عبادة يدين بها أجدادهم وأباوهم من قبل، كان يثير في نفوسهم كبراءتهم القومي، أنفة من أن يترکوا دين أسلافهم الذين كانوا يفردونهم بكل إجلال وإكبار.

وجماع القول أن الديانة كانت في نظر العربي القديم — كما هي في نظر البدو في أيامنا هذه — أمر لا خطر له، وأية ذلك أن شعراً الجاهلية لا نكاد نراهم يذكرون ديننا أو عقيدة في أشعارهم، ولو فتشنا أناشيدهم لم نر فيها — إذا استثنينا أسماء الآلهة وبعض الشعائر المختلفة — إلا عبارات مقتضبة، لا تكاد تعثر فيها على ذكر لعبادتهم القديمة.

لقد عاش العرب للحياة الحاضرة، ولم يشغلوا أذهانهم بشيء من مسائل وراء الطبيعة، وكان مؤمنوهم يتبعونهم في ذلك الشعور ويصدرون عنه.

ومع كل هذه الاعتبارات، فقد وجدت لهذه القاعدة شواد — شأن كل قاعدة — فإن وجود جماعات شئٌ من متألهي العرب الذين يدينون بوحدانية الله وإن اختلفت وجهاتهم وتبينت نحلهم — لِتَدِينُ بعضهم باليهودية أو المسيحية — كان أمراً له خطره عند العرب، وله أثره في نفوسهم، إذ كان أولئك المتألهون لا يفتئون بيتون عقائدهم فيما ينون حولهم من العرب.

الحنيفية

ومن ثمَّ رأينا في أواخر القرن السادس الميلادي لبعض الشعراء دلائلً وآثارًا لإيمان عميق بوحدانية الله، ورأينا منهم شعورًا يقظًا بالتبعية المترتبة على ما تصنعه أيديهم من خير أو شر، وهذه الفئة — التي ترى هذا الرأي — هي طائفة الحنفاء،^{٣١} وقد كانوا في شتى الأنهاء، لا تربطهم أية أصرة، ولا يضمهم مذهب بعينه كما يفعل الصائبة المنتسبون إلى إبراهيم الذين كانوا يسمون أنفسهم الحنفاء أيضًا!

وكان لهاتين الطائفتين — من الحنفاء — رأي واحد في رفض اليهودية والمسيحية معاً، والاعتراف بدين «إبراهيم»، وإبراهيم هذا — الذي عرفوه من اليهود والنصارى — هو الأصل الذي ينسبون إليه، فهو والد جدهم إسماعيل وهو الذي بني الكعبة في مكة. وكانت شريعته الحنفاء سمحنة رشيدة، واضحة الموجة، سهلة الإقناع لهؤلاء العرب العاملين — وهي في جوهرها — صالحة لأن تكون دين العرب قاطبة، ولم ينقصها بلوغ هذه الغاية إلا أن تكون عقيدة ثابتة مستقرة، وأن تكون لها هيئة روحية ذات سيادة دينية، وأن تكون منزلة من السماء، أو تفهم على أنها كذلك.

وهذا هو العمل العظيم الذي أخذ محمد ﷺ على عاتقه القيام به ليتم نقص الحنيفية، ولكن هذا العمل — على ما فيه من صعوبة — قد ضوّعت مصاعبه؛ لأن العرب لم يكونوا في غير حاجة إلى الدين فحسب، بل كانوا — إلى ذلك — ينفرون بطبيعتهم من كل مظاهر العبادة ومراسيمها، كما كانوا يكرهون الفروض الغامضة والمعنيات التي تتصل بما وراء الطبيعة.

ولا بد من إقناع جازم ويقين لا يتزعزع للتغلب على هذه العقبات.

بعد وفاة النبي

فصل آخر من كتاب: «الإسلام» لدوزي

مات النبي ولم يترك ولدًا له، ولم يعين خليفة يخلفه، فكانت الساعة غاية في الحرج، وأصبح كيان الإسلام نفسه مهددًا نهب الحوادث والظروف، وقد انتشر خبر وفاته بسرعة لا مثيل لها، وكان له وقع شديد على أصدقائه المخلصين، وكأنما أصابتهم صاعقة حين بلغهم هذا النبأ المروع، وكان الناس قسمين: قسمًا يحسبه خالدًا لن يموت، وقسمًا لا يتوقع موته بهذه السرعة، بل يؤمن له حياة طويلة وعمرًا مديدة، وكان عمر — خاصة — من يؤمن هذا الأمل.

وبعد أن مات النبي، وأسلم آخر أనفاسه بزمن يسير، دخل عمر مخدع عائشة فرفع الغطاء — الذي كانت جثة النبي مسجاة به — وتأمل محياً سيده ملياً — وهو في نومته الأبدية — فرأى كل شيء هادئًا، ونظر إلى ما حوله فرأى سكوناً طبيعياً، فلم يعد يصدق ذلك النبأ المروع، وصاح: «كلا لم يمت النبي، بل هو في غيبوبة!» وكان المغيرة حاضرًا، فحاول عبئاً أن يرشده إلى خطئه، فقد صرخ فيه عمر: «كلا، بل تكذب، إن رسول الله لم يمت، ولكن خبث طويتك وفساد نفسك الشريرة قد أدخلك في روعك هذا الوهم الخاطئ، ولن يموت النبي قبل أن يقاضي على المنافقين، ويبين أهل الشرك.»

ثم ذهب عمر من توّه إلى المسجد، فصاح فيمن تجمهر من الناس: «لقد زعم الزاعمون، وأرجف المرجفون، أن محمداً قد مات، وبئس ما يتقولون، لأن إِنَّ مُحَمَّداً لَمْ يَمُتْ وإنما ذهب للقاء ربِّه، كما فعل موسى إذ غاب عن قومه أربعين يوماً، ثم رجع إلى

أصحابه بعد أن يئسوا من عودته، ووالله ليعودن النبي كذلك، ثم ليعاقبن كل من اجتأ على قول هذا القول!»

ولم يك يسمع الحاضرون قوله حتى أمنوا عليه، ولا غرو في ذلك، فقد كانوا - إلى زمن يسير جداً - يرون محمدًا في نفس المكان الذي يخطبهم فيه عمر فلم يكن أحب من تصديق ما يقوله عمر.

وجاء أبو بكر في هذه اللحظة فاخترق المسجد، وأصغى هنئية قصيرة إلى كلام عمر المتاجج عاطفة وحماسة، ثم أسرع إلى مخدع عائشة ووقف أمام جثة النبي أيضاً، فرفع الغطاء عنها، وقبل وجه صاحبه - وهو مستغرق في نومته الأبدية - ثم صاح قائلاً: «طبت حيًّا وميتاً».

ورفع رأس النبي بتؤدة وأناة، وتأمل أسارير ذلك الوجه الذي طالما تملّى به من قبل، ثم قال: «نعم، لقد مت، فوا أسفاه عليك أيها الصديق المحبوب، بأبي أنت وأمي، فقد قاسيت من غمرات الحمام ما قاسيت، وتجرعت من غصص الموت ما تجرعت، وإنك لأكرم على الله من أن تتجرع هذه الكأس مرة أخرى!»

ثم وضع رأس النبي برفق - على وسادته - وقبل رفيقه مرة أخرى، ثم سجاه بخطائه ورجع - أدراجه - إلى المسجد، فوجد عمر لا يزال يتاجج حماسة، وهو يخطب الناس ليقنعهم أن الرسول لم يمت، فصاح فيه: «حسبك يا عمر! هدي من ثائرتك واجلس حيث أنت!» فلم يصح إليه عمر وطفق يخطب الناس، فولَّ أبو بكر وجهه شطر الناس، فأقبلوا عليه، وتركوا عمر ف قال لهم أبو بكر: «أما قال (تعالى) - في محكم آياته - لنبيه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّنُونَ﴾؟

أما قال (تعالى) في آية أخرى - بعد موقعة أحد (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَّتْ من قَبْلِه الرُّسُلُ حَلَّ أَفَإِنَّمَا تَأْوِي قُتْلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾؟
ألا إن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت!»

وكأنما كان الناس في حلم، أفاقوا منه بعد ما سمعوه من قول أبي بكر، فقد ذهل الناس من فداحة الخطب عن هذه الآيات القرآنية حتى إذا ذكرهم بها أبو بكر الرزين أيقنوا جميعاً أنهم لن يروا النبي بعد.

انتخاب الخليفة

بقيت عقدة خطيرة لا بد من حلها، وهي أن محمداً قد مات، ولم يعين من يخلفه، فلا مندوحة إذن عن انتخاب أمير لهم، ولكن من الذي يعين هذا الأمير؟ أيعيّنه كل المسلمين؟ هذا حسن، فهل من سبيل إلى تحقيقه؟

لقد كان الوقت عصيّاً، وكان من السهل أن يرى الإنسان أمامه أزمة رهيبة وشيكّة، وجمّهوره من القبائل لن تثبت أن ترتد عن الإسلام؟ إذن يتّعّن أن يقتصر انتخاب الخليفة على القبيلة التي لها الصدارة والسلطان بين قبائل العرب قاطبة، وثمّ اجتمع الأنصار «أهل المدينة» الذين عزّ بهم الإسلام وانتصر، فمن يختارون؟

لا مجال للتردد والحيرة، فأمامهم الفارس النبيل سعد بن عبادة رئيس «الخزرج»، وقد كان من الطبيعي المأثور أن يختاروه — ولم يكن حينئذ قد تم شفاؤه من مرض خطير كان قد ألمّ به — فحملوه مُدثراً مُدّوّجاً إلى جمهور المدنين، وكان ضعيفاً من أثر المرض، فلم يستطع إبلاغهم صوته، فقام أحد أصحابه يردد ما يقول.

وقد ذكر سعد بن عبادة أصحابه بأنهم أول من دخل الإسلام من القبائل، وأن نصرته لم تتم إلا بهم بعد، وأنهم لذلك جديرون بالزعامة على العرب قاطبة.

فقابلوا كلامه بالاستحسان والتحبيب، وأظهر جمهورهم له حماسة شديدة، ونادوا به — في الحال — خليفة لرسول الله، ولكن فئة قليلة منهم أبدت خوفها من رفض المهاجرين هذا الرأي، وعدم رضائهم عنه، فأجابهم أصحابهم: «لا علينا من ذلك، سنقول لهم حينئذ: لقد اخترنا لنا أميراً، فاختاروا لكم أميراً، وافترقوا عنّا، فلن نذعن — بالح ما — لغير أميرنا الذي اخترناه».

ولم يك يبلغ أبا بكر هذا النبأ، حتى أقبل عليهم بأقصى ما في قدرته من سرعة — ومعه عمر وأبو عبيدة — وما كادوا يصلون، حتى انبرى عمر للكلام، فمنه أبو بكر — وله كل الحق فيما فعل — خشية من تحرسه واندفعاه، وقال له: «ترى ثـ حتى أتكلّم، ثم قـ ما شـتـ بـعـدي؟»

وبدأ أبو بكر يخطب الناس — بكل تواضع — فاعترف للمدنين بما قاموا به من خدمات جليلة للإسلام، ثم أظهر لهم — إلى هذا — جدار المهاجرين بالخلافة، لقربتهم من الرسول وكونهم من أسرته، ثم لأنّهم أول من دان بالإسلام، وقد لقوا في سبيله ألواناً من العسف، وضربوا من النكال، واحتملوا ذلك كله صابرين.

ثم قال: «فأنتم تلوننا في هذه المرتبة، فليكن الأمير مناً، والوزراء منكم..»
فأجابوه: «بل منا أمير، ومنكم أمير!»

فصاح عمر: «كلا، ومحال أن نولي أميرين، ولن تعرف العرب بمن تختارون،
فليس نبيهم من قبيلتكم، ولن يخضعوا لأحد إلا أن يكون قريباً للنبي، ومن رفض ذلك،
أرغمناه على قبوله إرغاماً»

وحمي وطيس الكلام، وكاد اللجاج ينقلب خصومة، لو لم يقل لهم أبو عبيدة:
«لقد كنتم أول ناشر للإسلام، وأول معين للنبي، فلا تكونوا الآن أول ساعٍ في التفرقة،
وتشتت الوحدة الإسلامية!»

وهنا قام «بشير» — قريب «سعد» ومنافسه — فقرر ما للمهاجرين المكيين من
الحقوق في أعناق المسلمين، فأثر كلامه في نفوس فئة من «الخزرج»، ولكن الأثر لم يبلغ
أشده، إلا في نفوس القبيلة المدنية الأخرى، وهي قبيلة «الأوس» بسبب ما كان بينها
وبين قبيلة «الخزرج» من نفور قديم، جعلهم لا يرتحون إلى «سعد»، ولا يرضون به
أميرًا عليهم، وكانوا — منذ لحظة — يقررون حق المهاجرين وجدارتهم بالخلافة، فلما
سمعوا كلام أبي عبيدة ثبتو على رأيهم وظاهروا المهاجرين على الأنصار.

وبذلك ستحت فرصة ملائمة، فأسرع أبو بكر إلى انتهازها وأمسك بيده عمر وأبا
عبيدة، داعيًّا المدینيين إلى اختيار واحد منهما لمبايعته بالخلافة، فصاحا في نفس واحد:
«بل أنت خير مناً، فامدد يدك نبايعك، ونقسم لك على الخضوع والطاعة».

وامتدت بين يديهما يد ثالثة إلى يد أبي بكر، وهي يد بشير الذي أسرع بمبأيعته
معهما، ثم نهج «الأوس» منهجه، وأقبل المسلمين بمبأيعونه أفواجاً، واشتد الزحام، وعلت
صيحات الفرح، فاختلطت بأصوات الدهشة، وأراد حباب الخزرجي أن ينأى الدعوة،
فصرخ مهدداً بالحرب، واستل سيفه، فانتزعه عمر من يده.

ورأى سعدًّا ماله في الخلافة تتبدد هباءً، وليت الأمر وقف عند هذا الحد، فقد أصبح
سعد نفسه في خطر حين تكأكت عليه الجموع، فكادت تسحقه — وهو في محفظة
التي كان محمولاً عليها — وعبيداً حاول أصحابه أن يقنعوا جمهرة المسلمين بوجوب
احترامه، فإن عمر نفسه لم يتورع عن إهانته، ووصفه بأقبح النعوت — على الرغم من
أنه خصم أعزل جليل القدر — وقد تداركه أبو بكر فقصد هذه الجموع عنه، وأنقذه
من أذاهم وشرهم.

وإذن فقد تم انتخاب الخليفة — خليفة النبي — وسط هذه الفوضى الشاملة كما اعترف بهذه الحقيقة عمر نفسه، على ملأ من الناس في المسجد المدني فيما بعد، وقد كسب المكيون بهذا الفوز أمررين: «زعامة العرب، وحسن اختيار الخليفة».

فقد ولّوا أمرهم رجلاً كان أخلص صديق لنبيهم، ولو ترك أمر اختيار الخليفة إلى الرسول، فقد لا يختار سواه؛ ذلك أنه جمع — إلى حبه الرسول — مтанة الإيمان، وقوّة اليقين، وصدق العزيمة في إعزاز الإسلام ونصرته، وبهذه الصفات نجح أبو بكر في التغلب على المصاعب والعقبات التي كانت تكتنفه، وفي الحق أن الوقت كان عصيّاً، وكانت الظروف غاية في الحرج، فقد كان موت النبي — الذي كانت تترقبه العربمنذ زمن طويل بفارغ الصبر — مؤذناً بالثورة في كل مكان، ولقد كنت ترى الثنائرين — حيثما ذهبت — رافعين علم الثورة والتمرد، وقد رجحت كفتهم أيماء رجحان، حتى لقد طردوا ولاتهم من بلادهم، فلم يجد هؤلاء أمامهم ملجاً إلا المدينة، فتقاطروا عليها من كل فج يحتمون فيها من أذاهم.

وكان لا يمر يوم حتى يفدى على المدينة بعض الولاة والعمال المطرودين، وأعدت القبائل المجاورة للمدينة عدتها لحصارها.

فكيف يقاومهم أبو بكر وليس لديه جيش يحاربهم به، بعد أن أرسل جيشه إلى سوريا ليفتحها تفيضاً لأمر النبي برغم نصيحة المسلمين الذين رأوا خطورة الحال، ولقد ألحوا عليه أن يعدل عن تنفيذ فكرة الفتح حينئذ، فقال لهم: «لن أخالف ما أمر به النبي، ولو أصبحت المدينة نفسها نهباً للثائرين والمتمردين، ولا بد لي من تحقيق مشيئته!»

ومن ثمَّ ترى الخطر العظيم باديًا، على أنه — على الحقيقة — خطر أقل مما تدل عليه ظواهره، فإن قوة الخصم الحقيقة لا تقاوم بما لديه من عدة ورجال، بل بما عنده من قوة معنوية، وبما يصبو إلى تحقيقه من غاية سامية يتطلع إليها ويخوض غمار الحرب من أجلها، باذلاً في سبيلها النفس والنفيس.

فما هي الغاية التي يسعى إليها الثائرون؟ وأي حافز يدفعهم إلى إضرام الحرب؟ فهو إيمان وثيق متواشج في أعماق قلوبهم، كإيمانهم القديم الذي كانوا عليه قبلبعثة؟
لو كان ذلك، لما كان ثمة شك في انتصارهم الحاسم!

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، فإنهم لا يحاربون الآن لينصرموا دينهم القديم ويعيدهوه، بل هم يثورون على دينهم الجديد لأنهم لا يطيقون احتماله.

وليس هذا بالسبب القوي الذي يلهب حماستهم ويحفزهم إلى الإتيان بجلال الأعمال، ولا هو بالسبب الذي يخلق البطولة والأبطال، فقد كان رؤساء القبائل المتمردة — أنفسهم — شاعرين كل الشعور بضعف المعنوية، فلجاً إلى فكرة سخيفة حسبوا أنها تعيد إليهم تلك القوة، فادَّعُوا النبوة! وخيل إليهم أنَّ محمداً لم ينجح إلا بهذه الفكرة، فأرادوا تقليله.

ولكنهم نسوا أمراً واحداً — هو سر نجاحه في بث دعوته — ذلك أنه كان مؤمناً بما يدعوه إليه إيمان المستيقن الجازم، وهذا هو الذي يعوزهم وبغيره لا يتم نجاحه وكانت تلك الثورة الهائلة، وتلك الحرب الشعواء — على ما أريق فيها من دماء غزيرة إذا قورنت بما أتاه المسلمون في غزواتهم التي عز بها الإسلام — ظاهرة سخيفة مضحكة، يتمثل فيها الإنسان — عن غير قصد — كيف قلباً تمثل هذه الرواية الجدية التي مثلها النبي وأصحابه مهزلة وعبثاً!

ألا ترى مسيلمة الذي مثل دور النبي في اليقادة؟

ألا ترى ذلك الدجال السوقي التعس، ذلك المشعوذ السمج الذي لا يصلح لغير التدجيل وإدخال بيضة في زجاجة ضيق الفوهة؟ ألا تراه ينشئ قرآنًا سخيفاً يقلد به محمداً، ثم يرخص لأتباعه في شرب الخمور أى شاءوا، ولا يكاد ينشر دعوته حتى يصادفه سوء الحظ، فتحاصره «سجاح» وتنازعه النبوة؟

أما «سجاح» هذه فقد كانت مسيحية نشأت في بلاد النهرين وجاءت تبث الدعوة لنفسها — على رأس جيش عظيم — فماذا يصنع مسيلمة؟

ليس أمامه إلا أن يلجاً إلى طريقة المسالمة — وقد فعل — فأرسل إليها هدايا فاخرة، ودعاهما إلى محادنته، وطال بينهما الحوار.^١

ولما عادت «سجاح» إلى قومها سألوها عن رأيها في مسيلمة فقالت لهم: «لقد رأيته نبياً حقاً فتزوجت منه!»

فسألها التميميون: «وهل أهدى إلينا شيئاً من مهر الزواج؟»
قالوا لها: «عاز علينا أن نزوج نبيتنا بلا مهر! ولن نقبل ذلك بحال ما!»

فأرسلت إليه بذلك — وكان مسيلمة خائفاً متحسناً — فلما جاءه الرسول لم يأذن له، حتى عرف الغرض الذي جاء من أجله، فاطمأن إليه، وقال له: «عد إلى

قومك، فأخبرهم أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد رفع عن التميميين — من الصلوات الخمس — صلاتي الصبح والعشاء.» ولقد فرح التميميون بذلك، وساروا عليه حتى بعد أن عادوا إلى الإسلام من جديد.

ومن ثم ترى أن هؤلاء التائبين، ليس لهم عقيدة جدية يدافعون عنها، فلا غرو إذا قهрهم رجل كأبي بكر وثيق الإيمان قوي الإرادة، صلب العزيمة، لا يعرف هواة — في إرغام أنفوهم — ولا رحمة! ولو شاء أبو بكر أن يهادنهم لتنازل لهم عن قليل من مطالبه، فكسب بذلك مساعدة كثير من القبائل — أو ضمن حيادهم على الأقل — فقد وعدوه بالمواظبة على إقامة الصلاة المفروضة عليهم، على شريطة أن يعفيهم من إيتاء الزكاة، ونصحه أعيان المسلمين أن يقبل ذلك منهم، فرفض رأيهم بإباء شديد، وقال لهم: ^٢ «إن الإسلام قانون واحد لا يتجزأ، وليس لأحد أن يأخذ ببعضه ويرفض البعض الآخر.»

وقد كان هذا الإصرار الحازم، وذلك الحقد الشديد على أهل الردة سبباً في منحه قوة أكبر مما نتصور.

ولم يك ينتهي من إخضاع القبائل المجاورة له، حتى بدأ يهاجمه طلة الذي كان بطلًا من قبل، وقد جاء يدعى النبوة كغيره، ثم يجبر عن دخول المعركة، فيرقب الحرب — وهو بعيد عن الميدان — مدحراً في عباءته، لأنما يؤمل أن ينزل وحي من السماء، أو تحدث معجزة خارقة، وقد ترقب ذلك زمناً طويلاً، ثم وقعت المعجزة؛ إذ بدأت تنهرزم قبيلته أشنع انهزام، وحينئذ صاح في جنده: «احتدوا حذوي إن استطعتم». ثم امتطى جواده، وأطلق له العنان، وأمعن في فراره.

وكانت تلك المعركة التي اصطلاها المسلمون معركة مروعة هائلة، وفي الحق أن الدماء التي أريقت في هذه الحرب، كانت أكثر مما أريق في تلك الحروب الطاحنة التي نشب فيما بعد بين المسلمين والفرس ثم بين المسلمين والإمبراطورية الرومانية، وقد اقترنت العرب من الفظائع في هذه الحرب «حرب الردة» شنّعاً لم يعرفها الإسلام قط، فكانوا إذا انهزم العدو تقبّلوا به، لأن الردة جزؤها القتل، لا هواة في ذلك ولا رحمة، وقد بعث أبو بكر إلى خالد يأمره بقوله: «عليك بإبادة الكفرة بالحديد والنار، ولا تأخذنك فيهم رحمة قط.»

ولقد انهزم أصحاب مسيلمة — وكان عددهم زهاء عشرة آلاف مقاتل — ومزقهم المسلمون شر ممزق، وغرت بلاد العرب كلها في الدماء! ولكن الإسلام قد خرج من تلك المعارك — الناشبة في كل مكان — مؤيداً منصوراً، ودان به العرب بعد ذلك — طوعاً أو كرهاً — فقد أقنعهم خذلانهم بوجوب الاعتراف بالدين الإسلامي، إن لم يكن اعتراف المستيقن المؤمن، فاعتراف الخائف الذي يعرف قوة هذا الدين العظيمة التي لا تجدي معها أي مقاومة.

بعد النصر

ولم يك يتم انتصار أبي بكر حتى وجَّه هؤلاء البدو الظالمين إلى الدماء، إلى مهاجمة فارس والإمبراطورية الرومانية، وهذا العمل عند من ينظر إلى ظواهر الأمور وحدها جرأة وتهور، ولكنه — على الحقيقة — رزانة وتعقل. وإنما سار أبو بكر في هذا على خطة النبي التي كان يتبعها، وهي أن يشغل العرب عن التفكير في خصوصهم، ولا يدع لهم وقتاً كافياً لذلك، وقد رأى أن خير ما يربطهم بالإسلام لا يكون إلا عن طريق الفتح والانتصارات الحربية، وما يجره ذلك من الغنائم.

وهكذا انتهت حروب الردة، ولم تقم للمرتدين بعدها قائمة، فقد كان عقاب الردة القتل، وهنا تظاهر الناس بالإسلام ووقفوا عند هذا الحد، ونحن — إذا استثنينا صفوة المسلمين، ونواتهم المؤلفة من المهاجرين والأنصار وبعض من يمتنون إليهم بسبب — لم نجد بعد ذلك من يعرف القرآن وتعاليمه إلا عدداً غاية في القلة، أما العرب الذين استوطنوا أفريقيا، فقد ظلوا — حتى بعد مضي قرن من الهجرة — لا يعرفون من الإسلام أكثر من أنه دين أتى بتحرير الخمر، أما أولئك الذين استوطنوا مصر، فإنهم ما تحدثوا عن الإسلام أو شغلوا به أنفسهم قط، وكانوا لا يذكرون إلا أيام الوثنية، وعهودها الطيبة بالثناء والحنين.

ولما انتصر العرب على الفرس في موقعة القادسية (٦٣٥ م) وأخذ كل واحد نصيبيه من الغنائم، بقيت نفائس أخرى وافرة لم تقسم بعد، فكتب الخليفة عمر — أمير المؤمنين حينئذ — يأمر القائد بتوزيع باقي الغنائم على من يحفظ أوفر قسط من القرآن.

فجمع القائد إليه أبطال الجهاد الذين تم بفضلهم النصر والفوز، فسأل عمرو بن معد يكرب النبيل عمّا يحفظه من القرآن فأجابه: «لا شيء، لأنني دنت بالإسلام في بلاد اليمن، ثم صرفتني الحروب العديدة عن القرآن وعن الاشتغال به..»^٣

فاللتفت القائد إلى بشر بن طائف يسأله، فكان جوابه: «ليس حظي من ذلك بأوفر من حظ عمرو: «بسم الله الرحمن الرحيم»..»

وقد كان هذا هو كل ما يحفظه من القرآن!

زد على ذلك، أن الإسلام — وإن لم يلق معارضة قوية في أثناء فتوحاته المتواترة — فإن سراة مكة وطبقة الأرستقراطية العربية لم يغفروا لأصحاب هذا الدين الجديد ومؤسسيه هذا الفوز الذي أحرزوه، ولم يرضوا عن ذلك السلطان الذي أراد الموحدين أن يبسطوا ظله عليهم.

ولقد كانت تقوم المذااعات بين الشعب على مسألة من المسائل ظاهر أمرها أنها شخصية لا علاقة لها بمبدأ أو عقيدة، وهي — في حقيقتها وجوهرها — غير ذلك، فقد كان يتخذ النزاع غرضاً يحوم حوله ومبدأ يناضل عنه ليتخذ منه تكأة يبرر بها غايته من الشغب.

وقد بدأ ذلك بحادث عثمان — ثالث الخلفاء — حين تولى الخلافة بعد وفاة عمر (٦٤) وكانت سن عثمان حينئذ سبعين عاماً، وكان حليماً لين العريكة، ضعيف الإرادة أمام أسرته وأعيان مكة وسراتها ورجال بني أمية، أي إنه كان ضعيف الإرادة أمام كل من ناصبوا محمداً العداء عشرين عاماً، ثم أسلموا، فكان في إسلامهم مجال واسع للظنون والحذر، ولقد نالوا بفضل عثمان أرفع المناصب وانتهت المأساة الكبرى بقتل خليفتهم الشيخ المسن عثمان.

ثم ولي الخلافة بعد علي ابن عم محمد ولكن لم يتم الاعتراف به في كل مكان، فقد هبت سوريا متحمسة إلى امتشاق الحسام وعلى رأسها واليها معاوية بن أبي سفيان وكان انتصاره حينئذ هو انتصار جمهرة المعادين للإسلام، الذين كانوا ينادونه من صميم قلوبهم، على أن المسلمين حقاً لم يخضعوا لهم، فقد أشعلوا نيران الحرب — من جديد — في زمن يزيد الأول ابن معاوية الذي ولي الخلافة من بعده، ولقد قام الحسين — وهو الابن الأصغر لعلي — يطالب بالخلافة، ولكنه صرع هو وفتئه القليلة التي كانت تناصره في موقعة كربلاء^٤ ومن ثم قام عبد الله بن الزبير — وهو ابن صاحبي

من صحابة الرسول — إلى مكة رافعا علم الثورة، وظل سنة كاملة لا يحفل به الخليفة، ولا يلتفت إليه استصحاباً لشأنه؛ ذلك أنه لما يغادر مكة إلى غيرها من البلدان، فلم ير له الخليفة خطراً يستحق أن يناؤه من أجله، ورأى أن من الحزامة أن يتركه وشأنه، حتى لا يثير عليه حفيظة المسلمين أكثر مما أثار من قبل — بلا حاجة — فلم تكن ثمة ضرورة قاهرة تضطره إلى إراقة الدماء في بقاع كانت — حتى في زمن الوثنية — حرمًا مقدسًا لا يمسه أحد بسوء.

ولكنَّ لكل شيء حِدَّاً، فقد صبر يزيد حتى عيل صبره، فلما لم يبقَ في قوس الصبر منزع، طلب إلى عبد الله بن الزبير — للمرة الأخيرة — أن يبأيه، فلما رفض امتنزج الخليفة بالغضب وأقسم أنه لن يقبل من هذا التأثير طاعة حتى يُؤتَى به بين يديه مكبلًا بالأغلال، ولما هدأت ثائرة الخليفة ندم على قسمه — وكان طيب السريرة — ففكر في وسيلة يبر بها في قسمه دون أن يمس كبرياء عبد الله، ثم استقر على أن يرسل إليه غلَّا من الفضة ومعه حلة فاخرة ليخفِّيه تحتها — إذا شاء — وبعث إليه برسل يحملون معهم هدايا ثمينة، فساروا من مقر ملكه دمشق حتى بلغوا مكة ولكن عبد الله رفض — بطبيعة — أن يقبل تلك الهدايا، وعثثاً حاول الرسل أن يتوصلا إلى إقناعه وإنزاله عن رأيه، فقد أصر عبد الله على عناده، لأنَّه كان يعتقد أنَّ كائناً من كان لن يفكِّر — بحال ما — أن يلْجأ إلى العنف والشدة معه وهو في تلك البقاع المقدسة، وكان هذا سر طمأنينته، وقد أكَّد له الرسل بصراحة أن الخليفة لن يعنُّف معه ولن يقدم على مثل ذلك العمل.

على أن عبد الله لم يكن أول من تعرض لغضب الخليفة ونقمته، فقد سبقه إلى ذلك ثوار المدينة، وكانت روح الشر مهيمنة عليهم في ذلك الحين، فقد وقعت بينهم وبين الوالي — حينئذ — خصومة بسبب النزاع على تملك بعض الأراضي، وأراد الوالي إزالة أسباب الخلاف — وكان ابن أخت الخليفة يزيد — فنصح سراة المدينة وأعيانها أن يذهبوا إلى بلاط الخليفة، فلما ذهبوا قابليهم الخليفة أحسن مقابلة وأكرم وفادتهم وتلطف معهم رغبة في أن يستمليهم إليه، ولكن يزيداً كان — على أدبه وبنبه — غير مشبع بروح احترام الدين الذي كان يمثله وهو خليفة المسلمين الأعظم، فبدرت منه آراء — عن غير قصد — صدمت بعض أصول الدين التي يقدسها أهل المدينة، فلما عادوا إلى بلادهم عادوا ساخطين وأخذوا يشهرون بال الخليفة ويدعونه عند مواطنיהם متآثرين بعامل الغضب وقالوا لهم: «إنه يشرب الخمر، ويعزف على الأوتار، ويصرف نهاره بين

كلاب الصيد — وقد كان محمد يمتحن ذلك أشد المقت — فإذا جن الليل جلس بين اللصوص وقطاع الطرق.»

يعنون بذلك البدو والأعراب الذين نشأ بينهم يزيد وترعرع، فلما كبر أدناهم من مجلسه.

وزادوا على ذلك أنه لا يصلي قط، وأنه جاحد، وعزوا إليه — فوق هذه التهم التي بنوها على أساس واهٍ أو متين — تهمًا أخرى لا أساس لها ولا وجود، وإن كان ذكرها مما يثير في نفس خصومه من أهل المدينة حفائظ وأحقادًا بعيدة الأثر.

وقد كانوا يميلون إلى تصديق كل تهمة تُلْصق بكل أموي، ومن ثم انقلب المسجد مسرحًا عجيبًا تصب فيه اللعنات على يزيد وأتباعه يزيد واجتمع أهل المدينة قاطبة — وهم صاحبون — فشرع كل واحد منهم يتجرد من شيء من ملابسه فيلقي به صائحاً: «إني أخلع يزيد كما أخلع قبائي هذا»، أو «عماتي»، أو «نعلي».

ثم طردوا كل من في المدينة من الأمويين وصدوا عن تعيين خليفة جديد لهم، فقد كان القرشيون الذين في المدينة لا يحبون أن يعترفوا بأهلهما، كما كان أهلهما كذلك لا يحبون أن يعترفوا بهم، فقر رأيهم على أن يتريثوا في تعيين الخليفة حتى يتم خلع يزيد!

واستحوذ عليهم عداء جنوني — لا يحدوه رشد — فلم يتبرروا عاقب هذا الاندفاع وكيف تقف مدينة واحدة أمام جيوش الإمبراطورية الإسلامية العظيمة كلها. ولقد حاول عبئاً أحد المدينيين — وكان قد عاش في بلاط الخليفة، ثم أوفده سيده إلى المدينة — أن يبين حقيقة الخطر لمواطنه ولكن الغضب أعماهم فأصبحوا لا يعيرون الناصحين التفافاً ولا يصيغون إلى أية موعظة تقدم إليهم بحسن نية.

وحيثئذ رأى الخليفة أنه مضطرب إلى الالتجاء إلى القوة، فأرسل إليهم جيشاً عهد بقيادته إلى «مسلم» — وكان «مسلم» أقرب إلى الوثنية منه إلى الإسلام — فأمره أن يترك لأهل المدينة ثلاثة أيام يفكرون فيها، فإذا أبوا أن يخضعوا — بعد ذلك — هاجمهم ودمروا مدينتهم تدميراً في ثلاثة أيام أخرى، ثم أخذ على من فيها الواثق بأنهم عبيد يزيد وأمرهم أن يقسموا على ذلك فإذا رفض أحدهم أن يفعل قطعت رقبته. ولم يك يبلغ أهل المدينة رسالته حتى هبوا تائرين أنفة من الخضوع وأعدوا عدتهم للقاء العدو، وجالد الفريقيان بشدة وصبر نادرين (وكانت موقعة الحرة سنة ٦٨٢)

وظهرت الخسائر من الفريقين متكافئة، وكان أهل المدينة متحمسين يذكى فيهم الحرارة والقوة تحببهم الشديد واعتقادهم الثابت أنهم المختارون، وأن أعداءهم — من جيش سوريا — هم عند الله كاللوثنيين سواء، وكانوا على يقين من أن خصومهم إذا ماتوا صبت عليهم اللعنات وباءوا بغضب من الله، أما هم فإنهم سالكون — بلا شك — مسالك الشهداء والأبرار.

وبقي مصير الحرب معلقاً في كف الأقدار زمناً طويلاً، حتى كشفت الخيانة عنه، فقد ارتشت أسرة من المدينين ففتحت أحد أبواب المدينة لفرقة من جيوش العدو، فدخل السوريون وسمع أهل المدينة من خلفهم — فجأة — صيحات النصر من أفواههم، فضاع كل أمل لديهم في الفوز والغلبة، وأصبحت المدينة في قبضة العدو، وصار كل هجوم عبئاً أو مستحيلاً، على أن جمهرتهم لم تفك في الخطر المحقق بها، فهجم أهل المدينة على أعدائهم فرادى وباعوا حياتهم بأغلى ثمن استطاعوا أن يبيعوها به! وكان من بين القتلى سبع مئة من حفظة القرآن وأربعة وعشرون من الصحابة، ولم يكن أحد من الصحابة الذين حاربوا مع النبي قد حارب بعد أن نصروه في حرب بدر على المكين حتى شهدوا هذا اليوم المشئوم، ودخل المدينة فرسان سوريا فلما لم يجدوا مكاناً يربطون فيه خيالهم ربطوها في مسجد المدينة — بين قبر النبي ومنبره — أي في نفس المكان الذي طالما سماه النبي نفسه: «جنة من جنان الفردوس».

ثم نهبو المدينة في ثلاثة أيام وسبأوا كل من فيها من نساء وأطفال، ولم ينج أحد من بقى من أهلها — وقد فر أكثرهم — إلا بعد أن أقسم أن يكون عبداً من عبيد يزيد. وهكذا أقسموا جميعاً على أن يكون الخليفة يزيد سيدهم ومولاهم، وأن يكون في حل من التصرف فيهم بما شاء، من عتق أو بيع، كما أقسموا أن يكون له الحق في كل ما تملك أيمانهم من نساء وأولاد وأزواج.

ولما رأى أبناء مؤسسي الإسلام أنهم مضطهدون معدوبون وأنبني أمية قد أرهقونه إرهاقاً، لم يجدوا أمامهم وسيلة إلا الهجرة، فهاجر الكثيرون منهم إلى حيث انضموا إلى جيش إفريقيا، ثم انضم أغلبهم — فيما بعد — إلى جيش العرب في إسبانيا، وكان «مسلم» مكلفاً أيضاً بإخضاع مكة، ولكن الموت عاقه عن تحقيق إربته، فأخذ «الحصين» — وهو أحد رجال جيشه — على عاتقه أن يحقق ذلك، فتولى قيادة

الجيش، وبدأ يحاصر مكة ويقذف الكعبة بالحجارة والصخور، حتى حطم عددها وقواعدها، ثم نجح أخيراً في إحراقها جملة، ولقي الحجر الأسود في هذه المرة أول نكبة حاقت به؛ لأنه لم يطق مقاومة النار، فتحطم أربعة أجزاء.

على أن مكة لم يتم إخضاعها، فقد حال دون ذلك موت يزيد وما أعقبه من الفوضى التي اضطررت الجيش إلى رفع الحصار والرجوع بالجيش تواً إلى سوريا، وبهذا استعاد عبد الله بن الزبير قوته، واستتب له أمر الخلافة في مكة وخارجها أيضاً.

ولكن المؤميين ما لبثوا أن تم لهم الأمر من جديد بعد أن تولى الخلافة عبد الملك وخضعت البلاد كلها له، ولم يتبق إلا مكة وحدها ثائرة، وفيها عبد الله بن الزبير فلما رأى عبد الملك ذلك وَجَّهَ إِلَيْهَا جِبْشاً بقيادة الحجاج، فذهب إلى تلك البقاع المقدسة، وحاصر المدينة، وطفق يرمي الكعبة بالصخور والحجارة ليدكها دگاً، وبينما كان يقذفها بالنار - ذات يوم - هبت عاصفة شديدة فأحرقت النار اثنى عشر جندياً، فرأى الجيش في ذلك عقاباً من الله على انتهاك حرمة ذلك المكان المقدس، فأحجم رجال الحاج وكفوا عن ذلك.

فاغتاظ الحجاج وخلع بعض ملابسه، وتقدم إلى المنجنيق فأخذ بيده حجراً ووضعه فيه، ثم حرك حباليه بعد ذلك، وهو يقول: «لقد أخطأتم الفهم، فليس معنى ما حدث هو ما فهمتموه، ألا إنني لخبير بطبيعة هذه البلاد، وفيها ولدت، وكم رأيت لهذه العاصفة أشباهاً لا تحصى!»

وظل يشدد الحصار عليها بقوه عدة أشهر، ثم أخذت بعد أن مات عبد الله بن الزبير سنة 692 م.

وهكذا لم تهأ هذه الفئة المناوئة للإسلام ولم تنجح صدورهم إلا بعد أن تَمَّت لهم الغلبة على أنصار هذا الدين وظفروا بتفويض معالله وإذلال أهل الدينين المقدستين وتحويل مسجد المدينة إصطبلًا لخليهم وإحراق الكعبة، وتحقير سلالة المجاهدين الأولين الذين عَزَّ بهم الإسلام وانتصر.

وقد عرفت تلك الأقلية العربية - التي اضطُرَّت إلى الإسلام اضطراراً وأكرهت على الدخول في هذا الدين إكراهاً - كيف تثار لنفسها حين ستحت لها فرصة الانتقام فتقاضتهم ثمن الفوز مضاعفاً وشفت به غلة صدورها المكلومة.

أنصار الرجعية

ولم يكن عهد الأمويين إلا عهداً تتمثل فيه الرجعية والانتصار للوثنية، وكان خلفاء بني أمية أنفسهم — إلا القليل النادر منهم — لا يُعنون بنصرة هذا الدين ولا يخلصون له، وقد تجاوز الوليد الثاني — وهو أحد هؤلاء الخلفاء — كل حدٍ في الإزراء بهذا الدين، وطروح به استهتاره إلى أبعد مدى، فاعتراض عن صلاة الجماعة بصلاتٍ جواريه، ومحاكاة سراريته، ولم يحتمل عن تحرير كتاب الله بالنশابٍ. ولم يكن راضياً عن إسلام الشعوب الجديدة التي دخلت في هذا الدين أهواجاً من سوريين وأقباط وفرس وبربر شمال إفريقيه؛ لأنه كان يرى في ذلك شرًّا مستطيراً على خزانة الدولة، فقد كان القانون يفرض الضرائب على غير المسلمين الذين يعيشون في ظل الحكم الإسلامي، فإذا أسلموا سقطت عنهم الجزية وأعفوا من أداء تلك الضريبة التي فرضها عليهم القانون.

وقد ساعد ذلك على انتشار الإسلام، وشجع الناس على الدخول في هذا الدين، وتغلبت المصلحة على العقيدة ودان بالإسلام ملابين من الناس الذين آثروا المال على كل شيء.

والحق أن انتشار الإسلام بين هذه الجماهير والشعوب قد أرهق بيت المال، فقل الإيراد حتى اضطر الخليفة إلى مضاعفة الجزية تقريراً، فقد كان الخراج في مصر في عهد الخليفة عثمان أكثر من نصف ما وصل إليه بعد زمن قليل في خلافة معاوية وكان السبب في ذلك أن جمهرة كبيرة من الأقباط دخلوا في الإسلام، وكان فريق منهم يتظاهر بالإسلام من غير أن يعتقده، وفريق آخر ارتضاه دينًا له هريراً من دفع الجزية المفروضة عليه، وثمة رأى الخلفاء ألا يُعفوهم من تلك الضريبة متعللين بأنهم لم يدخلوا حظيرة هذا الدين إلا طمعاً في إعفائهم منها، وأنهم لا يقومون بتنفيذ أحكام الدين والأخذ بتعاليمه.

عمر بن عبد العزيز

ولم يشذ من بين هؤلاء الخلفاء إلا الخليفة عمر الثاني — عمر بن عبد العزيز — ذلك المسلم الورع التقى الذي آثر نصرة الإسلام على كل شيء، والذي احترق المال، وزهد فيه كل الزهد، بعد أن امتلاً قلبه بالإيمان، فأصبح لا يهمه إلا أن ينتشر الإسلام ويدين به كل إنسان.

ولم يكن عماله يرتكبون النزول على هذا المبدأ الجديد لأنه يهدم النظام الذي ألغوه، ويقوض صرح بيت المال.

وقد كتب إليه أحد عماله — في هذا المعنى — يقول: «لو دامت الحال على هذا المنوال لدان بالإسلام كل مسيحي، ولم يشد منهم أحد، وبذلك تفقد الدولة كل دخلها». فأجابه عمر: «لو تم ذلك لتمت لي أسباب السعادة كلها، فليست لنا غاية نسعى إليها إلا نشر هذا الدين بين الناس كافة، وقد بعث الله نبيه مبشرًا بالإسلام وداعيًا إليه ولم يبعثه محصلًا للمال، ولا جابيًا للضرائب..».

وهكذا أجاب عامله كما أجاب عامل خراسان الذي شكا إليه إقبال الفرس على هذا الدين لا عن رغبة فيه، بل فرارًا من دفع الضرائب، وأية ذلك أنهم يدخلون الإسلام ولا يُختنون.

فأجابه عمر: «لقد أرسل الله نبيه ليهدي الناس إلى الدين الحق، ولم يرسله ليفرض عليهم الختان.»

وهو بهذا لم يكن صارمًا في تطبيق أصول الشريعة، ولم يكن يجهل أن أكثر من دانوا بالإسلام كان ينقصهم الإخلاص والصدق، ولكنه على ذلك كان يرى — وهو على حق فيما رأه — أن أبناء هؤلاء المتظاهرين بالإسلام وأحفادهم سينشئون في ظل الإسلام وال المسلمين، ويشبون في أحضان هذا الدين، وتشربه دماؤهم فيصبحون مسلمين يخدمون الإسلام وينصرون كلمته، وربما ظهر منهم من هو خير من المسلمين أنفسهم.

قواعد الإسلام

أما سواد هؤلاء الذين دخلوا في الدين أفواجاً، فقد كان في عهد الأميين لم يتعد أولى مراتب هذا الدين وهي الإسلام، فإن لهذا الدين ثلاث مراتب يفسرها الحديث المأثور عن النبي.

فقد حدث: أن جبريل جاءه - ذات يوم - في زي عربيٍّ، وحياه وجلس إليه، وأدنى ركبته حتى مسّت ركبة النبي، وسألته: «ما الإسلام يا رسول الله؟»^١ فأجابه محمد ﷺ: «الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً».

فقال له: «صّدقت، وما الإيمان؟»
فقال له: «الإيمان هو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقضائه في الخير والشر».

فقال له: «صّدقت، وما الإحسان؟»
فقال له: «هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه يراك».

واثمة ترى أن الإسلام يدل على إيمان خارجي بحت، وهو مراعاة قواعده الخمس الجوهرية.

وقد كان المسلمين في عهدبني أمية قد وصلوا إلى هذه المرتبة، على أن كثيّاً منهم كان يؤمن بالله، ولكنه ينكر الوحي.

وقد أشار إلى ذلك القرآن بقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^٢.

وعلى كل خلاف في ذلك بين العرب وخلفائهم وعلى ما بذلوه من جهد قليل في نشر هذا الدين للتغلب على عادتهم في محاربة انتشاره وإذاعته، بدلاً من الترويج له، فإننا نرى أن الإسلام قد انتشر بسرعة مدهشة بين تلك الشعوب التي غزوها، وهذه ظاهرة لم ير لها العالم مثيلاً من قبل، وهي تبدو – لأول وهلة – لغزاً مستسراً لا سبيل إلى حله وتعليله، لا سيما إذا عرفنا أن هذا الدين الجديد لم يُكره أحداً على الدخول فيه.

وقد كان محمد ﷺ يأمر بالتسامح والإغضاء، وقد وضع للمسلمين قاعدة الجزية وفرضها على كل من لم يدين به من أهل الكتب المنزلة من يهود ونصارى، فمنهم حريتهم الدينية على أن يدفعوا ما فرضه عليهم من الجزية، وزاد في تسامحه فمن هذه الميزة لمن يقطنون إقليم البحرين من المشركين.

وجاء من بعده عثمان فخطا خطوة جديدة أخرى، فاعتبر ببر شمال إفريقية كاليهود والنصارى وسكان إقليم البحرين.

ولسنا نعرف – على الحقيقة – شيئاً عن ديانة هؤلاء البربر القديمة إلا معلومات تافهة ضئيلة لا تغنى شيئاً، ولن نعدو الصواب إذا قلنا إننا نجهل كل شيء عن هذه الديانة القديمة.

على أننا إذا أخذنا بالحكم على طبع الشعب وخلقه واتخذنا من ذلك مقاييساً للحكم على ديانته استطعنا أن نستنتاج أن ديانة البربر القديمة كانت أقرب إلى أن تكون كهنوتية منها إلى أن تكون إلهية.

ومهما يكن من أمر، فليس ثمة مجال للشك في أن البربر لم يكونوا أهل كتاب مقدس قط، وعلى هذا نرى – في جلاء ووضوح – أن التسامح الديني قد وصل في هذه الطريق إلى آخر مداه، إن لم نقل إنه أربى على ما كان يرمي إليه النبي.

أضف إلى هذا أن الحكم الإسلامي كان يتلوى التيسير والخير العام والبر بالشعوب المحكومة لا سيما النصارى، فقد كان سواد المسيحيين في الشرق ينتمي إلى مذاهب لقيت من اضطهاد حكومة القسطنطينية وإعانتها ما أرهاق أصحابها إرهاقاً، فلما جاء الإسلام – ومن طبيعته التسامح والإخاء – ترك لهم الحرية التامة في البقاء على دينهم ما داموا يؤثرونها على غيره من الأديان، وظللهم بحمايته، وسوى بينهم في الحقوق، على اختلاف مذاهبهم وشتى نحالم.

ولا تننس أنهم كانوا مضطرين إلى دفع ضرائب فادحة للإمبراطور الروماني، فلما جاء الإسلام ألغوا مذاهباً منها، ولم يفرض عليهم إلا جزية معندة لا ترهق أحداً، ومتي

عرفت هذه الأسباب زالت دهشتكم وعجبكم من إيثارهم حكم المسلمين على حكم الرومان واندفعهم إلى مساعدة العرب في فتوحاتهم بكل قلوبهم بدلاً من مناؤتهم والتألب عليهم.

أسباب انتشار الإسلام

وإذا كان ذلك كذلك، فما بالهم لم يبقوا على دينهم؟ وأي شيء حفزهم إلى الدخول في هذا الدين الجديد من غير أن يكرهوا على الدخول فيه، وهم يعلمون أن إسلامهم لا يرتاح إليه ملوكهم؟

لقد تضافرت أسباب عدة على الوصول إلى هذه النتيجة، وقد ألمتنا — آنفًا — إلى ما يعود عليهم من الفائدة المادية إذا أسلموا؛ لأن إعفاءهم من الجزية — على اعتدالها — كان ممّا يرغبهم في الإسلام.

أضف إلى هذا ما يشعرون به من الكرامة الشخصية إذا أسلموا وأصبح لهم من الحقوق ما للمسلمين.

نعم كان المسلمون متسامحين، ولكنهم لم يزيدوا على ذلك شيئاً، فقد كانوا — على تسامحهم — لا يضعون المسيحي والمسلم في صف واحد، بل ينظرون إلى النصراني كما ينظرون إلى جنس منحط.

وقد سن عمر لهم قانوناً يحوي إذلالهم ومهانتهم بين طياته، فلم يسمح لهم بإنشاء الكنائس والمعابد، بل حرمهم حتى بناء الأديرة الصغيرة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تعدّاه — بعد قليل — إلى ما هو شر منه، فقد حظر عليهم تجديد بناء الكنائس التي تهدم — وإن لم يتمسّك المسلمون بتنفيذ هذا الشرط دائمًا — وقد أباح القانون للمسلمين أن يدخلوا الكنائس في أي وقت شاءوا ليلاً أو نهاراً، وحتم على المسيحيين أن يفتحوا أبوابها للمسافرين من المسلمين ليل نهار، وشرط عليهم أن يقدموا الطعام لضيوفهم ثلاثة مرات في كل يوم، وحظر عليهم أن يرفعوا الصليبان على كنائسهم، وأن يبيعوا الكتب المقدسة في شوارع المسلمين، كما حظر عليهم إقامة الصلاة وترتيل الأناشيد الدينية في الكنائس بصوت مرتفع إذا كانت قريبة من بيوت المسلمين، وأمرهم أن يشيّعوا موتاهم إلى قبورهم في صمت وسكون، وألا يوقدوا شموعاً أمامهم متى وصلوا إلى الأحياء الإسلامية.

كما حرم عليهم التعصب لدينهم والتعرض بأي سوء لمن يتحول عنه إلى الإسلام، وفرض عليهم احترام المسلمين في كل فرصة أو مناسبة، فإذا جلس المسلم وجب على المسيحي أن يقوم.

وشرط عليهم أن يحتفظوا بأزيائهم ولا يتزيوا بزي المسلمين ليتميزوا للناظر عليهم، ولم يُعفِ مسيحيًا من شد الزنار إلى وسطه، وحرم عليهم أن يتحدثوا بالعربية أو ينقشوها على أختامهم.

ولم يُبْحِث لهم أن يتخذوا لخيولهم سروجًا أو يتقدوا سلاحًا أو يستخدموا مسلماً عندهم.

ولا ريب أن هذه الشروط لم تكن تطبق بحذافيرها — في أول الأمر — إلا في أحوال استثنائية نادرة؛ لأن الولاة المنوط بهم تنفيذها كانوا على جانب كبير من التسامح والعدل والرحمة، فلم يبالوا بتنفيذ هذه الشروط القاسية، وقد وصل بهم التسامح إلى حد انهم كانوا يرمون معاهدات — في بعض الأحيان — بينهم وبين المسيحيين تعفيهم من تنفيذ أكثر هذه الأمور.

ومهما يكن من أمر فقد كان مركز المسيحيين عند المسلمين يكاد يكون مماثلاً لمركز اليهود في أوروبا إبان القرون الوسطى.

وهو المركز الذي لا يزال يضعهم فيه السواد الأعظم من الناس، فقد كان سادتهم ينظرون إليهم باشمئزاز واحتقار ويعذونهم من الأنجاس، فلا يتحدث مسلم إلى مسيحي أو قسيس — على الأخص — إلا عن بعد حذرًا من ملامسته كي لا يدنس ثوبه.^٣

ومتى دان المسيحي بالإسلام تظهر من رجسه كما يتظاهر اليهودي عندنا حين يدين بال المسيحية بعد أن نعمده، ثم يصبح إلى حد ما على قدم المساواة مع المسلمين.

أقول إلى حد ما لأن مسلمي العرب دائمًا أرستقراطيون لا ينظرون إلى المسيحي — حتى بعد إسلامه — إلا نظرة السيد، ولا يخاطبونه إلا من حلق، على أن إسلام المسيحي كان الخطوة الأولى إلى الكرامة والشعور بالعزّة، والزمن وحده كفيل بتحقيق ما يليها من الخطوات، ولن يثبت ابن المسيحي أن يصبح مسلماً أصيلاً يتمتع بكل ما يتمتع به العربي من عزة وكبراء.

معجزة الإسلام

أضف إلى هذا أن انتقال السوريين والمصريين من المسيحية إلى الإسلام لم يكن عسيراً شاقاً فقد كانوا - على الحقيقة - يجهلون من أمور دينهم كل شيء؛ لأن الجهل في تلك العصور كان ضاراً بجرانه، وقد اقتبس الإسلام كثيراً من أصول المسيحية - اقتباساً مباشراً أو غير مباشر - ولا تننس أن عقيدة الحساب كانت ذاتعة في القرون الوسطى، وقد كان لها أكبر الأثر في نفوس الناس، وكانوا يؤمنون بأن الغالب لا بد أن يكون على حق، وكانوا يتساءلون مدهوشين: «لو صح ما قاله القساوسة من أن محمدًانبي منافق كذاب، فكيف نعلل انتصاره، وما بال فتوحات أتباعه تترى وتتلوا إحداها الأخرى، وما بال انتصاراتهم على الشعوب لا تقف عند حد؟ وكيف لا يدل ذلك على معجزة هذا الرسول؟»

ولقد كانوا يعتقدون - أول أمرهم - أن خذلان المسلمين سيتم بمعجزة قريبة، فقد طالما سمعوا عن معجزات الكنيسة التي كانت تحدث لأقل مناسبة، وانتظروا هذه المعجزة التي تخلص البلاد المسيحية من غزوات المسلمين، ولكن انتظارهم تلك المعجزة قد طال وذهب صبرهم أدراج الرياح، وعيثاً حاولوا وقوع هذه المعجزة. وهكذا أصبح الاعتقاد بوقوع المعجزة، الذي طالما روجت له الكنيسة وغلت في الدعاية له أكبر نكبة حاقت بها وطوطحت بنفونها.

وأعجب من ذلك أن المعجزة - إن لم نقل المعجزات - قد حدثت حقاً في ذلك العصر، وكانت معجزات أعظم مما كان يتوهمه القديسون أنفسهم؟ وأي معجزة أروع وأعجب من أن نرى شعباً كان إلى زمن قليل في غيابة من الخمول، ثم ظهر إلى الدنيا فجأة، وظل يتقدم بسرعة لا مثيل لها وهو يغزو الأرجاء الفسيحة، وينتصر على قطر بعد قطر فتدين له البلاد بالطاعة والولاء، وتقبل على دينه من كل حدب وصوب، راضية غير مكرهة.

ولو أننا عززنا إقبال المسيحيين على الإسلام إلى الفائدة الشخصية أو الرغبة في التخلص من الذل والضعة، فنحن جديرون أن نقرر أن من الثابت المحقق أن كثيراً من المسيحيين دانوا بالإسلام عن عقيدة وإيمان.

دين الفرس

وأهم من ذلك أن الفرس أقبلوا على هذا الدين الجديد ودخلوا فيه أفواجاً وآمنوا به مخلصين عن ثقة ويقين.

فإن الديانة الفارسية العتيقة التي نشأت من انشقاق البرهمية قد أسسها زرّواستر وزاد انتشارها بفضل من خلفه من الكهان، قد فقدت قوتها وقداستها بعد أن خضعت بلاد فارس للعرب.

ولقد غزا «إسكندر» بلاد الفرس من قبل، فلم يصبح هذا الدين دين الدولة، ويظهر أنه لم يستطع أن ينهض بعد هذه الصدمة. ولا جرم أنه وجد نصيراً وعوناً عندبني ساسان، فقد دأبت هذه الأسرة جادة في الاستيلاء على العرش في القرن الثالث بعد الميلاد المسيحي، واستطاعت أن تستميل الشعب إلى مناصرتها وتأييدها بعد أن أخذت على نفسها عهداً بإعادة المجوسية. وكان رئيس هذه الأسرة كثيراً ما يقول: «إن العرش في عون المذبح، كما أن المذبح في عون العرش».

ولم يجد من خلفوه أيضاً سلاماً إلا بعقد معاهدة وثيقة بينهم وبين كهنة الزرّواستر.

وعلى الرغم من حماية هؤلاء الملوك، فإن المجوسية لم تجد قط حياة قوية لها؛ ذلك لأنه شعر بمؤثرات خارجية قوية وآراء وأفكار جديدة نجح في إدخالها إغريق ومسحيون، وكان كسرى أنوشروان قليل التبصر في هذا الأمر إذ قبل حوله فلاسفة من الإغريق الذين كان يضطهدتهم جوستانيا، وأمر بترجمة كتب أفلاطون وأرسطو.

وبعد زمن قليل — ولعله كان في عهد حكم الإغريق والهند — ذهب مبعوثون من البوذيين^٣ ينشرون تعاليمهم في أرجاء فارس، وكانوا يقولون: إن بوذا رسول من عند الله و وسيط بين الخالق والملائكة، وإن واجب الإنسان هو ألا يعيش لهذه الحياة الدنيا، بل يعيش للسماء^٤.

وهكذا نشأت هذه الشيع التي كانت ترمي إلى إدخال عناصر إصلاحية لترقية المجتمع، ومزجت — في طياتها — اعتقادات جديدة في ديانة المجوسية، فأضافت إليها التقمص أو التناصح، وهو من معتقدات البراهمة^٥ والوحى الذي أوحى به الله للإنسان الأول، وهو من معتقدات البوذيين، واعتقاد أن الزمن غير محدود، وأنه هو الله العلي الأعظم، والإيمان بأن الله (تعالى) يتقمص في شخص الملك الحاكم^٦ ... إلخ.

وهذا من اعتقاد البوذيين أيضاً، وقد تفرع عن هذه الملل كثير من النحل.

وجماع القول أن بلاد الفرس كانت مسرحاً لكثير من التخرصات الدينية، حيث التقت فيها أخلاق المذاهب المختلفة وأمشاج من النحل المتباعدة، ووُجِدَت في هذه البلاد حقلًا خصباً لازدهارها.

وقد انتهت هذه المقدمات بالنتيجة الطبيعية المنتظرة فظهرت بينهم فئة آثرت تحكيم العقل، فأنكرت كل عقيدة، وظهرت فئة من الطبيعين، وهو دين قديم من أديان الفرس، وكان من تعاليمهم حب التعذيب، والدعوة إلى قهر النفس، وكبح جماح الشهوات والعمل على ترقية النفس الإنسانية ورياضتها على الصبر والجلد.

وكانوا يؤمنون — إلى ذلك — بـكائن أعلى ويدينون بقدرة الله وخلود الروح بينما غيرهم لا يعتقد ذلك، وهم أحرار الفكر يبيحون لأنفسهم أقصى مدى من الحرية. وعبيًا حاول الملوك والكهنة مجتمعين أن يتآلوا على هدم هؤلاء المبتدعين الذين يروجون البدع الدينية، وأن يقضوا على أولئك المستسلين الجراء، ويبينوهم بالسيف والنار.

فكانت نتيجة هذا الاضطهاد شرور نار الثورة ضد رجال الدين والحكومة، وكانت هذه الثورة مما سهل على العرب غزو بلاد فارس التي كان قسم كبير منها تابعًا للإمبراطورية الرومانية.

وممّا ضاعف الخطر وسع الهوة، انقسام الكنيسة نفسها، فإن أحد الفريقين وهم المجوس الذين كانوا أكبر قوة في القسم الغربي من الإمبراطورية، أي في «ميدي» وفي «فارس» تمسكوا بكتاب «أقستا» وتشبّهوا بنصوصه المقدسة.

وقام الفريق الثاني وهو فريق الزنادقة وسواهم في «بكنزيان» وذهبوا إلى الأخذ بكتاب «الزند»، وهو التفسير المجازي لكتاب «أقستا» المقدس. وقد تمسك به كثيرون كما تمسك سواد الفرس — بعد ذلك — بالقرآن، فلم يبق في بلاد فارس من يدين بالمذهب الأول القديم إلا الأقلون عدًّا.

هكذا كانت حال البلاد الفارسية عندما فتحها العرب حيث ضاعت ديانة المجوسية — من جديد — ضياغاً أبديًّا، فلم يُنْجَح لها القيام من كبوتها بعد هذا العصر، ولم يقدر لها أن تعود دينًا للحكومة.

ولقد كان الفتح أكبر ضربة قضت على هذه الديانة، ولم يكن من ذلك بد؛ لأن الكنيسة والعرش كانوا متحدين اتحادًا وثيقًا، وكان سقوط أحدهما رهناً بسقوط الآخر.

على أن المجوسية لم يُقضَّ عليها بسرعة، فإن كثيراً من الفارسيين ظلوا مؤمنين بها، ولم تخل قرية في بلاد فارس – إلى القرن العاشر – من معبد للنار، ولكن عدد المنتدين إلى هذا الدين كان آخرَ في النقص يوماً بعد يوم، ودخل المتندين والملحدون في دين الإسلام أفواجاً، وانضمت المصلحة الشخصية إلى ترويجه والإقبال عليه، فدان به الفارسي – أسوة بالمسيحي – ليعفى من دفع الجزية.

أضف إلى هذا أنه كان يطمح إلى الكرامة وهو مزهُوٌ مختال ب الماضي المجيد، ولم يكن في وسعه أن ينجو من الزرارة والامتحان بعد الفتح الإسلامي، إلا إذا دان بالإسلام ليحفظ كرامته وكبرياته موفورين، وبهذا وحده استطاع أن يُساهم في الحكم، ولم يكن الانتقال إلى الإسلام – كما أسلفنا آنفًا – بالأمر العسير.

وهكذا انتقل الإسلام إلى بلاد «فارس» في محيط من الآراء، لم تكن كلها غريبة على هذه البلاد، بل كانت على العكس مألوفة لها، فقد كانت الديانات تحويان أصولاً مشتركة بينهما، وكان للإسلام نقط اتصال كثيرة يلتقي فيها مع نحل الملحدين وشيعهم، مثل مذهب «مانى» الذي يدين به المانويون، ومذهب «مزدك» الذي يدين به المزدكون، وقد أثرت المسيحية في هذين المذهبين كما أثر فيهما الإسلام.

وكان إسلام الفارسيين عظيم الخطر جليل النفع على الدين الإسلامي، فقد نهض بالإسلام إلى حدٍ ما، ولئن رأينا من مسلمي العرب قلة اكترااث بالدين، فإننا نرى الفرس – على عكس ذلك – يلتهبون غيرة وحماسة لنصرة هذا الدين.

وقد ألف الفارسيون – إلى ذلك – ممارسة العلوم، ومعاناة البحث العویصة، وطبعوا على التمحیص، فلما أسلموا ظهر من بينهم واضعوا أساس «اللاهوت» الإسلامي، وقد قال المؤرخ ابن خلدون: «إن أغلب الحفاظ الذين استظهروا الحديث والدين وأعدهم نفعاً على الإسلام، كانوا من الفرس، وقد نقلواها إلى الفارسية، وتوفروا على درس القرآن وبرعوا في تفسيره والتفقه فيه».

ومن ثمَّ نرى أن الإسلام قد أصبح – بفضل الفرس – قوة عظيمة الخطر في العالم، ولم يكن ليتاح له أن يصل إلى هذه الذروة بفضل جهود العرب وحدهم. ولقد كان تاريخ الإسلام – أعني تاريخ نشأته وانتشاره ونموه – مماثلاً تاريخ البوذية والمسيحية، فقد نشأت البوذية في الهند، وماتت في مهدها وصرعتها البرهمنية، ولم تطق البوذية أن تصمد لها في نصالها، ولكنها – مع ذلك – انتشرت في بلاد أخرى كالصين وسیلان والتتر واليابان، وما وراء «الجنج».

كذلك نرى أن المسيحية لم تظفر بالحياة في مهدها، فقد أنكرها اليهود، ولجأوا في مناؤتها — مع أنها وليدة الموسوية — ولكنها على ذلك قد ذاعت خارج موطنها ودان بها الرومان، وإن كان تدينهم اسمياً، وفتن بها شعب ثالث وهو الشعب الجermanي حيث لقيت بين ظهرانيه كل إقبال وترحيب.

ولسنا ننكر خطر الإسلام واستقامة مبادئه ونفعها وإن كان يحوي — على ذلك — ضرراً جسيماً، فإن أكثر من دانوا به لم يكونوا مخلصين في اعتقادهم، وثمة رأينا كثيراً منهم يطردون أبواب الكنائس ويأوون إليها، وهم غير معتقدين بالإسلام، وإن تظاهروا به رغبة فيما يلقونه من كرم الوفادة وحسن الضيافة.

ولقد كان الداخلون في حظيرة الإسلام فريقين، فريقاً يرى أن الإسلام أيسر مما يطلبون لأنه لا يمنح المؤمنين به ما تطمح نفوسهم إليه، وفريقاً يرى أنه أصعب مما يط intoxون لأنه يفرض عليهم أكثر مما يحتاجون إليه.

فأما الفرس فكانوا من الفريق الأول — وقد أفوا دينًا معقدًا — فلما جاء الإسلام وجدوه أيسر وأبسط مما أفوه، ورأوا تعاليمه جافة شديدة الجفاف بعيدة عما أفوه من خيال خصب بهيج.

أما سواد المفكرين الأحرار فقد وجدوا هذا الدين شاقاً شديداً العسر — على ما فيه من تيسير وتسهيل — وهكذا وجدوا كل دين آخر عسيراً شاقاً، ما دام يفرض عليهم بعض القيود، فلم يرضوا عن الإسلام ولا عن غيره من الديانات.

وثم نرى نزعتين باديتين في الشيع الإسلامية، إحداهما ترمي إلى اقتباس التعاليم الدينية من الأديان الأخرى، والثانية تنزع إلى انتهاز الفرصة للتخلص من أكثر أوامرها ونواهيه، وتحوير نصوص أحكامه حتى يصبح وفق رغباتهم وأهوائهم.

وكان هاتان النزعتان تمثيان أحياناً جنباً إلى جنب، فقد عرف الجاحدون كيف يستقيدون من المتشددين في العقيدة، وتضافرت المصالح الشخصية والمأرب السياسية على ذلك، ورأى الفرس أن يسلكوا كل وسيلة للتخلص من نير الاستعباد، وفكروا في مواصلة العمل على استقلال فارس.

وفي كل مكان في الدنيا نرى الشّيّع والّنّحّل في كل زمن تنشأ لغاية سياسية أكثر منها دينية، ولا تحوي الفصول التالية جميع هذه المذاهب، بل تشير إلى أعظمها خطراً وأكبرها أثراً، فليس من همنا أن نذكر تاريخ الشّيّع والّنّحّل، وبحسبنا أن نتتبع النزعات السياسية مغفلين منها ما لا خطر له.

وقد كتب المؤلفون المسلمين في هذا الصدد مدفوعين باعتبارات دينية عن الإسلام وقرروا عكس ما نقرره، فإذا قامت الشبهة قوية في الإسلام لجئوا إلى اختراع تقليدي — ولا جرم أنه تقليدي — من مقتضاه أن النبي ﷺ قال: «تنقسم أمتي إلى ثلات وسبعين شعبة اثنان وسبعين منها هالكة وواحدة ناجية».

وقد أضافوا إلى هذا أنه كان للزرواستر سبعون شعبة، ولليهود إحدى وسبعين شعبة، وللمسيحية سبعون، ثم ذهبوا إلى قياس عظمة الدين إلى عدة ما يحويه من شعب.

وهذه البدعة التي نعدها غريبة مردها إلى قيمة رمزية، فإن العدد المقدس: وهو يبدأ من سبعين إلى اثنين وسبعين كان في آسيا — منذ أقدم العصور — متداولاً نظراً لقيمة الرمزية.

وقد رد الباحثون أصل ذلك إلى الفلك، فعدد سبعين هو خمس أيام السنة القمرية القديمة، وعدد اثنين وسبعين هو خمس أيام السنة الشمسية.

وقد أخذت هذه الفكرة من الديانة الموسوية، وفي كتاب «ياسنا» فيما أعرف — أقدم مثال ذكر فيه هذا العدد — فهذا الكتاب يحوي اثنين وسبعين باباً، وذلك التقسيم — كما يقول «هوج» — لم يكن جزافاً، بل وضع عن خبرة وتقدير؛ فإن البابين في هذا الكتاب وهما الواحد والستون والثاني والسبعون متشابهان، والباب الثامن عشر لا يحوي غير أشعار من قسم «الغطاس» في كتاب «ياسنا».^٨

وبعبارة أخرى ترى أن كتاب «ياسنا» قسموه في أول الأمر إلى سبعين باباً (خمس أيام السنة القمرية) ثم مضى على هذا التقسيم زمن طويل، فقسموا هذا الكتاب بعد ذلك إلى اثنين وسبعين باباً (خمس أيام السنة الشمسية) وفي العهد الذي نفي فيه «بابليون» تسرّبت هذه الفكرة إلى اليهود مع غيرها من جمهرة الأفكار الأخرى.

ثم انتقلت بعد ذلك — مع الزمن — من اليهود إلى المسلمين. وكان المسلمون يجهلون أصل هذه الفكرة، وقد كانوا خلقاءً أن ينسبوا تلك الرموز العددية إلى كتاب «ياسنا»، بل ما كان أجردهم أن ينسبوها إلى مصادرها الأربع التي أخذت عنها وأصبحت عدداً أكبر من رقم ٧٢ وقد عناهم أن ينسبوا إليهم وحدهم هذا الرقم.

ومتى أقررنا ذلك أصبحنا جديرين ألا نأخذ بهذه الأرقام وألا نتشبث بحرفيتها، وإن أبي رجال الالهوت من المسلمين إلا أن يتثبتوا بها ويؤمنوا بصحتها، وقد تم لهم ذلك ورأوا من واجبهم أن يصلوا بالفرق الإسلامية إلى هذا الرقم.

على أن لحظة من لحظات الروية والتفكير كانت جديرة أن تفهم على خطل هذا الرأي وأفنه. ولنأخذ الشهريستاني مثلاً للتدليل على صحة ما نقول – وهو من رجال القرن الثاني عشر – فقد تأثر بهذا الرقم ٧٣ وما كان أجدره أن يتريث ويمنع الفكر ويطيل الروية ليعلم أن هذا العدد عرضة للزيادة والنقص – كما أثبتت الحوادث صحة هذه النظرية في المستقبل – ولكنه أثر التثبت بهذا الرقم، وقد جره ذلك إلى نتيجة تافهة قليلة الخطر، ولم يصل به تمسكه بهذا الرقم ٧٣ (لا أكثر ولا أقل) إلى غاية محمودة موفقة.

ولو أنه أطّال الروية لأمن العثار والزلل كما أمنه من جاء بعده من الباحثين الذين لم يبهر أبصارهم هذا الرقم الخلاّب.

والحق أن هذا الرقم الخاطئ ٧٣ وهذا الرأي المأفون الذي دفعهم إلى التثبت به قد وصلـاـ بـمـنـ أـخـذـ بـهـمـاـ إـلـىـ نـتـائـجـ مـعـتـسـفـةـ شـوـهـتـ تـارـيـخـ إـلـاسـلـامـ إـلـىـ مـدـىـ بـعـيدـ،ـ وأـدـخـلـتـ فـيـهـ مـنـ أـلـوـانـ التـعـقـيـدـ وـالـغـمـوـضـ مـاـ أـفـسـدـ بـسـاطـتـهـ وـيـسـرـهـ.

وقد وجد – لحسن الحظ – مؤلفون جاءوا بعد الشهريستاني، ورأوا – كما رأى الشهريستاني – أن يميزوا هذه الشيع فيجعلوها قسمين، مللاً ونحلاً.^٩ وبهذا التمييز أصبحنا ندرك المذاهب الأصلية وما نشأ عنها من الفروع.

الهوامش

ديانة العرب في الجاهلية

(١) وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

وكالسيف — إن لايته — إن خاشنته — خشنان
وحَدَاه — إن متنه

(٢) الثنوية دين المجوس الذين أثبتوا — كما يقول الشهيرستاني — أصلين اثنين مؤثرين قد ينتميان، يقتسمان الخير والشر، والنفع والضر، والصلاح والفساد، ويسمون أحدهما: النور، والثاني: الظلمة، وبالفارسية: «يزدان» و«إهرمن» وهذا رأي من يدينون بالثنوية والمانوية، وقد أشار المتنبي إلى ذلك في قوله من قصيدة مدح بها سيف الدولة:

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب

(٣) يعني الأوربيين.

(٤) ارجع إلى كتاب «دوзи»: «الإسرائيليون في مكة».

(٥) كان العرب يعتقدون بوجود الله ويعتقدون أن شئون الكون كلها بيده كما ترى في الكتاب الكريم في قوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ نَحْنُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وقوله في آية أخرى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَقَوَّنَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلْكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ فَإِنِّي شَسَّحَرُونَ﴾.

(٦) قال (تعالى): ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

(٧) قال أبو العلاء على لسان جنى، في رسالة الغفران:

فتارة أنا صل في نكارتة
وربما أبصرتني العين عصفورا
نلوح للإنس حولاً أو ذوي عور
ولم نكن قط لا حولاً ولا عورا

(٨) بعض الأساطير عن الجن

افتنت رواة العرب وشاعراؤهم في رواية الأساطير الرائعة عن الجن، ولعل أجمل ما قرأتناه في ذلك هو تلك القصة البديعة التي تخيلها أبو العلاء في رسالة الغفران بين ابن القارح وشيخ من أدباء شيوخ الجن وقد أثبتناها في كتاب أساطير ألف يوم وفي هذه القصة يرى القارئ حواراً ممتعاً لا نغالي إذا قلنا إنه منقطع النظير في العربية كلها، ومن أجمل ما نختاره من تلك القصة قول الجني – وهو يقص على ابن القارح بعض ما حدث له في الدار الأولى:

خوداً، وبالصين أخرى بنت «يغبورا»
في ليلة قبل أن أستوضح النورا
إلا وغادرته ولها مذعورا

وكنت ألف من أتراب قرطبة
أزور تلك وهذى غير مكترث
ولا أمر بوحشياً ولا بشر

إلى أن يقول:

يزجون عوداً ومزمراً وطنبورا
فعل يظل به إبليس مسرورا
حتى يخون حتى يشهد الزورا

وأحضر الشرب أعروهم بأبادة
فلا أفارقهم حتى يكون لهم
وأصرف العدل – ختلاً – عن أمانته،

إلى آخر القصيدة.

ومما ذكره ذلك الجنى لابن القارح قوله: «ولسنا مثلكم يا بني آدم يغلب علينا النسيان والرطوبة لأنكم من حماً مسنون وخلقنا من مارج من نار».«
وقوله: «وهل يعرف البشر من النظيم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة

الأرض، وإنما لهم خمسة عشر جنساً من الموزون قلًّا ما يعودها القائلون، وإن لنا
لألاف أوزان ما سمع بها إنس».«
وقوله: «ولا بد لأحدنا أن يكون عارفاً بجميع الألسن الإنسية ولنا بعد ذلك لسان
لا يعرفه الأنبياء».«
وقد قص الجن على ابن القارح – في قصيدة أخرى – شيئاً كثيراً مما ينسبه
الناس إلى الجن، فمن ذلك قوله:

من بيتهما عن سوء ظن حديث
وأقبل نصيحاً لم يكن بالدسيس»
عاد من الوجد بجد تعيس
ثغراً كدر في مدام غريس

ونخرج الحسناً مطرودة
نقول: «لا تقنع بتطليقها
حتى إذا صارت إلى غيره
نذكره منها – وقد زوجت –

وفي هذه القصيدة يقول:

ونفترى جن سليمان كي
صير في قارورة رصصت

يعني بذلك أنهم يجوبون أنحاء البلاد باحثين عن إخوانهم من عصاة الجن
الغايين الذين سجنهم النبي الله سليمان في قوارير أحكم سدادها بالرصاص حتى لا
يجدوا سبيلاً إلى الفرار، فلم يبق منهم ذلك الحبس الطويل إلا الرمق.
وقد أشرنا – في رسالة الغفران – إلى ذلك إشارة موجزة لا بأس من إثباتها هنا
لفائدة القراء:

أساطير الجن وسليمان النبي

شاعت أخبار سليمان والجن، وانتشرت – منذ أقدم أزمنة التاريخ – فنسب إليه من
الخوارق القدرة المطلقة على تسخير الجن ومعرفة لغاتهم المختلفة، ونسب إلى خاتمه
– المشهور بما عليه من النتش – معجزات لا تحصى، كما عزي إلى بساطه قدرة
خارقة على الطيران بما يحمله في الجو بسرعة لا يكاد يتصورها العقل.
وقد كادت تجمع تلك الأخبار على عدة أمور أنضجها الخيال ونسقها التواتر،

فمن ذلك أن سليمان النبي كان يهيمن على الجان ويطلب منهم خدمات شتى تتفاوت صعوبة ويسراً، وقد يعن له أمر هام لا يستطيع إنفاذه إلا جني بعينه يكون مشهوراً بقدره الخارقة، فيرسل إليه، فإذا لبى دعوته فذاك، وإن كل به أو ختم جبهته بالنقش – الذي على خاتمه – فأحرقه تواً، أو سجنه في قارورة مرصصة أو قمّق من النحاس، وربما سجنه في عمود طويل من الصخر بعد أن أوثقه بالسلاسل والأغلال وختمه بخاتمه.

ولقد اشتهر وزير الحكيم آصف بن بريخيا بمساعداته القيمة لسليمان على إذلال الجن وإخضاعهم لأوامره.

وقد ذاع من تلك الأساطير – بين العامة والخاصة – شيء كثير، وافتنت الناس في روایاتها بأساليب شتى وطرق متباعدة، ولهذه الأساطير مصادر عدّة – نخص بالذكر منها – عدا روایات وأقاوصيص رواة العرب – مصدرين رئيسيين ندعهما من أخصب المصادر وأغناها وهما «أساطير ألف ليلة وألف يوم» وأسطورة «سيف بن ذي يزن». (٩) ومن الأشجار التي كان يعظمها العرب في الجاهلية شجرة «ذات أنواط» وفيها يقول بعض الشعراء:

لنا المهيمن يكفينا أعادينا كما رفضنا إليه «ذات أنواط»

وفي هذه الشجرة يقول أبو العلاء في لزومياته:

والحظ يدرك أقواماً فيرفعهم
وشرفت «ذات أنواط» قبائلها
وقد ينال إلى أن يعبد الحجرا
ولم تباين – على علاتها – الشجرا

وفي هذين البيتين أيضًا إشارة إلى ما ذكره «دوзи» من عبادة العرب للحجر.
(١٠) الجمال الصغيرة، قال الشاعر:

لا أمنع العوذ بالفصال، ولا أبتاع إلا قريبة الأجل

(١١) قال (تعالى): ﴿وَجَعَلُوا اللَّهَ مِمَّا ذَرَّا مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا اللَّهُ بِرَّعْمِهِمْ وَهَذَا لِشَرِكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشَرِكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُّ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ اللَّهُ فَهُوَ يَصِلُّ إِلَى شَرِكَائِهِمْ فَمَا يَحْكُمُونَ﴾.

(١٢) وما جاء في القرآن الكريم قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةَ نَسِبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةَ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، و قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ اللَّهَ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ و قوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا ثَمَّ أَشَهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُّكْتُبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسَلَّوْنَ * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدَنَا هُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

(١٣) ينص القرآن على أن العرب لم يعبدوا الأصنام لذاتها — كما يتوهם بعض الناس — وقد ذكر «عبد الله بن عباس» في تفسير قوله (تعالى): ﴿وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ الْهَتَّكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وَدًا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوْقَ وَنَسَرًا﴾ إن هذه الأسماء التي أطلقواها على أوثانهم ليست إلا أسماء قوم صالحين، ماتوا، فقالت عشائرهم: لو أَنَّ صورناهم ليكون في ذلك تذكير لنا، وتنشيط على العبادة، وحسن الاقتداء بهم، فصوروهم حتى إذا تطاول بهم الأمد عبدهم. (المترجم)

(١٤) سميت كذلك لأنها تُرى من بعيد على شكل مكعب منتظم الأضلاع. «دوزي» ملاءة.

(١٥) قال ابن الكلبي: «كان لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وكان أعظمها هبل». (المترجم)

(١٦) روى ابن الكلبي: «إنه كان من عقيق أحمر، على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يدًا من الذهب». (المترجم)

(١٧) قالوا: وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة وكان يقال له هبل خزيمة. (المترجم)

(١٨) روى ابن الكلبي في كتابه الأصنام: «أنه لما سكن إسماعيل بن إبراهيم (عليه السلام) مكة، ولد له بها أولاد كثيرون حتى ملئوا مكة، وتنفوا من كان بها من العمالق، وضاقت عليهم مكة، ووقعت بينهم الحروب والعداوات، وأخرج بعضهم بعضاً، فتقسحوا في الأرض التماس المعاش».

قال: «وكان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للكعبة وصيانته وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطواوفهم بالكببة، تيمناً منهم بها، وصيابة بالحرم وحجاً له، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتمار». (المترجم)

(٢٠) قالوا: «إن أول من أدخل عبادة الأصنام هو عمرو بن لحي، وإنه أول من غَيَّر دين إسماعيل ونصب الأوثان، وقد جاء في كتاب الأصنام أن السبب في ذلك أنه مرض مرضًا شديداً، فقيل له: إن البلقاء من الشام «حمة» إن أتيتها برأت، فأتتها فاستحم بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: «ما هذه؟» فقالوا: «نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو». فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة». (المترجم)

(٢١) هو أبو رجاء العطاردي تجد ترجمته في كتاب ابن قتيبة ص ١١٩ وفي مسند الدارمي ص ٣٦٤. «دوزي»

(٢٢) هذا هو حال أغلب الناس – على اختلاف أديانهم وأزمانهم – وليس أبلغ في أداء هذا المعنى من قوله (تعالى): ﴿وَإِذَا مَسَ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنِّهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرُّهُ مَرَّ كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ وفي ذلك يقول ابن دريد في مقصورته الرائعة:

نحن – ولا كفران لله – كما قد قيل للسارب أخلي فارتوى
إذا أحس نبأة ريح، وإن تطامنتْ عنه، تمادي ولها

(٢٣) كان للنعجة قيمة كبيرة عند العرب، لأنهم كانوا ينتفعون بلبنيها وصوفها ولحمها، وما أجمل قول أحد العرب يهدد زوجته متهدّماً:

غضبت علي لأن شربت بصوف ولئن غضبت لأشربن بخروف
كوماء مالئة الإناء سحوف ولئن غضبت لأشربن بنعجة

(٢٤) كان «ذو الخلصة» – فيما يقول ابن الكلبي – مروء بيضاء، منقوشاً عليها كهيئة الناج، وكانت «بتبالة» بين مكة واليمن، على مسيرة سبع ليال من مكة، وكان سدنتهما بنو أمامة من باهلة بن أعصر وكانت تعظمها وتهدي لها «خثعم» و«بجيلة» و«أزد الشراه» ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن ومن كان ببلادهم من العرب «بتبالة»، قال: وكانت العرب جمِيعاً تعظمها. (المترجم)

(٢٥) قالوا: إن امرأ القيس بن حجر، لما أقبل يرید الغارة على بني أسد من بذني الخلصة – وكانت له ثلاثة أقداح «الامر والناهي والمتربي» – فاستقسم عنده ثلاثة

مرات، فخرج الناهي، فكسر القداح، وضرب بها في وجه الصنم، وقال هذه الجملة، ونُرُوى — في رواية أخرى — بأشنع من ذلك.

قالوا: فكان امرؤ القيس أول من أخفره، ثم غزابني أسد فظفر بهم! وفي رواية أخرى أن رجلاً كان أبوه قد قتل، فأراد الطلب بثاره، فأتى ذا الخلاصة، فاستقسم عنده بالأزلام، فخرج السهم ينهاه عن ذلك، فقال:

لو كنت يا «ذا الخلاصة» الموتورا مثلي، وكان شيخ المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

(٢٦) قال ابن الكلبي: «وكان مالك وملكان ابني كنانة، بساحل جدة، وتلك الناحية، صنم يقال له سعدوكان صخرة طولية، فأقبل رجل منهم بإبل له ليقفها عليه يتبرك بذلك فيها، فلما أدنها منه نفرت منه — وكان يهراق عليه الدماء — فذهبت في كل وجه وتفرق她 عليه، وأسف فتناول حجراً، فرماه به، وقال: «لا بارك الله فيك إلهًا أنفرت على إبلي.» ثم خرج في طلبها وانصرف وهو يقول (الأبيات).

(٢٧) هو الاسم الذي كانوا يطلقونه على ذبائح الغنم التي يذبحونها عند أصنامهم.
(٢٨) يعرف تشريد اليهود ونفيهم عند المؤرخين باسم جلاء بابل! فقد تولى «بختنصر» في عام (٦٠٦ق.م.) وأجل اليهود عن بيت المقدس، وضربه وأخذ آناته الثمينة، وقد مكث مخرباً نحو مئة عام، وشرد اليهود كل مشرد، وذهب فريق منهم أسرى إلى بابل وببلاد «مادي». وفي عام (٢١ب.م.) جاء «طبيطوس» فنكب اليهود مرة أخرى وهدم بيت المقدس وشتت شملهم، وحرم عليهم الإقامة في فلسطين وقد كتب «يوسيفوس» المؤرخ كتابه عن اليهود، وما حدث لهم في تلك الموقعة. (المترجم)

(٢٩) الصدوقيون

فرقة من اليهود ظهرت في وقت العهد الجديد، وهي تنسب — في رأي بعض المؤرخين — إلى «صدقيا» وهو من أسرة أرستقراطية، من أخبار بيت المقدس في زمن سليمان (عليه السلام)، وفي رأي آخرين أنهم منسوبون إلى الكلمة العربية التي معناها «الحق» وهي قريبة الحروف من الكلمة العربية، وأهم مميزات الصدوقيين هي: أنهم كانوا حزب الأرستقراطية، وأنهم كانوا لا يعتنقون بغير التوراة المكتوبة، ويرفضون كل ما عداها مما زيد عليها من الأحاديث الشفوية المروية عن موسى (عليه السلام) كما كانوا يرفضون كل ما أضيف إليها من التفاسير والشروح، التي أدخلها فيها النساخ.

ولهذا رفض الصدوقيون الإيمان بأهم الأسس التي بنيت عليها الديانة اليهودية، فلم يؤمنوا بالبعث، ولم يقبلوا فكرة الخلود، ولا فكرة الجزاء في الدار الآخرة، وكانوا — إلى ذلك — ينكرون الملائكة ويجحدون الأرواح، ويقررون — تقرير الجازم المستيقن — أن الإنسان مخير — بأوسع ما تحويه هذه الكلمة من معانٍ — وأنه متمنٍ بحرية الإرادة في كل ما يفعله من خير أو شر، وأن سعادته وشقاوته — على هذا — ثمرة غرسه ونتائج عمله.

ويرى بعض المؤرخين أن الصدوقيين، لم ينكروا وجود الملائكة والشياطين، كما يتبارى إلى الذهن من أقوالهم، وأن هذا الوهم سببه عدم تحري الدقة في فهم عبارتهم التي التبس على الكثيرين فهمها، وإنما أنكر الصدوقيون أن يكون للملائكة والشياطين دخل في أعمال الإنسان، فعبارة إنكارهم الملائكة والشياطين يجب أن يفهمها المؤرخ بعد أن يتعرف المناسبة التي قيلت فيها والقرينة التي اقتربت بها.

ولقد كان ينقص الصدوقيين حرارة الإيمان وقوه العقيدة اللتان امتاز بهما الفريسيون الذين كانوا يعتقدون آمالهم على الدار الآخرة، وما يتوقعونه فيها من الجزاء، فلم يحفلوا بالاعتبارات الدينية، على أن الإنصاف يقضي علينا أن نقرر أن ذلك لم يكن إلا في ظاهر معتقداتهم، وأنهم قد تاجروا بهذه المبادئ، واتخذوها وسيلة إلى المداهنة والرياء، حتى أصبح خصومهم يطلقون من اسمهم هذا — على سبيل المجاز — صفة لكل من ينافق أو يُعنى بظاهر اللفظ ويستغنى بالقشور عن اللباب، ويفضل المصطلحات والمظاهر، على جوهر الحقيقة الخالصة المقصودة لذاتها.

وكان سقوط الدولة اليهودية مصحوباً بالقضاء على الصدوقيين وقد ورد ذكرهم في «التلمود» ولكن عبارة «التلمود» غامضة لا يسهل اجتلاوها لمن يريد تعرف الحقيقة. وقد قسم ابن «حزم» — في كتاب الملل والنحل — اليهود إلى خمس فرق، وهي:

(١) السامرية: وهو يقولون إن مدينة القدس هي نابلس — وهي من بيت المقدس على ثمانية عشر ميلاً — ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه، ولهم توراة غير التي بأيدي سائر اليهود، ويبطلون كل نبوة كانت فيبني إسرائيل بعد موسى (عليه السلام) وبعد يوشع (عليه السلام)، فيكذبون بنبوة «شمعون وداود وسلامان وأشعيا واليشع وإلياس وعاموس وحبيق وذكرييا وأرميا» وغيرهم، ولا يقررون بالبعث البتة، وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنها.

(٢) الصدقية: وينسبون إلى رجل يقال له «صدق» وهم يقولون من بين سائر اليهود إن العزيز هو ابن الله — تعالى الله عن ذلك — وكانوا بجهة اليمن.

(٣) والعناية: وهم أصحاب عاتان الداودي اليهودي، وتسميهم اليهود العراس والمس، وقولهم إنهم لا يتعدون شرائع التوراة وما جاء في كتب الأنبياء، ويتباهون من قول الأخبار ويذكرونها، وهذه الفرق بالعراق ومصر والشام، وهم من الأندلس بطليطلة وطليبرة.

(٤) والربانية: وهم الأشعنية، وهم القائلون بأقوال الأخبار ومذاهبهم وهم جمهور اليهود.

(٥) والعيساوية: وهم أصحاب أبي عيسى الأصبهاني — رجل من اليهود كان بأصبهان — وبلغني أن اسمه كان محمد بن عيسى وهم يقولون بنبوة عيسى ابن مريم و محمد صلوات الله عليه.

ويقولون إن عيسى بعثه الله (عز وجل) إلى بني إسرائيل — على ما جاء في الإنجيل — وأنه أحد أنبياء بني إسرائيل، ويقولون إن محمدًا صلوات الله عليه نبي أرسله الله (تعالى) بشرائع القرآن إلى بني إسماعيل عليهم السلام، وإلى سائر العرب كما كان «أيوب» نبياً في بني عيسى، وكما كان «بلعام» نبياً في بني «مواب» بإقرار من جميع فرق اليهود. (المترجم)

(٣٠) قال أبو العلاء في رسالة الغفران: وبعض العلماء يقول: «إن سادات قريش كانوا زنادقة»، وما أجرهم بذلك، وفي ذلك يقول شاعرهم:

فحيوا أم بكر بالسلام
من الأحساب والقوم الكرام
على الكأس بعد أخي هشام
من الأقرام شراب المدام
بأنني تارك شهر الصيام
فقد شبع الأنفيس من الطعام
وكيف حياة أصداء وهام؟
وتحييني إذا بليت عظامي؟

ألمت بالتحية أم بكر
وكائن بالطوي — طوي بدر —
ألا يا أم بكر لا تكري
وبعد أخي أبيه وكان قرماً
ألا من مبلغ الرحمن عنني
إذا ما الرأس زايل منكبيه
أيوعدنا «ابن كبشه» أن سنجها
أتترك أن ترد الموت عنني

«ولا يدعى مثل هذه الدعاوى إلا من يستبسل وراءها للحمام، ولا يأسف له إلا عند إللام». اهـ. (المترجم)

(٣١) يذهب الأستاذ سبرنجر إلى أن كلمة «حنيف» معناها في الأصل ملحد أو كافر، وعندى أن في هذا التفسير إسراًًاً وغالباً لا يقبلها باحث، وليس يتسع المقام لإظهار حقيقة الحنيفية والحنفاء التي سأبینها في بعض الفصول الأخيرة من هذا الكتاب، فلأكتف الآن بإحالة القارئ على ما كتبته في أوائل هذا الفصل. «دوزي»

الحنيفية

اختالف الناس في تفسير هذه الكلمة واضطرب الشراح في معانيها اضطراباً شديداً، بلغت مسافة الخلف فيه من النقيض، ولهم العذر في ذلك فقد تطورت معاني هذه الكلمة – بمرور الزمن – فكان هذا التطور سبب الحيرة والشك اللذين وقع فيهما أكثر المفسرين، وقد ذكر صاحب «لسان العرب» وغيره معاني مختلفة لهذه الكلمة لا تربطها صلة، وليس هنا مجال التوسيع في سرد ما قالوه، وكتبوه في ذلك، فلنختزل بشرح معناها الذي نفهمه بإيجاز، وهو فهم يلائم بين تلك الآراء كلها: «كلمة الحنيف أصل معناها المائل عن الطريق المعبد السوي الذي ألفه سواد الناس إلى طريق آخر، وهذا هو ما فعله إبراهيم عليه السلام، فقد خالف ما كان عليه قومه من الشرك والوثنية، ومال عن سنتهم إلى طريق التوحيد، فأطلق عليه قومه اسم «الحنيف» ثم خلفه من بعده من أبنائه فاتبعوه في حنيفيته ولكن مذهب إبراهيم وشريعته دخلها كثير من الضلالات والأوهام والبدع، ومن ثم تبادر أتباعه في نحلهم وعقائدهم، فوجد منهم المؤمن الحق والشرك والوثني، ولكن كلاً منهم احتفظ لنفسه باسم الحنيفية، وأطلقوا على أنفسهم لفظة الحنفاء، فلما جاء الإسلام وجد لفظة الحنيفية في حاجة إلى تحديد، فلم يكتف بوصف إبراهيم (عليه السلام) بالحنيفية، بل احترس، فقال عنه إنه كان حنيفاً مسلماً».

ولعل خير ما تختتم به هذه الكلمة هو قول الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسير الآية: **﴿قُلْ بْلِ مَلَّةٍ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**.

وإليك ما قال: «قال بعض المشتغلين بالعربية من الإفرنج: إن الحنيفية هي ما كان عليه العرب من الشرك، واحتجوا على ذلك بقول بعض النصارى: في زمن الجاهليّة: «إن فعلت هذا أكون حنيفًا». وإنها لفلسفة جاءت من الجهل باللغة، وقد نظرت بعض علماء الإفرنج في هذا، فلم يجد ما يحتج به إلا عبارة ذلك النصراني، وهو الآن يجمع كل ما نقل عن العرب من هذه المادة لينظر كيف كانوا يستعملونها، ولا دليل في كلمة

النصراني العربي على أن الكلمة تدل — لغة — على الشرك، وإنما مراده بكلمته، البراءة من دين العرب مطلقاً، وذلك أن بعض العرب كانوا يسمون أنفسهم الحنفاء أيضاً، والسبب في هذه التسمية هو الدعوى أن سلفهم كانوا على ملة إبراهيم حقيقة، ثم طرأت عليهم الوثنية فأخذتهم عن عقيدتهم وأنستهم أحكام ملتهم وأعمالها، فنسوا بعضها بالمرة، وخرجوا ببعض آخر عن أصله، ووصفه كالحج.
ونفي الشرك عن إبراهيم — في آخر الآية — احتراس من وهم الواهمين وتكذيب
لدعوى المدعين.» ا.ه. (المترجم)

بعد وفاة النبي

(١) لهذه الحادثة التي أقنع بها مسيلمة سجاحاً بنبوته قصة طريفة يعرفها أكثر القراء ولا حاجة لذكرها في هذا المقام. (المترجم)

(٢) قال له عمر: أليس قد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله!»
فقال له أبو بكر: ألم يقل «إلا بحقها»؟ وهذه الزكاة من حقها، والله لا أفرق بين الصلاة والزكاة، وقد جمع الله بينهما، والله لو منعوني عقال بعير — كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ — لقاتلتهم عليه.» (المترجم)

(٣) وفي هذا يقول عمرو بن معد يكرب:

نُعطى السوية في طعن له نفذ ولا سوية إذ تُعطى الدنانيـر

(المترجم)

(٤) وفي ذلك يقول الكميت:

يحلئن من ماء الفرات وظله حسيناً ولم يشهر عليهم منصل

كأنَّ حسيناً والبهاليل حوله لأسيافهم ما يختلي المتبل!

المترجم

(٥) ارجع إلى «مصرع الوليد» في كتابنا «مصارع الخلفاء». (المترجم)

قواعد الإسلام

(١) عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: «بيتمنا نحن عند رسول الله ﷺ — ذات يوم — إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه مناً أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأنسد ركبته إلى ركبته، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتوتّي الزكاة، [وتصوم رمضان] وتحجج البيت إن استطعت إليه سبيلاً». قال: «صحت».»

قال: «فعجبنا منه يسأله ويصدقه.»

قال: «فأخبرني عن الإيمان.»

قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.»

قال: «صحت.»

قال: «فأخبرني عن الإحسان.»

قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.»

قال: «فأخبرني عن الساعة.»

قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل.»

قال: «فأخبرني عن أماراتها.»

قال: «أن تلد الأمة ربها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان، في خمس لا يعلمون إلا الله، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْضِ﴾.»

ثم أذبر، فقال «ردوه». فلم يروا شيئاً، فقال: «هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم». أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

وفي بعض روایات الحديث: «بِينَما نَحْنُ ذَاتِ يَوْمٍ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدٌ بِيَابِضِ الثِّيَابِ شَدِيدٌ سَوَادِ الشِّعْرِ، لَا يَرَى عَلَيْهِ أَثْرَ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرَفُهُ مَنَا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَسْنَدَ رَكْبَتِيهِ إِلَى رَكْبَتِيهِ، وَوَضَعَ كَفَيهِ عَلَى فَخْذِيهِ، فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ أَنْ تَؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَبِلِقَاءِ رَوْسَلِهِ، وَتَؤْمِنَ بِالْبَعْثَ، قَالَ: مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ، وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتَؤْدِيَ الزَّكَاةَ الْمُفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحْجُجَ الْبَيْتَ إِنْ أَسْتَطَعْتُ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَرَهُ فَإِنَّهُ يَرَاكُ، قَالَ: مَتَى السَّاعَةِ؟ قَالَ: مَا الْمَسْؤُلُ عَنْهَا بِأَعْلَمِ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأَخْبُرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا، إِذَا وَلَدَتِ الْأُمَّةُ بِرَبِّهَا، وَإِذَا تَطَوَّلَ رِعَاةُ الْإِبْلِ الْبَهْمَ في الْبَنِيَانِ فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ... ثُمَّ انْصَرَفَ الرَّجُلُ، فَقَالَ: رَدُوهُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُوا شَيْئًا، فَقَالَ: هَذَا جَبَرِيلُ جَاءُ لِيَعْلَمَ النَّاسَ دِينَهُمْ».

والمعنى أن جبريل (عليه السلام) جاء وتخطى الناس حتى انتهى إلى النبي (عليه السلام)، وجلس كهيئة المتعلم بين يدي من يتعلم منه تأدباً، أو فعل ذلك من باب المبالغة في تعمية أمره على الحاضرين حتى يظنوا أنه من جفاة الأعراب، ولذلك استغربوا منه أنه تخطى الناس، وأنه جاء ماشياً وليس عليه أثر السفر مع أنه ليس من أهل البلد، وقد نظر بعضهم إلى بعض حين رأوه فقالوا: «ما نعرف هذا» والمقصود من هذه القصة أن يسأل جبريل ويجيبه النبي (عليه الصلاة والسلام) ليتعلم الصحابة أموراً هي جملة الدين وجماعه، وذلك لأنه بدأ أولاً بسؤاله عن الإيمان، ومعلوم أن الإيمان هو التصديق بوجود الله (تعالى)، وأنه لا يجوز عليه العدم، وأنه موصوف بكل صفة من صفات الكمال من العلم والقدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر والحياة، منزه عن أضداد هذه الصفات، وعن الجسمانية والتحيز، وعن كل صفات النقص، وبأنه سبحانه واحد فرد حق صمد، وأنه خالق جميع المخلوقات يتصرف فيها بما شاء من التصرفات، يفعل في ملكه ما يريد ويحكم في خلقه ما يشاء، ثم التصديق بجميع الملائكة تفصيلاً بمن عرف تعين أسمائهم، وإنماً بمن لم يعرف اسمه، وكذلك التصديق بجميع الرسل تفصيلاً بمن علمنا اسمه، وإنماً بمن لم نعلمه، واعتقاد أنهم صادقون فيما

أخبروا به عن الله (تعالى)، وأنه أيدَّهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، وأنهم بلغوا عن الله ما أمروا بتبلیغه للخلق، وأنهم بینوا للمکلفین ما أمرهم ببيانه، نؤمن بهم جمیعاً ولا نفرق بين أحد منهم، ونصدق بقاء الله (تعالى) ورؤیته في الآخرة، وبالبعث، وبالقدر خیره وشره، هذا هو الإیمان فـالإیمان هو الاعتقاد بالباطن، والتصدیق الجازم بأصول الشريعة الإسلامية، وقواعد الشرع الشريف، فهو يتعلّق بأعمال القلب، أما الإسلام فهو الانقياد وامتثال الأعمال الظاهرة المتعلقة بالجوارح كالصلة بما فيها من خشوع القلب والجوارح وكـالزكاة والصيام والـحج، والـحـدـیـثـ قـد فـرـقـ بـینـ حـقـیـقـةـ الإـیـمـانـ وـالـإـسـلـامـ كـمـاـ فـرـقـتـ بـینـهـمـاـ الـآـیـةـ فـیـ قـوـلـهـ (ـتـعـالـىـ):ـ 『ـقـلـ لـمـ تـؤـمـنـواـ وـلـكـنـ قـوـلـواـ أـسـلـمـنـاـ』ـ عـلـىـ أـنـ الـإـسـلـامـ الـذـيـ هـوـ اـسـمـ لـلـأـعـقـادـ الـبـاطـنـةـ كـلـ مـنـهـمـاـ بـمـاـ يـتـنـاـوـلـهـ وـيـشـتـمـلـ عـلـيـهـ يـصـحـ أـنـ يـطـلـقـ عـلـيـهـ اـسـمـ الـآـخـرـ،ـ وـهـمـ مـعـاـ بـكـلـ مـاـ يـصـدـقـانـ عـلـيـهـ مـنـ أـعـمـالـ وـاعـقـادـ كـالـأـجـزـاءـ الـتـفـصـيـلـةـ الـتـيـ تـرـكـ مـنـهـاـ جـمـلـةـ الـدـيـنـ وـبـهـاـ يـكـونـ جـمـاعـهـ وـقـوـمـهـ،ـ وـلـهـاـ جـاءـ فـيـ الـحـدـیـثـ:ـ 『ـهـذـاـ جـبـرـیـلـ جـاءـ لـيـعـلـمـ النـاسـ دـینـهـمـ』ـ (ـوـالـإـحـسـانـ)ـ مـنـ أـحـسـنـتـ الـعـبـادـةـ إـذـاـ حـسـنـتـهـ وـكـمـلـتـهـ،ـ وـذـكـرـ أـنـ الـعـبـدـ إـذـاـ قـوـيـ إـیـمـانـهـ تـمـثـلـ دـائـمـاـ عـظـمـةـ الـمـوـلـىـ،ـ وـأـیـقـنـ أـنـ مـطـلـعـ عـلـيـهـ فـیـ كـلـ أـحـوـالـهـ شـهـیدـ عـلـىـ عـمـلـهـ فـیـ كـلـ وـقـتـ،ـ فـاـذـاـ هـمـ بـفـعـلـ مـعـصـيـةـ مـنـ الـمـعـاصـيـ عـلـىـ اـخـتـلـافـ أـنـوـاعـهـاـ،ـ عـلـمـ أـنـ اللهـ يـرـاهـ عـلـىـ أـيـ حـالـةـ اـرـتـكـبـ فـیـهـاـ الـمـعـصـيـةـ وـأـنـ يـعـلـمـ خـانـثـةـ الـأـعـيـنـ وـمـاـ تـخـفـيـ الـصـدـورـ،ـ فـيـكـفـ عـنـ الـمـعـصـيـةـ وـيـرـجـعـ عـنـهـ لـقـيـامـ الـدـلـیـلـ الـبـیـقـیـنـیـ الـذـیـ يـجـعـلـهـ يـحـسـ فـیـ قـرـارـةـ نـفـسـهـ أـنـ اللهـ (ـتـعـالـىـ)ـ مـوـجـودـ حـقـ وـأـنـ نـاظـرـ إـلـيـهـ فـیـ كـلـ عـمـلـهـ وـفـیـ كـلـ مـاـ يـصـدـرـ مـنـ حـرـکـةـ أـوـ سـکـونـ،ـ فـیـحـوـلـ عـلـمـهـ بـذـكـرـ بـینـهـ وـبـینـ جـمـیـعـ الـمـنـکـرـاتـ،ـ وـكـذـكـ لـاـ يـسـتـطـیـعـ أـنـ يـتـرـکـ الـعـبـادـاتـ الـوـاجـبـةـ عـلـيـهـ تـهـاـوـنـاـ بـهـاـ فـیـنـ المـضـيـعـینـ لـلـفـرـائـضـ إـنـمـاـ ضـیـعـهـاـ لـجـهـلـهـ بـمـقـامـ الـأـلـوـهـیـةـ وـعـدـمـ مـعـرـفـتـهـ بـقـدـرـ الـأـمـرـ وـقـدـرـ الـأـمـرـ،ـ وـجـدـهـمـ وـعـدـمـ إـقـرـارـهـ بـالـرـبـوـبـیـةـ،ـ وـلـذـكـ يـقـولـ الـحـدـیـثـ:ـ 『ـأـنـ تـبـعـدـ اللهـ كـأـنـكـ تـرـاهـ،ـ فـیـنـ لـمـ تـرـهـ فـیـنـ يـرـاهـ』ـ أـيـ تـبـعـدـ عـبـادـةـ مـنـ يـرـىـ اللهـ (ـتـعـالـىـ)ـ وـيـرـاهـ اللهـ (ـتـعـالـىـ)ـ،ـ وـمـنـ هـذـهـ حـالـهـ وـتـلـكـ صـفـتـهـ مـاـ دـامـ فـیـ عـبـادـتـهـ لـاـ يـتـرـکـ شـیـئـاـ مـنـ الـخـضـوعـ وـالـإـلـاـخـاصـ وـحـفـظـ الـقـلـبـ وـالـجـوـارـحـ وـمـرـاعـةـ الـآـدـابـ إـلـاـ فـعـلـهـ،ـ وـفـیـ الـحـدـیـثـ أـیـضـاـ إـیـمـانـ بـالـغـیـبـ،ـ وـبـالـیـومـ الـآـخـرـ،ـ وـالـسـؤـالـ عـنـ السـاعـةـ،ـ وـبـیـانـ شـیـءـ مـنـ أـشـرـاطـهـ وـعـلـامـهـاـ،ـ فـأـصـبـحـ هـذـاـ الـحـدـیـثــ بـمـاـ اـشـتـمـلـ عـلـيـهــ كـالـجـامـعـ لـعـلـومـ الـشـرـیـعـةـ كـلـهــ (ـالـمـرـجـمـ)ـ

(٢) لا يفوتنا أن نذكر القارئ بأن القرآن هو كلام الله وأنه جعل الجواب على

لسان نبیه محمد ﷺ. «دوزی»

- (٣) ارجع إلى كتاب «دوزي» «تاريخ المسلمين في إسبانيا» (ج ٢ ص ١٠٩).
(٤) من المعروف عن «بورنوف» الذي يسلم كثير من الفارسيين إلى اليوم بصحبة قوله: «إن بودا مات سنة ٥٤٤ قبل الميلاد». «دوزي»
(٥) هذا ما قاله المسعودي في مذكرة عن الهند ص ٩٠. «دوزي»
(٦) ارجع إلى رسالة الغفران (ج ٢). (المترجم)
(٧) لا تنس أنه لا يزال إلى اليوم في التبيت يدعونه إلها في شكل إنسان. «دوزي»
(٨) هذا المثال عظيم الخطر لأنه أقدم مثال نستدل به على أصل هذه الفكرة، وما أجره بأن يضاف إلى المجموعة الفنية التي جمعها «سدين شنيدر»، ولو اطلع «هوج» على كتاب «شنيدر» لأمن الوقوع فيما وقع فيه من الخطأ حين تصدّى لتفسير هذا الرمز العددي، فقد نسب هذا الرقم — حين عرض للكلام عنه — إلى مضاعفات العدد (٦) وعلل ذلك بأن رقم ستة يدل على عدد الأيام التي تم فيها خلق العالم.
(٩) قال أبو العلاء المعري في نشأة المذاهب:

نحل غدت ملأً فكل شريعة تبدي — لمضرر غيرها — إكفارها

المترجم